

تنبيه العقول إلى كنوز ثلاثة الأصول

تأليف/

د. عبدالرحمن بن سليمان الشمسان

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

فإن التوحيد هو المرتكز الأساس لدين المسلم فلا يصح الدين إلا به، فبه بدأ الرسل دعوتهم. بل نذروا حياتهم واسترخصوا أنفسهم وأموالهم لأجله.

ولأهميته كتب العلماء الربانيون فيه المؤلفات الكثيرة ومن هذه المؤلفات ذلك الكتاب المانع النافع «كتاب ثلاثة الأصول».

وهذا الكتاب من أعجب ما رأيت مما قد سطرته يراعُ عالم من حيث الشمول وسهولة العبارة ووفائها بالمقصود وربط كل شيء بدليله مع اعتناؤه بالتربية الجادة والتأصيل العلمي مما جعل أهل العلم يعتنون به عناية خاصة، تعليماً وحثاً على تعلمه،

ووصية بطباعته وتوزيعه، ومن ذلك:

ما قاله الشيخ عبدالله العنقري حاثاً على تعلمه: «واحرصوا على تعلم ثلاثة الأصول، فإن الذي ما يعرف دينه من جنس البهائم»^(١).

وكان الشيخ محمد بن إبراهيم «يدرس بعد شروق الشمس كتاب التوحيد وكشف الشبهات وثلاثة الأصول والعقيدة الواسطية باستمرار»^(٢).

ووصى الشيخ علي بن محمد المطلق بعد موته بعشرة آلاف مصحف، وعشرة آلاف نسخة من ثلاثة الأصول توزع على المسلمين^(٣).

أما الشيخ ابن باز فدرس ثلاثة الأصول مائة مرة يوم أن كان قاضياً في الدلم. لذا رأيت أن أكتب عليه شرحاً متوسطاً يبين معانيه ويوضح شيئاً من مرامييه، سائراً على طريقة المؤلف من حيث التأصيل، ومخاطبة القلوب، والبعد عن الردود والمناقشات، وسميته:

«تنبيه العقول إلى كنوز ثلاثة الأصول».

فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله.

وكتبه

عبدالرحمن بن سليمان الشمسان

٠٥٥٤٣٨٠٨٨٨

(١) «الدرر السنية» (١٤ / ٣٤٤).

(٢) مقدمة «مجموع فتاوى» محمد بن إبراهيم (١ / ١٢) للشيخ ابن قاسم.

(٣) «علماء آل سليم» (٤١٢).

دراسة الكتاب

دراسة أي كتاب هي المفتاح الصحيح لفهمه ومعرفة مراميه ومراد مؤلفه منه ولأجل ذلك بدأت بدراسة الكتاب وجعلت الدراسة في فقرات هي:

١ - بدأ المؤلف رحمته كتابه بالتربية وذلك بذكر مقومات الشخصية الإسلامية التي هي (العلم) لكي ينفي الجهل عن نفسه - وفرق بين المتعلم والجاهل - ثم (العمل به): لأن من تعلم ولم يعمل بعلمه لا قيمة لعلمه عند الله بل ولا عند الناس، فيعاقبه الله، ويسخر منه الناس، وبعد أن يكمل نفسه لا بد أن تكون نفسه ذات همة عالية تصبو إلى تكميل الآخرين وذلك (بالدعوة إلى الله) كي يصلح المجتمع كله.

ولا بد لمن دعا إلى الله أن يصيبه الأذى، وهذه سنة جارية على الرسل وأتباعهم. فلا ينحدر من أول الطريق فيتوقع على نفسه. ويسكت أو يتنازل عن شيء من دينه، ولكن عليه (أن يصبر على ما يصيبه من أذى) ليحصل له تبليغ الدعوة وينال ويظفر بالأجر من الله والرفعة عنده تعالى وتقدس.

وأدلة هذه المسائل الأربع كثيرة جداً، ولعلّ اختياره الاستدلال بسورة العصر:

لأن الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يفرقوا حتى يقرؤوها.

ولأنها جمعت هذه المسائل الأربع في موضع واحد. فيتذكرها المتعلم ويعلم ترابطها فلا ينسى منها شيئاً. لذا فهي ترسم منهج حياة متكامل. كما قال ذلك الإمام الشافعي رحمته.

٢ - أن المنهج الصحيح والطريق الوحيد الذي يجب أن يلتزمه الإنسان هو منهج الرسل وهو التوحيد، فمن تمسك به أفلح ونجا ومن حاد عنه خاب وخسر «أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً بل أرسل إلينا رسولاً فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار».

ومن حسن طرحه للمنهج ربطه بإياه بالثمرة حتى تتحرك الهمة وتعلو فقال: «فمن أطاعه دخل الجنة...»

٣- أوضح ﷺ المنهج المنحرف والمخالف الذي لا يرضاه الله تبارك وتعالى وهو منهج إبليس وفرعون وأتباعهم، وهو الكفر والشرك والضلال والانحراف. وأنه مناقض للطريق الذي قبله فلا يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك الأكبر في قلب عبد أبداً، فمن أشرك فقد ناقض الفطرة وصارت حياته وبالاً عليه.

فاحذر أن تكون من أهله فتخسر الدنيا والآخرة ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

٤- حتى يسلم لك توحيدك وتثبت على منهجك السليم وتسلم من الانزلاق في مهاوي الردى عليك أن تتمسك بالسياج الواقعي من الوقوع في الشرك وهو البراءة من الكفار فتبغض أعداء الله وتعاديهم مستشعراً أنك في حد وجانب وحزب وهم في حد وجانب وحزب.

قال ابن القيم بعد وصفه للشرك الأكبر: «وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده»^(١).

٥- لما كان الاستمرار على الطريق ومعاداة أعداء الله لأجل الله وإظهار ذلك لهم من أعسر ما يواجه المسلم كان لا بُدَّ من إبراز القدوة، وأبرز القدوات هو خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وذلك لأنه اجتمع فيه من المقومات ما لم يجتمع في غيره.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

فاستشعار المسلم بأن هناك من سبقه إلى هذا الدين وثبت عليه وصبر وصابر فنصره الله وأعزه وجعل العاقبة له، فلم يضره كيد الكائدين ولا حسد الحاسدين، يوجب له قوة التمسك بالدين والعزة به وإن خالفه من خالفه، وعاداه من عاداه.

٦- لما كانت هذه المقدمات الثلاث تعطي تصورًا عامًا ينتج مثقفًا فقط قد لا يستقيم على المنهج الصحيح تأخذه الأفكار يمينة ويسرة مذبذبًا. تارة مع هؤلاء وأخرى مع أولئك على حد قول الشاعر:

يومًا يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت مَعَدِّيًّا فعَدَناني

أتبعها المؤلف بأهمية التأصيل الذي به ترسخ قدم المؤمن بالإيمان ويسير على منهج سوي مستقيم فقال: (فإذا قيل لك ما الأصول الثلاثة؟)

فأسس بهذه الأصول الثلاثة بنيان دينك وثبت بها، لأنه لا بد لكل بنيان من أساس، فإذا ثبت الأساس ثبت البناء وإن لم يثبت الأساس انهار البناء.

وأساس دين الإسلام هو هذه الأصول الثلاثة: (من ربك - ما دينك - من نبيك).

الرب هو المعبود. واستدل بربوبيته على إلهيته وأنه المستحق للعبادة، والدين هو الذي به تزكو النفوس وتستقيم القلوب، فتثمر رضا الرب الكريم سبحانه، والرسول هو الوسيلة الذي بلغنا هذا الدين فليس لنا طريق غير طريقه ﷺ.

٧- أنواع العبادة جزء من الأصل الثاني [الدين] ومع ذلك قدمها المؤلف فجعلها ضمن الأصل الأول؛ لأن ذلك أدعى لإفراد الله بها كما ورد في المثل: «الطرق والحديد ساخن».

وذلك أنه لما بين لك من عظمة الله ما هزَّ جوانحك وحرك قلبك خوفًا منه ورجاءً لما عنده واستشعرت في قرارة قلبك أن من كانت هذه صفته فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ناسب أن يذكرها لك كي تبدأ بها مباشرة متوجهًا إلى ربك قاصدًا بها وجهه الكريم وحده.

٨- أشار إلى أهمية المفاصلة التامة الشعورية والجسدية بالهجرتين القلبية والبدنية:

أما القلبية: فقد أشار إليها عند قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥] حيث قال: (هجرها تركها والبراءة منها وأهلها).

وأما البدنية: فإنه عرفها بقوله: (والهجرة: هي الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام).

فبهاتين الهجرتين تستقيم على دينك وتثبت عليه وتنصر إخوانك المسلمين وتُقَوِّي شوكة الإسلام.

٩- تكفل الله بحفظ هذا الدين ولم يجعل بقاءه مربوطاً بأي شخص كان، مهما علت رتبته وارتفع مقامه وجاهه عند الله عز وجل.

وأعظم الناس رتبةً هو نبينا محمد ﷺ ومع ذلك توفي وبقي الدين غضاً طرياً كما أنزل.

فإذا لم يرتبط بقاء الدين برسول الله ﷺ الذي هو خير الخلق كلهم فعدم ارتباطه بغيره من باب أولى. ولقد جلى هذه الحقيقة أعلم هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ساعة موت النبي ﷺ فقال: «من كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت»^(١).

فالزم أيها الأخ المبارك السير مع قافلة الإيمان مستمسكاً بهذا الوحي المنزل موحدًا لربك كي تسعد دنياً وأخرى.

١٠- تتدرج النفوس الكبيرة في مراقبي الصعود طلباً للكمال، فما أن تبلغه حتى تغمرها الفرحة فتعصُّ عليه بالنواجذ.

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ١٤٥)، كتاب: «المغازي» / باب مرض النبي ﷺ ووفاته. رقم (٤٤٥٤).

وأعظم كمال وأكمله كمال الدين الذي ندين الله به ونتقرب به إليه.

ولما كان الدين شريعة رب العالمين تولى الله إكماله بنفسه ولم يدع لأحد مجالاً للزيادة فيه فقال سبحانه: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فإذا استقر كمال الدين في قلوبنا أوجب لنا الاكتفاء به وعدم قبول شيء من خارجه مع التزام اتباع النبي ﷺ في أفعاله وأقواله. وبهذا نسلم من الابتداع في الدين. ولما كانت هذه الحقيقة مستقرة في قلب عمر رضي الله عنه كتب ذلك التوجيه السديد للمسلمين عندما وجدوا الكتب في بلاد الفرس قائلاً: «اطرحوها في الماء، فإن يكن ما فيها هدى، فقد هدانا الله بأهدى منها، وإن يكن ضللاً، فقد كفانا الله شرها»^(١). ونعرف قدر توجيهات عمر رضي الله عنه إذا نظرنا إلى نشوء البدع والانحراف بعد ترجمة كتب اليونان.

١١ - حتى تستعد للمستقبل وتسارع إلى فعل الطاعات وترك المنهيات ذكرك بالنهاية التي تلاقيك وهي الموت فاحذر منه في كل لحظة، واحرص على التزود من الطاعات قبل النقلة، مستلهماً في ذلك توجيه المصطفى ﷺ: «أكثرُوا ذكرَ هاذم اللذات»؛ يعني: الموت^(٢).

(١) مقدمة ابن خلدون (٤٤٣).

(٢) أحمد (٢/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٥٣)، كتاب «الزهد» / باب ما جاء في ذكر الموت. رقم (٢٣٠٧)، وقال: حسن غريب، وفي الباب عن أبي سعيد، والنسائي ٤/ ٤، كتاب الجنائز، باب ذكر الموت، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢)، كتاب «الزهد» / باب ذكر الموت والاستعداد له. رقم (٤٢٥٨)، وقال الدارقطني: «والصحيح المرسل». «العلل» (٨/ ٣٩)، وصححه النووي. «الأذكار» (١٣٢)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٥/ ١٨١).

١٢- تنصرم الليالي والأيام وتنطوي الأعمار سريعاً لكن يا ترى ما هي محصلتها أهي حياة تنتهي بالموت ولا شيء بعد ذلك. فيستوي الصالحون والطالحون أم أن الحياة الأخرى مبنية على هذه الحياة فيكرم الطائعون ويعذب العاصون؟

لا شك أن الثمرة هناك في الدار الآخرة ولهذا قال المؤلف رحمه الله: (والناس إذا ماتوا يُبعثون وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم).

فمن وحد الله وأطاعه فليبشر بجنت ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ومن عصى الله وأشرك معه غيره فالويل له من نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

١٣- لا تقل المعوقات الداخلية - داخل المجتمع المسلم - خطورة عن المعوقات الخارجية في صد المسلم عن الاستمسك بدينه وإفراده ربه بطاعته ولذلك حذر منها المؤلف.

وإن شئت أن تدرك شيئاً من خطورتها فاقرأ ذلك الحوار الدائر بين المستكبرين والمستضعفين، وفي آخره جواب ملؤه الحسرة والندم والأسى تفوّه به أولئك المستضعفون كما ذكره الله بقوله: ﴿بَلْ مَكْرُ أَلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣]. ولما كانت تلك المعوقات كثيرة يصعب حصرها نبه على أكبرها وأعظمها أثراً وأشدّها خطراً فقال والطواغيت كثيرون ورؤوسهم خمسة. فاحذرهم أيها المسلم أن يفتنوك عن دينك وأنت لا تشعر.

١٤- ما أجمل هذا الختام حيث ختم رحمه الله بعلاج المعوقات النفسية والداخلية والخارجية فأورد قوله ﷺ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

فبالتوحيد يصح دينك ويقبل عملك وبالصلاة تصلح حالك فتنتهي عن الفحشاء والمنكر.

وبالجهاد باللسان مجاهدة المنافقين في الداخل بكشف باطلهم والرد على شبهاتهم.
وبالجهاد بالسنان مجاهدة الكافرين في الخارج بجميع أنواع الجهاد، طلبًا كان أو دفعًا.
وبهذين النوعين من الجهاد صدُّ للشُرور الداخلية والخارجية، وتحصينٌ للمجتمع من الفساد والانحراف.

بسم الله الرحمن الرحيم

بَدَأُ الْكِتَابَةَ بِالْبِسْمَةِ سَنَةً مَأْثُورَةٌ دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسَّيْنَةُ وَفَعَلَ السَّلَفُ الصَّالِحُ.

أَمَّا الْكِتَابُ: فَإِنَّ اللَّهَ افْتَتَحَ جَمِيعَ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِالْبِسْمَةِ.

وَأَمَّا السَّنَةُ: فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَبْدَأُ بِهَا مَكَاتِبَاتِهِ كَمَا فِي كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ حَيْثُ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»^(١)، وَالَّذِي يَظْهَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ سَنَةُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

وَقَدْ سَارَ عَلَى ذَلِكَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ كَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ^(٢)، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ^(٣)، وَأَبِي عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجِرَاحِ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ^(٤)، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ^(٥)، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٦)، وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٧)، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ^(٨)، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ^(٩)، وَغَيْرُهُمْ، وَلَمَّا سُئِلَ الْحَسَنُ عَنْ قِرَاءَةِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ؟ قَالَ: تِلْكَ

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ١١٠)، كتاب «الجهاد» / باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام. رقم (٢٩٤١).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٣١٦)، كتاب «الزكاة» / باب زكاة الغنم. رقم (١٤٥٤).

(٣) أبو داود (٣/ ٢٩٩)، كتاب «الوصايا» / باب ما جاء في الرجل يوقف الوقف. رقم (٢٨٧٩).

(٤) «فتوح الشام» للواقدي (١/ ١١٩).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبه (١٢/ ٥٥٥-٥٥٢) رقم (١٥٥٧٥، ١٥٥٧٦، ١٥٥٨٠).

(٦) «الأدب المفرد» (٤٠٦-٤٠٨).

(٧) «الشریعة» للآجري (٢٣٣).

(٨) «الإبانة الكبرى» لابن بطه (٢/ ٤٧١-١٧٢) رقم (٤٨١)، و«مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي

(٢٠٧).

(٩) «الجرح والتعديل» (١/ ٨٦).

صدور الرسائل^(١).

بسم: الباء للمصاحبة وقيل: للاستعانة أي: بسم الله أولف حال كوني مستعيناً بالله تعالى، وبسم الله متعلق بفعل محذوف خاص مؤخر تقديره بسم الله أكتب.

أما كونه فعلاً فلأن الأصل في العمل الأفعال لا الأسماء، ولهذا كانت الأفعال تعمل بلا شرط والأسماء لا تعمل إلا بشرط؛ لأن العمل أصل في الأفعال فرع في الأسماء، وأما كونه خاصاً فلأن كل مبتدئ بالبسملة في أمر يضم ما جعل البسملة مبدأً له، ولأن الخاص أدل على المقصود من العام، وأما كونه متأخراً؛ فلدلالتة على الاختصاص والحصص؛ لأن تقديم المعمول يفيد الحصر فيكون باسم الله أقرأ، بمنزلة لا أقرأ إلا بسم الله، وأدخل في التعظيم، ولأنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله تعالى.

وحذف العامل له فوائد عديدة منها: أن الفعل إذا حذف صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة وليس فعل أولى بها من فعل فكان الحذف أعم من الذكر^(٢).

الاسم: قيل: إنه مشتق من السُّمُّ وهو العُلُوُّ والارتفاع؛ وذلك لأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره، وقيل: من الوسم والسمة وهي العلامة؛ لأن الاسم علامة على المسمى^(٣).

والقول الأول أرجح لأنه من الاشتقاق الخاص الذي يتفق فيه اللفظان في الحروف وترتيبها^(٤) وهو الذي رجحه البغوي^(٤)، وشيخ الإسلام حيث قال: وهذا المعنى أخص

(١) «الأدب المفرد» (٤٠٧) باب صدور الرسائل بسم الله الرحمن الرحيم. وانظر «جمهرة رسائل العرب» لأحمد زكي صفوت، فقد ذكر رسائل كثيرة للصحابة كلها مبتدأً بالبسملة (١/ ٣١-١٧٦).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٥).

(٣) «اسم الله الأعظم» الدميحي (١٣).

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (١/ ٣٨).

فإن العلوَّ مقارنٌ للظهور... واستدل بالحديث «وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيء»^(١). ثم قال: ولم يقل فليس أظهر منك شيء؛ لأن الظهور يتضمن العلو والفوقية^(٢). وإلى هذا ذهب أكثر أهل اللغة ومنهم ابن سيده^(٣) والخليل^(٤) وابن فارس^(٥) والجوهري^(٦) والراغب^(٧) والفيومي^(٨).

بل إن الزجاج غلط من قال إنه مشتق من السمة وهي العلامة، فقال: «ومعنى قولنا: اسم هو مشتق من السُّمُو وهو الرِّفْعَة، والأصل فيه: سَمُو بالواو، وجمعه: أَسْمَاء، مثل: قِنُو وأَقْنَاء، وإنما جعل الاسم تنويهاً على الدلالة على المعنى لأن المعنى تحت الاسم، ثم قال ومن قال: إن اسماً مأخوذ من وَسَمْتُ فهو غلط لأنه لو كان اسماً من سَمْتُهُ لكان تصغيره وَسَيْماً»^(٩). وأما الزجاجي فيرى أن القول بأنه مشتق من السمة والعلامة قول ضعيف لا يصلح أن يذكر حيث يقول: أجمع علماء البصريين ولا أعلم عن الكوفيين خلافاً محصلاً مستنداً إلى من يوثق به أن اشتقاق اسم من سَمَوْتُ أَسْمُو أي علوتُ كأنه جعل تنويهاً بالدلالة على المسمى لما كان تحته فأصله (سَمُو) على وزن حَمَلٍ وَعِذْقٍ وَقِنُو وَحِنُو، والدليل على ذلك قولهم في الجمع أسماء كما قيل أقْنَاء وأَحْنَاء وأَحْمَال وفي التصغير سُمَيٍّ، كما قيل

(١) مسلم (٤/ ٢٠٨٤)، كتاب «الذكر والدعاء» / باب ما يقول عند النوم. رقم (٢٧١٣).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٠٨-٢٠٩).

(٣) «المخصص» (٥/ ٢١٥).

(٤) «العين» (٧/ ٣١٨).

(٥) «معجم مقاييس اللغة» (٣/ ٩٨).

(٦) «الصحاح» (٦/ ٢٣٨٣).

(٧) «المفردات» (٢٤٧).

(٨) «المصباح المنير» (١١٠).

(٩) «تهذيب اللغة» (١٣/ ١١٧).

حُنِّيَّ وَقُنِّيَّ، ثم قال وقد حُكي أن بعضهم يذهب إلى أن أصله من (وَسَمْتُ)، ثم رَدَّه لأنه ليس على مقاييس اللغة العربية ولأنه يخالف الأصل فلو كان اشتقاقه من وَسَمْتُ لكان أصله (وَسَم) وكان تصغيره وَسِيمًا وجمعه أَوْسَامٌ ثم قال: فاجتماع الجماعة كلها في التصغير على سُمِّيَّ وفي الجمع على أسماء يدل على بطلان هذا المذهب^(١).

الله: علم على الرب جل جلاله لا يجوز أن يُسمَّى به غيره وهو أصل الأسماء الحسنى بل إن الأسماء الحسنى تأتي تابعة له ومضافة إليه قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٢] هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ [الحشر: ٢٢-٢٣].

وقوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ وَتَسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢). وهو مشتق من الإله كما نقل عن الكسائي والفراء وسيبويه ويونس بن حبيب وقطرب والأخفش^(٣).

إله: بمعنى مألوه أي: المعبود حُبًّا وتعظيمًا وخضوعًا، قال ابن عباس: ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين^(٤). وقال أبو إسحاق الزجاج: ومعنى قولنا «إله» إنما هو الذي يستحق العبادة وهو تعالى المستحق لها دون من سواه^(٥) فهو دال على صفة الألوهية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] فَإِنْ (في السموات) متعلق

(١) «اشتقاق أسماء الله» (٢٥٥-٢٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (٣٧٧ / ١٣)، كتاب «التوحيد» / باب: إن لله مائة اسم إلا واحدًا. رقم (٦٤١٠)، ومسلم (٢٠٦٤ / ٤)، كتاب «الذكر» / باب في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها. رقم (٢٦٧٧).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (٣٧-٢٣).

(٤) «جامع البيان» (٥٤ / ١).

(٥) «تفسير أسماء الله الحسنى» (٢٦).

بلفظ الجلالة يعني أي المألوه في السموات وفي الأرض^(١) ولهذا أنكر الله على من عبدوا غيره فقال: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٤].

الرحمن: أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وهو دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧] وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] «وقد أجمع العلماء أنه لا يجوز لأحد أن يتسمّى باسم الرحمن»^(٢).

الرحيم: ذو الرحمة الواصلة فهو دال على تعلقها بالمرحوم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]؛ فهو اسم يدل على الفعل.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «الرحمن والرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرقُّ من الآخر»^(٣) أي: أوسع رحمة «وفائدة الجمع بين الرحيم والرحمن الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة»^(٤).

(١) «شرح الواسطية»، العثيمين (١/ ٣٨).

(٢) «جامع البيان» (١/ ٥٩).

(٣) «معالم التنزيل» (١/ ٣٨).

(٤) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

اعلم - رحمك الله - أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل.

العلم: بمعناه العام هو: حكم الذهن الجازم المطابق للواقع.

لأنه إن لم يكن جازماً صار ظناً والظن ليس علماً، قال تعالى: ﴿قُلْتُ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

وإن لم يكن مطابقاً للواقع صار مخالفاً له فلم يكن علماً. كاعتقاد النصارى بالتثليث. اعلم: فعل أمر وهي كلمة يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة، أي: كن متفهماً لما سأقوله لك من العلم بأصول الدين والتربي عليه وهو جدير بأن يعتنى به، فبه الدخول في الإسلام وبه الاستمرار عليه وبه الخروج من الدنيا.

رحمك الله: أي: غفر لك فيما مضى وعصمك في المستقبل.

فإن اجتمع مع الرحمة المغفرة صارت الرحمة للمستقبل والمغفرة لما مضى فتكون الرحمة: سؤال السلامة من ضرر الذنوب في المستقبل، والمغفرة: سؤال الله مغفرة الذنوب الماضية.

وابتدأ المصنف رحمه الله كتابه بالدعاء لأجل أن يفتح قلب القارئ فيقبل ما يدعوه إليه، وهذا درس للدعاة إلى الله فإنه ينبغي أن يفتحوا قلوب الناس قبل أن يدعوه، كما فعل النبي ﷺ مع معاذ جهلته. قال معاذ أخذ بيدي رسول الله ﷺ وقال: «يا معاذ والله إنني لأحبك، والله إنني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١).

(١) أحمد (٥/ ٢٧٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٧) رقم (٦٩٠)، وأبو داود (١٨٠/ ٢) كتاب =

فكرر النبي ﷺ بيان محبته لمعاذ بل أكدها بالحلف ثم ثنى بالأمر الذي أراد أمر معاذ به.
أن: حرف توكيد، واسمها ضمير الشأن المتصل (الهاء).

يجب: وجب الشيء وجوباً أي لزم وثبت. (يجب) في محل رفع خبر (أن).

قال ابن الأثير: «والواجب والفرض عند الشافعي سواء وهو كل ما يعاقب على تركه»^(١). أي: أنه يلزم كل واحد منا تعلم هذه المسائل، ولا يعذر أحد بالجهل بها إذا كان يستطيع تعلمها.

علينا: أي: نحن المسلمين جميعاً فليست خاصة بأحد دون أحد.

تعلم: أي: طلب معرفتها وصرف الوقت والجهد لذلك؛ لأن الأصل فينا هو الجهل، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨] فعلمنا مسبوق بجهل ولا نستطيع إزالة الجهل عن أنفسنا إلا بطلب العلم، قال ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ»^(٢).

أربع مسائل: مسائل جمع مسألة وهي من السؤال بمعنى: استدعاء وطلب ما يؤدي إلى المعرفة، والوجوب حكم شرعي لا يثبت إلا بدليل ولذلك عقب المؤلف هذه المسائل الأربع بالدليل.

«الصلاة»/ باب في الاستغفار. رقم (١٥٢٢)، والنسائي (٣/ ٥٣)، كتاب السهو/ باب الذكر والدعاء، و«صحيح ابن خزيمة» (١/ ٣٦٩) باب الأمر بمسألة الرب ﷻ في دبر الصلوات المعونة على ذكره وشكره وحسن عبادته والوصية بذلك. رقم (٧٥١)، وصححه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٠/ ٨٠)، وقال النووي: «رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح». «رياض الصالحين» (١٨٣) رقم (٣٨٩). وقال ابن حجر: «رواه أحمد وأبو داود، والنسائي بسند قوي». «بلوغ المرام» (٦٦) رقم (٣٤٤).

(١) «النهاية» ١٥٣/ ٥.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٩/ ٣٩٥)، وذكره البخاري معلقاً. البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم»/ باب العلم قبل القول والعمل.

(الأولى): العلم.

.....

العلم: هنا هو العلم الخاص.

وتعريفه لغة: نقيض الجهل، كما أن الجهل نقيض العلم، والجهالة أن تفعل فعلاً بغير علم^(١).

واصطلاحاً: هو معرفة الهدى بدليله المورث خوف الله، والإشفاق من عقابه والرغبة والطمع في جزيل ثوابه.

أقسام العلم:

ينقسم العلم الشرعي إلى ثلاثة أقسام هي:

١ - العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله.

٢ - العلم بالأحكام الشرعية.

٣ - العلم بالأمور الغيبية.

قال ابن القيم موضحاً هذه الأقسام:

والعلم أقسامٌ ثلاثٌ ما لها	من رابع والحقُّ ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكلُّ في القرآن والسنن التي	جاءت عن المبعوث بالفرقان ^(٢)

(١) «العين» (٢/ ١٥٢ و ٣٩٠).

(٢) «الكافية الشافية» (٢/ ٢٣٢).

حكم طلب العلم:

ينقسم حكم طلب العلم إلى قسمين:

أولاً: فرض عين على كل أحد، وضابطه: ما لا يسع الإنسان جهله وهو «التوحيد وما يفعله من العبادات وما يحتاج إليه من المعاملات وما يجب تركه من المنهيات»^(١).

قال ابن المبارك: «ألا يقدم الرجل على الشيء إلا بعلم»^(٢).

ودليله قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٣)، وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف؛ إلا أن معناه صحيح، وذلك أنه لا يمكن للإنسان أن يعبد ربه إلا بالعلم. والقاعدة تقول: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

ثانياً: فرض كفاية: وضابطه: ما زاد عن الواجب. فإذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، والطائفة في لسان العرب الواحد فما فوقه.

(١) وضبطه الطبري، فقال: «فأما الذي لا يجوز الجهل به من دين الله.... فتوحيد الله تعالى ذكره، والعلم بأسمائه وصفاته وعدله» «التبصير في معالم الدين» ١١٦-١١٧.

(٢) «الفتاوى والمتفق» ١/ ٤٥، وشرحه هناك فراجع إن شئت.

(٣) ابن ماجه (١/ ٨١) «المقدمة» / باب فضل العلماء والحث على طلب العلم رقم (٢٢٤)، وضعفه أحمد، وابن عبد البر، وقال إسحاق بن راهويه: إنه لم يصح، أما معناه فصحيح، ومثله ابن الصلاح المشهور الذي ليس بصحيح. وقال المزي: «إن طرقه تبلغ درجة الحسن». «المقاصد الحسنة» (٢٧٦).

ترتيب تعلم العلوم:

أَوَّلُ ما يَبْدَأُ به طالب العلم: تَعَلُّمُ فروض الأعيان حتى يعرف العلم والعمل بها ثم يَتَدَرَّجُ بعد ذلك في فروض الكفاية وجزئيات العلم، وليكن ابتداءه أولاً بعلوم الغاية وهي: التوحيد ثم الفقه المبنيان على الأدلة من الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح، ثم علوم الوسائل ثانياً كأصول التفسير، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث، وأصول الفقه ونحو ذلك. قال الذهبي: «على الوالدين تعليم الأولاد الأطفال أولاً فأولاً ما يجب اجتنابه، ويلزم فعله واعتقاده، فيذاكر الأب ولده شأن التوحيد، وأنَّ الله ربَّ العالمين، وخالقُ الأشياء، ورازقُ الأحياء، وأن محمداً نبيُّه، وأن الإسلام دينه، حتى يَأْلِفَهُ الصَّبِيُّ ويرسخ في طبعه.

فإذا مَيَّزَ: علَّمه الوضوء والصلاة، وحذَّره الزنا والسرقه والكذب، وأكل الحرام، والدم والميتة، ونحو ذلك، وأنه ببلوغه يجري عليه القلم»^(١).

ويبتدئ طالب العلم بتعلم التوحيد والإيمان أولاً لما يلي:

١ - أن السور والآيات التي تتحدَّث عن الإيمان هي أَوَّلُ ما نزل من القرآن:

فَأَوَّلُ ما نزل في مكة هو المفصل، لما فيه من غرس حقيقة الإيمان في القلب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «نزل المفصل بمكة، فمكثنا حَجَّجًا نقرؤه لا ينزل غيره»^(٢).

توضح ذلك أمنا عائشة رضي الله عنها فتقول: إنما أُنْزِلَ أَوَّلُ ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أَوَّلُ شيء: (لا تشربوا الخمر)؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: (لا تنزوا)؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلَّى الله عليه وآله، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى

(١) «مسائل في طلب العلم وأقسامه» (٢٠٤) المطبوع ضمن ست رسائل.

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٢٥٨/٦) رقم (٦٣٤٤).

وَأْمُرْ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده»^(١).

٢- أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ أَسَاسُ الدِّينِ، فَمَنْ فَقَدَهُ فَقَدَ الدِّينَ كُلَّهُ:

جعل الله نورَ القرآن تاليًا وشاهدًا لنور الإيمان، فقال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾؛ أي: نور القرآن على نور الإيمان، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

وبهذا يتضح أن معنى قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾: يعني هدى الإيمان ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ أي: يتبعه. ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الشاهد هو القرآن، فهو شاهد من الله يوافق الإيمان، ويتبعه في صدقه ويزكيه ويؤيده ويثبته، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقال: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، وقال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾؛ لأن الإيمان هو المقصود؛ لأنه إنما يراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته.

ولهذا كان الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة، والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة، بل صاحبه منافق، كما في حديث عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة: ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها، وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح، وطعمها مر»^{(٢) (٣)}.

(١) البخاري مع الفتح (٩ / ٣٨-٣٩)، كتاب «فضائل القرآن» / باب تأليف القرآن. رقم (٤٩٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٩ / ٥٥٥)، كتاب «الأطعمة» / باب ذكر الطعام. رقم (٥٤٢٨)، ومسلم

(١ / ٥٤٩)، كتاب «صلاة المسافرين» / باب فضيلة حافظ القرآن. رقم (٧٩٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥ / ٦٨-٧٤)، وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٤ / ٩٨).

٣- أن البداية بالإيمان منهج النبي ﷺ وأصحابه:

لما كان القلب هو ملك الأعضاء والمحرك لها: كان لا بد من غرس الإيمان فيه أولاً، لأجل أن يحرك الأعضاء إلى كل خير، ولذلك كان النبي ﷺ يبتدئ به تعليم أصحابه، كما أوضح ذلك وبينه جندب بن عبد الله البجلي، وحذيفة، وابن عمر رضي الله عنهم.

فأما رواية جندب بن عبد الله قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتیان حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازدنا إيماناً»^(١).

ومثله عند ابن منده، إلا أنه قال: «غلمان»، بدلاً من: «فتيان»^(٢).

وفي لفظ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ ونحن فتیان حزاورة، فاعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازدنا به إيماناً»^(٣).

وفي لفظ قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتیان حزاورة»^(٤) - يعني أشداء -، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن بعد فازدنا إيماناً»^(٥).

فهذه الروايات لحديث جندب كلها تؤكد أن الإيمان يجب تعلّمه أولاً قبل أي علم آخر، حتى لو كان تعلّم القرآن.

وأكد هذه الحقيقة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر، فقال: «لقد لبنا برهة من دهرنا، وأحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن. تنزل السورة على محمد ﷺ فتعلم حلالها

(١) ابن ماجه (٢٣ / ١) المقدمة / باب في الإيمان. رقم (٦١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». «مصابيح الزجاجة» (٦٢ / ١).

(٢) «الإيمان» (٣٧٠ / ٢) رقم (٢٠٨)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (٣٦٩ / ١) رقم (٧٩٩).

(٣) «السنة» للخلال (٥٤ / ٥) رقم (١٥٩٣).

(٤) حزاورة: أي قارب أن يبلغ. «غريب الحديث» لابن قتيبة ٧٥٨ / ٣.

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٩٤٦ / ٥) رقم (١٧١٥).

وحرامها وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها^(١)، كما يتعلم أحدكم السورة....»^(٢).

«فهم كانوا يتعلمون الإيمان، ثم يتعلمون القرآن»^(٣).

وقول ابن عمر: «لقد عشنا برهة من دهرنا» يدل على أن ذلك إجماع من الصحابة ثابت^(٤).

وكذلك حذيفة حين قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة». قال الأصمعي وأبو عمرو: «الجذر الأصل من كل شيء»^(٥).

وقال الطنفاصي: «جذر قلوب الرجال يعني: وسط قلوب الرجال»^(٦). ووسط القلب هو أصله.

«والأمانة في هذا الحديث هي الإيمان، أنزلها في أصل قلوب الرجال»^(٧).

(١) قال شيخ الإسلام: «تعلم معانيه هو المقصود بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان». «مجموع الفتاوى» (١٢ / ٤٠٣).

(٢) «الإيمان» لابن منده (٣٦٩-٣٧٠)، وقال: «هذا إسناد صحيح على رسم مسلم والجماعة، إلا البخاري»، و«المستدرک» للحاكم (١ / ٣٥)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه».

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧١ / ١٥).

(٤) «الإتقان في علوم القرآن» (٢ / ٥٤٠).

(٥) البخاري مع الفتح (١١ / ٣٣٣)، كتاب «الرقاق» / باب رفع الأمانة. رقم (٦٤٩٧)، ومسلم (١ / ١٢٦)، كتاب «الإيمان» / باب رفع الأمانة والإيمان. رقم (١٤٣).

(٦) سنن ابن ماجه (٢ / ١٣٤٦)، كتاب «الفتن» / باب ذهاب الأمانة. رقم (٤٠٥٣).

(٧) «مجموع الفتاوى» (١٢ / ٢٤٩).

وذلك أنهم إذا استقر الإيمان في قلوبهم، فتعلموا ما يسر الله لهم من القرآن والسنة، فهموه على الوجه الصحيح، وطبقوه على أنفسهم رغبة وطواعية، ومحبة.

ولكن يا للأسف سرعان ما تغير الناس في طلب العلم، فاختل ترتيب الأولويات حتى فزع الصحابة رضي الله عنهم من ذلك.

قال حذيفة رضي الله عنه مبيناً طريقة النبي صلى الله عليه وسلم في تعليم الإيمان أولاً: «كنا فتياناً حزاورة مع نبينا صلى الله عليه وسلم، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فزددنا به إيماناً».

ومعاتباً التابعين إذ خالفوا طريقته صلى الله عليه وسلم: «وإنكم اليوم تَعَلَّمُونَ القرآن قبل الإيمان»^(١).

ويستغرب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما هذا التغير السريع، فيذكر حالة النبي صلى الله عليه وسلم في تعليمهم الإيمان قبل القرآن، ثم يذكر الأمر المستغرب الذي لم يكن معهوداً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول معاتباً ومحذراً: «ولقد رأيت رجلاً يُؤْتَى أحدهم القرآن قبل الإيمان، يقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يعرف حلاله ولا حرامه، ولا أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، وينثره نثر الدقل»^(٢).

ولقد رأينا في زماننا هذا من يحفظ القرآن بالقراءات العشر لا يرعوي لأمر ولا يزجره نهي، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وينبغي لطالب العلم أن يحرص أشدَّ الحرص على طلب الأدب، قال مالك بن أنس لفتى من قریش: «يا ابن أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم»^(٣).

(١) «المعجم الكبير» (٢/ ١٦٥) رقم (١٦٧٨)، وشعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٩٣) رقم (٥٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٣٠).

وما ذلك إلا لعظيم أهميته كما يصور ذلك عبدالله بن المبارك، فيقول: «كاد الأدب أن يكون ثلثي العلم»^(١).

وتعلّم الأدب سنة متبعة مشتهرة عن سلفنا الصالح ومن ذلك:

كان أصحاب عبدالله بن مسعود رحمته الله يرحلون إلى عمر بن الخطاب رحمته الله فينظرون إلى سمّته وهديه ودلّه فيتشبهون به^(٢)، وأما الطلاب الذين يحضرون درس الإمام أحمد، فهم قرابة خمسة آلاف طالب يكتب منهم خمسمائة فقط أما البقية فجاءوا يتعلمون حسن الأدب وحسن السمّ والهدى^(٣).

قال أبو بكر بن المطوعي «اختلفت إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل اثنتي عشرة سنة وهو يقرأ المسند على أولاده فما كتبت منه حديثاً واحداً، إنما كنت أنظر إلى هديه وأخلاقه وآدابه»^(٤).

وقال إبراهيم النخعي «كنا نأتي مسروقاً فتعلم من هديه ودلّه»^(٥).

وقال ابن وهب: «ما تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه»^(٦).

وكما أن العلم يؤخذ بالسند فكذلك الأدب. قال حميد بن عبدالرحمن الرواسي كان يقال: لم يكن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه هدياً ولا سمّاً ودلاً من عبدالله بن مسعود، وكان أشبه الناس بعبدالله بن مسعود علقمة، وكان أشبه الناس بعلقمة إبراهيم

(١) «صفة الصفوة» (٤ / ١٤٥).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٤ / ٦٥).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢١٠).

(٤) المرجع السابق.

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ١٢٧).

(٦) المرجع السابق.

النخعي، وكان أشبه الناس بإبراهيم النخعي منصور بن المعتمر، وكان أشبه الناس بمنصور بن المعتمر سفيان الثوري وكان أشبه الناس بسفيان الثوري وكيع بن الجراح. قال محمد بن يونس: وكان أشبه الناس بوكيع بن الجراح أحمد بن حنبل^(١) ومما ينبغي أن يعلم أن الأدب والعلم توأمان لا ينفك أحدهما عن الآخر كما بين ذلك يحيى بن محمد العنبري ت ٣٤٤ هـ بقوله: «علم بلا أدب كنار بلا حطب، وأدب بلا علم كجسم بلا روح»^(٢)

فضل العلم:

العلم فضله كبير بل لا يساويه أي عمل آخر ويتجلى ذلك بالأمور التالية:

أولاً: الترغيب في الذهاب لطلبه:

بذل الجهد والوقت في مدارس العلم - وذلك بالذهاب إلى حلق الذكر ومواطن العلم - هو السبيل إلى التعلم.

وقد تكاثرت النصوص الدالة على فضله والترغيب فيه، ومنها:

قوله ﷺ: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج تاماً حجّه»^(٣).

فما أعظم هذا الأجر الذي يتسابق إليه الموفقون، فلنكن منهم.

كيف لا يتسابق إلى العلم المتسابقون وبسببه يُسهّل الله لهم طريق الجنة ويذكرهم في الملأ الأعلى، وتغشاهم رحمته، وتحفهم ملائكته، وينزل عليهم سكنته، كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة وفيه: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢١١).

(٢) «الجامع» للخطيب (٨٠ / ١).

(٣) الطبراني في «الكبير» (٨ / ٩٤) رقم (٧٤٧٣)، قال المنذري: «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به».

«الترغيب والترهيب» ١ / ١٠٤، وقال العراقي «إسناده جيد». «تخريج الإحياء» (٤ / ٤٦١).

طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله يتلون كتابَ الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١).

قال ابن حجر: «وفيه بشارة بتسهيل العلم على طالبه لأن طلبه من الطرق الموصلة إلى الجنة»^(٢)، بل إن نقل الخطى لطلب العلم بمنزلة الجهاد في سبيل الله. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا خَيْرٌ يَتَعَلَّمُهُ، أَوْ يُعَلِّمُهُ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣).

ثانياً: قيمة العلماء في الدنيا والآخرة:

لما كان العلم الشرعي هو أعلى ما يُبتَغى ويُطَلَب صار أهله في أعلى المواقع والرتب. ومن الأدلة على علو مرتبتهم:

١ - استشهادهم دون غيرهم من البشر، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

وَالْمَلَكُ وَالْمَلَكُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال ابن القيم وهذه الآية تدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أ - استشهادهم دون غيرهم من البشر.

ب - اقتران شهادتهم بشهادته سبحانه.

(١) مسلم (٤/ ٢٠٧٤)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» / باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. رقم (٢٠٦٩).

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٣) ابن ماجه (١/ ٨٢) «المقدمة» / باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. رقم (٢٢٧)، قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته». «مصابيح الزجاجة» (١/ ٣١). وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٤).

ج- اقتران شهادتهم بشهادة ملائكته.

د- أن في هذا تزكيتهم وتعديلهم؛ فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر: «يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوُّه ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»^{(١)(٢)}.

٢- الفرق الكبير بين الجاهل والعالم، يوضحه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

أي الذين «يعلمون ربهم ودينه الشرعي ودينه الجزائي وما له في ذلك من الأسرار والحكم والذين لا يعلمون شيئاً من ذلك، لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار»^(٣).

وقرب ابن القيم معنى هذه الآية ووضحه بأوجز عبارة فقال «هذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]»^(٤).

فنحن نعلم الفرق الشاسع والبون البعيد بين الدارين فليس هناك مقارنة ولا مقاربة فالنارُ دار الزفرات والأنين والعبرات دار الجحيم والعذاب والنكال والقيود والأغلال، دارُ أهلها في شقاء وعذاب، إن أكلوا فأكلهم عذاب، وإن شربوا فعذاب، وإن استظلوا فظلمهم لا ظليل ولا يغني من اللهب، وإن أرادوا النوم والراحة فلهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش، وبالجمله فهي دار لا يقضى على أهلها فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. نسأل الله العافية والسلامة منها، وأما الجنة فهي دار النعيم والحبور والراحة والطمأنينة

(١) «الرد على الزنادقة والجهمية» (٦).

(٢) «مفتاح دارة السعادة» (٤٨ / ١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢٠).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (٤٩ / ١).

والسعادة الأبدية، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وأهلها فيها خالدون، وقد تُوجَّ نعيمُها برؤية الرب الكريم جل وعلا. أسأل الله أن يجعلنا من أهلها. فانظر الفرق بين الاثنين واختر لنفسك أيها العاقل.

٣- التصريح برفعهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال شيخ الإسلام: «خَصَّ سبحانه بالأقْدَار والدرجات الذين أُوتوا العلم والإيمان...، فَرَفَعَ الدرجات والأقْدَار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان»^(١).

٤- إدراك الخيرية، ويدل له حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢).

ولازم ذلك أن من لم يفقهه الله في الدين لم يرد به خيرًا فينبغي الحرص على التفقه في الدين لننال الخيرية.

٥- اختصاصهم بميراث الأنبياء دون غيرهم، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الْعِلْمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافِرٍ»^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٨ / ١٦) وفيه زيادة فائدة؛ فراجع إن شئت، وانظر إن شئت: «إعلام الموقعين» (٢٣٣ / ٣).

(٢) البخاري مع الفتح (١ / ١٦٤)، كتاب «العلم» / باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين. رقم (٧١).

(٣) أحمد (١٩٦ / ٥)، والترمذي (٤٨ / ٥)، كتاب «العلم» / باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة رقم

(٢٦٨٢)، وأبو داود (٥٧ / ٤)، كتاب «العلم» / باب الحث على طلب العلم. رقم (٣٦٤١)، وابن

ماجه (٨١ / ١)، «المقدمة» / باب فضل العلماء، والحث على طلب العلم. رقم (٢٢٣).

وصححه ابن الملقن في «البدر المنير» (٥٨٧ / ٧)، وقال السخاوي: «صححه ابن حبان والحاكم

وغيرهما، وحسنه حمزة الكتاني، وضعفه غيرهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهد يتقوى بها، ولذا =

أي أخذ بنصيب كامل^(١).

فرق كبير بين من يرث أمّه وأباه أو يرث نبيه محمداً ﷺ. فمن ورث أمه وأباه فقد ورث الدرهم والدينار، ومن ورث نبيه محمداً ﷺ ورث العلم والدين الذي به نجاة الخلق أجمع في الدنيا والآخرة، ولهذا «لما مر أبو هريرة بسوق المدينة وقف فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم، قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة، قال: ذلك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعاً إلى المسجد ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم، فقالوا: يا أبا هريرة قد أتينا المسجد فدخلنا فلم نر فيه شيئاً يقسم، فقال لهم أبو هريرة: أما رأيتم في المسجد أحداً؟ قالوا: بلى رأينا قومًا يصلون وقومًا يقرؤون القرآن وقومًا يتذكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد ﷺ»^(٢).

وقال سليمان بن مهران: «بينما ابن مسعود يوماً معه نفرٌ من الصحابة، إذ مرّ أعرابي، فقال: على ما اجتمع هؤلاء؟ فقال ابن مسعود: على ميراث محمد يقسمونه»^(٣).

وأما بعد الموت: فيدل له فعل النبي مع قتلى أحد ﷺ مع أنهم كلهم أهل صلاح وتقى، حيث كان ﷺ يسأل أيهم كان أكثر أخذاً للقرآن فيقدمه في اللحد تكريراً له، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «كان رسول الله يقول لقتلى أحد: «أيُّ هؤلاء أكثر أخذاً

قال شيخنا: له طرق يعرف بها أن للحديث أصلاً». «المقاصد الحسنة» (٢٨٦).

وذكره البخاري. البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم»/ باب العلم قبل القول والعمل.

(١) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٢/ ١١٤-١١٥) رقم (١٤٢٩)، وقال المنذري: «إسناده حسن».

«الترغيب والترهيب» (١/ ٧٣-٧٤).

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٤٢٢).

للقرآن؟» فإذا أُشِيرَ إلى رَجُلٍ قَدَّمَهُ في اللَّحْدِ قَبْلَ صاحبه^(١).

وفي الموقف الأعظم يتقدم العلماء الناس كما في قول النبي ﷺ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «إن العلماء إذا حضروا ربهم كان بين أيديهم رَتُوةٌ بحجر»^(٢)، فمعاذ رضي الله عنه أمام العلماء، والعلماء أمام الناس.

أما في الآخرة فلهم المنازل العليا في جنات النعيم.

ثالثاً: فضل العلم على العبادة:

إن للعبادة لشأواً عظيماً فمن تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب الله إليه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة، ولا يزال العبد يتقرب إلى ربه بالنوافل حتى يحبه فإذا أحبه كان سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سأله أعطاه، ومع ذلك كله فإن العلم أفضل منها لأن العبادة لا تصح إلا بالعلم، ولأنَّ العلمَ نَفْعُهُ متعدّدٌ، أما العبادة فنفعها خاص بصاحبها فقط، كيف وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «وإنَّ فَضْلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلة البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ»^(٣).

قال القرطبي: وهذا حديث عظيم يدلُّ على أنَّ طلب العلم أفضلُ الأعمالِ وأنه لا يبلغ أحدٌ رتبة العلماء وأن رتبهم ثانية عن رتبة الأنبياء^(٤).

(١) البخاري مع الفتح (٣/٢١٢)، كتاب «الجنائز»/ باب من يقدم في اللحد. رقم (١٣٤٧-١٣٤٨).

(٢) «فضائل الصحابة» لأحمد (٢/٧٤٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «المفهم» (٦/٦٨٥).

وقال ابن القيم: «العلماء ورثة الأنبياء: هذا من أعظم المناقب لأهل العلم؛ فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم»^(١).

ويزيد النبي ﷺ الأمر وضوحاً في بيانه الفرق الشاسع بين العالم والعابد في الحديث الذي رواه أبو أمامة الباهلي قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم. فقال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»^(٢).

وهذا الحديث من أبين الأدلة على فضيلة العلم على العبادة إذ إنه من المعلوم أنه ليس هناك مقارنة بين النبي ﷺ وأعلى الصحابة. فكيف بأدناهم.

ولذلك أرشد النبي ﷺ أبا هريرة إلى أن يُوتَرَ قبل أن ينام لأجل أن يتفرَّغ لاستذكار العلم، كما روى ذلك أبو هريرة، فقال: «أوصاني خليلي بثلاث»، وذكر منها: «أن أُوتَرَ قبل أن أنام»^(٣).

واتفق السلف على ذلك، ومن أقوالهم:

قال أبو موسى الأشعري: «لمجلس أجلسه مع عبد الله بن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة»^(٤).

وقال الشافعي: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»^(٥)، وقال: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة؛ فعليه بالعلم».

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٦).

(٢) الترمذي (٥/ ٥٠)، كتاب «العلم» / باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. رقم (٢٦٨٥)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١/ ٧٤) رقم (٢١٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٢٦)، كتاب «الصوم» / باب صيام البيض. رقم (١٩٨١)، ومسلم (١/ ٤٩٩)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» / باب استحباب صلاة الضحى. رقم (٧٢١).

(٤) «شرح حديث أبي الدرداء» لابن رجب (٣٧)، وصحح الأثر عن أبي موسى.

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥).

وقال: «ما تُقَرَّب إلى الله تعالى بشيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»^(١).

وقال ابن وهب: كنت عند مالك أقرأ بين يديه، فجمعت كتبي، وقمت لأركع، قال لي مالك: ما هذا؟ قلت: أقوم إلى الصلاة، قال: فقال: إن هذا لعجب، ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي كنت فيه إذا صحَّحت النية»^(٢).

وقال الحسن مبيِّناً فضيلة العلم: «لأن أتعلم باباً من العلم فأعلمه مسلماً أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا كلها أجعلها في سبيل الله». ولما سأل مهناً أحمد بن حنبل عن أفضل الأعمال. قال: طلب العلم لمن صحت نيته. قلت: وأي شيء تصحيح النية؟ قال: ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل»^(٣).

وروي مثل هذه الآثار عن سفيان الثوري، وأبي حنيفة، وغيرهم من السلف»^(٤).

رابعاً: شدة الحاجة إليه:

كلما كان الناس إلى الشيء أحوَج كان طلبُهُ أفضل، قال الإمام أحمد: «الناس إلى العلم أحوَج منهم إلى الطعام والشراب، فإنهم يحتاجون الطعام والشراب في اليوم والليلة مرتين أو ثلاثاً، أما حاجتهم إلى العلم فبعدد أنفاسهم».

وقال الحسن بن صالح: «إنَّ الناس ليحتاجون إلى هذا العلم في دينهم كما يحتاجون إلى الطعام والشراب في دنياهم»^(٥).

(١) «المجموع» للنووي (١/ ١٢).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥).

(٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٨٠-٣٨١).

(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٥)، و«شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» (٣٧-٤٠).

(٥) «سنن الدارمي» (١/ ٩٠) «المقدمة»/ باب في فضل العلم والعالم. رقم (٣٢٦).

الترهيب من تعلم العلم لغير وجه الله تعالى:

لما كان العلم أعظم زينة يتزين بها الإنسان فإن نوازع النفس من حب الدنيا والمدح والثناء والمباهاة والتبجيل قد تفسد على العبد نيته فتصرفه عن ابتغاء وجه الله فيه فلهذا وردت الأحاديث الشديدة الزجر، لتحمي طالب العلم من الانحراف، وترده إلى رشده إذا انحرف، ومنها:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلَّم علماً مما يُبتَغى به وجهُ الله ﷻ لا يتعلَّمهُ إلا ليُصِيبَ به عرضاً من الدنيا: لم يجد عرفَ الجنة يوم القيامة». يعني ريجها^(١).

٢ - حديث أول من تُسعر بهم النار وفيه: «ورجلٌ تعلَّم العلمَ وعلمَهُ وقرأ القرآنَ فأُتيَ به فعرفَهُ نعمهُ فَعرفَهَا قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ وعلمتهُ وقرأتُ فيك القرآنَ، قال: كذبتُ، ولكنَّكَ تعلَّمتَ العلمَ ليُقَالَ عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقَالَ هو قارئٌ، فقد قيل: ثم أمرَ به فُسِحَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار»^(٢).

٣ - عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تعلَّمُوا العلمَ لِيُبَاهُوا به العلماءُ، ولا تُمَارُوا به السُّفَهَاءُ، ولا تَخَيَّرُوا به المجالسَ، فمن فعل ذلك؛ فالنَّارُ فالنَّار»^(٣).

(١) أبو داود (٤ / ٥٧١)، كتاب «العلم» / باب طلب العلم لغير الله تعالى. رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٩٢ / ١) «المقدمة» / باب الانتفاع بالعلم والعمل به. رقم (٢٥٢)، وصحح إسناده شيخ الإسلام في «شرح حديث جبريل» (٥٨٥)، والنووي في «رياض الصالحين» (٤٤٧) رقم (١٣٩٩).

(٢) مسلم (٣ / ١٥١٤)، كتاب «الإمارة» / باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. رقم (١٩٠٥).

(٣) ابن ماجه (٩٣ / ١) «المقدمة» / باب الانتفاع بالعلم والعمل به. رقم (٢٥٤)، وصحح إسناده العراقي في «تخريجه أحاديث الإحياء» (٧٣ / ١)، وقال البوصيري: «هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم».

«مصباح الزجاجة» (٣٧ / ١).

أنواع العلم بحسب متعلقاته:

العلم بحسب متعلقاته قسمان هما:

١ - علم اللسان.

٢ - علم القلب.

فعلم اللسان: علمٌ مُستقرُّه اللسان فقط، بمعنى أن الشخص عنده القدرة التامة على التحدث في أمور الدين حتى إن السامع ليعجب بحديثه، ولكن لا أثر له على سلوكه وحياته، قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يُحَسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْفًى يُوَفِّكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

أما علم القلب: فهو العلم الذي استقر في القلب، وظهر أثره على الجوارح، وهذا هو العلم الممدوح قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. قال الحسن مقررًا هذه الحقيقة: «العلم علمان: فعلم في القلب فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم»^(١).

إذا: العلم النافع هو ما باشر القلب فأوجب له السكينة والخشية والإخبات والتواضع والانكسار لله، وحينئذ يرسخ في القلب وينفع المسلم كما أوضح ذلك عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: «إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»^(٢).

ومن ثم جعل رحمته علم القلوب هو رأس العلوم كلها فقال: «كفى بخشية الله

(١) «سنن الدارمي» (١/ ٩٨)، «المقدمة» / باب التويخ لمن يطلب العلم لغير الله. رقم (٣٦٤).

(٢) مسلم (١/ ٥٦٣)، كتاب «صلاة المسافرين» / باب ترتيب القراءة. رقم (٨٢٢).

علماً، وكفى بالاغترار به جهلاً»^(١). ووافقه حذيفة رحمته الله فقال: «بحسب المرء من العلم أن يخشى الله، وبحسبه من الكذب أن يقول: أستغفر الله، ثم يعود»^(٢).

بل حصر ابن عباس رحمته الله العلم بعلم القلوب فقال: «من خشي الله فهو عالم»^(٣). وصحح ابن مسعود رحمته الله ذلك المفهوم الخاطئ عند بعض طلبة العلم الذين توهموا أن العلم هو الرواية فقط فقال: «ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية»^(٤).

وعلى ذلك درج سلفنا الصالح رحمهم الله، قال مالك رحمته الله: «إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نُورٌ يجعله الله في القلب»^(٥). وفي لفظ: «الفقه نور يهدي به الله من يشاء من خلقه ويؤتاه من أحب من عباده وليس بكثرة المسائل»^(٦). وحدّد مجاهد الفقيه فقال: «إنما الفقيه من يخاف الله»^(٧).

وحين سأل عبدالله بن أحمد بن حنبل أباه عن معروف: هل كان مع معروف شيء من العلم. قال له: «يا بني كان معه رأس العلم خشية الله تعالى»^(٨).

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢١٩ / ١٣) رقم (١٦٣٧٩)، و«الزهد» لابن المبارك (١٥)، و«الزهد» لأبي داود (١٨٧).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (٣٧٨ / ١٣).

(٣) «سنن الدارمي» (٩٢ / ١)، «المقدمة» / باب فضل العلم والعالم. رقم (٣٣٣).

(٤) «الزهد» لأحمد (١٩٨)، و«حلية الأولياء» (١٣١ / ١)، و«إبطال الحيل» لابن بطة (٢٠).

(٥) «الجامع للخطيب» (١٧٤ / ٢).

(٦) «التمهيد» (٢٦٧ / ٤).

(٧) «الزهد» لأحمد (٤٥٢)، و«سنن الدارمي» (٨٦ / ١)، «المقدمة» / باب من قال العلم الخشية. رقم (٢٩٦).

(٨) «طبقات الحنابلة» (٣٨٢ / ١).

ولما قال الرجل للشعبي أفتنا أيها العالم قال: «العالم من خاف الله»، وفي لفظ: «العالم من خشي الله»^(١). ويؤكد هذه الحقيقة سفيان الثوري فيقول: «ليس طلب العلم فلان عن فلان، إنما طلب العلم الخشية لله»^(٢). وبناءً على هذا قسّم العلماء إلى ثلاثة أنواع فقال: «العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمره فذلك العالم الكامل، وعالم بالله ليس عالماً بأمر الله ﷻ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ﷻ، فذلك العالم الفاجر»^(٣)، والعالم الفاجر هو الذي عناه أيوب السخيتاني بقوله: «لا خبيث أخبث من قارئ فاجر»^(٤).

وأختم بوصف الحسن للفقهاء حين قال: «إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة لا يداري ولا يماري، ينشر حكم الله فإن قبلت منه حمد الله، وإن ردت حمد الله»^(٥).

أسباب حفظ العلم:

أسباب حفظ العلم كثيرة من أهمها:

١ - النية الصالحة:

مدار كل عمل على النية فبصلاحها يصلح العمل، ومن أعظم ما يعين على حفظ العلم صلاحها، قال ابن عباس: «إنما يحفظ الرجل على قدر نيته»^(٦).

٢ - التذاكر:

التذاكر منهج معروف عند السلف الصالح؛ لأثره البالغ في تثبيت العلم قال علي

(١) «الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٥٣٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦).

(٣) «الجرح والتعديل» (١/ ٩١-٩٢).

(٤) «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٨١).

(٥) «نقض الدارمي على بشر المريسي» (٣٨٥).

(٦) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣١٢).

رحمته: «تذكروا هذا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يُدرس»^(١). وقال الزهري والحسن: «إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة»^(٢).

وكان ابن عباس يربي تلاميذه على ذلك فيقول لطلابه: «إذا سمعتم مني حديثاً فتذكروه بينكم»^(٣).

وذلك أن «من أكثر مذاكرة العلماء لم ينس ما علم واستفاد مما لم يعلم»^(٤).

وكان لتوجيهه رحمه أكبر الأثر على الطلاب فلقد كانوا يطبقون ذلك كما يقول تلميذه عطاء: «كنا نكون عند جابر بن عبد الله رحمه فيحدثنا فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث»^(٥).

بل كان ذلك سمة عامة. قال عبد العزيز بن أبي حازم: «كان الناس فيما مضى من الزمان الأول إذا لقي الرجل من هو أعلم منه قال: اليوم يوم غُنمي فيتعلم منه، وإذا لقي من هو مثله قال: اليوم يوم مذاكرتي فيذاكره، وإذا لقي من هو دونه علّمه ولم يزُرْ عليه»^(٦). وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له. وسمعت أبي يوماً يقول: ما صليت غير الفرض استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي^(٧).

٣- ترك المعاصي:

المعاصي من أعظم الأسباب المانعة من العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣٧).

(٤) المرجع السابق (٢/ ٤١٥).

(٥) المرجع السابق (١/ ٣٦٥).

(٦) المرجع السابق (٢/ ٢٧٦).

(٧) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٩٩).

بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ» [النساء: ١٥٥] قال شيخ الإسلام عند هذه الآية: «والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع»^(١).

وقد عرف سلفنا الصالح ذلك جيداً قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مبيناً أثر المعاصي على طلبه العلم، وأنها من أعظم أسباب النسيان «إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يَعْلَمُهُ بالخطيئة يعملها»^(٢) ولما سأل رجل مالكا فقال: يا أبا عبدالله هل يصلح لهذا الحفظ شيء قال: «إن كان يصلح له شيء فَتَرَكُ المعاصي»^(٣).

وبترك المعاصي، أرشد وكيع تلميذه محمد بن إدريس الشافعي فنظمها تلميذه فقال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يُؤْتاه عاصي^(٤)

فإذا كان بالغفلة يحدث النسيان قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. فكيف بالمعصية.

٤ - نشره بين الناس:

نشر العلم بين الناس من أعظم وسائل حفظه لكل من الناشر والسامع. ولهذا كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بكر بن حزم «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً»^(٥).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٥٢).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٦).

(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣١٢).

(٤) «ديوان الشافعي» (٦١).

(٥) البخاري مع الفتح (١/ ١٩٤)، كتاب «العلم» / باب كيف يقبض العلم.

فاحذر يا طالب العلم من البخل بنشره بين الناس؛ لخطورة البخل بذلك. قال ابن المبارك: «من بخل بالعلم ابتلي بثلاث إما موت يُذهِبُ علمه وإما يَنسَى وإما يلزم السلطان فيذهب علمه»^(١).

٥ - العمل بالعلم:

لما كان العلم يُطَلَّبُ للعمل صار ما بينهما من الترابط يجعل فقد أحدهما مؤثراً على الآخر. قال إبراهيم بن إسماعيل وعامر بن شراحيل الشعبي: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به»^(٢).

وقال سفيان الثوري: «يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»^(٣).

٦ - الصبر والمثابرة وعدم الاستعجال:

العلم بعيد قعره طويل مسلكه كثيرة ثمراته، ومن كانت هذه صفته فإنه يحتاج إلى صبر ومصابرة فاصبر على طلبه، وليكن أسوتك وقودتك ابن عباس رضي الله عنه، فعن عكرمة عن ابن عباس قال: «لما قُبِضَ رسول الله، قلت لرجل من الأنصار فلنسأل أصحاب رسول الله فإنهم اليوم كثير فقال: واعجباً لك يا ابن عباس أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله من فيهم؟ قال: فتركت ذلك فأقبلت أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث فإن كان ليبلغني عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه تَسْفِي الرِّيحَ عليّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فأتيتك فأقول لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث فعاش ذلك الأنصاري

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٣٩٨).

(٢) «الجامع» للخطيب (٢ / ٢٥٩)، و«جامع بيان العلم وفضله» (٢ / ١١).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (٢ / ١٠).

حتى رأني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني فقال: هذا الفتى كان أعقل مني»^(١).
ومن أقوال أهل العلم في الصبر على طلبه وعدم العجلة في ذلك قول الزهري: «لا تأخذ العلم جملةً فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي»^(٢).

وفي رواية عنه «مَنْ طلب العلم جملةً فاته جملةً وإنما يدرك العلم حديث وحديثان»^(٣).

ويروي زيد بن الحباب تربية الثوري طلابه على هذا المنهج فيقول: سمعت الثوري وسأله شيخ عن حديث فأجابه، ثم عن آخر فأجابه، ثم عن ثالث فأجابه، ثم سأله في الرابعة، فقال: إنما كنت أقرأ على الشيخ الحديثين والثلاثة لا أزيد حتى أعرف العلم والعمل بها، فألح الشيخ عليه فلم يجبه، فجلس الشيخ يبكي، فقال له سفيان: يا هذا تريد ما أخذته في أربعين سنة تأخذه في يوم واحد»^(٤).

٨- انتهاز الفرص والمبادرة إلى تحصيل العلم:

ينبغي أن يُبادرَ الشابُّ المسلم ويسارع إلى دراسة العلم وتعلمه وقت شبابه وفراغه منتهزاً كلَّ فرصة، قال ابن عباس: «مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجاً، فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقف له حتى فرغ، ثم سرت فقلت له: يا أمير

(١) «سنن الدرامي» (١/ ١٣٤)، كتاب «المقدمة» / باب الرحلة في طلب العلم واحتمال العناء فيه. رقم (٥٧٠). وقال البوصيري: «هذا إسناد رجاله ثقات». «إتحاف الخيرة المهرة» (٢/ ١٠١٢) رقم (٤١٥)،

تحقيق د. سليمان العريني.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٤).

(٣) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣٢).

(٤) «الجامع» للخطيب (١/ ٢٣١).

المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة وعائشة...»^(١). وفي لفظ: «مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن المتظاهرتين، فما أجد له موضعاً أسأله فيه، حتى خرج حاجباً، وصحبته حتى إذا كان بمر الظهران ذهب لحاجته، وقال: أدركني بإداوة من ماء، فلما قضى حاجته، ورجع أتيت به بالإداوة أصبها عليه، فرأيت موضعها، فقلت: يا أمير المؤمنين: من المرأتان المتظاهرتان على رسول الله ﷺ؟ فما قضيت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة رحمتهما»^(٢).

قال ابن شهاب: «العلم خزائنٌ وتفتحها المسألة»^(٣).

٩ - ملازمة أهل العلم الصالحين للتعلم منهم:

لا يحصل العلم إلا بملازمة أهله^(٤)، ولذلك كان أبو هريرة رحمته أكثر الصحابة حفظاً لحديث رسول الله ﷺ لملازمته له.

وهذه حقيقة مستقرة عند سلفنا الصالح قال أبو الدرداء رحمته: «مَنْ فَقِهَ الرَّجُلُ مِمَّ شَاءَ وَمَدْخَلُهُ وَمُخْرَجُهُ وَمَجْلِسُهُ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ»^(٥). وذلك لأنك لن تعدم من أهل العلم خيراً. قال البرقاني: «ما اجتمعت قطُّ مع حمزة بن محمد ففارقت إلا بفائدة علم»^(٦). وفي ترجمة ابن عبد الهادي: قال شيخه المزي: «ما التقيت به إلا واستفدت منه»، وقال الذهبي: «ما اجتمعت به قط إلا واستفدت منه»^(٧).

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٧)، كتاب «التفسير»/ باب تبتغي مرضاة أزواجك. رقم (٤٩١٣).

(٢) «جامع البيان» (٢٨/ ٦٥٧).

(٣) سنن الدارمي (١/ ١٣١)، «المقدمة»/ باب البلاغ عن النبي ﷺ، وتعليم السنن. رقم (١٥٤٩).

(٤) قال ابن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». مسلم (١/ ١٤) المقدمة.

(٥) «حلية الأولياء» (١/ ٢١١).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٤٣).

(٧) «الدرر الكامنة» (٥/ ٦٢).

وهذه الملازمة تفيد الطالب أمرين:

١- الأدب.

٢- العلم، وتصويب الخطأ في طلبه.

يوضح هذا توجيه شُعبَة لطالب العلم الذي قدم من المغرب كيف يطلب العلم.

قال هشام بن عبد الملك الطيالسي بينما أنا عند شعبة ذات يوم إذ جاءه رجل غريب فقال يا أبا بسطام، حدثني بحديث حماد عن إبراهيم أنه قال: (لأن يلبس الرجل في طلب العلم النعلين زمامهما من حديد) فلم يحدثه شعبة به، فقال: يا أبا بسطام أنا رجل من أهل المغرب أتيتك لهذا الحديث من مسيرة ستة أشهر، فقال: ألا تعجبون من هذا؟ جاء من مسيرة ستة أشهر يسألني عن حديث لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً. اكتبوا: حدثني قتادة عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا» ثم قال له: إذا سألت يا أخا أهل المغرب فسل عن مثل هذا وإلا فقد ذهبت رحلتك باطلاً»^(١).

ومما سطرته يراعة ابن القيم من نفيس قوله: «أعلى الهمم في طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد وعلم حدود المنزل، وأخس همم طلاب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل، وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس... وقل أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه»^(٢).

ويحسن التنبيه على خطأ التعلم من الكتب دون المشايخ؛ لأن الذي يقرأ الكتب دون الرجوع إلى أهل العلم قد يفهم أقوالهم على غير ما يريدون، ولذلك كان السلف لا يقبلون فتاواهم، قال ثور بن زيد: «لا يفتي الناس الصُحُفِيُّون» بل ولا حتى إقراؤهم للقرآن، قال

(١) الجامع للخطيب (٢/٢٢٦).

(٢) «الفوائد» (١٠٥).

أبو زرعة: «لا يفتي الناس صَحْفِي ولا يقرؤهم مِصْحَفِي»^(١)، ونهى أيوب السخيتاني شعبة عن الرواية عن خلاص بن عمرو البصري، فقال له: «لا ترو عن خلاص»، ثم علل نفيه بقوله: «فإنه صَحْفِي»^(٢). وكان الأوزاعي يقول: «كان هذا العلم شيئاً شريفاً إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه، ويتذاكرونه، فلما صار في الكتب ذهب نوره وصار إلى غير أهله»^(٣). وقال الشافعي: «من تفقه من بطون الكتب ضيَّع الأحكام»^(٤).

وقال سليمان بن موسى: «كانوا يقولون: لا تأخذوا العلم عن الصَّحْفِيين»^(٥).
«وهذا يكاد يكون محل إجماع كلمة من أهل العلم إلا من شذ»^(٦).

١٠ - التدرج في طلب العلم:

ينبغي أن يتعلَّم الأساسيات والأمور الواضحات، ثم ينتقل منها إلى الجزئيات والأمور الدقيقة، وبهذا رسم ابن عباس رضي الله عنه منهج طلب العلم، فقال: «الرباني هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»^(٧).

١١ - المداومة والاستمرار:

لابد لمن أراد العلم من مداومة الطلب والاستمرار عليه ما دامت الروح في الجسد. يجلي هذه الحقيقة أحمد بن حنبل عندما سئل إلى متى يكتب الرجل الحديث «قال حتى يموت»^(٨).

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٩٧).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٧٣).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٨).

(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (١٨٧).

(٥) «الآداب الشرعية» (٢/ ١٤٨).

(٦) «حلية طالب العلم» (٣١)، وللکلام بقية مفيدة، فراجعه إن شئت.

(٧) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٠)، كتاب «العلم» / باب العلم قبل القول والعمل.

(٨) «شرف الحديث» للخطيب (٦٨).

ولما رأى رجل مع أحمد بن حنبل محبرة قال له: يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين كأنه يقول -كفاك طلباً للعلم- فأجابه أحمد قائلاً: «معي المحبرة إلى المقبرة»^(١). ولما قال رجل لابن المبارك إلى متى تكتب العلم قال: «لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أكتبها بعد»^(٢). وقرأ ابن الجوزي هو وابنه يوسف القراءات العشر وهو في الثمانين^(٣).

(١) «الأداب الشرعية» (٢/ ٥٣-٥٤).

(٢) «الجرح والتعديل» (١/ ٢٨٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣٧٧).

وهو: معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

معرفة الله: لا بد للعبد من معرفة معبوده، وهو الله عز وجل وذلك بأمرين:

١ - معرفته تعالى بآياته الشرعية المنزلة على رسوله ﷺ.

٢ - معرفته تعالى بالنظر إلى آياته الكونية، وما فيها من عجائب الصنعة، قال تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]،
معرفة توجب محبته والخضوع له.

ومعرفة نبيه ﷺ فرض على كل مسلم معرفة تستلزم كمال الانقياد والطاعة والمتابعة.

(ومعرفة دين الإسلام): لكونه الطريق الموصل إلى رضوان الله وجنته، وهو الدين

الذي لا يقبل الله ديناً سواه ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وامتن به علينا ورضيه لنا ديناً فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

(بالأدلة): الأدلة جمع دليل والدليل هو الموصل إلى المطلوب. فلا يمكن الوصول إلى

المقصود إلا به، قال شيخ الإسلام: «من فارق الدليل ضلَّ السبيل»^(١).

ومن المعلوم أن ثمرة العلم العمل، قال الحسن البصري: «كان الرجل يطلب العلم

فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه ويده»^(٢).

ولهذا كان السلف يحاسبون أنفسهم على التقصير في العمل ويربون أنفسهم ومن

تحت أيديهم ومن يعلمونهم عليه ومن ذلك أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال: «إن أخوف ما

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٨٣).

(٢) «الزهد» لعبد الله بن المبارك (٢٦)، رقم (٧٩).

أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت فماذا عملت فيما علمت»^(١).
وفي لفظ: «إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول: ما عملت فيما علمت»^(٢).
أما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيحث عموم الأمة على محاسبة أنفسهم فيقول: «ما منكم من أحد إلا سيخلو به - أي ربه - كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، ثم يقول ابن آدم: ما غرّك بي، يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت، يا ابن آدم ما أجبت المرسلين؟»^(٣).
وذلك أن قيمة العلم تتجلى وتظهر بالعمل به، كما قال عبد الله بن المعتز: «علم بلا عمل كشجرة بلا ثمرة»^(٤).
ومن التربية على العمل بالعلم تربية أمّنا عائشة رضي الله عنها لأحد التابعين حينما جاءها يطلب العلم فعلمته حديثين أو ثلاثة ثم جاء من الغد فعلمته مثل ذلك، ثم جاء بعد ذلك فقالت له: «يا بني هل عملت بما علمت؟ قال: لا. قالت له ففيم تستكثر من حجج الله علينا وعليك».
وكما وجّه أبو قلابة أيوب السخيتاني، قائلاً: «إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة ولا يكن همك أن تحدث به الناس»^(٥).
وذلك أن العالم الذي لا يعمل لا ينتفع بعلمه، فهو كما يقول مالك بن دينار: «العالم الذي لا يعمل بعلمه بمنزلة الصفا إذا وقع عليه القطرُ زلق عنه»^(٦).

(١) المرجع السابق (١٤)، رقم (٣٩) و«حلية الأولياء» (٢١٣/١).

(٢) «الترغيب والترهيب» (١٢٦/١). وانظر بلفظ مقارب «جامع بيان العلم وفضله» (٣/٢).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (١٣) رقم (٣٨).

(٤) «اقتضاء العلم العمل» (١٧٤) رقم (٤٦).

(٥) «حلية الأولياء» (٢٨٢/٢) و«جامع بيان العلم وفضله» (١٠/٢).

(٦) «حلية الأولياء» (٣٧٢/٢).

ومن النماذج على ربط العمل بالعلم: ما قاله الإمام أحمد بن حنبل للمروزي: واصفًا حاله: «ما كتبت حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به حتى مرَّ بي الحديث أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا، فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت»^(١). وكذلك سفيان الثوري حيث يقول: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قط إلا عملت به ولو مرة»^(٢).

ولا بدّ من التوازن بين العلم والعمل فلا يطغى جانب على الآخر، قال سفيان الثوري مبيّنًا أهمية التوازن بين العلم والعمل عندما سئل: طلب العلم أحب إليك أو العمل؟ فقال: «إنما يراد العلم للعمل، لا تدع طلب العلم للعمل ولا تدع العمل لطلب العلم»^(٣).

وهذا ينقلنا إلى المسألة الثانية وهي:

(١) «الجامع للخطيب» (١/١٤٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/٢٤٢).

(٣) «حلية الأولياء» (٧/١٢).

(الثانية) : العمل به .

الضمير في (به) يعود إلى العلم، فيكون المقصود هو العمل بعلم الشرع المنزل على نبينا محمد ﷺ، فيختص بالعمل الصالح لأن «صلاح العبد في أن يعلم الحق ويعمل به، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه، ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو، ومن علمه وعمل به كان من أولي الأيدي عملاً ومن أولي الأبصار علماً»^(١).

والعمل لغة: العين والميم واللام أصل واحد صحيح، وهو عام في كل فعل يفعل^(٢). واصطلاحاً: هو فعل الأوامر تقرباً إلى الله وترك المناهي لأجل الله على سبيل الإسراع.

أما: فعل الأوامر تقرباً إلى الله؛ فذلك لأن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً لله وعلى هدي رسوله ﷺ، وأما ترك المناهي لأجل الله؛ فلا أنه لو ترك المحرم خوفاً من الناس لم يكن له بذلك أجر.

ومما يدل على اشتراط أن يكون الفعل والترك كلاهما لله: حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وفيه: «فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم. فقال رجل منهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيء يوماً^(٣)، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً^(٤) أو مالاً، فلبثت والقدرح على

(١) «جامع المسائل» لشيخ الإسلام. تحقيق عزيز شمس المجموعة الثانية (٨٥).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٤ / ١٤٥).

(٣) وفي لفظٍ للبخاري: «فنأى بي الشجر».

(٤) وفي لفظٍ للبخاري ومسلم: «والصبية يتضاغون عند قدمي حتى طلع الفجر».

يديّ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت: لا أحل لك^(١) أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتخرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه...»^(٢). والشاهد قولهم: «اللهم إن كنت فعلته ابتغاء وجهك».

أما على سبيل الإسراع فذلك لأن الله أمر به فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ولأن العمر قصير فلا يتحمل التسويف والتأخير وأيضاً فالموت يأتي بغتة.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠] والفرار هو أقصى درجات السرعة.

وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء وهو نوعان:

النوع الأول: فرار السعداء: وهو الفرار إلى الله ﷻ.

«قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] فِرُّوا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله، وقال آخرون اهربوا من عذاب

(١) وفي لفظ للبخاري: «يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه».

(٢) البخاري مع الفتح ٤/ ٤٤٩، كتاب الإجارة/ باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم ٤/ ٢٠٩٩، كتاب الرقاق/ باب قصة أصحاب الغار الثلاثة. رقم (٢٧٤٣).

الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة»^(١)، فكل شيء إذا خفته هربت منه إلا الله إذا خفته هربت إليه، فتفر من سخطه إلى رضاه ومن عذابه إلى رحمته، وتلوذُ به منه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: طلبت رسول الله ﷺ ذات ليلة في فراشي فلم أصبه فضربت بيدي على رأس الفراش فوقعت يدي على أخمص قدميه فإذا هو ساجد يقول: «أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(٢)، «وتحت (من) و(إلى) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد فإن الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراجه بالطلب والعبودية ولوازمها فهو متضمن لتوحيد الإلهية الذي اتفقت عليه دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد إنما أوجبه مشيئة الله وحده فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته، فإذا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شيء إلى شيء وجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه. ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(٣)، وقوله: «لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ»^{(٤)(٥)}.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٢) مسلم (١/ ٣٥٢) كتاب «الصلاة» / باب ما يقال في الركوع والسجود رقم (٤٨٦)، والنسائي (٨/ ٢٨٤)، كتاب «الاستعاذة»، الاستعاذة برضاء الله من سخط الله تعالى، واللفظ له.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) البخاري مع الفتح (١٠٩/ ١)، كتاب الدعوات / باب إذا بات طاهراً. رقم (٦٣١١) ومسلم (٤/ ٢٠٨٢)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» / باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع رقم (٢٧١٠).

(٥) «الرسالة التبوكية» (١٩-٢٠).

والفرار إلى الله قسمان:

الأول: فعل الواجبات والمستحبات:

ويدخل فيه كل ما أمر الله به أو أمر به رسوله ﷺ ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾ [البقرة: ٤٣].

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى...﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقول النبي ﷺ: «تصدقن؛ فإن أكثر كن حطب جهنم... قال: فجعلن يتصدقن من حليهن يلقين في ثوب بلال من أقرطتهن وخواتمهن»^(١).

الثاني: اجتناب المحرمات والمكروهات والمشتبهات:

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ...﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وحديث «السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَىٰ نَفْسِهَا قَالَ: إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ...»^(٢).

(١) مسلم (٢/٦٠٣-٦٠٤)، كتاب «صلاة العيدين». رقم (٨٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١٢/١١٢)، كتاب «الحدود»/باب فضل من ترك الفواحش. رقم (٦٨٠٦)،

ومسلم (٣/١٢١٩-١٢٢٠)، كتاب «المساقاة»/باب أخذ الحلال وترك المتشابه. رقم (١٥٩٩)،

واللفظ له.

وقال ﷺ: «الْحَلَالُ بَيْنَ وَبَيْنَ وَبَيْنَهَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ...»^(١).

قال ابن رجب: «فمن ترك ما يشبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك»^(٢).
ويضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة بترك المشتبهات ورعاً وخشية أن تكون حراماً.
فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنِّي لَا أَتَقَلَّبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِأَكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأَلْقِيهَا»^(٣).
قال عبدالله بن عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»^(٤).
النوع الثاني: فرار الأشقياء: وهو الفرار من الله إلى الشيطان، وذلك بارتكاب المعاصي والآثام^(٥).

بأي شيء يكون العمل؟

يكون العمل بالقلب واللسان والجوارح.

١ - القلب:

القلب ملك الأعضاء وهو أساس الأعمال فلا تصلح الأعمال ولا يكون لها وزن أو قبول إلا به قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٦).

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٢٦) كتاب «الإيمان» / باب فضل من استبرأ لدينه. رقم (٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠) كتاب «المساقاة» / باب أخذ الحلال وترك المتشابهات. رقم (١٥٩٩) واللفظ له.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٦٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٥/ ٨٦) كتاب «اللغة» / باب إذا وجد تمر في الطريق. رقم (٢٤٣٢).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ٤٥)، كتاب «الإيمان» / باب قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس، وإن أردت الاستزادة فراجع كتاب «الورع» للإمام أحمد.

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٦) سبق تخرجه.

ومما يدل على قدر القلب وعمله وأنه الأساس. أَنَّ المسلم إذا نوى وأراد أن يعمل ثم لم يستطع كان له مثل أجر العامل، فعن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «إِنَّ بالمدينة رجالاً ما سرُّهم مسيراً، ولا قَطَعْتُمْ وادياً، إلا كانوا معكم، حبَّسهم المرضُ». وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر»^(١). وفي رواية البخاري عن أنس: «حبسهم العذر»^(٢).

قال ابن حجر: «وفيه أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل»^(٣).

ومن أعمال القلب الخوف والرجاء والمحبة... وغيرها.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِأَلْحَنِاتٍ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَجَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا

خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُونَ بَجَلَالِي، الْيَوْمَ أَظْلُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(٤).

وعن أنس بن مالك: «أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله متى الساعة قائمة؟ قال: «وَيْلَكَ وَمَا أَعْدَدْتُ لَهَا» قال: ما أعددت لها إلا أني أحب الله ورسوله قال: «إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحَبَّيْتُ» فقلنا: ونحن كذلك، قال: «نَعَمْ» ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً. وفي رواية لمسلم: قال أنس: فأنا أحب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم»^(٥).

(١) مسلم (٣/١٥١٨)، كتاب «الإمارة» / باب ثواب من حبسه عن الغزو عذر. رقم (١٩١١).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/٤٦-٤٧)، كتاب «الجهاد» / باب من حبس العذر عن الغزو. رقم (٢٨٣٩).

(٣) «فتح الباري» (٦/٤٧).

(٤) مسلم (٤/١٩٨٨)، كتاب «البر والصلة» / باب فضل الحب في الله. رقم (٥٦٦).

(٥) البخاري مع الفتح (٨/٥٥٣)، كتاب «الأدب» / باب ما جاء في قول الرجل: «ويلك». رقم (٦١٦٧)،

ومسلم (٤/٢٠٣٢)، كتاب «البر والصلة» / باب المرء مع من أحب. رقم (٢٦٣٩).

٢- اللسان:

لا شك أن اللسان عمله عظيم فبه يدخل المسلم الإسلام وذلك بنطقه الشهادة وبه يخرج من الدنيا موحداً بنطقه الشهادة كذلك، قال ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١)، وفيما بين ذلك ذكر الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]. فمن أكثر منه سبق غيره كما قال ﷺ: «سبق المفردون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»^(٢).

ولذلك أرشد ﷺ من كثرت عليه شرائع الإسلام إلى الذكر، فقال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ ﷻ»^(٣).

ومن عمل اللسان التسبيح والتحميد والتكبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والموعظة بالتي هي أحسن وغير ذلك.

٣- الجوارح:

أعمال الجوارح كثيرة جداً كالصلاة والوضوء والصدقة والحج والعمرة والجهاد وإنكار المنكر باليد وغير ذلك من الأعمال، ومن أدلة ذلك: قوله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسَبِّغُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١) رواه أبو داود (٤٨٦/٣)، كتاب «الجنائز» / باب في التلقين. رقم (٣١١٦)، وأحمد (٢٣٣/٥)، والحاكم في «المستدرک» (٥٠٣/١)، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال ابن الملقن: «هذا حديث صحيح». «البدر المنير» (١٨٩/٥).

(٢) مسلم (٢٠٦٢/٤)، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» / باب الحث على ذكر الله تعالى. رقم (٢٦٧٦).

(٣) أحمد (١٩٠/٤)، وقال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الآداب الشرعية» (٤٠٠/١).

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(١).
وقال ﷺ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٢).

شروط قبول العمل:

لقبول العمل شرطان:

١ - الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] والخالص هو الذي لا تشوبه شائبة شرك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَبَنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

ومن السنة قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»^(٣). وقوله ﷺ في حديث زيد بن ثابت: «ثلاث خصال لا يغلّ عليهنّ قلبُ مسلمٍ أبدًا: إخلاص العمل لله»^(٤).

(١) مسلم (١/٢٠٩-٢١٠)، كتاب «الطهارة»/ باب الذكر المستحب عقب الوضوء. رقم (٢٣٤).

(٢) مسلم (٢/٩٨٣)، كتاب «الحج»/ باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة. رقم (١٣٤٩).

(٣) «سنن النسائي» (٦/٢٥)، كتاب الجهاد/ من غزا يلتمس الأجر والذكر.

قال ابن رجب: «وخرج النسائي بإسناد جيد..». «جامع العلوم والحكم» (١/٨١)، وقال ابن حجر: «إسناده جيد». «فتح الباري» (٦/٢٨)، وقال المنذري: «إسناده جيد». «الترغيب والترهيب» (١/٥٥).

(٤) أحمد (٥/١٨٣)، قال ابن عبد البر: «حديث ثابت». «التمهيد» (٢١/٢٧٥)، وقال المنذري: «وروي هذا الحديث عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خشينة، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وبعض أسانيدهم صحيح». «الترغيب والترهيب» (١/٥٤).

٢- المتابعة، لقوله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» أي: مردود عليه غير مقبول. وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١).

قال الفضيل بن عياض عند قوله تعالى: ﴿لِبَلَّوْكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المك: ٢]. قال أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً والخالص إذا كان لله والصواب أن يكون على السنة^(٢).
«فالعامل الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول والله تعالى إنما يتقبل من المتقين»^(٣).

أحب الأعمال إلى الله:

كان النبي ﷺ عمله ديمه فإذا عمل عملاً أثبتته. بهذا أجابت عائشة رضي الله عنها عندما سئلت: أي العمل كان أحب إلى النبي ﷺ قالت: الدائم^(٤).
وإلى هذا أرشد النبي ﷺ حيث قال: «أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ: مَا دَامَ، وَإِنْ قَلَّ»^(٥).

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٣٠١) كتاب «الصلح» / باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود. رقم (٢٦٩٧)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣) كتاب «الأقضية» / باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور. رقم (١٧١٨).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

(٣) «منهاج السنة» (٦/ ٢١٦).

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ١٦)، كتاب «التهجد» / باب من نام عن السحر. رقم (١١٣٢).

(٥) البخاري مع الفتح (١٠/ ٣١٤)، كتاب «اللباس» / باب الجلوس على الحصير. رقم (٥٨٦١).

س: العمل الصالح يؤهلنا لماذا؟

العمل الصالح يؤهلنا لرحمة الله تعالى قال ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ» قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»^(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] فالبراء للسبب أي أن العمل سبب للثواب والسبب لا يستقل بالحكم فهو محتاج إلى فضل من الله أكبر منه. فلا بد من العمل المأمور به ولا بد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله وشهود العبد لتقصيره ولفقره إلى فضل ربه وإحسان ربه إليه قال سفيان بن عيينة: «كانوا يقولون: ينجون من النار بالعفو ويدخلون الجنة بالرحمة ويتقاسمون المنازل بالأعمال»^(٢).

وقال عون بن عبد الله: «اليوم المضمار وغدا السباق والسبقة الجنة والغاية النار فبالعفو تنجون وبالرحمة تدخلون وبالأعمال تقتسمون المنازل»^(٣).

الأساليب في الحث على العمل:

كثرت أساليب الحث على العمل وتنوعت لاختلاف النفوس فنفس تتأثر بهذا الأسلوب وأخرى تتأثر بآخر، وثالثة بثالث ومن هذه الأساليب:

١ - الأوامر المباشرة: والأمر يقتضي الوجوب والوجوب ملزم بالفعل ومن الأوامر

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

٢ - الاستعاذة من العلم الذي لا ينفع: من لا يعمل بعلمه لم ينفعه، ولهذا كان النبي

ﷺ يستعيز من العلم الذي لا ينفع، فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن

(١) البخاري مع الفتح (١١ / ٢٩٤)، كتاب «الرقاق» / باب القصد والمداومة على العمل. رقم (٦٤٦٧).

(٢) انظر «جامع الرسائل» / المجموعة الأولى (١٤٥-١٥٢).

(٣) «حلية الأولياء» (٤ / ٢٤٦).

قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها»^(١). وفي هذا تنفير شديد من علم لا يحرك صاحبه إلى العمل بقلبه وجوارحه.

٣- كثرة تكرار الاستعاذة من طريق الذين يعلمون ولا يعملون:

نظراً لشدة قبح حال العالم الذي لا يعمل بعلمه وسوء فعله فإن الله تعالى بعد أن ذكر صراط عباده المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذين أتبعوا العلم بالعمل، أمر المؤمنين أن يستعينوا من صراط المغضوب عليهم الذين معهم علم ولم يعملوا به، وهم اليهود ومن شابههم من علماء السوء فقال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ^(١) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿[الفاتحة: ٦-٧].

فهذه الاستعاذة يكررها المسلم أكثر من سبع عشرة مرة في اليوم واللييلة فلا بد أن تُوجد في القلب الحي الحرص على العمل.

٤- الحث على التعاون على الطاعة:

الاستمرار على الطاعة ليس بالأمر السهل؛ لأن النفس تنشط تارة وتفتت أخرى، ولأجل ذلك أمرنا بالتعاون على الطاعة قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]. أي ليعين بعضكم بعضاً على فعل الأعمال الصالحة وما يقربكم إلى الله؛ لأن التعاون على الطاعة من أعظم ما يعين على المداومة عليها.

ولأهمية التعاون على الطاعة وضع النبي ﷺ برنامجاً للتعاون داخل الأسرة؛ لأنها هي أصل المجتمع فقال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى ثُمَّ أَيقِظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ ثُمَّ أَيقِظَتْ زَوْجَهَا فَصَلَّى فَإِنْ

(١) مسلم (٤/ ٢٠٨٨) كتاب «الذكر» / باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. رقم (٢٧٧٢).

أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءُ»^(١).

٥ - ضرب المثل في مدح العاملين وتقبيح العاصين:

للأمثال أهمية كبرى في تقريب المعلومات وتأثيرها على القلوب، ولأجل ذلك حثنا ربنا على تدبرها وتعقلها، وذلك بالثناء على من يعقلها، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُ الْأَمْثَلُ نُضْرِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي وصفهم بالعالمين أكبر مدح وثناء عليهم.

ومن أمثلة مدح العاملين قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَانَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] فهي إن لم يصبها الوابل الغزير حصل لها طل كاف فليس عليها خطر أن تموت وهكذا المنفق على أجر عظيم في جميع الأحوال. فمن عقل هذا المثل حرص على فعل الطاعات والتزود منها.

ومن أمثلة تقبيح العاصين:

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ١٧٥ ﴿لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

«شبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتبع هواه، وأثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا وأخسها نفسًا - فهمته لا تتعدى بطنه - وأشدها

(١) النسائي (٣/ ٢٠٥) كتاب «قيام الليل وتطوع النهار» / باب الترغيب في قيام الليل. وأبو داود

(٢/ ٧٣)، كتاب «الصلاة» باب قيام الليل. رقم (١٣٠٨) وصحح إسناده النووي. «رياض الصالحين»

(٤٠٢) رقم (١١٩١).

شرها وحرصا، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضاها بالدنيا، والجيف القدرة والمروحة أحب إليه من اللحم الطري. وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبا يتناول معه منها شيئا إلا هرب عليه لحرصه وبخله وشره.

وفي تشبيه من أثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في لهثه سر بديع وهو أن هذا الذي حالته ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهثه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله تعالى والدار الآخرة فهو شديد اللفف عليها ولهفه نظير لهث الكلب الدائم حال إزعاجه وتركه^(١).

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْبَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمَلُوا بِمِثْلِ الْأَحْمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا يَبْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

«فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته»^(٢). فمن عقل هذين المثليين نفر نفورا عظيما من معصية الله مستشعرا أهمية الطاعة والحرص عليها.

٦ - بيان ثمرات العمل الصالح:

معرفة ثمرة العمل من أعظم ما يحرك القلوب ويرغبها في أدائه، ولذلك بين الله ثمارا كثيرة للعمل الصالح في الدنيا والآخرة ومن هذه الثمار:

في الدنيا:

(أ) الحياة الطيبة: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] «وذلك بطمأنينة قلبه،

(١) «الأمثال» لابن القيم (٢١٥-٢١٦).

(٢) «المرجع السابق» (٢١٤).

وسكون نفسه وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً من حيث لا يحتسب»^(١).

(ب) محبة الله له:

تشرئب النفوس إلى محبة الله ﷻ، والطريق إليها هو التقرب إلى الله بعمل الصالحات. قال ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى أنه قال: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»^(٢).

(ج) قذف المحبة له في قلوب الناس: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] فإذا أحبه الله قذف محبته في قلوب الخلق وجعل له القبول في الأرض كما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيلُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحَبُّهُ فَيُحِبُّهُ جَبْرِيلُ فَيُنَادِي جَبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّوه فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٣).

(د) النجاة من العذاب:

لا ينجي من سخط الله وعذابه إلا طاعته بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والآيات في هذا كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَآءِ أَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٠١).

(٢) البخاري مع الفتح (١١ / ٣٤١)، كتاب «الرقاق» / باب التواضع. رقم (٦٥٠٢).

(٣) البخاري مع الفتح (١٠ / ٤٦١)، كتاب «الأدب» / باب المقة من الله تعالى. رقم (٦٠٤٠).

وقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] ولهذا استقر في نفوس الصحابة أن المعصية سبب العذاب وأن التوبة سبب النجاة، فعندما زلزلت الأرض على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى اصطفت السرر خطب الناس فقال: «عجلتم لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم»^(١). وفي رواية قالت صفية: «زلزلت المدينة على عهد عمر، حتى اصطكت السرر، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما أسرع ما أحدثتم والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم»^(٢).

(هـ) زيادة الإيمان:

أكد الله هذه الحقيقة في آي كثيرة من كتابه، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، وقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

(و) رضى الله عنهم:

رضى الله عن العبد مرتبة عليا لا ينالها إلا الموفقون، فشعوره برضى الله عنه عند أدائه العمل يجعله حاثًا الخطي، ومن ذلك: بيعة الصحابة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي قال الله تعالى عنها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وحد الرب على النعم. قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فِيحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فِيحْمَدُهُ عَلَيْهَا»^(٣).

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٣) و«السنن الكبرى» للبيهقي (٢/ ٣٤٢).

(٢) «التمهيد» (٣/ ٣١٨).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٩٥)، كتاب «الذكر» / باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب. رقم (٢٧٣٤).

في الآخرة:

أ- عند الموت بسهولة خروج الروح:

وذلك أنه «إذا كان العبد المؤمن في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، ثم يجلسوا منه مد البصر حتى يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقا...»^(١).

ب- في القبر:

أما في القبر؛ فإنه «يوسع عليه قبره حتى يكون مدَّ البصر ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: وأنت فبشرك الله بالخير من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير فيقول: أنا عمك الصالح...»^(٢).

ج- الأمن في موقف القيامة:

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا يَحْتَسِبُ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

(١) أحمد (٢٨٧/٤) وابن منده في «الإيمان» (٣/ ٩٤١-٩٤٤) وقال: «هذا إسناد متصل مشهور، رواه جماعة عن البراء بن عازب... وهو ثابت على رسم الجماعة، وروي هذا الحديث عن جابر، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأنس بن مالك، وعائشة رضي الله عنهن»، والبيهقي في «الجامع لشعب الإيمان» (٣١٦/٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وقال شيخ الإسلام: «وهو حديث حسن ثابت». «مجموع الفتاوى» (٢٩٠/٤).

(٢) سبق من حديث البراء.

د- الجنة:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]. قال حذيفة رضي الله عنه في إحدى خطبه في المدائن بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: «اقتربت الساعة، وانشق القمر، ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بالفراق، ألا وإن المضمار اليوم، وإن السباق غداً، وإن الغاية النار، وإن السابق من سبق إلى الجنة»^(١).

(٧) حفظ الأعمال:

إذا تذكر المسلم أن عمله محفوظ له لن يضيع منه حتى مثاقيل الذر حرص على الجِدِّ فيه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

(٨) عقد المقارنة بين ثواب المطيعين وعقاب العاصين:

استنكر الله تسوية المطيع بالعاصي والصالح المصلح المتقي بالمفسد فقال: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْجُرِمِينَ﴾ ٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الفلم: ٣٥-٣٦]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فلما جمع الله الضدين في موضع واحد تبين الفرق بينهما، والفرق بين نتيجة كل منهما كما يقال: وبضدها تتميز الأشياء.

(٩) السؤال في موقف عصيب:

في الموقف المخيف الذي تبلغ فيه القلوب الحناجر يأتي السؤال عن العمل فهل أعددنا الجواب؟ عن أبي برزة الأسلمي، عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧٨) رقم (١٦٦٤٨).

حتى يُسأل: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل به»^(١). فمن استشعر السؤال يوم القيامة أوجب له العمل في الدنيا لعله ينجو.

(١٠) بقاء بعض الأعمال مستمرة بعد الموت:

كون ثواب العمل لا ينقطع عن الإنسان بعد موته يجعله حريصاً على فعله راجياً استمرار ثوابه، ومن ذلك قوله ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

فينبغي أن يضرب المسلم بسهم في كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة إن استطاع وإلا فواحد منها.

خطورة التفريط وإضاعة الوقت:

الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، قال الله عنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فمن الناس من يوفق فيستغل وقته بما ينفع فيفرح إذا وجد الصالحات في صحيفته غداً، ومن الناس من يضيع ويفرط فيتحسر ويندم على التفريط، ولهذا حذر الله نبيه ﷺ من طاعة المفرطين فقال: ﴿وَلَا تُطِيعَنَّ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] قال أبو الجوزاء «فرطاً أي تسويفاً»^(٣).

وقال تعالى مبيناً خطورة التسويف حتى الموت، ومن ثم القيامة، فيندم حين لا ينفعه الندم ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥] قال ابن عباس رحمهما الله «يعني الأمل يقول الإنسان:

(١) الترمذي (٦١٢/٤) كتاب «صفة القيامة»/ باب في القيامة. رقم (٢٤١٧)، وقال: «حديث حسن صحيح». وقال ابن مفلح: «إسناده جيد». «الآداب الشرعية» (٣٩/٢).

(٢) مسلم (١٢٥٥/٣) كتاب «الوصية»/ باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته. رقم (١٦٣١).

(٣) «اقتضاء العلم بالعمل» (٢٢٥) رقم (١٩٧).

أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة»^(١) وقال «أي سوف أتوب»^(٢) وبمثلله قال سعيد بن جبير^(٣).

وحذر النبي ﷺ من التسويف وتأخير العمل فقال فيما يرويه عنه عبدالله بن عمر رضي الله عنه أنه أخذ بمنكبه فقال له: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وكان ابن عمر يقول: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبْحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صَحَّتِكَ لِمَرْضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»^(٤).

ومعنى (أو) أي بل. «فشبه النبي ﷺ السالك الناسك بالغريب الذي ليس له مسكن يؤويه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لحظة ومن ثم عقبه بقوله «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصُّبْحَ» وبقوله «وَعَدَ نَفْسِكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ» والمعنى استمر سائرًا ولا تفتر فإنك إن قصرت انقطعت وهلكت في تلك الأودية»^(٥).

وكان لهذه التربية بالغ الأثر على سلفنا الصالح. فحفظوا أوقاتهم وربوا من تحت أيديهم على حفظه.

(١) «جامع البيان» (١٧٧/٢٩).

(٢) «المستدرک» للحاكم (٥٠٩/٢).

(٣) «الزهد» لوكيع (٥٢٦/٢) رقم (٢٦٤)، و«جامع البيان» (١٧٧/٢٩).

(٤) البخاري مع الفتح (٢٣٣/١١)، كتاب «الرقاق»/ باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل. رقم (٦٤١٦).

(٥) «فتح الباري» (٢٣٤/١١).

ومن الآثار الواردة عنهم في ذلك:

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدةٍ منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل»^(١).

وهذا ثمامة بن بجاد السلمي -وكانت له صحبة- يوصي قومه شفقة عليهم لئلا تضيع أوقاتهم فيقول: «أي قوم أنذرتكم سوف أعمل، سوف أصلي، سوف أصوم»^(٢).

وعند الموت تتضح الحقائق وتنكشف المغيبات ويعرف الإنسان قيمة الوقت والغبن العظيم في التسويف. فهذا هو رجل من عبد القيس يوصي -وهو في مرض موته- بعض أصحابه فيقول: «احذروا سوف»^(٣) وفي رواية «أنذرتكم سوف»^(٤).

وأما الحسن البصري فيحذر من التسويف مؤكداً ذلك بقصر العمر ومفاجأة الموت فيقول «إياك والتسويف فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غدٌ لك فكس في غدٍ كما كسَ في اليوم وإلا يكن لك لم تندم على ما فرطت في اليوم»^(٥).

ويؤكد هذه الحقيقة عون بن عبد الله فيقول: «كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ومنتظر غداً لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره»^(٦).

والتسويف من جند إبليس يحارب به الناس ليصدهم عن طاعة ربهم كما روى قتادة

(١) البخاري مع الفتح (١١ / ٢٣٥)، كتاب «الرقاق» / باب في الأمل وطوله.

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٥) رقم (١٢)، وانظر «الزهد» لو كيع (٢ / ٥٢٦).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» (٢٢٥) رقم (١٢٨).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٥)، رقم (١١).

(٥) «الزهد» لابن المبارك (٤) رقم (٨)، و«اقتضاء العلم العمل» (٢٢٦) رقم (١٩٩).

(٦) «الزهد» لابن المبارك (٤) رقم (١٠).

عن أبي الجلد قال: «قرأت في بعض الكتب «إن سوف من جند إبليس»^(١). وفي لفظ: «وجدت التسويف جنداً من جند إبليس قد أهلك خلقاً من خلق الله كثيراً»^(٢).

ومن ابتلي بالتفريط والتسويف عوقب بالجدل الذي يحطم حسناته، ويضيع عليه وقته. قال معروف الكرخي: «إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل، وإذا أراد الله بعبد شراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل»^(٣).

وقال الأوزاعي: «إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم الجدل ومنعهم العمل»^(٤).

فعلينا أن نحذر من التسويف ونسارع في طلب العلم والعمل به وتعليم الناس الخير قبل الانشغال أو نهاية العمر.

(١) «اقتضاء العلم العمل» (٢٢٦) رقم (٢٠٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٦ / ٥٥).

(٣) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢ / ٥١٠) رقم (٥٨٩) تحقيق رضا نعيان و«شعب الإيمان» للبيهقي

(٤ / ٤٣٧) رقم (١٦٩٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٧ / ١٢١).

(الثالثة) : الدعوة إليه .

.....

الدعوة من المسائل الثلاث المرتبطة عند سلف الأمة لا تنفك إحداها عن الأخرى كما يجلي ذلك الفضيل بن عياض مؤكداً ترابطها وفضلها وفضل من قامت به هذه الثلاث فيقول: «عالم عامل معلم يدعى كبيراً في ملكوت السموات»^(١).

وليس التأكيد على ترابطها وفضلها خاصاً بالفضيل بن عياض بل السلف كلهم مجمعون على ذلك كما نقله ابن القيم فقال: «فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً، حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعمل وعلم، فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السموات»^(٢).

ومن قرر هذه الحقيقة من الأئمة عبدالله بن المبارك وعبدالرحمن بن مهدي، ومحمد ابن النضر، وسفيان الثوري وعبد الملك بن قريش الأصمعي والضحاك بن مزاحم حيث قالوا: «أول العلم النية ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر»^(٣).

ولما سئل مالك لم طلبت العلم؟

أجاب بقوله: «لأنني الجهل عن نفسي ثم لأعمل به، ثم لأنني الجهل عن غيري».

الدعوة لغة: مأخوذة من الدعاء، وهو: النداء والطلب أي النداء لحث الناس على عمل ما.

(١) «سنن الترمذي» (٥٠ / ٥).

(٢) «زاد المعاد» (١٠ / ٣).

(٣) «حلية الأولياء» (٣٦٢ / ٦)، «جامع بيان العلم وفضله» (١١٨ / ١)، «الجامع» للخطيب (١٩٤ / ١)،

و«تاريخ بغداد» (٦ / ٦).

واصطلاحًا: إبلاغ شرع الله للناس وترغيبهم فيه وتحذيرهم من ارتكاب نواهيهِ باللسان والأركان.

وعرفها شيخ الإسلام فقال: «الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا»^(١).

وأفردها المؤلف مع أنها من صميم العمل لأمرين:

(١) - غفلة الناس عنها وظنهم أنها لا تدخل في صميم العمل، وأن من لازم العبادة بخاصة نفسه فقد أدى العبادة، ولا يضره بعد ذلك من ضل وزاغ عن الهدى، وربما استدلوا على هذا الظن الخاطئ بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٠٥].

والخطأ في بيان معناها ليس جديدًا ولذلك اضطر أبو بكر رحمته الله إلى تصحيح هذا المفهوم كما روى ذلك قيس قائلًا: قام أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»^(٢).

قال أبو العالية قرأت هذه الآية على ابن مسعود رضي الله عنه ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ فقال ابن مسعود: «ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم. فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم»^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥٧/١٥) وانظر نفس الموضع فقد ذكر ماذا يتضمن التعريف.

(٢) أحمد (٢/١)، وابن ماجه (١٣٢٧/٢)، كتاب «الفتن» / باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٤٠٠٥)، قال شيخ الإسلام: «وفي الحديث الثابت...» ثم ذكر هذا الحديث. «مجموع الفتاوى» (٣٠٧/٢٨).

(٣) «جامع البيان» (٩٤/٧).

قال شيخ الإسلام معلقاً: فابن مسعود قد ذكر في هذا الكلام تأويل الأمر وتأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر وما ذكر من باب الحساب والقيامة من باب الخبر^(١). يعني قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

وقال في موضع آخر «وقد غلط فيها فريقان من الناس، فريق يترك ما يجب من الأمر والنهي تأويلاً لهذه الآية، كما قال أبو بكر الصديق: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ تضعونها على غير ما وضعها الله...»^{(٢)(٣)}.

(٢) أهمية الدعوة:

للدعوة أهمية كبرى فيها قوام الأمة وحياتها ولا يمكن أن تحافظ الأمة على دينها وهويتها إلا بالدعوة إلى الله، وبدونها تهوي الأمة إلى الحضيض. فتنتقض عرى الدين عروة عروة حتى لا يبقى منه شيء، فتعود الجاهلية مرة أخرى. ومما يدل على أهميتها: أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها.

ولئن كانت الدعوة إلى الله مهمة في أزمنة مضت فإن أهميتها تزداد في هذه الأيام حيث إن أهل الضلال من الكفار وأذنانهم من المنافقين قد شنوا هجمة شرسة منظمة ضد الإسلام وأهله ليستأصلوه طامعين أن يطفئوا نور الله. والله متم نوره ولو كره الكافرون.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧ / ٣٧١-٣٧٢).

(٢) أحمد (٩ / ١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ١٢٧).

حكم الدعوة إلى الله:

«الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه - أي: محمداً ﷺ - وهم أمته يدعون إلى الله كما دعا إلى الله... فمجموع أمته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله... وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم لكنها فرض على الكفاية... فكلُّ ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به وكلُّ ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله النهي عنه»^(١).

فهي واجبة لأمرين:

(١) الأمر: والأمر يقتضي الوجوب وقد تكاثرت الأدلة من الكتاب والسنة على الأمر بالدعوة إلى الله فجاءت بالأمر المباشر للرسول ﷺ بنفسه كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

وكقوله: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. «فهذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها وهو التبليغ لما أنزل الله إليه ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأقوال والأحكام الشرعية»^(٢).

فبلغ النبي ﷺ البلاغ المبين وشهد له الصحابة بذلك، كما في حجة الوداع، حينما قال: «ألا هل بلغت، اللهم اشهد»، واستشهد أصحابه، فقالوا: نشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة.. وشهدت له الأمة كلها بالبلاغ قالت عائشة رضي الله عنها: «من

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٤-١٦٧) بشيء من التقديم والتأخير.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٠١).

حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئاً من الوحي فلا تصدقه، إن الله تعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١)، ولا يجوز أن تترك الدعوة إلى الله حتى وإن وجدت المعوقات، قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفصل: ٨٧].

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمرٌ لأمرته ومع ذلك فقد أمرهم الله أمراً عاماً، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال الزجاج: «ومعنى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ - والله أعلم -: ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف»^(٢).

وقال مكي بن أبي طالب الأندلسي: «(من) هنا لبيان الجنس، والمعنى: ولتكونوا كلكم أمة مستقيمة يدعون إلى الخير... ومثله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، فلم يأمرهم باجتنب بعض الأوثان، وإنما المعنى فاجتنبوا الأوثان؛ فإنها رجز، فكَذلك لم يأمر بعض المؤمنين بالدعاء إلى الخير دون بعض، إنما أمرهم كلهم، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]^(٣).

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣)، كتاب «التوحيد» باب قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ رقم (٧٥٣١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤٥٢).

(٣) «الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١٠٨٨)، وقد رجحه السمعاني في «تفسيره» (١/ ٣٤٧)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٢/ ٨٥).

«وفي مطلق قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ دليل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض يقوم به المسلم»^(١)، وذلك أن اللام في قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ﴾ لام الأمر، والأمر يقتضي الوجوب، وعطف الأمر بالمعروف على الدعوة من باب عطف المتماثلين «فالدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعى إليه وذلك هو الأمر به إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به واستدعاء له، ودعاء إليه، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله، وسبيله تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر»^(٢).

وأمر النبي ﷺ أمته بالتبليغ فقال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»^(٣) وقال: «أَلَا لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ»^(٤) وقال النبي ﷺ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ فَعَلَّمُوهُمْ»^(٥) وفي حديث وفد عبد القيس وفي آخره قال: «أَحْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ»^(٦).

«فقال في الحديث «ولو آية» أي واحدة ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ولو قلَّ»^(٧).

ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم أهمية الدعوة إلى دين الله فخرجوا إلى أصقاع الأرض وهمهم نشر دين الله تعالى، إما بأمره كما بعث النبي ﷺ خاله حراماً إلى قوم فقال لهم:

(١) «أحكام القرآن» (١/ ٢٩٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٦٦-١٦٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٦) كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٦١).

(٤) البخاري مع الفتح (١/ ١٩٩) كتاب «العلم» / باب ليلغ الشاهد الغائب. رقم (١٠٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٢/ ١١١) كتاب «الأذان» / باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة. رقم (٦٣١).

(٦) البخاري مع الفتح (١/ ١٨٣-١٨٤) كتاب «العلم» / باب تحريض النبي ﷺ على أن يحفظوا الإيمان والعلم وينخبروا من وراءهم. رقم (٨٧٤).

(٧) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٨).

أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فجعل يحدثهم^(١).

وكما بعث أبا موسى الأشعري ومعاذاً إلى اليمن، قال: «وبعث كل واحد منهما على مخلاف، قال: واليمن مخلافان...»^(٢).

و بعث أبا موسى الأشعري إلى قومه^(٣).

وبعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد والبراء بن مالك، قال البراء بن مالك: «بعثنا رسول الله مع خالد بن الوليد إلى اليمن. قال: ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه»^(٤).

وإما باجتهاد منهم، كخروج عبد الله بن مسعود إلى الكوفة، ومعاذ إلى الشام، وذلك لأنهم يستشعرون مسؤولية التبليغ، قال أنس بن مالك: «بلغني أن العلماء يُسألون يوم القيامة كما تسأل الأنبياء يعني عن تبليغه»^(٥).

ومن ثم انغرس حبُّ الدعوة والتعليم فيمن بعدهم، وصاروا يربون تلاميذهم على ذلك، قال ابن القاسم: «كنا إذا ودّعنا مالكا يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه»^(٦).

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣) كتاب «التوحيد» / باب قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٠)، كتاب «المغازي» / باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع. رقم (٤٣٤١، ٤٣٤٢).

(٣) المرجع السابق (٨/ ٦٣). رقم (٤٣٤٦).

(٤) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥)، «كتاب المغازي» / باب بعث علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع. رقم (٤٣٤٩).

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٣).

(٦) المرجع السابق.

(٢) لأنها ضرورة:

أي لا يمكن أن تسعد المجتمعات وتمسك بالدين وتنهج النهج القويم إلا بالدعوة إلى الله، وتتجلى ضرورتها بأمرين:

أ- إقامة الحجّة على الناس:

بالدعوة إلى الله تقوم الحجّة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

«فأخبر في كتابه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة»^(١). فمهمة الرسل إذا هي البشارة والإنذار؛ لئلا يحتج الناس يوم القيامة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

«دلت هذه الآية على أنه لا حجة لهم بعد الرسل بحال»^(٢).

قال شيخ الإسلام «تقرير الحجّة في القرآن بالرسول كثير» وذكر الآيتين السابقتين وذكر معهما خمس آيات في نفس المعنى^(٣).

ب- حماية المجتمع من الفساد والعقوبة:

يصور النبي ﷺ هذه المعركة الدائرة بين المفسدين وبين الدعاة إلى الله فيقول: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء: مَرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا: هلكوا جميعاً، وإن

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/١٨٦).

(٢) المرجع السابق (١٩/٦٦).

(٣) المرجع السابق (٢/٣).

أخذوا على أيديهم: نجوا ونجوا جميعاً»^(١). فالمصلحون في الأمة هم صهام الأمان لها وسبب نجاتها من الإهلاك العام فإذا فقدوا حلّ بها عذاب الله كلها، وإن كان فيها صالحون، ويدل لذلك جواب النبي ﷺ لزينب بنت جحش رضي الله عنها عندما سألته: أنهلك وفينا الصالحون، قال: «نعم إذا كثر الخبث»^(٢)، والخبث هو الفسق والفجور^(٣).

أقسام الدعاة:

ينقسم الدعاة إلى قسمين:

الأول: دعاة إلى الهدى والصراط المستقيم، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأتباعهم من أهل العلم والبصيرة، كإبراهيم عليه السلام، فإنه دعا أباه إلى الصراط المستقيم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، وكذلك أثبت الله الدعوة إلى الصراط المستقيم لنبية محمد ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [الشورى: ٥٢-٥٣].

بل أثبت له الدعوة بشرطها، فقال سبحانه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] «فأخبر الله أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع»^(٤)، بل قد قال الأنبياء أجمع لأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

واستن بهم أتباعهم فدعوا الناس إلى الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَقَوَّمُوا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ١٣٢) كتاب «الشركة»/ باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه. رقم (٢٤٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٨١) كتاب «الأنبياء»/ باب قصة يأجوج ومأجوج. رقم (٣٣٤٦).

(٣) «شرح السنة» (١٤/ ٣٩٨).

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٨٣٤-٨٣٥).

سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿غافر: ٣٨﴾.

وتشمل الدعوة إلى الهدى ثلاثة أمور:

١ - تأسيس مجتمع إسلامي:

حين يكون المجتمع جاهلياً فلا بد من تأسيس مجتمع إسلامي يطهر الأرض من رجس الشرك والوثنية، ويعين المسلمين على التمسك بدينهم وأقوى نموذج لذلك ما فعله ﷺ حيث أسس المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية في المدينة النبوية، ومن ثم اتسع إلى أطراف الأرض.

٢ - إصلاح انحراف المجتمعات الإسلامية:

كلما انحرف الناس وابتعدوا عن الدين هياً الله لهذه الأمة من يجدد ما اندرس من دينها فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»^(١).

٣ - المحافظة على سلامة المجتمعات:

قد تكون المجتمعات صالحة ولكن مهما كان صلاحها فهي محتاجة إلى الموعظة والتذكير فلقد كان النبي ﷺ يذكر أصحابه ويعظهم موعظة توجل منها القلوب وتذرف منها العيون وكذلك ابن عباس وابن مسعود يعظان الصحابة والتابعين كل خميس، وذلك

(١) أبو داود (٤/ ٤٨٠) كتاب «الملاحم» / باب ما يذكر في قرن المائة. رقم (٤٢٩١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦/ ٢٢٣). رقم (٦٥٢٧)، قال السخاوي «سنده صحيح ورجاله كلهم ثقات... وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث» «المقاصد الحسنة» (١٢٢) رقم (٢٣٨)، وقال السيوطي «اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح» «النتبئة» (٢)، وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «إسناده صحيح». «تيسير العزيز الحميد» (٢٤)، وقال الألباني «والسند صحيح ورجاله ثقات رجال مسلم» «السلسلة الصحيحة» (٢/ ١٥٠) رقم (٥٩٩).

لأجل الحفاظ على صلاح المجتمعات؛ لأنه كلما ازداد الإيمان في القلوب صلح الأفراد وإذا صلح الأفراد صلحت المجتمعات.

الثاني: دعاة إلى الضلالة:

وهؤلاء الدعاة قدوتهم وإمامهم إبليس، قال تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]، وقال: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢]، ومن أئمتهم فرعون، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى الْتَارِ ﴾ [القصص: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ [هود: ٩٨].

فهم أئمة يقتدى بهم ويسار خلفهم إلى دار الشقاء والعذاب والجحيم والأغلال. ولقد حذرنا منهم نبينا ﷺ لئلا نقع في شباكهم كما في حديث حذيفة عندما سأل النبي ﷺ عن الشر وفيه: «قلت فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نَعَمْ دُعَاءُ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قلت: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»^(١).

فضل الدعوة إلى الله:

يكفي في فضل الدعوة إلى الله أنها مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام. كيف وقد رتب الله عليها الأجر العظيم المستمر قال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً»^(٢).

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٦١٥-٦١٦) كتاب «المناقب» / باب علامات النبوة في الإسلام. رقم (٣٦٠٦)، ومسلم (٣/ ١٤٧٥-١٤٧٦)، كتاب «الإمارة» / باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن. رقم (١٨٤٧).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٦٠) كتاب «العلم» / باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة. رقم (٢٦٧٤).

فربما كتب لك أجر القائم الصائم المجاهد المرابط المتصدق وأنت على فراشك أو في قبرك؛ لأنهم اهتدوا على يديك.

ولفضل الدعوة إلى الله ولعظم نفع الدعاة للمجتمع دعا لهم النبي ﷺ بنصرة وجوهمهم فقال: «نَصَّرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتي فَبَلَّغَهَا»^(١). نصرة في الدنيا والآخرة.

واستحقوا هذه الدعوة لأنهم جملوا باطنهم بالإخلاص وظاهرهم بالطاعة والعبادة، بل زادوا فجملوا عباد الله، وذلك بدعوتهم إلى الاستقامة والعبادة، فناسب أن يدعى لهم بهذه الدعوة المباركة، قال تعالى مبينًا جزاءهم يوم القيامة ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شِرْذَلِكِ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أي أكرمهم فأعطاهم نصرة في وجوهمهم وسرورًا في قلوبهم فجمع الله لهم بين نعيم الباطن والظاهر، ولأجل ذلك صارت مرتبة الدعوة بعد مرتبة النبوة، قال ابن المبارك: «لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم»^(٢).

كيفية الدعوة:

لكيفية الدعوة ملامح عامة تدرج تحتها جزئيات كثيرة أكتفي بذكر الملامح العامة، وهي:

١ - البداية بالأهم ثم المهم:

فأهم أمر هو التوحيد ولأهميته بدأت به الرسل دعوتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وجعل النبي ﷺ البداية به منهجًا للداعية كما في قول النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه لما بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله - وفي

(١) سبق تخريجه.

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٣٨).

رواية - أول ما تدعوهم إليه عبادة الله - وفي رواية - فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإذا عرفوا ذلك؛ فأخبرهم: أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم...»^(١).

٢ - مخاطبة الناس كلُّ بما يناسبه:

الناس من حيث قبولهم للحق وعدمه على أحوال أربع، هي:

أ- القابل للحق.

ب- من كان عنده نوع تلكؤ وتأخر.

ج- المعارض المجادل.

د- المعارض الظالم.

ولما كانوا كذلك اختلف خطاب كل واحد منهم عن الآخر، فصار القابل للحق يدعى بالحكمة، ومن كان عنده نوع تلكؤ وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، والمعارض المجادل يجادل بالتي هي أحسن، والمعارض الظالم يجادل بالغلظة والشدة.

قال ابن القيم: «جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يُدعى بطريق الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يُدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة»^(٢).

وذلك أنه يشتد افتقار العبد إلى العظة، وهي الترغيب والترهيب، إذا ضعفت إنابته وتذكره وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهي.

(١) البخاري مع الفتح (٣٤٧ / ١٣)، كتاب «التوحيد» / باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك

وتعالى. رقم (٧٣٧٢)، ومسلم (٥١ / ١)، كتاب «الإيمان» / باب الدعاء إلى الشهادتين. رقم (١٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١٥٣ / ١).

والعظة يراد بها أمران: الأمر والنهي المقرونان بالرغبة والرغبة، فالمنيب المتذكر شديد الحاجة إلى الأمر والنهي، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب، والمعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة، فيجادل بالتي هي أحسن. فجاءت هذه الثلاثة في حق هؤلاء الثلاثة في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فإن أبا إلا الظلم، وإلقاء التهم، والسخرية بالداعي إلى الله، انتقل معه إلى المجادلة بالغلظة والشدّة ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وكما قال موسى عليه السلام لفرعون حين سخر منه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] (١).

٣- جعل الدعوة تيارًا متكاملًا:

وذلك أن كل فرد ينبغي أن يكون له نصيب من الدعوة إلى الله كل بحسب علمه واستطاعته قال ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» (٢) وهو خطاب عام للأمة فكل يبلغ ما يعرف. وفي حديث مالك بن الحويرث: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ فَعَلَّمُوهُمْ» (٣). وقال ﷺ مخاطبًا الأمة كلها صغيرها وكبيرها ذكرها وأنثاها: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (٤).

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) مسلم (١/ ٦٩) كتاب «الإيمان» / باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٧٨).

ولهذا كان كتمان العلم وعدم نشره معصية كبرى يعاقب عليها المسلم يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجلٍ يحفظ علماً فيكتمه إلا أُتِيَ به يوم القيامة مُلجماً بلجامٍ من النار»^(١).

وعقوبة كتمان العلم تقصّ مضجع أبي هريرة رضي الله عنه وتخيفه، فينشره بين الناس حتى لو قيل فيه ما قيل، فعن أبي هريرة قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ إلى قول الله: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠]^(٢).

«معناه لولا أن الله ذم الكاتمين للعلم ما حدث أصلاً لكن لما كان الكتمان حراماً وجب الإظهار»^(٣).

وكما حدّث معاذ عند موته خوفاً من الإثم^(٤).

من وسائل الدعوة:

وسائل الدعوة كثيرة ومتنوعة ولعلي أقتصر على وسيلتين يستطيعهما كل أحد، وهما:
الأولى: اللسان: اللسان هو الآلة التي يستطيع بها الإنسان أن يعبر عما في نفسه قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] «أي ليبين لهم ما

(١) ابن ماجه (٩٦/١) «المقدمة» / باب من سئل عن علمه فكتمه، رقم (٢٦١) وحسنه الألباني كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤٩/١).

(٢) البخاري مع الفتح (٢١٣/١) كتاب «العلم» / باب حفظ العلم (١١٨).

(٣) فتح الباري (٢١٤/١).

(٤) البخاري مع الفتح (٢٢٦/١) كتاب «العلم» / باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا (١٢٨).

ومن الأساليب ما يلي:

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٧٥).

ونقل ابن عبد البر عن البزار قوله: «حديث عرباض بن سارية في الخلفاء الراشدين حديث ثابت صحيح». ثم قال أبو عمر: «هو كما قال البزار حديث عرباض حديث ثابت». «جامع بيان العلم وفضله» (١٨٢ / ٢). وقال الحافظ أبو نعيم: «هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين». «جامع العلوم والحكم» (٧٥٧ / ٢).

وقال الذهبي عن طريق الدارمي والطبراني: «هذا حديث عالٍ صحيح الإسناد». «سير أعلام النبلاء» (١٧/٤٨٢-٤٨٣).

وينبغي أن يتحول الواعظ الناس بالموعظة كما كان النبي ﷺ يفعل: فعن ابن مسعود قال: «كان النبي ﷺ يتحولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا»^(١).

وكان ابن مسعود يُذَكِّرُ النَّاسَ كل خميس فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملككم وإني أتحولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتحولنا بها مخافة السامة علينا»^(٢).

وقال الحسن: «كان يقال: حدث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا، فاعلم أن لهم حاجات»^(٣).

وقد تكون الموعظة فردية وقد تكون جماعية حسب الحال والمصلحة.

٢ - استغلال الفرص:

لا ينبغي ترك الفرصة تفوت فربما لا تمر ثانية فلنستغلها، كما استغل الفرصة يوسف عليه السلام، عند ما جاءه الرجلان يسألانه عن الرؤيا، فبدأ بالدعوة إلى التوحيد أولاً؛ لأنها سيستمعان وينصتان له ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنُ وَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيَتْهُمَا اثْمَرُ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٧-٤٠].

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٢)، كتاب «العلم»/ باب ما كان النبي ﷺ يتحولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا. رقم (٦٨).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٣) كتاب «العلم»/ باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة. رقم (٧٠).

(٣) «سنن الدارمي» (١/ ١١٤) باب/ من كره أن يمل الناس. رقم (٤٤٩).

ثم عبّر لهما الرؤيا: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

وكما فعل النبي ﷺ مع عمه أبي طالب لما حضرته الوفاة حيث قال له: «يَا عَمُّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»^(١) وذلك لأن الإنسان إذا انقطع من هذه الدنيا رقت حاله فصار تفكيره في ماله فناسب أن يدعو ﷺ لعله أن يهتدي فيموت مسلماً.

٣- ذكر المحاسن للتنبيه على الخطأ:

من أعظم ما يفتح قلب المدعو لقبول ما تدعوه إليه ذكر بعض محاسنه كما فعل النبي ﷺ مع عبدالله بن عمر، قال عبدالله بن عمر: رأيت على عهد النبي ﷺ كأن بيدي قطعة إستبرق فكأنني لا أريد مكاناً من الجنة إلا طارت إليه ورأيت كأن اثنين أتاني أرادا أن يذهبا بي إلى النار فتلقاهما ملك فقال لم ترع خلياً عنه. فقصت حفصة على النبي ﷺ إحدى رؤيائي فقال النبي: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ^(٢).

قال سالم: فكان عبدالله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).

٤- التودد للمخاطب:

التودد للمخاطب مما يفتح قلبه لسماع ما تلقيه عليه واستجابته لك. وذلك ببيان محبتك له وحرصك عليه ونصحك له أو الدعاء له أو نحو ذلك. عن معاذ بن جبل أن

(١) البخاري مع الفتح (٢٢٢/٣) كتاب «الجنائز»/ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله. رقم (١٣٦٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٤٠/٣) كتاب «التهجد»/ باب فضل من تعار من الليل فصل. رقم (١١٥٦)، (١١٥٧).

(٣) مسلم (١٩٢٧/٤) كتاب «فضائل الصحابة»/ باب من فضائل عبدالله بن عمر رضي الله عنه. رقم (٢٤٧٩).

رسول الله أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إنِّي لأحبُّك، والله إنِّي لأحبُّك»، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كلِّ صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك»^(١).

وعندما استقبل النبي وفد عبد القيس قال: «مرحبًا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامي»^(٢).

ولهذا بوب له البخاري بقوله: «باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم»^(٣).

٥ - التعليم بصيغة السؤال:

طرح السؤال على السامع يحرك همته لاستيعاب جواب ما يسأل عنه كحديث جبريل المشهور وفيه يا محمد ما الإسلام.. ما الإيمان.. ما الإحسان...

وحديث معاذ بن جبل حينما كان رديف النبي ﷺ قال معاذ: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه ولا يشرکوا به شيئاً...»^(٤).

٦ - اللطف في التعليم:

من سمات منهج الأنبياء ﷺ اللطف في التعليم والدعوة، ومن ذلك: تلطف إبراهيم ﷺ مع أبيه حيث كان يقول له: يا أبت يا أبت: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ١٨٣)، كتاب «العلم».

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٤٧)، كتاب «التوحيد» / باب ما جاء في دعاء أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. رقم (٧٣٧٣).

وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَأْتٍ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٢-٤٣]. «وفي هذا من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى فإنه لم يقل: أنا عالم وأنت جاهل أو ليس عندك من العلم شيء وإنما أتى بصيغة أن عندي وعندك علماً وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها»^(١).

وها هو نبينا محمد ﷺ يتلطف مع معاوية بن الحكم السلمي فيؤثر فيه تأثيراً بليغاً فيروي قصته رحمته الله قائلاً: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكنني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني. قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(٢).

وقال أبو هريرة للفرزدق: «يا فرزدق إني أرى قدميك صغيرتين فاطلب لهما موضعاً في الجنة»^(٣).

ثانياً: الدعوة بالأركان «القدوة»:

الدعوة بالقدوة أبلغ من اللسان وأقوى وأنفع. وربما كانت أسرع استجابة والنماذج من الدعوة بالقدوة كثيرة منها:

١ - لما فرغ النبي ﷺ من قضية الكتاب في صلح الحديبية، قال لأصحابه: «قوموا

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٤٤).

(٢) مسلم (١/ ٣٨١)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته. رقم (٥٣٧).

(٣) «المؤتلف والمختلف» (٤/ ١٨٣٣) و«الكامل» لابن عدي (٤/ ٨٧).

فانحروا ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يبق منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً»^(١).

٢- عن جرير بن عبد الله قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فأبطؤوا عنه حتى رُئي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار جاء بضرة من ورق ثم جاء آخر ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه فقال رسول الله: «من سنَّ في الإسلام سنةً حسنةً فعمل بها بعده: كُتِبَ له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»^(٢).

وكثير من بلاد المسلمين في شرق آسيا وغرب أفريقيا وجنوبها دخلها الإسلام عن طريق التجار ولم يكونوا علماء وإنما بالتعامل الحسن.

الشروط التي ينبغي توفرها في الداعية:

الشروط التي ينبغي توفرها في الداعية كثيرة من أهمها:

الأول: الاستقامة: الاستقامة هي التزام شرع الله قولاً وعملاً ظاهراً وباطناً.

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ٣٣٢) كتاب «الشروط»/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. رقم (٢٧٣١-٢٧٣٢).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٥٩) كتاب «العلم»/ باب من سنَّ في الإسلام سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى وضلالة. رقم (١٠١٧).

ولأهمية استقامة الداعية على ما يدعو إليه قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَنكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] فبين عليه السلام أن أفعاله موافقة لأقواله. وهذا من أكبر الدواعي لاتباعه «فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله فاقترأؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة»^(١).

ونعى الله على قوم يأمرون بالمعروف وينسون أنفسهم فقال: ﴿اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

ونهى عباده عن قولهم ما لا يفعلون، وبين أنه من أسباب المقت فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]. ومن خالف فعله قوله عوقب بثلاث عقوبات:

الأولى: في الدنيا، فلا تنفع موعظته، ولا يستجاب لقوله. قال مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا»^(٣). وبنحوه أجاب عمر بن ذر لما سأله ابنه: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت سمع البكاء من هاهنا وهاهنا؟ قال: يا بني، ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الشكلى»^(٤).

أما الثانية: في البرزخ، وذلك بقرض شفاههم بالمقاريض، قال صلى الله عليه وسلم: «لما أسري بي مررت برجال تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»^(٥).

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٤).

(٢) «الزهد» لأحمد (٣٩٠).

(٣) «الزهد» لأحمد (٤٢٧).

(٤) أحمد (٢٣١/٣)، وحسنه البغوي في «شرح السنة» (١٤/٣٥٣) رقم (٤١٥٩).

والثالثة: في الآخرة، بينها النبي ﷺ بقوله: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأناكم عن المنكر وآتية»^(١).

الثاني: العلم:

ويكفي في أهمية العلم واشتراطه أنه لا يمكن أن يدعو الإنسان إلى شيء لا يعلمه. ولهذا أمر الله نبيه أن يخبر المدعويين أنه على بصيرة وعلم كي يطيعوه ويتبعوه، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

أي: قل هذه طريقتي أدعو إلى الله فقط^(٢)، على بصيرة أي: على يقين ومعرفة أميز بها بين الحق والباطل.

والبصيرة تكون بثلاثة أمور:

(أ) بصيرة بالشرع الذي تدعو الناس إليه.

(ب) بصيرة بحال المدعو: من حيث تعلمه، فربما يحتاج إلى مناقشة وجدال، فيستعد لذلك، ويستحضر الحجج والبراهين، أو غير متعلم فيكتفي بإبلاغه بالحق وبيانه له^(٣).

ويدل له وصية النبي ﷺ لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن حيث قال له: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ...»^(٤).

(١) البخاري مع الفتح (٣٣١/٦) كتاب «بدأ الخلق» / باب صفة النار وأنها مخلوقة. رقم (٣٢٦٧).

(٢) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب «فيه التنبيه على الإخلاص لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه». كتاب «التوحيد مع القول السديد» (٣٨).

(٣) انظر: (٨٣-٨٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٣٢٢/٣) كتاب «الزكاة» / باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة. رقم (١٤٥٨).

ومن حيث معرفة الواقع الذي يعيش فيه وما فيه من انحراف كي يعالجه.

ومن الأمثلة على ذلك:

كانت بغداد في زمن الإمام أحمد بن حنبل تموج بثلاث بدع هي:

١- الإرجاء.

٢- الرأي.

٣- الأشربة.

فقاومها الإمام أحمد أشد المقاومة وأعاد الناس إلى الحق. فآلف ثلاثة كتب هي:

(١) كتاب الإيمان. ليرد به على المرجئة.

(٢) كتاب المسند. وكان يفتي بفتاوى الصحابة والتابعين ليرد بذلك على أصحاب

الرأي.

(٣) كتاب الأشربة. ليرد على من يستحل النيبذ.

(ج) بصيرة بكيفية الدعوة، من حيث ترتيب الأولويات، والتوازن في عرض الحق

وبيانه.

وأما كيفية ترتيب أولويات الدين فبينها النبي ﷺ بقوله لمعاذ: «فليكن أول ما

تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس

صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلّوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ

من غنيهم فترد على فقيرهم»^(١). وأما من حيث التوازن في عرض الحق وبيانه: فيرشدنا

إليه علي بن أبي طالب عليه السلام، فيقول: «ألا أنبئكم بالفقيه حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس

(١) سبق تخرجه.

من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله، ولم يؤمنهم مكر الله»^(١).

(أنا ومن اتبعني) أي أن النبي ﷺ وأتباعه هم الدعاة إلى الله على بصيرة. قال ابن القيم: «ومن اتبعني إن كان عطفًا على الضمير في أدعو إلى الله، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله، وإن كان عطفًا على الضمير المنفصل فهو صريح أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله»^(٢).

الثالث: الرفق والحلم والتسامح:

من أعظم ما يجمع قلوب الناس على الداعية رفقهم وحلمهم وتسامحهم وصفحه عن زلاتهم وأخطائهم قال الله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ لَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: برحمة من الله لك ولأصحابك أن من الله عليك بأن ألنت لهم جانبك وخففت لهم جناحك ورفقت بهم وحسنت لهم خلقك وكثرت احتمالك لهم وصبرك عليهم فلم تعجل بالغضب عليهم فيما كان منهم من خطأ فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتلوا أمرك ولو كنت سيء الخلق قليل الاحتمال قاسي القلب لنفروا منك وأبغضوا دينك ثم وجهه الله إلى أمرين بهما يجتمع الناس على الداعية بعد الرفق وهما العفو والإحسان فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾.

وانظر إليه ﷺ حتى مع أعدائه. عندما فتح مكة عفى عن قريش الذين حاربوه أشد الحرب وعادوه أشد العداة وأخرجوه وآذوه وعذبوا أصحابه ومع ذلك عفا عنهم، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه مع من تكلم بآتهام عائشة رضي الله عنها، كما في خبر عائشة في حديث

(١) «الزهد» لأبي داود (١١١).

(٢) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٥).

طويل وفيه: «فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربته منه وفقره - والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] قال أبو بكر بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها أبداً»^(١).

أقصى الأشياء إيلاماً للنفوس وأشدّها إحراقاً للأفئدة هو الكلام في العرض فعائشة رضي الله عنها لم ترقأ لها دمة منذ أن سمعت تلك التهمة الآثمة، وأمها أم رومان لما سمعتها خرت مغشياً عليها^(٢)، والرسول صلّى الله عليه وآله عاش في غم وهم حتى نزلت براءة زوجه عائشة رضي الله عنها، وأما أبو بكر فقد احترق فؤاده مما قيل في ابنته حتى حلف ألا ينفق على من تكلم فيها مع قربته له. ومع ذلك كله عفا عنه لما رغبه الله بالعفو عنه.

وهذا أحمد بن حنبل عفا عمن ظلمه فعفا عن المعتصم وقال ما خرجت من داره حتى جعلته في حل. وعفا عن الجلادين الذين جلدوه جلدًا يهد الفيلة فقال: «جعلت المعتصم ومن تولى ضربي ومن غاب ومن حضر في حل»^(٣).

وتبعهم شيخ الإسلام ابن تيمية فعفا عمن ظلموه، ولم يكتف بالعفو، بل دافع عنهم، قال ابن مخلوف قاضي المالكية: «ما رأينا مثل ابن تيمية حرّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٥٥) كتاب «التفسير»/ باب لولا إذا سمعتموه قلتما ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم. رقم (٤٧٥٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٨٢) كتاب «التفسير»/ باب لولا فضل الله ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيها أفضتم فيه عذاب عظيم. رقم (٤٧٥١).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٤٤-٣٤٥) و«حلية الأولياء» (٩/ ٢٠٤).

علينا فصفح عنا وحاجج عنا»^(١).

وقال أيضًا: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكنات في السعي فيه ولما قدر علينا عفا عنا»^(٢).

الرابع: الصبر وعدم الملل:

الدعوة إلى الله شاقة وعسيرة وأشق منها ألا يجد من يجيب دعوته، بل يتهمه بسوء النية والتصرف، ولهذا كان الله يسلي نبيه ﷺ عندما آذاه قومه مبيِّنًا له أن هذه سنة جارية فيمن سبقه ولكن النصر مع الصبر قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَنهَضَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤] وقال سبحانه: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. ما أعظم وأعجب صبر نوح عليه السلام، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو ينوع الطرق والأساليب^(٣) لعلها تنفع ولم ييأس إلا بعد أن أخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن. عند ذلك دعا عليهم.

والقدوة في الصبر هم أولوا العزم، ولذلك أمر الله نبيه بالاعتداء بهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وصبر نبينا محمد ﷺ وعدم ملله نموذج حي للدعاة إلى الله فهو من أول يوم يدعو إلى التوحيد ويحذر من الشرك واستمر حتى آخر عمره يحذر منه قائلًا وهو في سكرات الموت: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». يُحَذَّرُ ما صنعوا^(٤).

(١) «البداية والنهاية» (١٤ / ٥٤).

(٢) «العقود الدرية» (٢٨٣).

(٣) انظر سورة نوح فقد ذكر الله الأساليب التي استعملها نوح في دعوته.

(٤) البخاري مع الفتح (٦ / ٤٩٤) كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٣)

و (٣٤٥٤)، ومسلم (١ / ٣٧٧) كتاب «المساجد» / باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور =

الخامس: التفاؤل والثقة بنصر الله:

كان النبي ﷺ عظيم الثقة بربه وبنصره للمؤمنين، وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم ولا أبلغ في ذلك من ثقتهم بنصر ربهم لهم يوم الأحزاب حين تحزبت ضدهم حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ومع ذلك كله لم تتزعزع ثقتهم بالله وبنصره قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

«قال ابن عباس وقتادة يعنون قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب، ولهذا قال وصدق الله ورسوله ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيماناً بالله وتسليماً أي انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله»^(١).

السادس: الشجاعة في إظهار الحق والانتساب إليه:

الشخص المصاب بالهزيمة الداخلية لا يمكن أن يدعو الناس إلى ما عنده فإذا ما شعر أنه الأعز، وأنه الأعلى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ لأنه يستمد العزة ويتغيها ويطلبها ممن يملكها: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، مقتدياً بنوح عليه السلام الذي لم يأبه بسخرية قومه المشركين الضالين، وإن كانوا عليه القوم، بل قال لهم كما قال الله عنه: ﴿إِنْ تَسَخَّرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا

فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد. رقم (٥٣١).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٤٩٤).

تَسْخَرُونَ ﴿هود: ٣٨﴾. فاستطاع أن يعطي الناس ما عنده ويدعوهم إليه، لشعوره أن معه الحق، وأن غيره ليس معهم إلا الباطل المحض.

داعياً إلى دين الله منتسباً إليه مفتخراً به قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

(ومن أحسن قولاً) استفهام بمعنى النفي المتقرر أي لا أحد أحسن كلاماً منه ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق هذه الكلمة ومع استسلامه لله الذي تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ وبيان الدين للناس.

السابع: عدم استعجال النتائج:

من أعظم آفات الدعاة استعجال النتائج فمنهم من يريد أن يرى نتائج دعوته في حياته فإذا لم يرها استعجل وتنازل عن بعض دينه ظاناً أن هذا التنازل سيعجل له النصر، ولأجل ذلك خاف النبي ﷺ على الصحابة عليهم السلام من الاستعجال فحذرهم وصبرهم على ما ينالهم من الأذى ثم بشرهم بعد ذلك بالنصر فعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

(١) البخاري مع الفتح (١٢ / ٣١٥) كتاب «الإكراه»/ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر. رقم (٦٩٤٣).

الثامن: الثبات:

الثبات ضد الزوال. وهو الاستمرار على الشيء مع التمكن فيه دون تحول عنه.
والثبات على دين الإسلام أعظم المطالب؛ لأن به سعادة الدنيا والآخرة ولهذا امتن الله تعالى على عباده عمومًا بتثبيتهم عليه فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وخص بهذه المنة أكرم خلقه رسوله محمدًا ﷺ فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

فإذا كان هذا رسول الله فكيف بغيره. ولقد استشعر النبي ﷺ شدة افتقاره إلى ربه وحاجته إلى تثبيته، فكان من دعائه: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر»^(١)، وكان ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل: «اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنك، إنَّك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم»^(٢). قال النووي قوله ﷺ: «اهدني لما اختلف فيه من الحق» معناه أي تثبني عليه كقوله تعالى: ﴿آهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣).

(١) أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي (٥/ ٤٧٦) كتاب «الدعوات». رقم (٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤)، كتاب «السهو»/ نوع آخر من الدعاء، وابن حبان في «صحيحه» (٥/ ٣١٠) رقم (١٩٧٤)، والحاكم في «المستدرک» (١/ ٦٨٨)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وقال ابن رجب: «وله طرق متعددة عن شداد» حديث شداد بن أوس: «إذا كنز الناس الذهب والفضة» (١٥)، وقال الشوكاني: «رجال إسناده ثقات». «نيل الأوطار» (٢/ ٢٩٥).

(٢) مسلم (١/ ٥٣٤)، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧٠).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (٦/ ٥٧).

ولأهمية الثبات وصّى النبي ﷺ المسلمين بالثبات على الدين عندما تنزل بهم فتنة المسيح الدجال فقال «يا عباد الله فاثبتوا»^(١).

ولقد سطر لنا التاريخ ثبات العلماء على الدين وعدم تنازلهم بمداد من نور فصاروا تيجاناً للأمة تفخر بهم، ويقتدي بهم من جاء بعدهم ومن ذلك:

١ - هاجر المسلمون إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى قريش ولكن قريشاً لحقتهم في مهاجرهم طامعة في صدهم عن دينهم. فطلبوا من النجاشي أن يسلمهم إليهم فأبى. فأراد عمرو بن العاص أن يوقع بينهم وبين النجاشي فقال إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً فادعهم فليخبروك بما يقولون في عيسى.

هنا جاء الاختبار الصعب الذي لم ينزل بهم مثله قط. فماذا اختاروا؟
أيتنازلون عن شيء من دينهم لإرضاء قوم هم في ملكهم وتحت سلطانهم؟ أم يثبتون على دينهم وليكن ما يكون.

فاختاروا الثبات على المبدأ. قال ابن إسحاق قالت أم سلمة «ولم ينزل بنا مثلها قط فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبينا محمد ﷺ «هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال، فقال وإن نخرتم والله»^(٢).

٢ - المثال الثاني: الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله رمز عالٍ للثبات على المبدأ وعدم التنازل عنه مهما كلفه ذلك من تضحيات.

(١) مسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥)، كتاب «الفتن» / باب ذكر الدجال وصفته وما معه. رقم (٢٩٣٧).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥٠).

ظهر ذلك جلياً عندما ادلهم الخطب وعصفت الفتنة الهوجاء بالمسلمين كي يقولوا بأن القرآن مخلوق، فإذا به يمتنع عن قول الكفر فيأتوه بأسلوب الترهيب فيتوعدونه بالقتل ويحمل على الراحلة مقيداً حتى كاد أن يسقط منها مراراً. ويسجن ثمانية وعشرين شهراً ولكنه لم يبال بالحبس وكان يقول لست أبالي بالحبس ما هو ومنزلي إلا واحد. وجلد وضرب أكثر من ألف سوط من خلفه وقدامه وأصاب الضرب وجهه وبقي وجع الضرب ثلاث سنين قال شاباص الثابت: «لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطاً لو ضربتها فيلاً لهدته»^(١).

وكان المعتصم إذا عجز عنه أن يجيبه بالضرب والقوة جاءه بأسلوب الترغيب فيقول له «يا أحمد والله إني عليك لشفيق كشفقتي على هارون ابني فأجبنني، والله لو ددت أني لم أكن عرفتك يا أحمد، الله الله في دمك فلما كان في آخر ذلك قال لعنك الله لقد طمعت أن تحييني» فلما لم يجبه الإمام أحمد إلى ما طلب قال: خذوه واسحبوه وأمرهم بجلده بكل قسوة وهمجية حتى كان يدعو بجلاد بعد جلاد فيضربه سوطين ثم يتنحى ويقول للجلاد شد عليه قطع الله يدك، فلما خشي أن يموت من الضرب أسلمه إلى أهله. قال الذهبي: «ترك أحمد عند الإياس منه»^(٢).

وقال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الإمام صار مثلاً سائراً يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق وأنه لم تكن تأخذه في الله لومة لائم، حتى صار اسم الإمام مقروناً باسمه في لسان كل أحد، فيقال: قال الإمام أحمد. لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فإنه أعطي من الصبر واليقين ما

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٩٥).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٩/ ١٩٧-٢٠٤)، «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي (٣٠٨-٣٩٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٧-٣٠٠)، و«محنة الإمام أحمد بن حنبل» للمقدسي.

يستحق به الإمامة في الدين. وقد تداوله ثلاثة خلفاء مسلطون من شرق الأرض إلى غربها، ومعهم من العلماء المتكلمين، والقضاة، والوزراء والسعاة والأمراء، والولاة من لا يحصيهم إلا الله. فبعضهم بالحبس، وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره، وبالترغيب في الرئاسة والمال ما شاء الله. وبالضرب، وبعضهم بالتشريد والنفي، وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض حتى أصحابه العلماء والصالحون والأبرار، وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة، ولا كتم العلم، ولا استعمل التقية بل قد أظهر من سنة رسول الله ﷺ وآثاره. ودفع من البدع المخالفة لذلك ما لم يتأت مثله لعالم من نظرائه وإخوانه المتقدمين والمتأخرين. ولهذا قال بعض شيوخ الشام: لم يظهر أحد ما جاء به الرسول ﷺ كما أظهره أحمد بن حنبل^(١).

أما المثل الثالث:

فهو ذلك الجبل الأشم شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية رحمته الله الذي فتح عينيه على المجتمعات الإسلامية وقد عجت بالانحرافات من كل جانب ما بين متفلسفة ومتكلمة، وصوفية مشركة وباطنية زائغة فصدع بالحق جاهرًا به. ولكن أهل البدع من العلماء والقضاة لم يرضوا بقوله فحاولوا إسكاته، فعقدوا له المناظرات فغلبهم بالحجة والبيان. فكتبوا له ألفاظًا اقترحوها عليه وهددوه بالقتل إن لم يكتبها فلم يجبههم وحاولوا إلزامه بالرجوع عن بعض العقيدة فلم يوافقهم.

فنادوا في البلد على بطلان عقيدته وأشاعوا أنه رجع عنها وزوَّروا عليه عقيدة محرفة ونودي عليه ألا يستفتى، وسجن مرات عديدة كان مجموعها سبع سنين ومع ذلك كله كان «ثابت الجأش قوي القلب واثقًا بالنصر الإلهي لا يلتفت إلى نصر مخلوق ولا يعول عليه».

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٣٩).

عند ذلك قرروا نقله إلى الإسكندرية لعل أحدًا أن يقتله فلما أرادوا الذهاب به جاءه إنسان فقال له هذا مقام الصبر فقال بل هذا مقام الحمد والشكر. والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قسم على أهل الشام ومصر لفضل عنهم ولو أن معي في هذا الموضع ذهب وأنفقته ما أدت عشر هذه النعمة التي أنا فيها.

وبعد عام من سجنه تكلم الفقهاء والقضاة بإخراج الشيخ، ولكن ليشترطوا عليه أن يرجع عن بعض العقيدة فأرسلوا إليه من يحضره من السجن ليكلموه فأبى أن يحضر وتكرر الرسول ست مرات وصمم على عدم الحضور. وكان وهو مسجون يكتب الرسائل والردود ومات وهو محبوس في سجن القلعة بسبب فتواه حول شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين ولم يتنازل عن شيء من دينه يراه حقًا^(١).

(١) انظر «العقود الدرية»، و«ناحية من حياة شيخ الإسلام» بقلم خادمه إبراهيم العياشي.

(الرابعة): الصبر على الأذى فيه.

.....

الصبر لغة: المنع والحبس.

اصطلاحاً: هو حبس النفس على الطاعة وعن المعصية والجزع.

فأما حبس النفس على الطاعة فهو بحملها ومجاهدتها على فعل الطاعة فلا يتركها وأما عن المعصية فهو بكفها ومجاهدتها ومنعها عن ارتكاب المعصية، فلا يفعلها.

وأما عن الجزع، فهو بكفها عن التسخط والشكوى لغير الله، ولطم الخدود، وشق الجيوب فيكون منعها من الجزع باللسان والأركان.

«فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور وترك السيئ المحظور ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال والصبر على ما يصيبه من المكاره والصبر على البطر عند النعم وغير ذلك من أنواع الصبر»^(١).

حكم الصبر: «الصبر واجب باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه»^(٢).

حقيقة الصبر: «النفس فيها قوتان قوة الإقدام وقوة الإحجام فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكاً عما يضره»^(٣).

مقابل الصبر: يضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٦١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩).

(٣) «عدة الصابرين» (١٦).

النعمة قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ ۝ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]^(١) قال البخاري: هلوًا: ضجورًا^(٢). وقال أبو عبيدة: الهلاع مصدره وهو أسوأ الجزع^(٣).

والسبب في ذلك كله قلة صبره أو انعدامه. ومن لم يصبر فلا بد أن يشتكي والشكوى نوعان:

١ - شكوى المبتلى لغير الله: فهذه تضاد الصبر وتبطله وهي من الجزع؛ لأنه يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، يشكو الخالق إلى المخلوق.

٢ - شكوى المبتلى إلى الله: فهذه لا تنافي الصبر كما قال تعالى عن يعقوب عليه السلام إنه قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وعن أيوب: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الصُّرُوفَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]؛ لأنها افتقار إلى الله وعبودية له.

الباعث على الصبر:

يجب على المسلم أن يصبر، ويعلم أنه لا ينتفع بالصبر إلا إذا كان الباعث عليه ابتغاء وجه الله. قال تعالى بعد أن ذكر صفات عباده المتقين: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ الآية [الرعد: ٢٢].

أي «والذين صبروا على المأمورات بامتثالها، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد عنها وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها، لكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ابتغاء وجه

(١) «عدة الصابرين» (٢٧٥)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥١١)، كتاب «التوحيد»/ باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ ۝ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

(٣) «مجاز القرآن» (٢/ ٢٧٠).

رهبهم، لا غير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة فإن هذا هو الصبر النافع الذي هو من خصائص أهل الإيمان»^(١).

أنواع الصبر:

أنواع الصبر ثلاثة هي:

الأول: الصبر على طاعة الله:

الصبر على الطاعة يكون بالإخلاص فيها ووقوعها على مقتضى العلم وهو متابعة الكتاب والسنة والمداومة والاستمرار عليها إلى أن يلقي الله، فالعبد محتاج إلى الصبر على الطاعة قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ مِنْهُمْ إِنَّمَا أَوْفُرًا ٢٤ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٤-٢٦] وكل هذه لا تتأتى إلا بالصبر، ولهذا لما امتن الله على نبيه ﷺ بإنزال القرآن أمره بالصبر.

وقال تعالى عن الأمر بالصلاة المفروضة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] فالصلاة وبخاصة صلاة الفجر تميل النفس وقتها إلى النوم والراحة فيحتاج العبد إلى صبر للقيام إليها وأدائها.

وكذلك إخراج الزكاة لا بد فيه من صبر لقوة شهوة المال وتغلغل محبته في النفوس وكذلك الجهاد فإن فيه قطع الرقاب ونفاد الأموال ولذلك يجب على العبد أن يصبر على الطاعة في أحوالها الثلاث:

١ - قبل العمل: أي قبل الابتداء به بتصحيح النية والإخلاص والبعد عن دواعي الرياء والسمعة وعقد العزم على أداء العمل كما يرضي الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] فقرن بين الصبر والعمل

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٧١) بشيء من الاختصار.

الصالح وقدم الصبر عليه في اللفظ لأنه لا عمل صالح إلا بالصبر ولا عمل صالح إلا بنية صالحة. قال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»^(١).

وقد بدأ البخاري «صحيحه» بهذا الحديث ليبين أهمية تصحيح النية قبل العمل.

٢- حال العمل: فيلزم استصحاب النية الصالحة المخلصة لله حال عمله، والصبر عن دواعي التقصير القلبية والبدنية. لئلا تغير نيته فتقلب إلى غير الله فيحبط عمله، أو يؤدي العمل على غير السنة فيحبط العمل أو ينقص الأجر قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فمخلصين حال؛ أي: ما أمروا إلا ليعبدوا الله حال كونهم مخلصين له عملهم.

فمن أشرك مع الله تركه الله وشركه، قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢).

فلا بد من الإخلاص مع الاستمرار في العمل والاجتهاد فيه.

٣- بعد الفراغ من العمل:

وذلك بأمرين:

أ- أن يصبر عن الإتيان بما يبطل العمل:

والإتيان بما يبطل العمل ويحبطه باب خطير ينبغي التنبيه له لأن: «محبطات الأعمال أكثر من أن تحصر وليس الشأن في العمل إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه»^(٣). قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، قال قتادة:

(١) البخاري مع الفتح (٩ / ١) كتاب «بدء الوحي»/ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. رقم (١).

(٢) مسلم (٢٢٨٩ / ٤) كتاب «الزهد والرقائق»/ باب من أشرك في عمله غير الله. رقم (٢٩٨٥).

(٣) «الوابل الصيب» (٢٩) وقد أطل في بيان ذلك فراجع إن شئت.

«من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله فإن الخير ينسخ الشر وإن الشر ينسخ الخير وإن ملاك الأعمال خواتيمها»^(١).

ومن ذلك: إبطال الصدقة بالمن والأذى قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ومن ذلك: حبوط العمل برفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] و برفع الصوت فوق سنته بعد مماته. وذلك بردها وعدم قبولها.

ومن ذلك: العُجْبُ بالعمل والتكبر والتعاضم بسببه، فإن هذا أضرُّ على العبد من كثير من المعاصي الظاهرة كما وقع للرجلين المتأخيين من بني إسرائيل حيث كان أحدهما عابداً والآخر عاصياً فراه على ذنب استعظمه فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنة فقال الله عز وجل: «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحببت عملك»^(٢)، وفي رواية أبي هريرة في آخرها: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»^(٣).

قال السعدي معلقاً على هذا الحديث: «والإقسام على الله في الغالب من باب العُجْبِ بالنفس والإدلال على الله وسوء الأدب معه ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله»^(٤).

ومن ذلك: تنقص الآخرين واتهامهم: «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم»^(٥)،

(١) «جامع البيان» (٦٢ / ٢٦).

(٢) مسلم (٢٠٢٣ / ٤)، كتاب «البر والصلة» / باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله. رقم (٢٦٢١).

(٣) أبو داود (٢٠٧ / ٥)، كتاب «الأدب» / باب النهي عن البغي. رقم (٤٩٠١).

(٤) «القول السديد» (١٥٣).

(٥) مسلم (٢٠٢٤ / ٤) كتاب «البر والصلة» / باب النهي عن قول هلك الناس. رقم (٢٦٢٣).

فمن تنقص الناس هلك، وذلك لأنه يتهم الناس ويزكي نفسه وهذا يقوده إلى العجب بعمله فيحبط عمله والعياذ بالله فيكون أهلكتهم، فلا أبلغ من هذا التحذير.

وكان السلف يحاسبون أنفسهم وينأون بها عن العجب.

قال مطرف بن عبدالله: «لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً»^(١).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية إذا أثني عليه يقول: «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً».

وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي^(٢)

واسمع إلى ابن القيم كيف يهضم نفسه، فيقول:

بُنِيَّ أبي بكر كثيرٌ ذُنُوبُهُ	فليس على مَنْ نال من عرضه إِثْمٌ
بُنِيَّ أبي بكر جهولٌ بنفسه	جهولٌ بأمرِ الله أَنَّى له العِلْمُ
بُنِيَّ أبي بكر غدا متمنياً	وصالِ المعالي والذنوبُ له هَمٌّ ^(٣)

ب- أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية:

لا شك ولا ريب أن كون العمل سراً أدعى للقبول وأبعد عن العجب والتعظيم، وأقرب إلى الإخلاص وأعظم للأجر فهاهم السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم اثنان أخفيا أعمالهما وهما: «رجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه... ورجل

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٠٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٩٠).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٦٢).

(٣) «الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٧١).

تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»^(١)، ولذلك يخطئ بعض الناس عندما يعمل الصالحات بينه وبين ربه ثم يصبح يتحدث للناس بها.

قال سفيان الثوري: «بلغني أن العبد يعمل العمل سرًّا، فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه، فيكتب في العلانية، ثم لا يزال الشيطان به حتى يحب أن يحمد عليه، فينسخ من العلانية فيثبت في الرياء»^(٢).

«فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل»^(٣).

ومن الصبر على الطاعة «الصبر على مشاق الدعوة».

من أشق الواجبات واجب الدعوة إلى الله لكثرة من يحارب الداعية من الملائم ومعهم الدنيا بإعلامها وتعليمها وأسلحتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى قلة النصير والمعين. بل ووجود المثبطين وهم كثر، فلهذا يحتاج الداعية إلى الصبر. كيف والله أمر نبيه بالصبر وبين له القدوة في ذلك فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فكان ﷺ قدوة الصابرين بجميع أنواع الصبر.

وقرن الله التواصي بالحق بالتواصي بالصبر كما في سورة العصر لأنه لا قيام للحق إلا بالصبر.

وهذا السرف فيما ذكره الله عن لقمان حيث وصى ابنه بالصبر على ما يصيبه من الأذى بعد وصيته له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿يَبْنِي أَقْرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

(١) البخاري مع الفتح (١٢/ ١١٢) كتاب «الحدود»/ باب فضل من ترك الفواحش. رقم (٦٨٠٦).

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٣٠-٣١).

(٣) «عدة الصابرين» (٦٧).

ويوضحه قصة الراهب الذي صبر حتى قتل. وكذلك الغلام وصبره حتى قتل، بل إخباره الملك بكيفية قتله لعلمه أن ذلك سبب لإيمان الناس^(١).

ومن مظاهر مشاق الدعوة ما يلي:

١ - الإعراض من المدعوين:

الإعراض من المدعوين من أعظم ما يشق على نفس الداعية حيث يقابلون نصيحته لهم وشفقته عليهم بالإعراض عنه مع أنه لا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا. قال تعالى واصفًا قوم نبينا محمد ﷺ في إعراضهم عنه حينما دعاهم لدين الله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ [فصلت: ٤-٥]، فأعرضوا عنه مستكبرين عن سماع ما يدعوهم إليه، ثم اعتلوا بأن القلوب مغلفة عليها الأغشية لا تفقه ما يقول، وأذانهم فيها صمم، فلا يسمعون وهو يحدثهم من كراحتهم لما يقول.

وها هو نوح عليه السلام يشكو حاله مع قومه وإعراضهم عنه إلى ربه فيقول كما ذكر الله ذلك عنه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِيْ ءَاذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥-٧].

فهل بعد هذا الإعراض إعراض فلا يريدون أن يسمعوا له قولاً فيضعون أصابعهم في آذانهم. ولا أن يروا له وجهًا فيغطون وجوههم بثيابهم.

٢ - الأذى بالقول والفعل:

من أشق ما يصيب الداعية المخلص المحب للخير الذي يحض النصح للناس أن

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٤/ ٢٢٩٩-٢٣٠١)، كتاب «الزهد»/ قصة أصحاب الأخدود. رقم

يتهم بما ليس فيه مع أنه يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ومن ذلك اتهام الملائكة للرسول ﷺ بالجنون والسحر قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقد لا تقف الأذية عند اللسان فقط فربما امتدت إلى الأموال فنهبتها وإلى الأبدان فعذبتها وإلى الحريات فسلبتها وإلى الأنفس فقتلتها قال تعالى: ﴿تَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ عَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ونماذج الأذية الواقعة على عباد الله الصالحين كثيرة، كما وقع لصهيب وبلال وعمار وخبيب، ومن بعدهم من أهل العلم والصلاح كسعيد بن المسيب فقد ضربه عبد الملك بن مروان مائة سوط وصب عليه جرة ماء في يوم شات وألبسه جبة الصوف. ومالك بن أنس ضربه المنصور سبعين سوطاً في يمين المكره وعبدالرحمن بن أبي ليلى ضربه الحجاج أربع مائة سوط ثم قتله وأحمد بن حنبل سجن ثمانية وعشرين شهراً وجلد حتى انفتقت خاصرته واندلقت أوعاهه^(١) وغيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعلاج ذلك كله هو الصبر حيث أرشد الله المؤمنين إليه بقوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، بل أرشد إليه نبيه ﷺ على وجه الخصوص بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

وبه عالج الرسل ﷺ أذية أقوامهم، قال تعالى ذاكراً قولهم لأقوامهم ﴿وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]؟

(١) انظر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٤٢-٣٤٣)، و«المحن» لأبي العرب التيمي.

٣- استبطاء النصر وعدم الصبر على طول الطريق:

جعل الله العاقبة للمتقين والنصر لأوليائه المخلصين قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ

أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

ولكن النصر والرفعة والتمكين لا يكون إلا بعد النصب والتعب والمشقة والعناء والمحن المتعاقبة والزلازل الشديدة والبأساء المفزعة كما وقع للصحابة رضي الله عنهم عام الأحزاب.

قال تعالى مبيناً هذه الحقيقة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

أي أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بمثل ما ابتلوا به من الشدة والفظاعة فمستهم البأساء والضراء أي الفقر والأمراض في أبدانهم وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة التي تكاد تهد الأرض وتلك الجبال حتى انتهى أمرهم من الشدة إلى أن قال (الرسول ﷺ) وهو أعلم الناس بالله وأوثقهم بنصره: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم الأثبت بعده العازمون على الصبر الموقنون بوعد الله ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ استبطاء له واستطالة لمدة الشدة والعناء.

وعالج النبي ﷺ بالصبر الشدة واستبطاء النصر عندما شكوا إليه أصحابه قائلين: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فأجابهم قائلاً: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصدده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم

تستعجلون»^(١)، فبين لهم خطأ الاستعجال وأنه لا بد للمسلم من الصبر الذي يعصمه منه.

الثاني: الصبر عن معصية الله:

ركبت في بني آدم الشهوة وزينت له بكل أصنافها قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

فمحنة الدنيا والنساء والذرية قد تغطي على الإنسان فيرتكب المحرم لأجلها، وقد يعبد الدرهم والدينار لسبب فرط محبته له، فيحب له، ويبغض من أجله، ويحرص على جمعه بأي طريق، سواء كان مباحاً أو محرماً ثم يمنع حق الله فيه.

وقد تدفعه محبة ذريته إلى أن يترك ما أوجب الله عليه من أجلهم أو يعصي الله لأجل إرضائهم وقد تغطي الشهوة الجنسية للإنسان فيرتكب المعصية ويزني فيرتفع الإيمان فوقه كالظلة.

وعلاج ذلك كله بالصبر عن هذه المعصية أو تلك، فينجو بنفسه ولذلك كان حكمه الوجوب قال شيخ الإسلام: «وأما الصبر عن المحرمات فواجب وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] والاستغفار: هو ترك المنهي عنه كما في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «من يستغفر يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاءً خيراً، وأوسع من الصبر»^{(٢)(٣)}.

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٣٥)، كتاب «الزكاة»/ باب الاستغفار عن المسألة. رقم (١٤٦٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٧٤).

ومن أمثلة الصبر عن المعصية: صبر يوسف عليه السلام عندما راودته امرأة العزيز فصبر عن المعصية مع قوة الدواعي لها: «فإنه كان شاباً -عزباً- غريباً- مملوكاً والمملوك ليس وازعه كوازع الحر -والمرأة جميلة- ذات منصب وهي سيده - وقد غاب الرقيب -وهي الداعية له الحريصة على ذلك- التهديد بالسجن، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله»^(١).

وكما صبر الربيع بن خثيم وقد لقيته المرأة في مكان لا يراها أحد. وذلك أن الربيع كان يمر على شباب لاهين فينصحهم ويذكرهم فأتوا إلى غانية وقالوا لها نريد قبلة من الربيع وأغروها بالمال فقالت لهم بل أكثر من ذلك فوقفت في طريقه وكان خالياً لا يراها أحد من البشر فلما أقبل كشفت عن جسمها تريد أن تفتنه، فصرخ بها وقال: كيف بك يا أمة الله إذا نزل بك ملك الموت وبدأ يذكرها بالمستقبل حتى تابت فقالوا: أردناها أن تفسد الربيع فأفسدها الربيع علينا^(٢).

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة:

الدنيا دار النكد والكبد والأسقام قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] وكل حي في الدنيا لابد أن يصيبه ما يصيبه من ألم أو مرض أو ضيق صدر أو تشريد أو فقد حبيب أو خسران مال أو متاعب عيش أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ^(١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٦) بشيء من الاختصار.

(٢) انظر: «صفة الصفوة» (٣/ ١٩١).

«أي لنختبركم بشيء من خوف ينالكم من عدوكم وبسنة تصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة وتتعذر المطالب عليكم فتتقص لذلك أموالكم، وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار فينقص لها عددكم، وموت ذرائكم وأولادكم، وجدوب تحدث فتتقص لها ثماركم. كل ذلك امتحان مني لكم واختبار مني لكم فيتين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه^(١)».

ثم أمر الله ببشارة الصابرين على الامتحان المحافظين على الطاعة مع البلوى بأنهم هم الفائزون بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فصبروا واعترفوا بأنهم مملوكون لله تحت تدبيره وتصرفه وأنهم راجعون إليه سبحانه وأنه لا يضيع لديه مثقال ذرة فجمع الله لهم أشياء لم يجمعها لغيرهم:

١ - ثناء الله عليهم «الصلوات».

٢ - الأمانة من العذاب «الرحمة».

٣ - الاهتداء.

فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نعم العدلان ونعم العلاوة»^(٢).

«فالعدلان هما الصلاة والرحمة والعلاوة هي الاهتداء»^(٣).

«فبالهدى خلصوا من الضلال وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم

(١) «جامع البيان» (٣/ ٢٢٠) تحقيق محمود شاكر.

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ١٧١) كتاب «الجنائز»/ باب الصبر عند الصدمة الأولى.

(٣) «فتح الباري» (٣/ ١٧٢).

نالوا منزلة القرب والكرامة»^(١).

فعلى المسلم الصبر على أقدار الله، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبُهُ» «هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي بها وعرف أنها من الله»^(٢).

أيهما أفضل الصبر بالله أو الصبر لله؟

الصبر لله أفضل من الصبر بالله وأعلى درجة لأمر:

١ - الصبر لله متعلق بالألوهية. أما الصبر بالله فهو متعلق بالربوبية.

وما تعلق بالألوهية فهو أعلى وأكمل.

٢ - الصبر لله عبادة والعبادة غاية. أما الصبر بالله فهو استعانة والاستعانة وسيلة.

والغاية مرادة لنفسها أما الوسيلة فهي مرادة لغيرها.

٣ - الصبر لله للأنبياء والرسل والصالحين. أما الصبر بالله فهو مشترك بين المؤمن والكافر.

٤ - الصبر لله صبر فيما هو حق له محبوب له مرضي له. أما الصبر بالله فيكون فيما هو محبوب لله أو مباح أو مكروه أو محرم^(٣).

ترتيب أنواع الصبر حسب الأفضلية:

الأول: الصبر على الطاعة:

«الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٧٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٥٢) كتاب «التفسير»/ تفسير سورة التغابن.

(٣) انظر: «عدة الصابرين» (٨٠-٨٥).

أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية»^(١).

الثاني: الصبر عن المعصية:

الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على المصيبة.

قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «ولهذا كانت محنة يوسف بالنسوة وامرأة العزيز واختيار السجن على معصية الله، أعظم من إيمانه ودرجته عند الله وأجره من صبره على ظلم إخوته له. ولهذا يعظم يوسف بهذا أعظم مما يعظم بذلك. ولهذا قال تعالى فيه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]^(٢).

الثالث: الصبر على أقدار الله «على المصائب»:

فهذا لصاحبه أجر عظيم^(٣) والأدلة في بيان أجره كثيرة جداً لكن الصبر عن المعصية أو على الطاعة أفضل منه وأكمل.

ووجه الترتيب أن الصبر على الطاعة يتضمن إلزاماً وفعلاً فتلزم نفسك الصلاة فتصلي... ففيه إلزام وفعل، أما الصبر عن المعصية ففيه إلزام فقط أي إلزام للنفس بالترك. أما الصبر على أقدار الله فلا أن سببه ليس باختيار العبد فليس فعلاً ولا تركاً وإنما هو من قدر الله المحض^(٤).

وللناس حيال المصائب أحوال أربعة، هي:

١ - الجزع: وهو محرم باتفاق العلماء للأحاديث الناهية عنه، كقوله ﷺ: «ليس منا من

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣-٢٤) وانظر: (١٠/ ٥٧٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٠/ ٣٦٤).

(٤) «القول المفيد شرح كتاب التوحيد» (٢/ ٢١٣) بشيء من الاختصار.

لطم الحدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(١).

٢- الصبر: وهو واجب بالاتفاق.

٣- الرضا: والراجح فيه الاستحباب، وهو أعلى من الصبر.

٤- الشكر: وهو مستحب وليس بواجب، وهو أعلاها.

قال شيخ الإسلام رحمته: «الصبر واجب باتفاق العلماء، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله، والرضا قد قيل: إنه واجب، وقيل: هو مستحب، وهو الصحيح، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها حيث جعلها لتكفير خطاياها، ورفع درجاته وإنابته، وتضرعه إليه»^(٢).

وقد جمع الله أنواع الصبر الثلاثة في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وينقسم الصبر بحسب أحواله إلى قسمين:

١- الصبر الجميل: «صبر بغير شكوى إلى المخلوق». ولهذا لما قيل لأحمد بن حنبل وهو في مرضه إن طاووساً يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى ما أن أحمد حتى مات، وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل فإن يعقوب عليه السلام قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] وقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]^(٣).

صبر جميل فلا شكوى إلى أحد إلا الإله فذو الإحسان مسدينا

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ١٦٣)، كتاب الجنائز/ باب ليس منا من شق الجيوب. رقم (١٢٩٤)، ومسلم

(٩٩/ ١) كتاب الإيمان/ باب تحريم ضرب الحدود، وشق الجيوب. رقم (١٠٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٦٠)، وانظر أيضاً: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٤٠) فقد بسط فيه القول أكثر، فراجع إن شئت.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٣-١٨٤).

ولأهمية الصبر الجميل وعظم منزلته أمر الله نبيه به فقال: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]
 «أي اصبر يا محمد على تكذيبهم لك وكفرهم بما جئت به صبرًا جميلًا لا جزع فيه ولا
 شكوى إلى غير الله»^(١).

٢ - الصبر المحمود: «الصبر المحمود ما كان في موضعه».

إذا كان الصبر عند الصدمة الأولى صار محمودًا يثاب عليه المسلم أما إذا تأخر عن
 موضعه فلا ثواب فيه فعن أنس بن مالك قال مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال لها:
 «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قالت إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتني ولم تعرفه فقل لها: إنه النبي
 ﷺ فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك فقال: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ
 الْأُولَى»^(٢).

«قال لها ذلك منبهاً على أنها قد فاتها محل الصبر والأجر»^(٣).

«والمعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة بخلاف ما
 بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو»^(٤).

أهمية الصبر:

لا يمكن أن يقوم عمل ديني أو دنيوي إلا بالصبر. فالصبر سبب في حصول كل
 كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله إلا من ضعف صبره، فإن كمال
 العبد بالعزيمة والثبات فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص. ومن كانت له عزيمة ولكن لا
 ثبات له عليها فهو ناقص فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٢٨٩/٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١٤٨/٣) كتاب «الجنائز»/ باب زيارة القبور. رقم (١٢٨٣).

(٣) «المفهم شرح مسلم» (٥٧٩/٢).

(٤) «فتح الباري» (١٥٠/٣).

كامل، ولهذا كان في دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرُّشد»^(١)، ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر.

إذ لا إيمان بدون صبر كما يقرر هذه الحقيقة علي بن أبي طالب فيقول: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»^(٢) وفي لفظ: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بان الجسد ثم رفع صوته فقال ألا لا إيمان لمن لا صبر له»^(٣).

ولأجل ذلك ورد الصبر في أكثر من تسعين موضعاً من القرآن الكريم^(٤) منها عشرون موضعاً للنبي ﷺ. ففي أوائل ما أنزل الله على رسوله أمره بالصبر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ ۖ قُورَيْشٌ فَانْزِرِي ۚ وَرَبِّكَ فَكْبِرِي ۚ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرِي ۚ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرِي ۚ وَلَا تَمْنُنِ تَسْتَكْبِرِي ۚ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرِي ۚ﴾ [المدثر: ١-٧].

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالإنذار وختمها بالصبر ليبين تعالى أنه لا دعوة بدون صبر.

وحينما امتن الله ﷻ على رسوله ﷺ بإنزال القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] «كان من المنتظر أن يقال: فاشكر نعمة ربك ولكنه ﷺ قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن كل من قام بهذا القرآن فلا بد أن يناله ما يناله مما يحتاج إلى صبر»^(٥).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الإيمان» لابن أبي شيبة (٤٤) رقم (١٣٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤٠ / ١٠).

(٤) قال الإمام أحمد «ختمت القرآن في يوم فعددت موضع الصبر فإذا هو نيف وتسعون»، «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢٨٧)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٣٩ / ١٠).

(٥) «شرح الأصول الثلاثة» للعثيمين (١٨).

ومما يدل على أهميته أنه نصف الدين قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله»^(١). وبمثله قال الشعبي^(٢).

وقال ابن القيم: «الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر»^(٣)، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

بل هو أوسع عطاء يعطاه ابن آدم قال صلى الله عليه وسلم مبيناً سعة عطاء الصبر حين طلب منه بعض الصحابة ما لا فأعطاهم ثلاث مرات ثم بين لهم أهمية الاستغفار. وأن خير العطاء وأوسع هو الصبر لأنه يثمر رضى النفس وطمأنيتها فيقنع بما آتاه الله. كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذ ما عنده، قال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»^(٤).

ولما عاش عمر رضي الله عنه هذه الحقيقة عملياً استوعبها ثم قال: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»^(٥).

ولأهميته نوع الله أساليب ذكره في القرآن أنواعاً كثيرة، منها:

١ - الأمر به: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا

وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

(١) «الزهد» لو كيع (٢/ ٤٥٦) رقم (٢٠٣) و«السنة» لعبدالله بن أحمد (١/ ٣٧٤) رقم (٨١٧).

(٢) «جامع البيان» (٢١/ ٨٤).

(٣) «عدة الصابرين» (١١٠) وبيّن/ هذا التنصيف من عشرة أوجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٠٣) كتاب «الرقاق»/ باب الصبر عن محارم الله.

٢- النهي عن ضده: ﴿فَلَا تُؤْلَوْهُمُ الدُّبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] فإن تولية الأدبار سببها فقدان الصبر. ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] فإن إبطائها دليل على عدم الصبر على إتمامها، أو المحافظة عليها.

٣- الثناء على أهله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٤- إخباره أن الصبر خير لأصحابه: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

٥- إيجاب الجزاء لهم بأحسن الأعمال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

٦- ضمان النصر والمدد لهم: لقوله ﷺ: «أَنْ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»^(١).

٧- أن أهل الصبر هم أهل العزم قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

٨- الإخبار بأنه ما يُلقَى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، قال تعالى: ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، ﴿وَمَا يُلَقَّهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]^(٢).

أسباب الصبر عن المعصية:

١- علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها.

٢- الحياء من الله سبحانه.

(١) أحمد (١/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٥٣-١٥٤) فراجع إن شئت فقد ذكر ستة عشر نوعاً.

٣- مراعاة نعم الله علينا وإحسانه إلينا، وأن الذنوب تزيل النعم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

٤- خوف الله وخشية عقابه.

٥- محبة الله وإجلاله وإكرامه: قال عمر: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصبه»^(١).

٦- شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التي تحط من قدرها.

٧- قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها.

٨- قصر الأمل وعلم العبد بسرعة انتقاله من الدنيا، وأنه ربما مات وهو على المعصية، فلقي الله وهو على تلك الحال.

أما الصبر على الطاعة فينشأ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة.

أسباب الصبر على البلاء:

الصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة، منها:

١- شهود جزائها وثوابها.

٢- شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

(١) «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣٩٤/٤)، ونسبه إلى عمر رضي الله عنه ابن تيمية، فقال: «كما قال عمر رضي الله عنه:

نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصبه». «درء التعارض» (٦/٦٨)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/٦٤)

و(١٥/٢٤٠)، وفي الكلام محذوف تقديره: «فكيف وقد خافه»، ولهذا قال ابن تيمية في شرحه لهذا

الحديث: «أي هو لم يعصبه، ولو لم يخفه، فكيف إذا خافه، فإن إجلاله وإكرامه لله يمنعه من معصيته».

«مجموع الفتاوى» (١٠/٦٤).

٣- شهود القدر السابق الجاري بها.

٤- شهوده حجة الله عليه في تلك البلوى وواجب الصبر فيه.

٥- ترتبها على ذنبه ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

٦- أن يعلم أن هذه المصيبة دواء نافع ساقه إليه العليم بمصلحته الرحيم به فليصبر على تجربته.

من ثمرات الصبر:

١- الجنة: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

٢- محبة الله لهم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

٣- البشرى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

٤- الأجر بدون حساب: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

٥- المعية الخاصة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

٦- أن الله جمع لهم ثلاثة أمور لم تجمع لغيرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

٧- بطلان كيد الأعداء: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٨- سلام الملائكة عليهم: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

٩- التوفيق لخصال الخير: ﴿وَلَكُمْ ثَوَابٌ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

١٠ - الانتفاع بالذكرى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ

شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

١١ - الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قوله: الأذى فيه: أي كل ما يؤذيك من قول وفعل بسبب عبادتك ودعوتك إلى دين

الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ثم ذكر علاجها

وبأي شيء تقابلها، فقال: ﴿وَإِنْ تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ونبه الشيخ على الصبر على الأذى فيه لأمر:

١ - أن كثيرًا من الناس لا يصبر فيتنازل من أول الطريق وقليل من يثبت وخاصة في

زمن الغربة.

٢ - أن من لم يصبر على الأذى في طاعة الله بل اختار المعصية كان ما يحصل له من

الشر أعظم مما فر منه بكثير: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَن لِّي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ

سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] ^(١).

٣ - أن الصبر على الأذى في الطاعة والدعوة من جنس الجهاد في سبيل الله. قال شيخ

الإسلام: «فصبر الرسل على أذى المكذبين لئلا يتركوا ما أمروا به من دعوتهم إلى عبادة الله

وحده وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فهذا الصبر هو من جنس الجهاد في سبيل الله

إذ كان الجهاد مقصودًا به أن تكون كلمة الله هي العليا وأن الدين كله لله فالجهاد والصبر

فيه أفضل الأعمال» ^(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/١٣٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/٢٥-٢٦).

فبهذه المسائل الأربع يكمل الإنسان نفسه ويكمل الآخرين فيترقى في مدارج الكمال بل قد «انحصر الكمال الإنساني على هذه المراتب الأربعة ومن تطلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة عليهم السلام وأراد اتباعهم فهذه طريقهم حقاً.

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم فقد وضحت للسالكين عياناً»^(١).

(١) «الرسالة التبوكية» (٥٥)، وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٠).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣].

سر الاستدلال بسورة العصر مع أن هناك أدلة كثيرة غيرها:

١ - أن الله ربط هذه الأمور المأمور بها في الدهر الذي هو زمن الأرباح والخسائر وهذا تنبيه على المحافظة عليه فإنه وقت الزرع.

الوقت أنفس ما عنت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

٢ - أن الله ربط هذه الأمور بالخسران الذي هو نتيجة تضييع أمر الله والتفريط فيه فمن تعلم وعمل وعلم وصبر فقد فاز، ومن فرط فقد خسر.

قال ابن القيم: «فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان والفاعلين وأفعالهم على المعاد وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم وجعلها قسمين خيراً وشرّاً تأبى أن يسوي بينهم وأن لا يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين. بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحم الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به»^(١).

٣ - أن في هذه السورة بياناً لو حدة المنهج فيجب أخذ الدين كله، فلا يجوز أن يؤخذ بعضه ويترك البعض الآخر.

٤ - أن هذه السورة جمعت المسائل الأربع في موضع واحد وهذا أدعى لأخذها جميعاً. إذ لو كانت الأدلة متفرقة لربما تفتن المتعلم لبعضها، ونسي الآخر.

٥- أن الصحابة وهم أفقه الأمة إذا اجتمعوا لم يتفرقوا حتى يقرؤوها.
فعن أبي مدينة الدارمي - وكانت له صحبة - قال «كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا، ثم أرادا أن يفترقا، قرأ أحدهما: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ» حتى يجتمعا، ثم يسلم كل واحد منهما على صاحبه»^(١) وذلك ليذكروا أنفسهم بها لأنها منهج متكامل.

والعصر: الواو واو القسم والله أن يقسم بها شاء من خلقه، كما في أي كثيرة من كتابه، كقسمه بالنجم والفجر وغيرها، والحكمة في ذلك كما نقل مطرف عن عبد الله قال: «إنما أقسم الله بهذه الأشياء ليعجب بها المخلوقين، ويعرفهم قدرته لعظم شأنها عندهم، ولدلالتها على خالقها»^(٢).

وقال ابن تيمية: «لأن إقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه، وذكر آياته»^(٣).
وقال رحمه الله: «فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته؛ لأنها آياته ومخلوقاته، فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشئته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته فهو سبحانه يقسم بها؛ لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه»^(٤).

أما الخلق فليس لهم أن يقسموا إلا به سبحانه لقوله ﷺ: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت»^(٥)، وفي رواية: «من كان حالفًا، فلا يحلف إلا بالله»، وقوله ﷺ: «لا

(١) «الزهد» لأبي داود (٣٤١) رقم (٤١٧)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٢١٥/٥) رقم (٢١٤٥)، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الأوسط»، رجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة، وهو ثقة. «مجمع الزوائد» (٣٠٧/١٠) رقم (١٨١٩٨).

(٢) «فتح الباري» (٥٣٥/١١)، وبمثله قال قطرب والفراء. «الزاهر في معاني كلمات الناس» (٢٢٨/١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٤٥/١).

(٤) المرجع السابق (٢٩٠/١).

(٥) البخاري مع الفتح (٢٨٧/٥)، كتاب «الشهادات» / باب كيف يُستحلف. رقم (٢٦٧٩)، ومسلم (٣/١٢٦٦)، كتاب «الأيان» / باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى. رقم (١٦٤٦).

تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم»^(١)، وقوله ﷺ: «من حلف بغير الله؛ فقد كفر أو أشرك»^(٢). وفي رواية: «من حلف بشيء دون الله تعالى؛ فقد أشرك»^(٣).

وقوله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون»^(٤).

ولما روت قتيلة بنت صيفي الجهنية: «أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولون: ما شاء الله، ثم شئت»^(٥).

(١) مسلم (٣/ ١٢٦٧)، كتاب «الأيمان»/ باب النهي عن الحلف بغير الله. رقم (١٦٤٨).
(٢) أحمد (٢/ ١٢٥)، وأبو داود (٣/ ٥٧٠)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب في كراهية الحلف بالآباء. رقم (٣٢٥١) واللفظ له، والترمذي (٤/ ١١٠)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله. رقم (١٥٣٥)، وقال «حديث حسن»، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ١٩٩) رقم (٤٣٥٨)، والحاكم في «المستدرک» (١/ ١١٧)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذا اللفظ». وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «الوابل الصيب» (٢٩١)، وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٤٥٨).

(٣) «المصنف» لعبد الرزاق (٨/ ٤٦٨) رقم (١٥٩٢٦)، وأحمد (٢/ ٣٤). قال ابن كثير: «إسناده على شرط الصحيحين». «مسند الفاروق» (١/ ٤٣١).

(٤) أبو داود (٣/ ٥٦٩)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب في كراهية الحلف بالآباء. رقم (٣٢٤٨)، والنسائي (٧/ ٥)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب الحلف بالآباء، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ١٩٩) رقم (٤٣٥٧). قال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٤٥٥)، وصححه ابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٥/ ٣٠٧).

(٥) أحمد (٦/ ٣٧١-٣٧٢)، والنسائي (٧/ ٦)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب الحلف بالكعبة. واللفظ له، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٥/ ١٣)، و«المستدرک» للحاكم (٤/ ٣٣١)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وصححه النسائي. «فتح الباري» (١١/ ٥٤٠)، وقال ابن حجر: «سنده صحيح». «الإصابة» (١٣٠-١٣١).

«والأدلة المانعة عن الحلف بغير الله أكثر من أن تحصر»^(١).

«والحلف بالمخلوقات كلها في حكم الحلف بالآباء، لا يجوز شيء من ذلك»^(٢) لما ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم، ولا فرق بين نبي ونبى»^(٣).

قال جبلة بن سحيم: أقبلت مع زياد بن حدير الأسدي من الكناسة، فقلت في كلامي «لا والأمانة»، فجعل زياد يبكي، ويبكي، فظننت أني أتيت أمراً عظيماً، فقلت له: أكان يُكره هذا؟ قال: نعم، كان عمر ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي»^(٤).
وقال القاسم بن مخيمرة: «ما أبالي حلفت بحياة رجل أو بالصليب»^(٥)، أي: أنه لا فرق بينهما، فكلاهما شرك، ولهذا قال البخاري: «وليس لأحد أن يحلف بالمخلوقين ولا بأعمارهم، ولا بكلامهم»^(٦).

ولخطورة الحلف بغير الله امتنع منه عمر رضي الله عنه في جميع أحواله، كما روى ذلك ابنه عبد الله، فقال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم». قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ، ذاكراً ولا آثراً»^(٧).

(١) «حكم الله الواحد الصمد» للمعصومي الحنفي (١٣٧)، وانظر: «تيسير العزيز الحميد» (٤٤٤)، و«مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» لابن باز (٤/١٤٦).

(٢) «التمهيد» (١٤/٣٦٧).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/٢٩١).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٧٠-٧١).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبه (٣/٤١٧).

(٦) «خلق أفعال العباد» (١٥٦).

(٧) البخاري مع الفتح (١١/٥٣٠)، كتاب «الآيمان والنذور» / باب لا تحلفوا بآبائكم. رقم (٦٦٤٧)، ومسلم (٣/١٢٦٧)، كتاب «الآيمان» / باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى. رقم (١٦٤٦).

وعاتب الزبير وكاد أن يضربه بالدرة لما سمعه يقول: لا والكعبة، فرفع عليه الدرة، وقال: «الكعبة لا أم لك، تطعمك وتسقيك؟!»^(١).

ولقد فقه الصحابة والتابعون عظم إثم الحلف بغير الله، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره وأنا صادق»^(٢)، وقال الشعبي: «الخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق، والذي نفسي بيده لأن أقسم بالله فأحنت، أحب إليّ من أن أقسم بغيره فأبر»^(٣).

هذا مع أن الحلف بالله كاذباً قد يكون يميناً غموساً يغمس صاحبه في النار، ومع ذلك كله صار أخف إثماً وأقل جرماً من الحلف بغير الله مع الصدق، «وذلك لأن الحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم إثماً من الكبائر»^(٤).

قال ابن القيم: «صاحب الشرع يجعله - أي الحلف بغير الله - شركاً، فرتبته فوق رتبة الكبائر»^(٥).

والسر في ذلك: «أن من حلف بغير الله فقد عظم غيره تعظيماً يشبه تعظيم الرب تبارك وتعالى، ولهذا سمي شركاً لكونه أشرك غير الله مع الله تعالى في تعظيمه بالقسم به»^(٦).

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٤١٦/٣).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (٤١٦/٣)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٨٣/٩) رقم (٨٩٠٢)، وقال المنذري: «رواه الطبراني موقوفاً، ورواه رواية الصحيح». «الترغيب والترهيب» (٣/٦٠٦-٦٠٧). قال ابن حجر: «وجاء مثله عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما، والشعبي رضي الله عنه». «فتح الباري» (٥٣٥/١١).

(٣) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٩٧/٦).

(٤) «جامع المسائل» لابن تيمية - المجموعة الخامسة (١١٧)، و«مجموع الفتاوى» (٣٥٠/٢٧).

(٥) «إعلام الموقعين» (٤٠٣/٤).

(٦) «الشرح الكبير» لابن قدامة المطبوع مع «الإنصاف» (٤٦٤/٢٧).

والقاعدة في ذلك: «كل معصية سُمِّيت شرًّا أو كفرًا أعظم من معصية لم تسم شرًّا أو كفرًا».

وقد أجمع العلماء على تحريم الحلف بغير الله، ومن ذلك: ما رواه الكوسج، قال: قلت لأحمد: تكره أن يحلف الرجل بعق أو طلاق، أو مشي؟

فقال أحمد: سبحانه الله تعالى! من لا يكره ذلك؟ لا يحلف إلا بالله»^(١).

فقوله: من لا يكره ذلك؟ يدل على أنه ليس في المسألة خلاف، فالمسألة إجماع.

قال ابن عبد البر: «لا يجوز الحلف بغير الله ﷻ في شيء من الأشياء، ولا على حال من الأحوال، وهذا أمر مجمع عليه»^(٢).

وقال ابن تيمية: «ونحن المخلوقين ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع بل ذكر غير واحد الإجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك بل ذلك شرك منهى عنه»^(٣).

وقال الشنقيطي: «اعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بأسماء الله وصفاته، فلا يجوز القسم بمخلوق لقوله ﷻ: «من كان حالفًا، فليحلف بالله أو ليصمت»، ولا تنعقد يمين بمخلوق كائنًا من كان، كما أنها لا تجوز بإجماع من يعتد به من أهل العلم، وبالنص الصريح في منع الحلف بغير الله»^(٤).

وبعد أن ذكر ابن باز نماذج ممن يحلف به من دون الله، كالنبي ﷺ، والكعبة، والملائكة والمشايخ، قال: «وغير ذلك مما يحلف به كثير من الجهلة بأمور الدين، فهذه الأيمان كلها لا

(١) «مسائل الكوسج» (٥/ ٢٤٧٥).

(٢) «التمهيد» (١٤/ ٣٦٦).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٩٠)، وانظر (٣/ ٣٩٨).

(٤) «أضواء البيان» (٢/ ١٢٣).

تجوز بإجماع أهل العلم»^(١).

العصر: فسر العصر بعدة معانٍ مردها إلى الدهر ففسر بالدهر والسنة والشهر والليل والنهار وبصلاة العصر.

المقسم به العصر وأقسم الله به لأمرين:

الأول: أهميته:

وتتجلى أهميته بما يلي:

أ- أنه زمن الأرباح للمؤمنين، والخسائر للكافرين والفاسقين.

ب- لما فيه من العبر والعجائب للناظرين والمتفكرين من تعاقب الليل والنهار والظلام والنور وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

ج- أنه ينقلنا من الدنيا إلى الآخرة فالزمان بحركته الدائبة يجري بالإنسان نحو نهايته المحتومة.

وأرى الزمان سفينة تجري بنا نحو المنون ولا نرى حركاته

ولذلك فإن الله تعالى أقسم بجميع أجزائه والفجر وليال عشر - والضحى والليل إذا سجى - والعصر - والليل إذا يغشى.

الثاني: لما فيه من التذكير بالآخرة: فأقسم الله بالعصر في حق الخاسر كما أقسم بالضحى في حق الرابح لما فيهما من دلائل قدرة الله فإن كل بُكْرَةٍ كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء وتنصب الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت وكل واحدٍ من هاتين الحالتين شاهد عدل. ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٨/ ٣٥٧).

عد خاسراً فهكذا الإنسان إذا لم يعمل صالحاً.

قال الحسن: أقسم بالعصر تنبيهاً على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألونك حقهم فحينئذ تحجل فتكون من الخاسرين. وهكذا فالقيامة قد دنت فإذا أنت لم تستعد وفجأك الأجل تكون من الخاسرين.

إن الإنسان لفي خسر: هذا هو جواب القسم.

الإنسان: لفظ يقع على الذكر والأنثى من بني آدم.

فهو اسم جنس ويراد به العموم ويدل على ذلك أمران:

١ - الألف واللام وهما يفيدان الاستغراق أي استغراق جميع الإنسان وهم بنو آدم، ويدخل معهم الجن؛ لأنهم قوم مكلفون بالشرعة كالإنس.

٢ - الاستثناء منه حيث قال: إلا الذين آمنوا.

لفي خسر: الخسر هو: النقصان وذهاب رأس المال. وقيل: العقوبة. قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَقَبَهُ أَمْرٌ خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٩] ونكر الخسر للتعظيم والتهويل والمبالغة في الخسارة أي إن الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل.

فالذنب والعصيان عظيم لأمرين:

١ - أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب.

٢ - أنه وقع في مقابلة النعم العظيمة.

وأكد ذلك بمؤكدات:

١ - إن تفيد التوكيد.

٢ - حرف الظرفية «في» يفيد الاستغراق فهو مستغرق في الخسران فهو كالمغمور فيه.

٣- حرف اللام في «لني خسر».

فدل ذلك على أن الإنسان لا يكاد ينفك عن خسر لأن الخسر هو تضييع رأس المال ورأس ماله هو عمره والإنسان قلما ينفك عن تضييع شيء من عمره وذلك لأن ساعات الإنسان ثلاث هي:

١- ساعة مصروفة في معصية، فهذه لاشك في خسرتها.

٢- ساعة مصروفة في المباحات، فخسرتها حاصل لأنها إذا ذهبت لم يبق منها أثر ينفعه.

٣- ساعة مصروفة في الطاعة فهذه ساعة خير وربح، فلنحرص على الإتيان بالطاعة الفاضلة على أحسن وجه؛ لئلا نخسر الدرجة العليا.

إذًا: هذه الآية تنبه على أن الأصل في عموم الإنسان هو الخسران وذلك لأن سعادة الإنسان أن يكون همه الآخرة والعمل لها والإعراض عن الدنيا ولكن معظم الخلق معرضون عن الآخرة إلى الدنيا لأن الأسباب الداعية لحب الدنيا ظاهرة أمامهم وأما الأسباب الداعية إلى الآخرة فهي خفية فلذلك انهمكوا في طلب الدنيا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال شيخ الإسلام: «فحكم على النوع كله والأمة الإنسانية جميعها بالخسارة والسفول إلى الغاية إلا المؤمنين الصالحين»^(١).

وقال ابن القيم: «بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحم الله فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه وأمر غيره به»^(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/٥).

(٢) «البيان» (٨٣).

قال بعض السلف: تعلمت معنى سورة العصر من بائع ثلج كان يصيح ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله فقلت هذا معنى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ فكما أن الثلج تذيبه الدقيقة والساعة، كذلك عمر الإنسان تفنيه السنة والشهر واليوم والساعة والدقيقة، ولا يستطيع إرجاع شيء من عمره. فما ذهب لا يعود.

أقسام الخسر:

ينقسم الخسر إلى قسمين:

١ - خسر كامل مطلق: كخسران الكفار والمنافقين الذين خسروا دنياهم وآخرهم وفاتهم النعيم واستحقوا الجحيم.

قال تعالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥] فهؤلاء في جهنم خالدون.

٢ - خسر ناقص: «جزئي مقيد» كمن فاته عمل صالح لم يعمله، روى سعد ابن أبي وقاص أنه كان قاعداً عند عبدالله بن عمر: إذ طلع خباب صاحب المقصورة فقال: يا عبدالله بن عمر ألا تسمع ما يقول أبو هريرة إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خَرَجَ مَعَ جَنَازَةٍ مِنْ بَيْتِهَا وَصَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ تَبِعَهَا حَتَّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قِيرَاطَانِ مِنْ أَجْرِ كُلِّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُحُدٍ». فأرسل ابن عمر خباباً إلى عائشة يسألها عن قول أبي هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت: وأخذ ابن عمر قبضة من حصباء المسجد يقلبها في يده حتى رجع إليه الرسول فقال: قالت عائشة صدق أبو هريرة، ف ضرب ابن عمر بالحصى الذي كان في يده الأرض ثم قال: لقد أضعنا قراريط كثيرة»^(١)

(١) مسلم (٢/ ٦٥٤) كتاب «الجنائز»/ باب فضل الصلاة على الجنائز واتباعها. رقم (٩٤٥).

وفي رواية البخاري «لقد فرطنا في قراريط كثيرة» فرطت: ضيعت من أمر الله^(١).

«فهذا نوع تفريط وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك»^(٢).

وأشد من ذلك أن الإنسان يعلم ما أمر الله به من عمل صالح ويعلم فضله ثم لا يستطيع القيام به من غير مانع ظاهر وإنما الذنوب هي التي قيدته فمنعته العمل الصالح. قال الفضيل بن عياض: «إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك»^(٣).

ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد خسر ربح الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر قال ابن القيم: «إن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وهو قدر زائد على مجرد فعله فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر»^(٤).

وكمن ارتكب معصية لا توصله إلى الكفر فاستشعر بذلك خسارته ونقص إيمانه كما فعل ماعز عندما زنى أتى إلى النبي ﷺ فقال: طهرني^(٥).

فعموم الخسران حاصل ويتبين أكثر عند النظر إلى المستثنى وأضداده بـ:

١ - الإيمان ضده الكفر قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥] فخسران الدين سببه الكفر وهذا من الخسر الكامل ويوضحه قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا

عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ١٩٢) كتاب «الجنائز» / فضل اتباع الجنائز. رقم (١٣٢٤).

(٢) «التبيان» (٨٣).

(٣) «حلية الأولياء» (٨/ ٩٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٣٥).

(٤) «التبيان» (٨٨).

(٥) مسلم (٣/ ١٣٢٢) كتاب «الحدود» / باب من اعترف على نفسه بالزنى. رقم (١٦٩٥).

٢- العمل الصالح ضدَّه العمل الفاسد قال تعالى مبيناً خسران صاحب الأعمال الفاسدة ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

٣- التواصي بالحق ضده التلهي بالباطل. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٤- التواصي بالصبر ضده الهلع والجزع، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

إلا: أداة استثناء.

وللاستثناء فائدتان:

١- أنه تسلية للمؤمن من فوات عمره وشبابه؛ لأن العمل الصالح قد أوصله إلى ما هو خير منه.

٢- تنبيه على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو الفوز، والفلاح وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الخسار والفساد.

الذين آمنوا: أي شهدوا أن لا إله إلا الله بألسنتهم، وأقروا واعتقدوا بقلوبهم صحة ما جاء به النبي ﷺ من الدين، وعملوا بما تقرر في شرع الله ودينه.

والإيمان لا يمكن أن يكون إلا بالعمل فلا يصح إلا به، ولهذا قال:

وعملوا الصالحات: أي أدوا ما أمرهم الله به.

والعمل الصالح شاملٌ لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

والصلاح: هو ما اجتمع فيه شرطَا القبول وهما الإخلاص والمتابعة.

وقيد العمل بالصالح لأن العمل إذا لم يكن صالحاً لم يقبل ولم ينفع صاحبه بل ربما كان وبالاً عليه.

والآية هنا جمعت الأعمال الباطنة والظاهرة.

إلا الذين آمنوا: الأعمال القلبية الباطنة.

وعملوا الصالحات: الأعمال البدنية الظاهرة.

قال الشافعي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ

الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] علمنا: أنهم خير البرية بالإيمان والعمل الصالح^(١).

وتواصوا: التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وقبوله من الآخرين إذا وصَّوهم به فجمعوا بين المنقبتين: الوصية وقبولها.

الحق: هو الإيمان والتوحيد بل هو الدين كله.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب^(٢).

والتواصي بالحق ضرورة لأن النهوض بالحق عسير ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا

ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، والمعوقات كثيرة فالشيطان معوق وهوى النفس آخر ومنطلق المصلحة الخاطئة ثالث وطغيان الطغاة وظلمهم وجورهم رابع... إلخ.

أضف إلى ذلك أن التواصي تشجيع وتذكير وإشعار بالقرب في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة، فالتواصي يشعر كل مسلم أنه حارس للحق وأن أخاه معه يعينه وينصره ولا يخذله.

(١) «اعتقاد الشافعي» للهكاري (٢٤).

(٢) «التبيان» (٥٤).

وتواصوا بالصبر: أي أمر بعضهم بعضًا بالصبر فَوَصَّوْا به وقبلوا الوصية به إذا وجهت إليهم، والتواصي بالصبر لأمرين:

١ - لأنه ضرورة مُلِحَّة: لأن الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة فلا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير والصبر على ما يصيب الإنسان من الأذى، وتبجح أهل الباطل بباطلهم. قال ابن القيم: «ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس، وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه»^(١).

٢ - أن الصبر يزيد من قوة المسلم في تمسكه بالحق والدعوة إليه فيندفع في سبيل دعوته ولا يبالي بما يعترضه من المعوقات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

كرر الله تعالى كلمة تواصوا لأمرين:

١ - لتبرز الأمة ذات الكيان الخاص والوجهة الموحدة والرابطة المتميزة.

٢ - عدم الأنانية فيذكر بعضهم بعضًا وينصح له كما ينصح لنفسه.

٣ - لما فيها من استشعار الرحمة والألفة والشفقة والمحبة فمن المعلوم أن الوصية تأتي من الحبيب لحبيه.

وجمع الله بين الحق والصبر لـ «أن الدين مبني على هذين الأصلين الحق والصبر»^(٢).

(١) «عدة الصابرين» (٢٠٩).

(٢) المرجع السابق (١١٢).

أقسام الناس عند الوصية:

- ١ - من لا يوصي غيره، لكن إذا وصاه غيره قبل منه.
 - ٢ - من لا يوصي غيره ولا يقبل وصية غيره له.
 - ٣ - من يوصي غيره لكن لا يقبلها إذا جاءت من غيره.
 - ٤ - من يوصي غيره ويقبل وصية غيره له.
- وهذا هو خيرهم وأفضلهم وأكملهم. وهذه صفة المؤمنين الخُلص، فلنحرص ولنجاهد أنفسنا لعلنا أن نكون منهم.
- قال شيخ الإسلام: «وكما أننا مأمورون بقبول هذه الوصية والإيصاء بها فقد نهينا عن قبول ضدها وهو التكذيب بالحق والترك للصبر، فإن هذه الأخلاق إنما تحصل لعدم الصبر، والصبر ضابط الأخلاق المأمور بها»^(١).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٦٥).

قال الشافعي رحمه الله: «لوما أنزل الله حجةً على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم».

لو ما أنزل الله: النزول يكون من الأعلى إلى الأسفل، والإنزال في القرآن ورد على ثلاثة أحوال، هي:

١ - ورد مطلقاً غير مقيد، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ﴾ [الزمر: ٦].

٢ - ورد مقيداً بشيء من خلق الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

ففي هاتين الحالتين المنزل خلق من خلق الله.

٣ - ورد مقيداً بالله تعالى: ﴿حَمْدُ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [الجاثية: ١-٢].

أما في هذه الحالة فالمقصود به صفة من صفاته، وهي كلامه سبحانه، ومنه سورة العصر.

حجة: والحجة هي الكلام المقنع الذي لا يستطيع الخصم رده. بل يلزمه الاستسلام له وقبوله.

على خلقه: يقصد بذلك أن الله أنزلها على رسوله وكلف بها خلقه، فكأنها أنزلت إليهم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، والخلق هم المكلفون من الإنس والجن.

لكفتهم: أي أغنتهم عن غيرها، فلو لم ينزل الله من وحيه على عباده إلا سورة العصر لكانت مقنعة لهم ومغنية لهم عن غيرها فقد وضحت المنهج السليم الذي ينبغي أن يسير عليه المسلم.

وفي رواية: «لو تدبر الناس هذه السورة لو سعتهم»^(١).

وفي رواية: «لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم»^(٢).

«وذلك لأن الله تعالى أخبر فيها أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً ومع غيره موصياً بالحق موصياً بالصبر»^(٣).

وشرحها ابن باز فقال: «أي لو نظروا فيها وتأملوا لكانت كافية في إلزامهم الحق وقيامهم بما أوجب الله عليهم وترك ما حرمه عليهم لأن الله بين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ناجون ومن سواهم خاسر وهذه حجة قائمة على وجوب التواصي والتناصح والإيمان والصبر والصدق وأنه لا طريق للسعادة والربح إلا بهذه الصفات الأربع»^(٣).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤ / ٥٤٧).

(٢) «الاستقامة» (٢ / ٢٥٩ - ٢٦٠).

(٣) «شرح ثلاثة الأصول» (٢٦).

قال البخاري رحمه الله: «باب العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]» فبدأ بالعلم قبل القول والعمل^(١).

في سورة العصر دلالة واضحة على العلم وذلك أنه لا يمكن أن يؤمن الإنسان ويعمل ويدعو إلا عن علم وبصيرة ولذلك أجمع من شرحوا سورة العصر أو تكلموا على معانيها وفوائدها أن العلم والعمل هما الأمران اللذان يكمل بهما الإنسان نفسه. لكن المؤلف عليه رحمة الله أراد أن يزيد الأمر وضوحاً فذكر تبويب البخاري رحمه الله ودليله الذي استدل به على أن البداية بالعلم قبل القول والعمل.

قال ابن المنير: «أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه المصنف على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: «إن العلم لا ينفع إلا بالعمل» تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه»^(٢). وهذا العلم الذي أمر الله به هو العلم بأصل العلوم وهو العلم بتوحيد الله.

لكن لا بد من إقرار القلب به وعمل الجوارح بمقتضاه أي فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهية ويجوز للخلق عبادته إلا الله خالق كل شيء ومالك كل شيء واسأل ربك غفران ذنوبك السالفة وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء.

ولقد فعل النبي ﷺ ذلك فاستغفر لأمته فعن عاصم عن عبدالله بن سرجس قال رأيت النبي ﷺ وأكلت معه خبزاً ولحماً أو قال ثريداً قال فقلت له: أستغفر لك النبي ﷺ

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٥٩) كتاب «العلم».

(٢) «فتح الباري» (١/ ١٦٠).

قال نعم. ولك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(١) [محمد: ١٩].

والطريق إلى العلم بأنه (لا إله إلا الله) أمور:

- ١ - تدبر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالة على عظمته وكماله.
- ٢ - العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.
- ٣ - معرفة أوصاف الأوثان التي عبدت مع الله واتخذت آلهة وأنها ناقصة من جميع الوجوه فقيرة بالذات لا تملك لنفسها وغيرها ضرراً ولا نفعاً.
- ٤ - شهادة الرسل والأنبياء وأولو العلم بالتوحيد.
- ٥ - الأدلة الأفقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة.
- ٦ - تدبر القرآن العظيم «وهو الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره»^(٢).

ومن لطائف هذه الآية الجمع بين التوحيد والاستغفار، لأن الدين مجموع فيهما، قال شيخ الإسلام: «وقد ثبتت دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد واقتراها بشهادة أن لا إله إلا الله من أولهم إلى آخرهم ومن آخرهم إلى أولهم ومن الأعلى إلى الأدنى، وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم وهم فيها درجات عند الله ولكل عامل مقام معلوم. فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله دقه وجله، خطأه وعمده، أوله وآخره، سره وعلايته، وتأتي على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه.

والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته ويمحو الذنب الذي هو من شعب الشرك فإن الذنوب كلها من شعب الشرك فالتوحيد يذهب أصل الشرك والاستغفار يمحو فروعه

(١) مسلم (٤/ ١٤٢٣-١٤٢٤)، كتاب «الفضائل»/ باب إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده ﷺ.
رقم (٢٣٤٦).

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٧٣١-٧٣٢).

فأبلغ الشاء قول لا إله إلا الله وأبلغ الدعاء قول أستغفر الله، فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولإخوانه من المؤمنين»^(١).

وبعد أن ذكر المؤلف رحمه الله مقومات الشخصية الإسلامية التي عنون لها بالمسائل الأربع. انتقل إلى بيان المناهج الموجودة في المجتمعات وما هو الصحيح الذي يجب اتباعه والفساد الذي يجب اجتنابه ومن ثم معرفة السياج الواقعي من الوقوع في المنهج الفاسد فقال: اعلم رحمك الله....

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/٦٩٦-٦٩٧).

اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم ثلاث هذه المسائل والعمل

بهن.

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هملًا.

.....

اعلم رحمك الله: كررها مرة ثانية ليفتح قلبك لما يلقيه عليك فتقبله وتنفذه.

أنه يجب على كل مسلم ومسلمة: أي أنه فرض لازم على كل المسلمين ذكرهم وأنثاهم حرهم وعبدتهم صغيرهم وكبيرهم وجوبًا على الأعيان لا يسع أحدًا منهم جهله أو عدم العمل به لأنها هي أساس الدين ولبه.

وحصرها بهذه المسائل الثلاث التي هي أصل الدين وقاعدته لأن الاستمسك بالدين لا يكون إلا بها:

فأمر بالتوحيد الذي هو أفراد الله بالعبادة مع بيان ثمرته.

ثم نهى عن ضده وما يبطله من الشرك مع بيان الشفقة على صاحبه.

وثلث بالسياج الواقى من الوقوع في الشرك وهو مصاحبة الأخيار المؤمنين وموالاتهم ومعاداة الأشرار الكافرين وبغضهم.

ونبه على العمل بهن لأمرين:

- ١ - لأن العمل هو ثمرة العلم فلا بد من العمل بالقلب واللسان والجوارح.
- ٢ - لأن المدعين لذلك كثير ولكن العامل بهن قليل فكثير من الناس يقول بأنه مسلم ويصوم ويصلي ويحج ولكنه يصرف العبادة لغير الله فيدعوه ويرجوه من دون الله أو مع الله، أو يوحد الله، ولكن لا يعادي الكافرين ولا يبغضهم.

الأولى: جعل مسألة التوحيد هي الأولى لأن الدعوة إلى التوحيد هي أول ما يبدأ به الداعية إلى الله إتباعاً لمنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما في حديث معاذ رضي الله عنه فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وذلك لأن نور التوحيد يبدد ظلمات الشرك ويذهبه.

أن الله خلقنا:

الخلق: هو إبداع الشيء على مثال لم يسبق إليه. فقوله: خلقنا: أي أوجدنا من العدم قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩].

والمادة التي خلقنا منها التراب: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠] ولذلك أنكر على المشركين الذين عبدوا معه غيره بصيغة الاستفهام الإنكاري فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، أي: أم خلقوا من غير خالق، أم هم الخالقون لأنفسهم.

فالقسمة في هذه الآية ثلاثية وذلك أن احتمالات وجود الموجدتين ثلاثة:

١ - أنهم خلقوا من غير خالق خلقهم ولا موجد أوجدهم وهذا عين المحال لأنه لا يمكن أن يوجد موجد موجود إلا بموجد.

٢ - أنهم هم الخالقون لأنفسهم وهذا محال لأنهم كانوا عدماً والعدم لا يوجد شيئاً لأنه ليس بشيء فكيف يوجد شيئاً.

٣ - أن الله خلقهم وهذا هو المتعين لأنه إذا استحال الاحتمالان الأول والثاني لم يبق إلا الثالث وهو أن الله خلقهم وأوجدهم وهو القادر على كل شيء وهو الخلاق العليم.

وهذا هو الذي قرره أئمة السلف كما قال شيخ الإسلام عندما ذكر الآية قال فيها قولان:

١ - الأكثرون قالوا: إن المراد أم خلقوا من غير خالق.

٢ - وقيل أم خلقوا من غير مادة؟ وهذا ضعيف لقوله بعد ذلك: «أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ» فدلّ على أن التقسيم أم خلقوا من غير خالق أم هم الخالقون؟ ولو كان المراد من غير مادة لقال: أم خلقوا من غير شيء أم من ماء مهين؟ فدلّ على أن المراد أنا خالقهم لا مادتهم... والاستفهام استفهام إنكار مقصوده تقريرهم أنهم لم يخلقوا من غير شيء، فإذا أقروا بأن خالقاً خلقهم نفعهم ذلك وأما إذا أقروا بأنهم خلقوا من مادة لم يغن ذلك عنهم من الله شيئاً^(١).

ولهذا هزت هذه الآية جوانح جبير بن مطعم رضي الله عنه عندما سمعها وكان ذلك الوقت مشركاً. قال جبير بن مطعم: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ^(٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ»^(٣٧-٣٥: الطور) كاد قلبي أن يطير»^(٢). زاد في رواية «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»^(٣).

ورزقنا: الواو عاطفة أي أن الخلق الذي هو الإيجاد من العدم والرزق الذي هو سبب البقاء من الله وتكرم منه ﷻ.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ٢٣٦-٢٣٧) وراجع إن شئت «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٢/ ٤٩٣-٤٩٤).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٦٠٣)، كتاب «التفسير»/ سورة الطور. رقم (٤٨٥٤).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ٣٢٣) كتاب «المغازي»/ باب شهود الملائكة بدرًا. رقم (٤٠٢٣).

والرزق: كل ما يدخل تحت ملك العبد مما يؤكل ومما لا يؤكل. وقيل كل ما ينتفع به الإنسان، وقيل: «الرزق: اسم لكل ما يغتذي به الإنسان وذلك يعم رزق الدنيا ورزق الآخرة»^(١).

فالله هو الذي رزق خَلْقَهُ رزقاً بعد رزق وأكثره ووسعه لهم. رزقاً شمل خلقه كلهم فلا رازق سواه ولا معطي غيره. قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣] فأكدت هذه الآية أن الرزق من الله بعدة مؤكدات:

- ١ - شهادة الله بصحة ما أخبر به.
- ٢ - القسم (فورب السماء).
- ٣ - إِنَّ.
- ٤ - اللام في قوله لحق.
- ٥ - (أَنَّ) في قوله (أنكم تنطقون).
- ٦ - ربطه بين النطق والرزق فالنطق معلوم بالحس والواقع لا يشك فيه أحد فكذلك الرزق يجب على العبد أن يثق بما عند الله من رزق ولا يشك فيه.
- ٧ - الربط بين النطق وأكل الرزق لأن مكانهما واحد وهو الفم، فكما أنك لا تستطيع أن تنطق بلسان غيرك لا تستطيع أن تأكل رزق غيرك.
- يرزق خلقه وإن ارتكبوا الجرائم والعظائم قال ﷺ: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أذى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ يَدْعُونَ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»^(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦ / ٥٢).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣ / ٣٦٠) كتاب «التوحيد» / باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. رقم (٧٣٧٨).

بل من كرمه أنه يسوق الرزق إلى الضعيف الذي لا حيلة له ولا قدرة له على الكسب
قال سبحانه: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وحصر الله الرزق منه سبحانه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].
فأتى بضمير الفصل «هو» ليفيد الاختصاص.

وتحداهم أن يجدوا رازقاً غيره فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣] وهذا استفهام يراد به الإنكار والتحدي، أي: إن وجدتم رازقاً غير الله،
فأتوا به.

فلو أمسك رزقه ما استطاع أحد أن يرزق أحداً من دونه. قال سبحانه على وجه
التوبيخ والتقريع وإقامة الحجة عليهم: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١].

وجه الجمع بين الخلق والرزق:

جمع المؤلف بينهما لأن الخلق إيجاد من العدم والرزق سبب للبقاء فمن لا يأكل ولا
يشرب يموت ولذلك جمع الله بينهما في كتابه الكريم فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

(والخلق والرزق فيهما حياة الأبدان) ففيه إشارة إلى توحيد الربوبية.

وتوحيد الربوبية هو «إفراد الله بأفعاله» أو: «إفراد الله بالملك والخلق والتدبير».

فدليل إفراده بالملك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ^(١) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩] فقدم ما

(١) ملك الله مطلق، قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

أما ملك المخلوق فهو ملك مقيد بزمان ومكان وأمر. أما الزمان فإن الإنسان لا يملك إلا وقت حياته
فقط أما المكان فإن المخلوق لا يستطيع ملك كل شيء فتجده يملك هذا المكان ولا يملك غيره أما الأمر
فإنه لا يجوز له أن يتصرف في ماله إلا بما شرع الله.

حقه التأخير ليفيد الحصر، أي: حصر الملك لله.

أما دليل إفراده بالخلق والتدبير فقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ^(١) وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فأتى بـ(ألا) الدالة على التنبيه وقدم ما حقه التأخير وهو الخبر فأفاد الحصر.

وذكر الربوبية ليستدل به على الألوهية ولهذا قال:

(ولم يتركنا هملاً):

الواو: عاطفة.

لم: نافية.

يتركنا: يبقنا أو يدعنا.

هملاً: الهمل هو السدى المتروك بلا أمر ولا نهي ولا بيان لما يحتاج إليه ومنه «بعير هامل» و«إبل هوامل» أي مُسَيَّبة لا راعي لها وأمر مهمل أي متروك.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] أيحسب: الهمزة للاستفهام الإنكاري أي: أيعظن الإنسان أن يترك هملاً مهملاً «لا يؤمر ولا ينهى»^(٢). وقيل: لا يثاب ولا يعاقب، والقولان واحد لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي فهو سبحانه خلقهم للأمر والنهي في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة، واحتج سبحانه بأنه لا يترك الإنسان مهملاً معطلاً بخلق النطفة فقال: ﴿الزَّيْطُ نُطْفَةٌ مِنْ مَّيٍّ يُنْعَى^(٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ [القيامة: ٣٧-٣٨] فمن لم يتركه وهو نطفة سدى، بل قلب النطفة حتى صارت علقة ثم صارت خلقاً سوياً كاملاً فدبرها بتصرفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشراً سوياً. فكيف

(١) الفرق بين خلق الله وخلق المخلوق أن خلق الله إيجاد من عدم وخلق المخلوق تحويل من صورة إلى أخرى.

(٢) «الرسالة» (٢٥).

يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له^(١).

والظن بأن الإنسان لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب من ظنّ السوء بالله وهو ظن الكافرين ولذلك نفاه الله عن نفسه في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وفي قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ (٣٨) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨].

وأنكره الله عليهم أشد الإنكار ونزه نفسه عنه فقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

والاستفهام في قوله أفحسبتم للإنكار والتوبيخ، والعبث: هو اللعب والباطل. أي أفظننتم أنا خلقناكم للإهمال واللعب والباطل وليس لوجودكم حكمة. وأنه ليس هناك أمر ولا نهي ولا بعث ولا نشور يثاب فيه مطيعكم ويعاقب فيه عاصيكم.

ثم نزه نفسه عن خلق شيء عبثاً فقال: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾ فهو الملك الحق الذي ملكه كامل على الإطلاق حق في جميع أقواله وأفعاله فيجب أن يعبد وحده لا شريك له، فإذا كان رباً للعرش فكيف لا يكون إلهاً ورباً لما هو دون العرش من المخلوقات فاعترفوا بربوبيته واخضعوا لألوهيته سبحانه.

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ١٦٥-١٦٦).

بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

.....

بل: للإضراب الإبطالي أي: إبطال ترك العبد هملاً لا يؤمر ولا ينهى.

أرسل: أي بعثه وأوحى إليه.

إلينا: أتى بنون الجمع في الجميع خلقنا رزقنا أرسل إلينا رسولاً: ليبين أن المنة منه سبحانه على الجميع والأمر بالعبادة كذلك للجميع.

رسولاً: نبينا هو محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه.

والغرض من إرسال الرسل أمران:

١ - ليعبد الله وحده قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم؛ فهو منهم»^(١).

وفي هذا دليل على أن تحقيق توحيد الألوهية لله وزوال الشرك من الأرض هو مقصود الدعوة إلى الله وأصلها وحقيقتها^(٢).

(١) أحمد (٩٢/٢)، و«المصنف» لابن أبي شيبه (٣١٣/٥). قال الذهبي: «إسناده صالح». «سير أعلام النبلاء» (٥٠٩/١٥).

وأخرجه أبو داود (٣١٤/٤) كتاب «اللباس» / باب في لبس الشهرة. رقم (٤٠٣١) مختصراً بلفظ: «من تشبه بقوم فهو منهم». قال شيخ الإسلام: «إسناده جيد». «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢٩٦/١)، وحسنه ابن حجر في «فتح الباري» (٢٧١/١٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/١٦٣-١٦٤).

٢- إبطال حجة المحتجين قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ

حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فمن: الفاء رابطة.

من: شرطية.

أطاعه: الطاعة هي تنفيذ الأوامر فعلاً أو تركاً راضية بذلك النفس. وأعلاها

التوحيد ثم ما دونه من الطاعات قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فاجتمع الرضى القلبي مع العمل البدني.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها: فعل الصحابة عندما شربوا الخمر كما في قوله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلُمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] قالوا: انتهينا، انتهينا وجأؤوا بالمدى فشقوا القرب حتى سالت

في شوارع المدينة.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كنت ساقى القوم في منزل أبي طلحة وكان خمرهم يومئذ

الفضيخ فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي ألا إن الخمر قد حرمت قال فقال لي أبو طلحة

اخرج فأهرقها فخرجت فهرقتها فجرت في سكك المدينة^(١).

وعن أبي ميسرة: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء،

فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]، فدعي عمر

فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) البخاري مع الفتح (٥/ ١١٢) كتاب «المظالم»/ باب صب الخمر في الطريق. رقم (٢٤٦٤).

ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ ﴿النساء: ٤٣﴾، فدعي عمر فقرئت عليه، ثم قال: اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء، فنزلت التي في المائدة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١]، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: انتهينا، انتهينا^(١).

ولما نزلت: ﴿يَذُنُّكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] خرج نساء الأنصار وكأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية^(٢).

وطاعة الرسل فرض لازم. إذ هي ثمرة الإيمان بهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وثمرتها الفوز بجنت النعيم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]. ولهذا قال المؤلف مبيناً هذه الثمرة «فمن أطاعه دخل الجنة». ومن دخل الجنة سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] والضمير في قوله أطاعه يعود على الرسول محمد ﷺ.

ولقد أحسن عندما ربط العمل بثمرته؛ لأن هذا من أعظم ما يحرك الهمم للقيام به.

(ومن عصاه دخل النار):

أي: ومن عصى رسوله ﷺ دخل النار؛ لأنه لم يقبل ما أرسل به.

والمعصية: هي مخالفة الأوامر فعلاً أو تركاً.

(١) الترمذي (٢٥٣/٥-٢٥٤)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة المائدة. رقم (٣٠٤٩).

(٢) أبو داود (٣٥٦/٤-٣٥٧)، كتاب «اللباس»/ باب في قوله تعالى: ﴿يَذُنُّكَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾. رقم

(٤١٠١)، وحسن سنده الشيخ عبد العزيز بن باز. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/٢٤٣).

وبين نتيجة المعصية وهي دخول النار، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ، يَدْخُلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

ولقد جمع بين الطاعة والمعصية وثمرتها وثمرتها ومعصية يخشى غيبتها وعقوبتها قال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي». قالوا يا رسول الله! ومن يأبى قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني؛ فقد أبى»^(١).

وضرب ﷺ المثل في ذلك ليقربه إلى الأفهام فقال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق»^(٢).

قال الطيبي في كلامه أنواع من التأكيدات:

١ - بعيني.

٢ - قوله: وإني أنا النذير.

٣ - العريان، لأنه الغاية في قرب العدو ولأنه الذي يختص في إنذاره بالصدق^(٣).

(١) البخاري مع الفتح (١٣ / ٢٤٩) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» / باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. رقم (٧٢٨٠).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣ / ٢٥٠)، كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» / باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. رقم (٧٢٨٣)، ومسلم (٤ / ١٧٨٨ - ١٧٨٩)، كتاب «الفضائل» / باب شفقة النبي ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم. رقم (٢٢٨٣).

(٣) «فتح الباري» (١١ / ٣١٧).

وضربت الملائكة المثل في بيان ثمره الطاعة، وعقوبة المعصية، كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً. قال فاضربوا له مثلاً... فقالوا مثله كمثله رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبةً وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا: أوّلوها له يفقهها... فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمدًا ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله. ومحمد ﷺ فرّق بين الناس^(١). والجمع بين ثمره الطاعة ونتيجة المعصية التي هي الجنة أو النار. هيج مشاعر الصحابة وأحاسيسهم، فجعلهم يسألون عنها كلما حانت الفرصة قال معاذ بن جبل كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير فقلت يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: «قَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً...»^(٢).

ولشدة تهيجهم لمشاعرهم هيج حتى الأعراب فجاءوا إلى النبي ﷺ يسألونه عن ذلك، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال يا رسول الله أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي ﷺ ثم نظر في أصحابه ثم قال: «لَقَدْ وَفَّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ» قال: كيف، قلت: قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٤٩)، كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) / باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. رقم (٧٢٨١).

(٢) أحمد (٥/ ٢٣١) الترمذي (٥/ ١١) كتاب «الإيمان» / باب ما جاء في حرمة الصلاة. رقم (٢٦١٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥)، كتاب «الفتن» / باب كف اللسان في الفتنة. رقم (٣٩٧٣)، وقال ابن القيم: «حديث صحيح». «إعلام الموقعين» (٤/ ٣١٠).

الزكاة، وتصل الرحم، دع الناقة»^(١).

وعلى هذا يربي حذيفة رحمه الله القراء فيقول: «يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً»^(٢).

وهذا هو التكريم الحقيقي لبني آدم وذلك بتكليفهم بالأوامر والنواهي فمن أطاع أوامر الله فقد قبل كرامة الله له وتشريفه إياه دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فعلياً أن نفرح بهذا التكريم ونقبله.

قال السعدي: «وهذا من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة»^(٣).

ومن لم يقبل التكريم فهو أضل من البهائم وأسوأ حالاً منها، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

فلما لم يقبلوا تكريم الله لهم انحطت مرتبتهم حتى صاروا أحط من البهائم قال مقاتل: «البهائم تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلها وهؤلاء لا

(١) مسلم (١/ ٤٢-٤٣). كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة. رقم (١٣)

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٥٠) كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة»/ باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. رقم (٢٧٨٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٤١٤).

ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم»^(١).

فمن لم يقبل الأوامر والنواهي ارتكب محذورين:

١ - اتهم الله بالعبث وإنكار اتصافه بالحكمة. لأنه لا يجتمع حكمة وعبث ولهذا نفى الله العبث عن نفسه فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. وأثبت له الحكمة فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعبَثٍ﴾ (٣٨) ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وكفى به إثماً وجرماً ومعصية أن يُتَّهم الله بالعبث، وتُنْفَى عنه الحكمة.

٢ - شبه نفسه بالمجنون والبهائم: فكلاهما لا عقل له ولا حساب عليه قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث، وذكر منها: وعن المجنون حتى يعقل»^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣٦ / ١٣)

(٢) أحمد (١٠٠ / ٦)، و الدارمي في «سننه» (١٩ / ٢)، كتاب «الحدود» / باب رفع القلم عن ثلاثة. رقم (٢٢٩٦)، وأبو داود (٥٥٨ / ٤)، كتاب «الحدود» / باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً. رقم (٤٣٩٨)، والنسائي (١٥٦ / ٦) كتاب «الطلاق» / باب ما لا يقع طلاقه من الأزواج. قال النسائي: «ليس في الباب صحيح إلا حديث عائشة؛ فإنه حسن»، وقال ابن المنذر: «هو ثابت عن النبي ﷺ». «فتح الباري» لابن رجب (٢٩٤ / ٥).

قال الترمذي: «والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم». «سنن الترمذي» (٣٢ / ٤). قال شيخ الإسلام: «اتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول». «مجموع الفتاوى» (١٩١ / ١١).

ما مدى حسرة من لا يعرف الأوامر والنواهي؟

يجيب عن هذا التساؤل خبر الحنفاء الذين عاشوا في الجاهلية، وبه نعرف حسرتهم ومدى نعمة الله علينا بحفظ الدين وبقائه غصًا طريًا كما نزل على نبينا محمد ﷺ بكلمه وتمامه، فله الحمد والمنة والفضل.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما «أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعلّي أن أدين دينكم فأخبرني فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد: ما أفرّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئًا أبدًا وأنتي أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا. قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالمًا من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفرّ إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئًا أبدًا وأنتي أستطيع ذلك! فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفًا قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم»^(١).

وكان يقول: «اللهم لو أني أعلم أحبّ الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته»^(٢).

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٢) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل. رقم (٣٨٢٧).

(٢) «سيرة ابن إسحاق» (٩٦).

فانظر إليه ﷺ لما تحركت عنده الفطرة وأبى الشرك وعبادة الأوثان بحث عن دين يشبع جوعته، فسافر إلى الشام وقطع الفيافي والقفار بحثاً عن الدين الصحيح، فذهب إلى اليهود لعله أن يجد عندهم بغيته فلم يجدها، ثم ثنى بالنصارى فلم يجد عندهم ما يريد، ولم يجد إلا أن الدين الصحيح هو الاستقامة على التوحيد، فلم يعرف كيف يتقرب إلى ربه بأية قربة. وانظر إليه وهو في البرية لوحده لم يعرف إلا هذه الكلمة اللهم أني أشهد أني على دين إبراهيم.

فإذا نظر المسلم إلى تلك الصورة المؤثرة ثم رجع إلى واقعه فوجد القرآن غصاً طرياً كما نزل، ووجد السنة كذلك وعلم كيف يتقرب إلى ربه بدون مشقة ولا عناء أكسبه ذلك الحرص على طاعة الرسول ﷺ والتمسك بدينه والفرح به ممتثلاً قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥].

ولعل سبب اختيار هذا الدليل مع أن الأدلة المباشرة على أن ثمرة الطاعة الجنة ونتيجة المعصية النار كثيرة في القرآن الكريم، ما يلي:

١ - أن فيه نموذجاً لعقوبة أحد العصاة المعروفين بجبروته وقوته وطغيانه. وهذا أدعى للاتعاظ ولهذا قال ابن مسعود رحمته الله: «السعيد من وعظ بغيره»^(١).

٢ - أن هذا العاصي عوقب بثلاث عقوبات (الدنيا - البرزخ - الآخرة). فاما العقوبة الدنيوية فيإذلاله وإغراقه بم افتخر به على موسى عليه السلام وهو الماء حيث قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] فأغرقه الله به قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣] فجمع الله عليه الغرق مع الإذلال. وأما عقوبة البرزخ فهي عرضه على النار مرتين كل يوم ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

وأما العقوبة الأخروية فعقوبته بأشد العذاب قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] وجمع الله تلك العقوبات كلها بقوله: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥].

وجمع العقوبات الثلاث في الدور الثلاث أشد في الزجر وأبلغ في التحذير.

إنا: الله يتحدث بضمير العظمة كي يعظم الناس أمره ويتبعوا رسوله.

(١) مسلم (٤/ ٢٠٣٧) كتاب «القدر»/ باب كيفية خلق آدمي. رقم (٢٦٤٥).

أرسلنا إليكم: الخطاب في قوله أرسلنا إليكم لقريش والمراد به سائر الناس^(١).

رسولاً: هو نبينا محمد ﷺ وجاء منكرًا لتفخيمه وتعظيمه.

شاهدًا عليكم: أي شاهدًا عليكم بأعمالكم بإجابة من أجاب منكم دعوته وعمل الصالحات وامتناع من امتنع منكم عن الإجابة يوم القيامة^(٢) يوضحه حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل. قال: «إني أشتهي أن أسمع من غيري». قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال لي: «كُفَّ أَوْ أُمْسِكُ» فرأيت عينيه تذرفان»^(٣).

قال ابن حجر: «بكى ﷺ رحمة لأمته لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيمًا فقد يفضي إلى تعذيبهم»^(٤).

وشهادة الرسول ﷺ على العاصي من أمته شأنها عظيم فيها تكون الحجة على المسيء أبلغ والتبكي له أعظم والحسرة أشد. أما المطيع فيكون سروره بشهادة الرسول ﷺ له أعظم من شهادة غيره فيا لها من شهادة ما أعظمها وأجلها.

كما أرسلنا إلى فرعون: الكاف للتشبيه. تشبيه الإرسال بالإرسال أي إرسالًا كائنًا مثل إرسالنا رسولاً إلى فرعون يدعوه إلى الحق والإيمان.

رسولاً: الرسول هو موسى عليه الصلاة والسلام فإنه رسول رب العالمين إلى فرعون.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣٠).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٦٩٣/٢٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٩٨/٩) كتاب «فضائل القرآن»/ باب البكاء عن قراءة القرآن. رقم (٥٠٥٥).

(٤) «فتح الباري» (٩٩/٩).

فعصى فرعون الرسول: وعصيان فرعون الرسول هو تكذيبه إياه وعدم الإيمان به، والانقياد لما أمره به.

وفي إعادة فرعون والرسول مُظْهِرَيْن تَفْطِيع لَشَأْن عَصِيَانِهِ.

وَأَل فِي الرِّسُول هُنَا لِلْعَهْد الذِّكْرِي.

فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا: الوبيل هو العظيم الشديد الثقل ومنه مطر وابل أي شديد قاله الأخفش وطعام وبيل: أي ثقل واخم. وقيل الوابل: الثقل الغليظ قاله الزجاج. وقال الطبري الوبيل: الشديد المتتابع. وقيل الوبيل: الشر. والعرب تقول لمن تتابع عليه الشر لقد أوبل عليه قاله ابن زيد^(١)، والمعنى: أي عاقبناه عقوبة غليظة شديدة متتابعة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦] «خارج من التشبيه جيء به للتنبيه على أنه سيحقق بهؤلاء ما حاق بأولئك لا محالة»^(٢).

والمراد من ذلك الحذر من تكذيب رسولكم محمد ﷺ فيصيبكم ما أصاب فرعون وجنوده من العذاب الأليم.

قال ابن كثير: وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتكم رسولكم؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران^(٣).

وقال الألوسي: وفيه أن عصيان المخاطبين أفضع وأدخل في الذم إذ زاد جل وعلا لهذا الرسول وصفاً آخر أعني شاهداً عليكم وأدمج فيه أنه لو آمنوا كانت الشهادة لهم. وفائدة قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ لإيذان المخاطبين بأنهم مأخوذون بمثل ذلك وأشد وأشد^(٤).

(١) انظر: «جامع البيان» (٢٣/٦٩٣-٦٩٤) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٩/٤٨).

(٢) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٦/٤٠٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١٤٣٠).

(٤) «روح المعاني» (١٥/١٢٠).

إذاً مما سبق يتبين لنا من هذه الآية أمران:

١ - حمد الله وشكره على إرسال هذا النبي الكريم ليخرجنا الله به من الظلمات إلى النور.

٢ - الحذر كل الحذر من كفران هذه النعمة بمعصية الرسول المرسل إلينا لأن العاصي مآله كمال فرعون ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وتأمل كيف جمع الله بين المشركين وفرعون وفي ذلك إشارة إلى ما بين هؤلاء المشركين وبين فرعون من المشابهة في العناد والجهل والضلال والاستعلاء عن سماع كلمة الحق والنفور منها.

فمن اتصف بهذه الصفات فله نصيب من عقوبتهم.

(الثانية): أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب ولا نبي

مرسل.

ثم حذر المؤلف من طريق وعر المسالك يؤدي إلى المهالك يسلكه بعض الناس يظنون أنه يوصل إلى النجاة فإذا به طريق العطب، يوصلهم إلى النار وبئس المصير. إنه طريق مناقض للطريق الأول تمامًا. فإنه لا يجتمع الشرك الأكبر والتوحيد في قلب عبد أبدًا.

حذر منه المؤلف بعبارة تدل على اللطف والمحبة والشفقة، فقال «إِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرِكَ مَعَهُ»، ولعله اقتبسها من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] «لا يرضى لعبادة الكفر لكمال إحسانه بهم وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها»^(١) فالرضى يشعر بالإذن مع محبة الفعل. أما عدم الرضى فيشعر بالمنع مع كراهية الفعل والسخط على فاعله. ولهذا كان الرضى يقابله الكراهة، كما ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(٢).

ويقابله السخط: «وهو نقيض الرضا»^(٣) قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ أَتْبَعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ

بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٦٦٦).

(٢) مسلم (٣/ ١٣٤٠) كتاب «الأقضية»/ باب النهي عن كثرة المسائل. رقم (١٧١٥).

(٣) «تهذيب اللغة» (٧/ ١٥٩).

فمن اتبع رضوان الله فاز بجنات النعيم، ومن باء بسخط الله فعقوبته جهنم.

ولماذا لا يرضى الله شركا به؟

لا يرضى الله شركا به لثلاثة أمور، هي:

١ - لكمال إحسانه بعباده، ولمحبته سعادتهم.

٢ - علمه أن الشرك يشقي أهله شقاوة لا يسعدون بعدها أبداً.

٣ - لأنه أعظم الظلم، فهو مَسْبَبٌ لله إذ هو تسوية للناقص بالكمال، وصرف خالص حق الله لغيره، قال تعالى مبيناً اعتراف المشركين وندمهم على فعلتهم الشنيعة إذا ألقوا في النار ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٧ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]. فهم لم يسووهم به في الربوبية؛ لأنهم قالوا: (رب العالمين)، وإنما سووهم به في الألوهية والعبادة.

فإذا ما عرف المسلم عدم رضى الله تعالى بالشرك معرفة قلب أثمر له ذلك أمرين:

١ - أنه لا يرضاه لنفسه.

٢ - لا يرضاه لغيره.

وذلك لأن المسلم يجب أن يكون هواه موافقاً لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فيغضب

لغضب الله ويرضى لرضاه، فيزيل الشرك أنى وجده بأسرع وقت ممكن.

وقد كان وجود الشرك مؤرقاً للرسول ﷺ، ومُقْضِياً لمضاجعهم، فلا يهناً لهم عيش، ولا يهدأ لهم بال، حتى يزال من الأرض، ومن ذلك: صنع السامري لقوم موسى عليه السلام، عجلًا له خوار ثم دعاهم إلى عبادته فأطاعوه، وذلك حين ذهب موسى إلى ربه فأخبره ربه بما فعل السامري مع قومه فرجع إليهم غضبان أسفاً ممتلئاً غيظاً وحنقاً، وغماً وحزنًا وكمدًا، ومن شدة غضبه ألقى الألواح مع ما فيها من الهدى، ووبخ قومه على فعلتهم القبيحة وعاتب أخاه وشدّد عليه وأخذ برأسه ولحيته يجره إليه، وعاقب السامري عقوبة دنيوية لم يعاقب أحد مثلها بأن لا يخالط أحدًا ولا يخالطه أحد طوال حياته، ونهى موسى

عليه السلام، بني إسرائيل أن يخالطوه ويقربوه فصار يهيم في البرية مع الوحوش والسباع لا يمس أحداً ولا يمسسه أحد^(١). ﴿فَإِنَّكَ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧].

وتوعده بعقوبة أخروية وهي العقوبة الشديدة يوم يلقي الله ﴿وَلِنَّكَ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ [طه: ٩٧] فيجازيك الله بما تستحق من العقوبة على فعلك القبيح الذي هو إفساد الناس بنقلهم من التوحيد إلى الشرك.

ثم أخرج الآلهة المزعومة من قلوب بني إسرائيل بإحراقها ونبذها في اليم، وهم ينظرون. قال تعالى: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]، ولو كانت آلهة على الحقيقة؛ لدفعت عن نفسها، ثم أدخل في قلوبهم الإله الحق الذي لا يجوز أن يعبد ويوحد إلا هو: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]^(٢).

وكذلك نبينا ﷺ لم يرض بقاء الأصنام، بل كان يصيبه الهم والغم وضيق الصدر والتألم التام عندما يرى مظاهر الشرك. فيزيلها أو يأمر بإزالتها ومن ذلك ما روى جرير حماد عنه: «قال لي النبي ﷺ «ألا تريجنني من ذي الخلصة؟». فقلت: بلى. فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحبس، وكانوا أصحاب خيل وكنت لا أثبت على الخيل. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فضرب يده على صدري حتى رأيت أثر يده في صدري وقال: «اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً». قال: فما وقعت عن فرس بعد. قال وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخنعم وبجيلة فيه نصب تعبد يقال له الكعبة قال فأتاها فحرقها بالنار وكسرها... ثم بعث جرير رجلاً من أحبس يكنى أبا أرطاة إلى النبي ﷺ يبشره بذلك. فلما أتى النبي ﷺ

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٣٠). الزاني يغرب عامّاً كاملاً، وما أشده عليه، فكيف بمن يغرب طول حياته.

(٢) سورة طه من آية (٨٥-٩٨).

قال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب. قال فبرك النبي ﷺ على خيل أحس ورجالها خمس مرات^(١).

قوله: (ألا تريجنى): طلب يتضمن الأمر والمراد بالراحة راحة القلب وما كان شيء أتعب لقلب النبي ﷺ من بقاء ما يشرك به من دون الله تعالى^(٢).

ومما يدل على شدة ارتياحه وفرحه ﷺ بإزالة ذلك الصنم مبالغته في الدعاء لأحس بالبركة خمس مرات مع أنه ما كان يزيد على ثلاث في الدعاء صلوات ربي وسلامه عليه. أن يشرك: أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر أي شركاً، فيشمل جميع أنواع الشرك صغيره وكبيره.

والشرك لغة: المشاركة بين اثنين فأكثر في أمرٍ ما.

اصطلاحاً: مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

وقيل: صرف شيء مما يختص الله به لغيره.

ولما كان الله لا يرضى الشرك حذر منه أيما تحذير، وحذر منه رسوله ﷺ بأساليب متنوعة منها:

١ - النهي المباشر عنه: النهي المباشر يهز الأفئدة ويزجرها عن الوقوع في المنهي عنه

قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، أي: فاجتنبوا الأوثان كلها فإنها رجز^(٣).

٢ - بيان عدم مغفرته: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ

يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

(١) البخاري مع الفتح (٨ / ٧٠) كتاب «المغازي» / باب غزوة ذي الخلصة. رقم (٤٣٥٧).

(٢) «فتح الباري» (٨ / ٧٢).

(٣) «معاني القرآن» للزجاج (١ / ٤٥٢).

الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين ووحدانيته، فكفى المشرك تنغيصاً وتكديراً لحياته، شعوره بأنه لا يغفر الله له.

قال شيخنا العثيمين: الشرك الأصغر لا يغفر لأنه يفسد القلب والقصد فإذا فسد القصد فسد العمل، والعمل مبناه على القصد^(١).

٣- فتنه أهله به: قال تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]. قال قتادة: «أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم»^(٢).

قال الراغب: «قال أهل النحو: أريد حب العجل، فحذف المضاف تحقيقاً، ويجب أن يعلم أنه لو قيل: حب العجل لم يكن من المبالغة ما له بحذفه؛ لأن فيه تنبيهاً أنه لفرط شغفهم به ثبتت صورة العجل في قلوبهم راسخة»^(٣).

«وعبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل؛ لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها»^(٤).

ومعناه: أنه داخلهم حب العجل، حتى خالط قلوبهم ودمهم وعروقهم.

قال ابن القيم: «لو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم ولا يزيدهم ذلك إلا حُبًّا لها وتعظيمًا ويوصي بعضهم بعضًا بالصبر عليها وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها وهم يسمعون أخبار الأمم التي فتننت بعبادتها وما حل بهم من عاجل

(١) «القول المفيد» (١/ ٤٤٨).

(٢) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٨٠)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٧٦).

(٣) «تفسير الراغب الأصفهاني» (١/ ٢٦٣).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣٢).

العقوبات ولا يشنيهم ذلك عن عبادتها»^(١).

٤ - عظيم افتراء المشرك: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] أي افترى جرماً وذنباً عظيماً إثمه.

٥ - بيان عاقبة المشرك: وذلك بتحريم الجنة عليه وإذا حرمت الجنة عليه صار ماله جهنم والعياذ بالله فيبحث عن أحد ينصره ويعينه لإخراجه من النار فلا يجد فيزداد ألماً وحسرة قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

حرم الله عليه الجنة لأنه صرف خالص حق الله وهو العبادة لغيره، فاستحق الخلود في النار لأنه خبيث والنار دار الخبيثين يطلبون الخروج منها فلا يجابون ويطلبون التخفيف فلا يجابون ويطلبون الموت فلا يجابون. فهل من حسرة وندامة أشد من حسرتهم وندامتهم؟.

٦ - حبوط عمل المشرك:

بعد أن ذكر الله عدداً من رسله مادحاً إياهم وأمرأ نبيه محمداً ﷺ بالافتداء بهم والسير على هداهم بين أنهم لو وقع منهم الشرك لحبطت أعمالهم فقال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

قال شيخ الإسلام: «والأنبياء معصومون من الشرك، ولكن المقصود بيان أن الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله، فكيف بغيره، وكذلك قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام. ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. مع أن الشرك منه ممتنع، لكن بين بذلك أنه إذا قُدر وجوده كان مستلزماً لحبوط

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٢٥).

عمل المشرك وخسرانه كائنًا من كان، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذنب لا لغض قدر المخاطب»^(١).

وقال ابن القيم: «وأما المشركون والكفار فإن شرهم وكفرهم يحبط حسناتهم فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة»^(٢).

٧- التحذير منه بطريق الموعظة والنصيحة وبيان أنه أعظم الظلم.

قال تعالى عن لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ، وَهُوَ يَعِظُهُ، يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

«ووجه كونه ظلمًا عظيمًا أنه لا أظنع ولا أبشع ممن سوى المخلوق من تراب بهالك الرقاب وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بهالك الأمر كله. وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه وسوى من لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة من النعم بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه ولا يصرف السوء إلا هو. فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله تعالى لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب»^(٣).

٨- توعّد المشركين بالويل: قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ۖ﴾^(٤) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧]. قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقيل المعنى: لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وقيل: لا يطهرونها بالإخلاص...

(١) «الرد على البكري» (٢٤٠).

(٢) «هداية الحيارى» (٣٠٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٦/ ١٥٥).

والتحقيق أن الآية تناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة»^(١).

٩- التحذير من الشرك بضرب المثل الحسي:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

شبه الله تارك التوحيد الواقع في حمأة الشرك بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين حيث الضيق والشدة والآلام المتراكمة فتخطفه الطير بسرعة لا يستطيع التخلص منها فتمزقه وتقطع أعضائه فلا يصل إلى الأرض منه شيء أو تحمله الريح إلى مكان بعيد فلا تبقي له على أثر ولا يوجد منه شيء فيراه الناس.

وكذلك الشرك إذا دخل القلب أطفأ نور التوحيد بل أخرجه من القلب فلم يبق للتوحيد أثر في القلب، وصار القلب مظلمًا بظلمات الشرك تتجاذبه الأهواء فاحذر من الشرك كبيره وصغيره فإنه يميت القلب ويحبط العمل إن كان أكبر، ويحبط ما قارنه إن كان أصغر.

١٠- خوف الرسل من الشرك:

لما كان الشرك أعظم الذنوب وأخطرها على القلوب خافه المؤمنون الخُلص على أنفسهم قبل غيرهم فهذا هو الخليل إبراهيم عليه السلام، الإمام القدوة يتהל إلى ربه أن يعافيه وذريته منه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

فإذا كان أبو الحنفاء إبراهيم عليه السلام، مع علو مرتبته عند الله، ومع دعوته للتوحيد وتحطيمه للأصنام بيده خاف من عبادتها بل بالغ في الحذر منها فقال: واجنبني، ولم يقل:

(١) «تزكية النفس» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٩-٥٠).

احفظني أو عافني، ونحو ذلك؛ لأن اجنبي بمعنى اجعلني في جانب والشرك وأهله في جانب وهذه غاية المباحة. فإذا كان هذا حذر إبراهيم عليه السلام وخوفه من الشرك فغيره ممن هو دونه من باب أولى أن يخاف. قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم»^(١) فلنحذر من الشرك بالابتعاد عنه قدر الطاقة، ولنكثر من هذا الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»^(٢).

١١ - بيان أن الشرك هو أعظم الذنوب:

إذا كان الشرك هو الذنب الذي لا يغفر دل ذلك على أنه أعظم الذنوب. قال عبدالله بن مسعود: «سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: إن ذلك لعظيم. قلت ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك». قلت: ثم أي قال: «أن تزاني حليلة جارك». وفي لفظ: «أي الذنب أكبر»^(٣).

١٢ - خفاء الشرك على الناس:

علينا أن نحذر أن نقع في أعظم الذنوب ربما ونحن لا نشعر. قال ابن عباس عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]: «الأنداد هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل»^(٤).

(١) «جامع البيان» (٢٢٨/١٣).

(٢) «الأدب المفرد» للبخاري (٢٤٧)/ باب فضل الدعاء. رقم (٧١٦)، وصححه الألباني في تحقيقه له.

(٣) البخاري مع الفتح (١٦٣/٨)، كتاب «التفسير»/ باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. رقم (٤٤٧٧)، ومسلم (٩٠/١)، كتاب «الإيمان»/ باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده. رقم (٨٦).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦٢/١) رقم (٢٢٩). وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «إسناده جيد». «تيسير العزيز الحميد» (٥٨٧).

«أي أن هذه الأمور من الشرك خفية في الناس لا يكاد يتفطن لها ولا يعرفها إلا القليل وضرب المثل لخفائها بما هو أخفى شيء وهو أثر النمل، فإنه خفي فكيف إذا كانت على صفاة فكيف إذا كانت سوداء فكيف إذا كانت في ظلمة الليل. وهذا يدل على شدة خفائه على من يدعي الإسلام وعسر التخلص منه ولهذا جاء في حديث أبي موسى قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «أيها الناس اتقوا هذا الشُّرك؛ فإنه أخفى من ديب النمل»، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»^{(١)(٢)}.

وفي رواية للبخاري قال معقل بن يسار: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من ديب النمل»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهًا آخر؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده للشرك أخفى من ديب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»^(٣).

١٣ - لعن الفاعلين له:

لعن النبي ﷺ وهو في أصعب المواقف. عند الموت وشدة النزع من اتخذ القبور مساجد؛ ليحذر أمته أن تفعل فعلهم كما في الحديث عن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

(١) أحمد (٤/٤٠٣).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٥٨٧-٥٨٨).

(٣) سبق تخريجه.

ففيها عليه السلام أنه قاله محذراً لأمته فقالوا: «يحذر ما صنعوا»، وفي لفظ لمسلم عن عائشة رضي الله عنها: «فلولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً»^(١).

١٤ - معاملة المشرك بنقيض قصده:

المشرك أشرك مع الله غيره طمعاً في الأمن في الدنيا والنجاة في الآخرة فعامله الله بنقيض قصده فأصابه بالرعب في الدنيا وجعل عاقبته النار في الآخرة، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١]. والمثوى مكان الثوي والثواء الإقامة على الدوام^(٢).

فانظر كيف قذف الله الرعب في قلوبهم بسبب شركهم بالله وطلبهم النصر والنجاة من غيره، ثم جعل مستقرهم النار وبئس المستقر، فذكر الله مثواهم بعد مأواهم للدلالة على خلودهم فيها.

١٥ - نجاسة المشرك:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

«أنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم. فإن النجس في اللغة والشرع هو المستقذر الذي يطلب مباحده والبعد منه، بحيث لا يُلْمَسُ ولا يُشَمُّ ولا يُرى، فضلاً أن

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٠٠)، كتاب «الجنائز»/ باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور. رقم (١٣٣٠)، و(٦/ ٤٩٤)، كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٣)، (٣٤٥٤)، ومسلم (١/ ٣٧٦ - ٣٧٧)، كتاب «المساجد»/ باب النهي عن بناء المساجد على القبور. رقم (٥٢٩، ٥٣١).

(٢) «العذب النمير» (٢/ ٢٤٥).

يخالط ويلابس لقذارته ونفرة الطباع السليمة عنه... والمقصود أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة وتارة تكون معنوية باطنة فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها»^(١).

١٦ - حسرة المشرك يوم القيامة وبعده:

وَصَّحَ اللَّهُ تَعَالَى حَسْرَةَ الْمُشْرِكِينَ وَشِدَّةَ نَدَمِهِمْ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ نَدَمُهُمْ، فَقَالَ: ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ٩١ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٩٢ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ٩٣ ﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ ٩٤ ﴿وَجَنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥ ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ٩٦ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٩٧ ﴿إِذْ دُسَّوْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٨ ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْأُمُجِرُونَ﴾ ٩٩ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ١٠٠ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ١٠١ ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٩١-١٠١]، وحسرتهم حين يتبرأ المتبوعون من التابعين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ ١٦٥ ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ٣١ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

فالمشرك يتحسر ويندم ولكن لات حين مندم.

١٧ - أن الرسل كلهم بعثوا بالتحذير منه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

(١) «إغاثة اللفهان» (١/ ٥٩-٦٠).

١٨ - استنكار الطيور للشرك:

إذا كانت الطيور التي لم تكلف ولا تعقل تستنكر الشرك فكيف بك أيها الإنسان العاقل المكلف يجب أن يكون استنكارك أعظم قال تعالى في قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٤-٢٦].

«حَذَفَ اللهُ أداة العطف من هذه الجملة وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذاناً بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشياطين لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم»^(١).

١٩ - حرمان المشرك من الاستغفار له إذا مات:

حقت كلمة العذاب على المشركين، ووجب عليهم الخلود في النار فلا ينفعهم استغفار مستغفر، بل لا يجوز أن يستغفر لهم أحد، قال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّاسِ مِنَ الشَّيْءِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ ثم ذكر علة النهي عن الاستغفار، فقال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] فعلة النهي هي كونهم من أهل الخلود في النار لكونهم ماتوا على الشرك فلا ينفعهم الاستغفار «فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده»^(٢).

٢٠ - إثبات وقوعه في هذه الأمة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب إليات

(١) «شفاء العليل» (١/٢٤٢).

(٢) «فتح القدير» (٢/٤١٠).

نساء دوس على ذي الخلصة»^(١).

وكما في حديث ثوبان الطويل وفيه: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان...»^(٢).

فإذا كان وقوعه في هذه الأمة حتماً وبهذه الكثرة أوجب لنا ذلك الفزع والخوف من الوقوع فيه مع من وقع، وأوجب علينا تعلم التوحيد ومعرفة ما يضاده من الشرك مع البعد عنه أشد البعد.

٢١ - ذم المشرک وخذلانه:

قال تعالى ذاماً للمشرکین الذین عبدوا معه غيره: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، أي مذمومًا لا حامد لك، ومخذولًا لا ناصر لك^(٣).

٢٢ - ضلال المشرک وظلمه:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، «من: استفهامية، والاستفهام إنكار وتعجب، والمعنى: لا أحد أشد ضلالاً وأعجب حالاً ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له دعاءه، فهو أقصى حد من الضلالة»^(٤).

(١) البخاري (٧٦/١٣) كتاب «الفتن»/ باب تغير الزمان حتى تعبد الأوثان. رقم (٧١١٦)، ومسلم (٢٢٣٠/٤)، كتاب «الفتن وأشرار الساعة»/ باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة. رقم (٢٩٠٦).

(٢) أبو داود (٤٥١/٤) كتاب «الفتن»/ باب ذكر الفتن ودلائلها. رقم (٤٢٥٢) وابن ماجه (١٣٠٤/٢) كتاب «الفتن»/ باب ما يكون في الفتن (٣٩٥٢)، والترمذي (٤٩٩/٤)، كتاب «الفتن»/ باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون. رقم (٢٢١٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) «مدارج السالكين» (٤٥٨/١).

(٤) «التحرير والتنوير» (١١/٢٦).

فالمشرك هو أضل الناس، فهل يرضى عاقل أن يوصف بهذا الوصف، لا سيّما وأن المدعويين عباد مربوبون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. قال الشنقيطي: «فهذه الآيات تبين سخافة عقول المشركين حيث عبدوا من هو دونهم وهم أكمل منه»^(١)، وهل هناك أسخف عقلاً ممن يعيش حياته طالباً ممن لا يقدر على نفعه أو ضره.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] والمشرك هو أظلم الناس وذلك لتعديه على حق الله بصرفه لغيره. وهذا التعدي أعظم الظلم وأقبحه.

٢٣ - اغتنام الفرص للتحذير من الشرك:

ذكر النبي ﷺ الدجال ذات يوم فخفض فيه ورفع حتى ظنه الصحابة في طائفة النخل وخافوا منه أشد الخوف حتى عرف ذلك النبي ﷺ في وجوههم فلما رأهم على تلك الحال خوّفهم مما هو أخطر وهو الشرك فعن أبي سعيد الخدري قال كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا فيكثر المحتسبون وأهل النوب فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ من الليل فقال: «ما هذه النَّجوى، ألم أنهيكم عن النَّجوى» قال: قلنا نتوب إلى الله يا نبي الله إنما كنا في ذكر المسيح فرقاً منه، فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي؟». قال: قلنا: بلى، قال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل»^(٢). وفي رواية لابن ماجه: «أن يقوم الرجل يصلي فيزيّن صلاته لما يرى من نظر رجل»^(٣).

(١) «العذب النمير» (٤/ ٤٢٤).

(٢) أحمد (٣/ ٣٠).

(٣) ابن ماجه (٢/ ١٤٠٦)، كتاب «الزهد»/ باب الرياء والسمعة. رقم (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في

«صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤١٠).

٢٤ - إبطال الأشياء التي يتعلق بها الشرك:

يتعلق المشركون بالملك والشراكة والإعانة والشفاعة فأبطلها الله بقوله سبحانه:

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۚ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

«هدد سبحانه من دعا شيئاً من دون الله وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركاً في ملكه وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة. ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق لكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]... وهذا كله يبين أن الأمر كله لله^(١)».

وقال ابن القيم: «فنفي سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه فنفي الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك وأثبت شفاعته لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه».

فكفى بهذه نوراً وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد. وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها^(٢).

٢٥ - سد ذرائع الشرك القولية والفعلية والمكانية:

نظراً لخطورة الشرك اهتم النبي ﷺ بسد الذرائع الموصلة إليه، سواء كانت قولية، أو فعلية، أو مكانية.

ومن القولية قول النبي ﷺ: «لا يقولنَّ أحدكم أطعم ربَّك وَضِيءُ ربك، وليقل سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٤-٢٩٥).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٥/ ١٧٧) كتاب «العتق»/ باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبي وأمتي =

نهى النبي ﷺ عن هذه الألفاظ لما فيها من التشريك في اللفظ لأن الله هو رب العباد جميعهم فإذا أطلق على غيره شاركه في هذا الاسم فينهى عنه لذلك وإن لم يقصد التشريك في الربوبية التي هي وصف لله تعالى^(١)، كل هذا تحقيقاً للتوحيد وسدّاً لذرائع الشرك. ومن الفعلية النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها فعن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله يقول: «لا صلاة بعد الصُّبح حتّى ترتفع الشَّمس، ولا صلاة بعد العصر حتّى تغيب الشمس»^(٢).

قال ابن القيم: «وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس»^(٣).

ومن المكانية فعل عمر رضي الله عنه لما قطع الشجرة كما يروي ذلك نافع فيقول: «كان الناس يأتون الشجرة التي يقال لها شجرة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت»^(٤).

رقم (٢٥٥٢)، ومسلم (٤/ ١٧٦٤-١٧٦٥) كتاب «الألفاظ من الآداب»/ باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد. رقم (٢٢٤٩).

(١) انظر: «فتح المجيد» (٢/ ٧٥٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٢/ ٦١) كتاب «مواقيت الصلاة»/ باب لا يتحرى الصلاة قبل غروب الشمس. رقم (٥٨٦).

(٣) «الجواب الكافي» (١٥٧).

(٤) «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٠٠)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٥)، وقال ابن حجر: «رواه ابن سعد بإسناد صحيح». «فتح الباري» (٧/ ٤٤٨).

وكما روى المعرور بن سويد قال: كنت مع عمر بن الخطاب بين مكة والمدينة، فصلى بنا الفجر، فقرأ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [الفيل: ١]، و﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾ [قريش: ١]، ثم رأى أقوامًا ينزلون فيصلون في مسجد فسأل عنهم، فقالوا: مسجد صلى فيه النبي ﷺ، فقال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعًا. من مرّ بشيء من المساجد فحضرت الصلاة، فليُصَلِّ، وإلا فليَمُضْ^(١).

٢٦ - حرمان المشرك من الشفاعة:

تنظم الشفاعة نصف أمة محمد ﷺ، بل تزيد كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي رحمته الله قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ مِنْ رَبِّي آتٍ فَخَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفَ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، وَإِنِّي اخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ»، قالوا: يا رسول الله ننشدك الله والصحبة لما جعلتنا من أهل شفاعتك. قال: فلما أَضْبُوا عليه قال «فأنا أشهدكم أَنَّ شَفَاعَتِي لِمَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِنْ أُمَّتِي»^(٢). وفي لفظ: «أُتَدْرُونَ مَا خَيَّرَنِي رَبِّي اللَّيْلَةَ»، فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه خَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفَ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، فقلنا: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا من أهلها. قال: هي لكل مسلم^(٣).

وحديث أبي هريرة رحمته الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»^(٤).

(١) «المصنف» لعبد الرزاق (١١٨/٢ - ١١٩) رقم (٢٧٣٤) وصحح إسناده شيخ الإسلام. «مجموع الفتاوى» (٢٨١/١).

(٢) أحمد (٢٩/٦)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١١/٤٨٦ - ٤٨٧) رقم (١١٨٠٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٨٨/٢)، والترمذي (٤/٦٢٧ - ٦٢٨)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٤١).

(٣) «الإيمان» لابن منده (٣/٨٥٢ - ٨٥٣)، وقال ابن منده: «وهو ثابت على رسم مسلم».

(٤) مسلم (١/١٨٩)، كتاب «الإيمان»/ باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأُمَّتِهِ. رقم (١٩٩).

فهذه الشفاعة التي يرنو إليها كل مسلم قد قِيَدَتْ بعدم الشرك. فمن أشرك لم يدخل في شفاعته المصطفى ﷺ. فياويلح من حرم الشفاعة بسبب شركه بالله عز وجل.

وأختم بهذين الأثرين عن السلف حول الخوف من الشرك.

١ - قال عمر رضي الله عنه في دعائه: «اللهم اجعل عملي صالحًا واجعله لك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيئاً»^(١).

٢ - وقال شداد بن أوس الأنصاري رضي الله عنه - له صحبة - : «يا بقايا العرب يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»^(٢).
(معه أحدٌ في عبادته):

مع: المعية تفيد المشاركة، والضمير في قوله «معه»: يعود على الله عز وجل.

أحد: نكرة في سياق النفي، فتكون عامة، وتفيد النهي عن جميع ما يعبد من دون الله عز وجل.

في عبادته: أضاف العبادة إلى الله لأنه هو الذي يجب أن يقصد بها وحده فلا تصح إلا له سبحانه، وذلك لأن «العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحديث إذا دخل في الطهارة. فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال تعالى فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]»^(٣).

(١) «الزهد» للإمام أحمد (١٤٧).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٣).

(٣) «مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» / قسم العقيدة (١ / ١٩٩ - ٢٠٠).

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة^(١).

وقيل: هي ما جمعت غاية الذل مع غاية المحبة.

(لَا مَلَكٌ مُّقْرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُّرْسَلٌ):

وأكد النهي عن الشرك بالله بنفي عبادة أعظم الخلق منزلة عند الله تعالى فقال: لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. لأنك إذا نفيت عبادة الأعلى نفيت الأدنى من باب أولى.

أما دليل قرب الملائكة فهو قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

فوصف الملائكة بالقرب: أي أنهم قربت درجاتهم وأعليت مكانتهم عند الله فهم قد جمعوا بين القربين:

١ - قرب المكان: فهم في السماء ولذا قال البغوي: المقربون: أي حملة العرش^(٢).

٢ - قرب الحال: أي أن الله قد أحبهم ورضي عنهم وأكرمهم لاستقامتهم على طاعته وعدم معصيتهم له فقال تعالى: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٦-٢٧].

النبي: هو رجل ذكر أوحى إليه بشرع من قبله وأمر بالتبليغ، وأرسل إلى قوم مؤمنين.

أما أنه بشرع من قبله فلقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

(١) «العبودية» (٣٨).

(٢) «معالم التنزيل» (١/٥٠٣).

وأما أنه أمر بالتبليغ فلقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢].

فأثبت الله الإرسال للنبي كما هو للرسول، فدلّ على أن النبي مأمور بالتبليغ.

وقوله ﷺ كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال خرج علينا النبي ﷺ يوماً فقال: «عرضت عليّ الأمم فجعل يمرّ النبيّ معه الرجل، والنبيّ معه الرّجلان، والنبيّ معه الرهط، والنبيّ ليس معه أحد»^(١).

فمجيء الرجل والرجلان والرهط مع الأنبياء دليل على أنهم يبلغونهم ويدعونهم. وأيضاً قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيّ خلفه نبيّ، وإنّه لا نبيّ بعدي...»^(٢).

(تسوسهم الأنبياء) أي أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبياً يقيم لهم أمرهم ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة^(٣).

أما الرسول: فهو رجل ذكر بشر أوحى إليه بشرع جديد وأمر بالتبليغ، وأرسل إلى قوم كافرين.

وقول المصنف ولا نبي مرسل: أي وإن كان رسولاً نبياً قد جمع بين المرتبتين فصار أعلى مراتب البشرية، وأعلى وأفضل من جمع بين النبوة والرسالة هو نبينا محمد ﷺ ومع ذلك لا يجوز أن يعبد مع الله تبارك وتعالى.

(١) البخاري (٢١١ / ١٠) كتاب «الطب» / باب من لم يرق. رقم (٥٧٥٢)، ومسلم (١٩٩ / ١) كتاب

«الإيمان» / باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب. رقم (٢٢٠).

(٢) البخاري مع الفتح (٤٩٥ / ٦) كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٥٥)،

ومسلم (١٤٧١ - ١٤٧٢)، كتاب «الإمارة» / باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول. رقم

(١٨٤٢).

(٣) «فتح الباري» (٤٩٧ / ٦).

وذكر هذين النوعين لأمرين:

- ١ - لأن المشركين لا يشركون إلا بمن يعظمونهم ويرون أن لهم مكانة، وجاهاً عند الله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].
 - ٢ - إذا كان لا يرضى الله أن يشرك معه هذين الصنفين وهم أعلى الملائكة وأعلى البشر فغيرهم ممن هو دونهم من باب أولى ألا يرضى أن يشركوا معه. ففي هذا حسم لمادة الشرك.
- ولما كان سبب الشرك هو الخلط بين حق الله وحق غيره وجب التنبيه عليها ومعرفتها لئلا نقع في الشرك، والقاعدة في ذلك:
- «خلط الحقوق شرك وتنديد، كما أن التفريق بينها إيمان وتوحيد».
- وتتضح هذه القاعدة بمعرفة أنواع الحقوق الثلاثة:
- الأول: حق خالص لله، وهو العبادة.
- وضابطه: ما كان من توابع الألوهية^(١)
- ولما كانت العبادة خالص حقه سبحانه أمر الناس بتخصيصه بها وحده دون غيره ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].
- وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٢٥) أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ [هود: ٢٥-٢٦].
- وقوله: ﴿أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]. وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٧٦).

فجمع في الأمر بعبادته بين النفي والإثبات الذي هو أبلغ صيغ الحصر ليدل دلالة واضحة على أن العبادة حق له وَحْدَهُ فمن صرفها لغيره فقد أشرك.

وكان النبي ﷺ يركز على بيان هذه الحقيقة وتجليتها ومن ذلك سؤاله المشهور لمعاذ بن جبل حين كان رديفه على الحمار فقال له: «يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟»، قال معاذ: الله ورسوله أعلم. فجلى له الحقيقة قائلاً: «حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً...»^(١).

ويزيد عيسى عليه الصلاة والسلام الأمر وضوحاً حين يجيب سؤال ربه إذ سأله أنت قلت للناس اعبدوني وأمي بقوله: هذا ليس حقاً لي فاطلبه منهم: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

ولما خشي الرسول ﷺ أن تغلو به أمته فتصرف له حق الله تعالى حذرهم ونهاهم بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢).

الثاني: حق الرسول ﷺ:

وضابطه: ما كان من أمور الرسالة^(٣).

للسل رسول ﷺ حق خالص لا يشركه فيه غيره وهو الاتباع وذلك أنه لا يصح إيمان

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٦/٤٧٨)، كتاب «أحاديث الأنبياء» / باب قول الله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ

أَنْبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]. رقم (٣٤٤٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/٧٦).

عبد إلا باتباعه للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

فمن لم يتبع النبي ﷺ في أقواله وأفعاله لم يصح منه زعمه محبة الله وعبادته. وأكد النبي ﷺ تخصيصه بالاتباع بقوله: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد»^(١). قال ابن القيم في كلامه عن الهجرة القلبية «وهجرة إلى رسوله في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذي هو تفضيل محاب الله ومرضاته»^(٢). وكذلك من حقوقه ﷺ التعزيز والتوقير ويدل له قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

الثالث: حق مشترك:

وضابطه: ما ورد في النصوص ذكره حقاً لله ولغيره «ما ورد تشريكه في الشرع»، ومن ذلك: الإيثار بالله وبرسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

وتصديق قول الله وقول رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. ومنها الطاعة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ومنها المحبة كما في قوله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا. وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ»^(٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «طريق الهجرتين» (٧).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٦٠)، كتاب «الإيمان»/ باب حلاوة الإيمان. رقم (١٦)، ومسلم (١/ ٦٦)، كتاب «الإيمان»/ باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان. رقم (٤٣).

وقيده: أن يكون لله أصلاً ولغيره تبعاً.

وثمرة هذا القيد: أن يكون الفعل عبادة لله وحده، ونوضحه بالمثال:

١ - الطاعة: نحن نطيع الله لذاته، ونطيع رسول الله ﷺ لأجل الله أي: لأجل أن الله أمرنا بذلك، فنحن نتعبد لله حينما نطيع الرسول ﷺ، ونطيع ولي الأمر؛ لأن الله أمرنا بذلك، فنحن نتعبد لله بطاعته.

يوضحه: أننا لو أمرنا ولي الأمر بمعصية الله: لم نطعه.

٢ - المحبة: نحن نحب الله لذاته، ونحب رسول الله ﷺ لأجل الله، فنحن نتعبد لله حينما نحب رسول الله ﷺ، ونحب المؤمنين لأجل الله - لأن الله أمرنا بمحبتهم -.

يوضحه: أنه لو ارتد رجل كان مسلماً لأبغضناه وعاديناه.

والقاعدة في ذلك: «لا يحب ولا يطاع لذاته إلا الموجود بذاته»^(١).

وذلك أن الموجود بذاته هو الله وحده فيحب لذاته ويطاع لذاته، أما غيره من مخلوقاته فكلها موجودة بغيرها. أي أن جميع المخلوقات أوجدها الله ولم توجد أنفسها، فتحب لأجل موجدتها وتطاع لأجل موجدتها. فالرسول ﷺ أوجده الله فهو يحب ويطاع ويتبع ويعزر ويوقر كل ذلك لأجل الله، فتكون هذه الأفعال عبادة لله، وكذلك المسلم أوجده الله فهو يحب لأجل الله، فتكون محبة المسلم عبادة لله.

وقد جمع الله هذه الحقوق الثلاثة بقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩].

فبدأ بالحق المشترك وهو الإيمان بالله ورسوله ثم ثنى بحق الرسول ﷺ وهو التعزير والتوقير ثم ثلث بحقه الخاص وهو التسبيح له بالغداة والعشي.

(١) ومثلها بقية الحقوق المشتركة، كالولاء والطاعة وغيرها.

وقد نظمت في هذه الأبيات:

فكن لحفظها وفهمها سبوقا	ثلاثة يا مسلم أعني الحقوق
فأخلصن له تنل سعاده	فحق ربنا هو العباد
تباع هديه على اصطبار	والشان حق المصطفى المختار
كطاعة لربنا نبيه ومن ملك	وثالث الحقوق حق مشترك
وغيره فتابع فاحفظ بياني	لكن أصله لربنا الرحمن

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [البجن: ١٨].

أن: للتوكيد.

ال: للاستغراق فتفيد العموم.

مساجد: جمع مسجد بكسر الجيم أي المواضع التي بنيت للسجود أو الأرض التي يسجد عليها قال الحسن: البقاع كلها؛ لأن الأرض جعلت كلها مسجداً للنبي ﷺ^(١)، كما ورد في الحديث: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي.. ومنها: وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة، فليصل»^(٢).

أو جمع مسجد بفتح الجيم فتكون مصدراً بمعنى السجود فيكون معناها «الصلوات» وبه قال الحسن أيضاً.

أو الأعضاء التي يسجد العبد عليها. قال سعيد بن جبير المراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها الإنسان^(٣)، فعلى هذا يكون معنى المساجد مواضع السجود من الجسد. ولا منافاة بين المعنيين، فالسجود على الأعضاء وهي على الأرض.

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٤٣٥-٤٣٦)، كتاب «التيمة». رقم (٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة». رقم (٥٢١).

(٣) «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٤)، وهي التي بينها النبي ﷺ بقوله: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة، وأشار بيده إلى أنفه، واليدين، والرؤيتين، وأطراف القدمين». البخاري مع الفتح (٢/ ٢٩٧) كتاب «الأذان»/ باب السجود على الأنف. رقم (٨١٢)، ومسلم (١/ ٣٥٤)، كتاب «الصلاة»/ باب أعضاء السجود. رقم (٤٩٠).

لله: أضيفت إلى الله باللام الدالة على التمليك فما دامت ملكاً لله وهو الذي خلقها فلا يجوز أن تصرف العبادة لغيره بها، ولهذا قال:

فلا تدعوا مع الله أحداً.

الفاء: فاء التفريع والسبب.

لا: ناهية تفيد المنع والتحريم.

تدعوا: الدعاء يأتي بمعنى الطلب فهو طلب الطالب للفعل من غيره^(١)، وقال الشوكاني: معنى الدعاء حقيقة وشرعاً هو الطلب^(٢).

ويأتي بمعنى العبادة قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(٣).

أي: فلا تعبدوا مع الله غيره كائناً من كان ولكن التعبير بـ«تدعوا» أبلغ من «تعبدوا» لأن لفظ تدعوا تشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة^(٤).

مع الله: مع: تفيد المشاركة أي: فلا تجعلوا شريكاً مع الله في عبادته.

أحداً: نكرة في سياق النهي فتفيد العموم أي أنه لا يجوز دعاء غير الله مهما بلغ في المنزلة والرتبة.

(١) «المخصص» لابن سيده (١٣ / ٨٨).

(٢) «فتح القدير» (٤ / ٤٩٨).

(٣) أحمد (٤ / ٢٧٦)، والترمذي (٥ / ٣٧٤)، كتاب «تفسير القرآن» / باب ومن سورة المؤمن. رقم

(٣٢٤٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وحسنه النووي في «الأذكار» (٣٤٥)، وقال ابن حجر:

«إسناده جيد». «فتح الباري» (١ / ٤٩).

(٤) سيأتي له مزيد بيان وإيضاح فيما بعد.

والآية نهت عن الشرك ودلت على عدم الرضى به وأكدت ذلك بما يلي:
١ - حرف «أن».

٢ - ذكر المساجد بالألف واللام للاستغراق المفيد للعموم.

٣ - تخصيصها لله ملكاً وخلقاً.

٤ - النهي عن دعاء غير الله تعالى معه.

٥ - ذكر كلمة أحد بعد النهي فتفيد عموم المخلوقات.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب:

في هذه الآية عشر درجات، منها:

١ - تصديق القلب أن دعوة غير الله باطلة.

٢ - أنها منكر يجب فيها بغض.

٣ - أنها من الكبائر والعظائم المستحقة للمقت والمفارقة.

٤ - أن هذا هو الشرك بالله الذي لا يغفره.

٥ - أن المسلم إذا اعتقده أو دان به كفر.

٦ - أن المسلم الصادق إذا تكلم به هازلاً أو خائفاً أو طامعاً كفر بذلك.

٧ - أنك تعمل معه عملك مع الكفار من عداوة الأب والابن وغير ذلك.

٨ - أن الداعي لغير الله لا تقبل منه الجزية كما تقبل من اليهود ولا تنكح نساؤهم كما

تنكح نساء اليهود لأنه أغلظ كفراً^(١).

(١) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب»/ العقيدة/ القسم الأول (٣٨٨).

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووجد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب.

أن: للتوكيد.

من: شرطية فتفيد العموم، أي: كل مطيع للرسول ﷺ وموحد لله.
أطاع الرسول: الطاعة هي تنفيذ الأوامر فعلاً أو تركاً منقاداً راضية بذلك نفسه.
الرسول: هو نبينا محمد ﷺ والألف واللام للعهد الذهني وكلمة من أطاع الرسول تبين حق الرسول ﷺ وهو الطاعة والاتباع وأنه ليس له من الألوهية والعبادة شيء، ولذلك قال بعدها:

ووجد الله: الواو عاطفة أي: أنه جمع بين طاعة الرسول ﷺ وتوحيد الله وهذا معنى الشهادتين فلا بد من الجمع بينهما حتى يصير العبد مسلماً.

وحد الله: أي جعله واحداً فأفرده بالعبادة والتأله والتعظيم.
وذلك لأن له الكمال المطلق والغنى المطلق والتصرف المطلق من جميع الوجوه فلهذا لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه - وهذا هو حق الله الذي لا يشاركه فيه أحد - فمن غلا بأحد المخلوقين حتى جعل له نصيباً منها فقد ساوى به رب العالمين وهذا هو الشرك الأكبر الذي حذرت منه الرسل كلهم عليهم الصلاة والسلام لعلمهم بأنه خالص حق الله تعالى.

فلو احدى كن واحداً في واحد أعني سبيل الحق والإيمان^(١)
لا يجوز له موالاة: الموالاة لغة: مشتقة من الولي بسكون اللام وتخفيف الياء وهو القرب والدُّنُو.

(١) «النونية مع شرح هراس» (٢/ ١٢٢).

والوليّ بكسر اللام وتشديد الياء هو المحب والصديق والنصير^(١).
والعداوة لغة: اسم من المعادة يقال تعادى ما بين فلان وفلان أي اختلف وفسد
وتعادى عن فلان: أي تباعد عنه وتجافى^(٢). إذاً العداوة: هي البعد والتجافى.
ف«الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب وأصل العداوة البغض
والبعد»^(٣)، «وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعادة
كالنصرة والأنس والمعاونة والجهاد والهجرة ونحو ذلك من الأعمال»^(٤).
فيكون معنى الموالاة اصطلاحاً: هي النصرة والمحبة والإكرام.

ويقوم الولاء على ركنين:

١ - الولاء القلبي (المحبة).

٢ - الولاء العملي (النصرة ونحوها).

أما المعادة اصطلاحاً: فهي إظهار العداء بالقول والفعل مع البغض الشديد
بالقلوب.

وإظهار العداء بالقول كال تبرؤ منهم. قال تعالى: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ
وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ [المتحنة: ٤].

وبالفعل: كجهاد الكفار وقتالهم ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

(١) «القاموس المحيط» مادة (ولي) (١٧٣٢).

(٢) «لسان العرب» (٣٦ / ١٥).

(٣) «الفرقان» (٧).

(٤) «الدرر السنية» (١٥٧ / ٢).

ويقوم البراء على ركنين، هما:

١ - البراء القلبي (البغض).

٢ - البراء العملي (المعاداة العملية باللسان والأركان).

لا يجوز له موالاة: هذا بيان حكم موالاة الكفار وأنه حرام «بل كبيرة من كبائر الذنوب»، وقد يصل إلى الكفر إن كان تولياً.

قال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن: «فقد عرفتم ما في موالاة المشركين من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وعرفتم أن مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردّة كذهاب الإسلام بالكلية ومنها ما هو دونه من الكبائر والمحرمات»^(١).

وقال الشيخ عبدالله بن عبداللطيف: «والموالاة كبيرة من كبائر الذنوب كبل الدواة أو بري القلم أو التبشيش لهم ورفع السوط لهم، والتولي كفر يخرج من الملة وهو كالذب عنهم وإعانتهم بالمال والبدن والرأي»^(٢).

بل نقل إجماع العلماء على أن التولي كفر، فقال: «وأما التولي الذي حقيقته الإكرام والثناء والنصرة والإعانة والمعاشرة وعدم البراءة الظاهرة، فهذه ردّة صريحة، كما دل على ذلك الدليل من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، واتفاق العلماء على ذلك»^(٣).

وكذلك قال الشيخ عبدالله بن حميد: وأما التولي: فهو إكرامهم والثناء عليهم والنصرة والمعاونة لهم على المسلمين والمعاشرة وعدم البراءة منهم ظاهراً فهذا ردّة من فاعله يجب أن تجري عليه أحكام المرتدين كما يدل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأئمة

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣ / ٣٨).

(٢) «الدرر السنية» (٨ / ٤٢٢) بشيء من التقديم والتأخير.

(٣) «مسائل في المنكرات والبدع» (٣٦).

المقتدى بهم^(١).

والتولي يكون بالقلب أو بالجوارح أو بكليهما:

١ - التولي بالقلب: كالمحبة والرضى عنهم وموافقتهم بقلبه والميل إليهم بباطنه.

٢ - التولي بالفعل: وهو الدفاع عن الكفار وإعانتهم بالمال والبدن والرأي.

٣ - التولي بالقلب والجوارح: وهو الموافقة في الظاهر والباطن فينقاد لهم بظاهره ويميل إليهم ويوادهم بباطنه.

فهذه كلها من فعلها كفر كفرًا مخرجًا من الملة^(٢).

واكتفى المؤلف ببيان عدم الموالاتة. ولم يقل بل يجب عليه معاداتهم لأن من لم يوال صار معاديًا ولا بُدَّ. فإذا انتفت إحداها وجدت الأخرى، وذلك لأن «الولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبدًا. والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبدًا والولاية صلة فلا تجتمع معادة الكافر أبدًا»^(٣) «فلا تصح الموالاتة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاتة والخللة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ،

(١) «الدرر السنية» (١٥ / ٤٧٩).

(٢) انظر: «الدرر السنية» (٨ / ٤٢٢) والولاء والبراء للقحطاني (٢٤٧-٢٤٨).

(٣) «أحكام أهل الذمة» (١ / ٤٩٩).

سَيِّدِينَ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض^(١).

وذلك لأن: «الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض»^(٢) ونقل الإجماع على ذلك الشيخ عبدالرحمن بن حسن، فقال: «أجمع العلماء سلفاً وخلفاً من الصحابة والتابعين والأئمة وجميع أهل السنة أن المرء لا يكون مسلماً إلا بالتجرد من الشرك الأكبر والبراءة منه وممن فعله وبغضهم ومعاداتهم»^(٣).

والأدلة على هذا كثيرة^(٤).

ومن ذلك نفيه سبحانه عن موالاة عموم الكافرين: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

أي: «لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً وتوالونهم على دينهم وتظاهروهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء أي قد برئ من الله وبرئ الله منه بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً﴾ أي: إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم

(١) «الجواب الكافي» (٢٣٢-٢٣٣).

(٢) «مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب»/ العقيدة/ القسم الأول/ (٣٥٥).

(٣) «الدرر السنية» (١١/ ٥٤٥).

(٤) ذكر منها الشيخ سليمان بن عبدالله إحدى وعشرين دليلاً وذكر الشيخ محاسن الجلعود أربعة وأربعين دليلاً. انظر: «أوثق عرى الإيمان». و«الموالاة والمعادة في الشريعة الإسلامية».

فتظهروا لهم الولاية بألستكم وتضمروا العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل»^(١).

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١].

وكما نهانا عن موالاته الكفار عموماً نهانا عن موالاته اليهود والنصارى خصوصاً لعظم البلية بهم إلى قيام الساعة فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

من حاد الله ورسوله: أي صار هو في حد أي جانب. والله ورسوله والمؤمنون في حد وجانب. ومن هذه حاله فهو في حد الشيطان وحزبه.

ولو: حرف شرط غير جازم.

كان أقرب قريب: ذكر القرابة بل خص أقرب القرابة وهم الأب والابن والإخوة؛ لأن كثيراً من الناس يقدمونهم على أمر الله ورسوله. لشدة سلطان العاطفة ولذلك حذرنا الله من طغيان سلطانها على سلطان الشرع فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣].

وذلك أنه لا يجتمع حب الله وحب أعدائه في قلب عبد أبداً.

أحب أعداء الحبيب وتدعي حباً له ما كان ذاك في إمكان^(٢)

(١) «جامع البيان» (٣/ ٢٢٨).

(٢) «النونية مع شرح هراس» (٢/ ١٢٥).

مكانة الولاء والبراء من الإيمان:

للولاء والبراء منزلة عظيمة في الدين وتتجلى تلك المنزلة بما يلي:

الأول: أن الولاء والبراء شرط في الإيمان لا يصح الإيمان إلا به قال تعالى: ﴿ تَكْرِي كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿ [المائدة: ٨٠-٨١].

ذكر الله جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف «لو» التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه^(١).

الثاني: أنه أوثق عرى الإيمان:

الولاء والبراء هما أوثقا عرى الإيمان كما قال ﷺ: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: أَنْ تَحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتَبْغُضَ فِي اللَّهِ»^(٢). قال محمد بن نصر المروزي: «وجعل ﷺ أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله، وذلك أن الله أمر بهما ووكدتهما في كتابه، فقال في الحب فيه: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [المائدة: ٥٥].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/٧).

(٢) أحمد (٤٨٨/٣٠) رقم (١٨٥٢٤)، وابن أبي شيبه في «المصنف» (٢٢٩/١٣) رقم (١٦١٨٥)، وفي

«الإيمان» (٣٦) رقم (١١٠)، ومحمد بن نصر المروزي في «نعظيم قدر الصلاة» (٣٠٣-٣٠٤)، وقال

الألباني: «فالحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل». «السلسلة الصحيحة»

(٣٠٧/٤) رقم (١٧٢٨).

وقال في البغض لله: ﴿لَا تَحِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُّوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَيسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة: ١٣] ^(١).

فمن أحب في الله، وإلى أوليائه فيه، ومن أبغض في الله أبغض أعداءه لأجله ولا بُدَّ.

الثالث: وجوب تربية الأطفال عليه منذ الصغر:

لما كان الولاء والبراء من أسس الدين العظام التي لا يقوم الدين إلا به صار من الواجب أن يربى عليه الأطفال ويغرس في قلوبهم منذ الصغر.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أحد رسائله مبيناً شرطية الولاء والبراء، وأهمية تربية الأطفال عليه «أخبرهم أن الحب والبغض والموالات والمعاداة لا يصير للرجل دين إلا بها. واذكر الآيات التي ذكر الله في الموالات والمعاداة مثل قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] وقوله في المعاداة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤] واذكر لهم أنه يجب على الرجل أن يعلم أولاده وأهل بيته ذلك أعظم من وجوب تعليم الوضوء والصلاة» ^(٢).

الرابع: أن الفرقان بين الحق والباطل لا يكون إلا بالولاء والبراء:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «فهل يتم الدين أو يقام علم الجهاد أو علم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالحب في الله والبغض في الله والمعاداة في الله والموالات في الله ولو كان الناس متفقين على طريقة واحدة ومحبة من غير عداوة ولا بغضاء لم يكن

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ٤٠٤)، وقد استطرذ في ذكر الأدلة من السنة وآثار السلف، فراجع إن شئت.

(٢) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» / «الرسائل الشخصية» (٣٢٢-٣٢٣).

فرقانٌ بين الحق والباطل ولا بين المؤمنين والكفار ولا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»^(١).

الخامس: الإكثار من ذكره في القرآن الكريم:

أكثر الله من ذكر الولاء والبراء «حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده»^(٢).

الولاء لمن؟

ولاء المسلم لا يكون إلا لله ولرسوله ولدينه ولعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ

اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

فخص الله بالولاية ذاته ورسوله والمؤمنين وقصرها عليهم، حيث ذكرها بـ«إنما» التي تفيد الحصر والقصر. وإذا كانت الولاية لله ورسوله والمؤمنين فإن البراءة من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، حتى وإن وجدت القرابة أو المصالح المشتركة لأنه لا يمكن أن يجتمع حُبُّ الله وحُبُّ أعدائه في قلب عبد أبداً قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَادَ اللَّهِ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

«فهذه الآية باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين»^(٣).

(١) «أوثق عرى الإيمان» (٣٨).

(٢) «النجاة والفكاك» (٣١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٩٤ / ٨).

فالموالة الإيمانية لا تخضع للضغوط النفسية أو المشاكل الاجتماعية، قال شيخ الإسلام: «اعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه»^(١).

ومن العجب العجيب ممن ينتسب إلى التوحيد ويزعم أنه من أهل العلم والدين والدعوة وهو لا يفرق بين الموحدين والمشركين. قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب -بعد كلام سبق- عن حال الناس في معرفة كلمة التوحيد: لا إله إلا الله: «وأعجب من ذلك من عرفها من وجه وعادها وأهلها من وجه، وأعجب منه من أحبها وانتسب إلى أهلها ولم يفرق بين أوليائها وأعدائها يا سبحان الله العظيم أتكون طائفتين مختلفتين واحد؟ وكلهم على الحق؟ كلا والله. فماذا بعد الحق إلا الضلال»^(٢).

أقسام الناس في الموالة والمعادة:

لما كان الحب والبغض هما أصل الولاء والبراء، فلا بد أن يختلف الناس في موالاتهم ومعاداتهم على أقسام ثلاثة:

(١) من يوالى ويحب جملة أي محبة خالصة لا معادة معها وهو المؤمن التقى ويستدل له بالآيات والأحاديث التي تأمر بذلك. كمحبة الرسل عليهم الصلاة والسلام والصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي والأئمة المرضيين وعباد الله الصالحين.

(٢) من يحب من وجه ويبغض من وجه وهو المسلم المخلط، ويستدل له بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٠٩).

(٢) «مجموعة مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب» / «الرسائل الشخصية» (١٨٣).

حمارًا، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلدته في الشراب، فأتي به يومًا، فأمر به، فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه؛ فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله»^(١). هذا مع العلم بتحريم الخمر ولعنها ولعن شاربيها وساقيتها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه^(٢). ومع ذلك نهاه عن لعنه لوجود المحبة الإيمانية لله ورسوله ﷺ في قلبه مع أنه جلدته ﷺ لشربه الخمر.

«إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة»^(٣).

(٣) من يبغض ويعادى جملة لا ولاء معها وهو الكافر سواء كان كفره كفرًا أصليًا أو ردّة، ولا يجوز أن يحترم ولا يقدر حتى ولا في الألفاظ لقوله ﷺ: «لا تقولوا للمنافق: سيّدًا؛ فإنه إن يكن سيّدًا فقد أسخطتم ربّكم ﷻ»^(٤).

(١) البخاري مع الفتح (١٢ / ٧٥)، كتاب «الحدود» / باب ما يكره من لعن شاربي الخمر وأنه ليس بخارج من الملة. رقم (٦٧٨٠).

(٢) «سنن أبي داود» (٤ / ٨٠-٨١) كتاب «الأشربة» / باب العنب يعصر للخمر. رقم (٣٦٧٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨ / ٢٠١).

(٤) أبو داود (٥ / ٢٥٧) كتاب «الأدب» / باب لا يقول للملوك «ربي» و«ربتي». رقم (٤٩٧٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٨) رقم (٢٤٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٥) / باب لا يقل للمنافق سيّد. رقم (٧٦٠)، وصحح إسناده النووي في «رياض الصالحين» (٥٤٨) رقم (١٧٣٤)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣ / ٥٧٩). قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «إسناده صحيح». «أوثق عرى الإيمان» (٤١).

الفرق بين الولاء والبراء القلبي والبدني من حيث النقص والتمام:

«حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته ينبغي أن تكون كاملة جازمة لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل»^(١).

الناس من حيث الولاء قسمان:

١ - أولياء الله: وهم المؤمنون.

فالله يحبهم وينصرهم ويؤمنهم من خوفهم ويسدّدهم ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ويدافع عنهم كما في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(٢)، لأن عدوهم عدو الله عز وجل، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١].

أخص صفات أولياء الله:

أخص صفات أولياء الله الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

(١) «الاستقامة» (٢/ ٢٢١).

(٢) البخاري مع الفتح (١١/ ٣٤٠-٣٤١) كتاب «الرقاق»/ باب التواضع. رقم (٦٥٠٢).

٢- أولياء الشيطان:

وهم الكافرون: فالشيطان يغويهم ويضلهم ويمنيهم ويعدهم وما يعدهم إلا غرورًا. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَائَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [١١٩] يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُمِجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

أخص صفات أعداء الله:

أخص صفات أعداء الله الإعراض عن حكم الله وشرعه إلا إذا ظنوا أنه سيحكم لهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [٤٨] وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

فكل من «كذب رسول الله ﷺ وأعرض عن متابعتة وحاد عن شريعته ورغب عن ملته واتبع غير سنته ولم يستمسك بعهدده ومكن الجهل من نفسه والهوى والعناد من قلبه والجحود والكفر من صدره والعصيان والمخالفة من جوارحه... فهو ولي الشيطان، وعدو الرحمن»^(١).

طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة الولاء والبراء في النفوس:

أكد الإسلام على أن يكون انتماء المسلم لدينه واعتزازه به فقط منذ اللحظة الأولى التي يشهد فيها بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ

(١) «هداية الحيارى» (٧).

وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ [فصلت: ٣٣] ولذلك كثر ذكره في القرآن وتنوعت الأساليب^(١) في ذلك، ليرتبط المسلم بربه وينحاز إلى حزبه ويجانب الشيطان وحزبه، ومنها:

١ - أفراد الله بالتعلق والتعظيم والطاعة والتجرد من كل محبوب أو مرهوب سوى الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُدْرِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨].

فإذا استشعر المسلم أن القوة لله جميعاً وأن النفع والضرر بيده أفردته بالتعلق والتعظيم فوالاه ووالى أوليائه وعادى أعداءه ولم يبال بهم، كما فعل الصحابة عندما خوفهم الكفار وهددوهم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٢ - سخط الله على من والى الكفار وتحليده في العذاب ونفي الإيمان عنه:

قال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْلُوَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

(١) يبين شيخ الإسلام قيمة تنوع الأساليب فيقول: «فإن هذه القواعد المتعلقة بتقرير التوحيد وحسم مادة الشرك والغلو كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نوراً على نور والله المستعان»، «مجموع الفتاوى» (١/٣١٣).

فرتب الله على موالاة الكافرين ثلاثة أمور:

(أ) سُخْطُهُ عَلَى مَنْ وَالَى الْكَفَارَ.

(ب) الْخُلُودُ فِي الْعَذَابِ.

(ج) تِلَازِمُ عَدَمِ الْإِيْمَانِ بِاللّٰهِ مَعَ مَوَالَاةِ الْكَفَارِ.

ووالله إن أحد هذه الأمور الثلاثة ليزجر وينفر العبد المؤمن عن موالاة الكفار فكيف

بها مجتمعة.

٣- مرض القلوب:

لا يوالي أعداء الله رجل ينتسب للإيمان إلا لمرض في قلبه، قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢] قال ابن القيم عند هذه الآية: «أخبر الله عن حال متوليهم بما في قلبه من المرض المؤدي إلى فساد العقل والدين»^(١).

٤ - عداوة الرسل لأقوامهم الكافرين وبراءتهم منهم:

قد يعادي الإنسان شخصاً غريباً لأي سبب من الأسباب لكن من الصعوبة بمكان أن يعادي قريبه. فكيف إن كان أقرب قريب. أباً أو أمّاً أو ابناً ففي ذلك من المشقة والصعوبة الشيء الكثير. ولكن المسلم الموحد الذي قدم محبة الله على كل محبة، مستعد أن يعادي كل عدو لله ورسله مقتدياً بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/ ٤٨٧-٤٨٨).

«فانظر كيف أن الله أمرنا أن نتأسى بإبراهيم الخليل ومن معه من المرسلين عليهم الصلاة والسلام في قولهم: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾ فإذا كان واجباً على المسلم أن يقول هذا لقومه الذين هو بين أظهرهم، فكونه واجباً للكفار الأبعدين عنه المخالفين له في جميع الأمور أبين وأبين.

وها هنا نكتة بديعة في قوله: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهي: أن الله تعالى قدّم البراءة من المشركين العابدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله لأن الأول أهم من الثاني فإنه قد يتبرأ من الأوثان ولا يتبرأ ممن عبدها فلا يكون آتياً بالواجب عليه وأما إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَرِ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]. فقدم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم.

وكذا قوله: ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩] وقوله: ﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦].

فعليك بهذه النكتة فإنها تفتح لك باباً إلى عداوة أعداء الله فكم من إنسان لا يقع منه الشرك ولكنه لا يعادي أهله فلا يكون مسلماً بذلك، إذ ترك دين جميع المرسلين. ثم قال: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ فقله: ﴿وَبَدَا﴾ أي: ظهر وبان. وتأمل تقديم العداوة على البغضاء لأن الأولى أهم من الثانية فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم فلا يكون آتياً بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء، ولا بد أيضاً من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين أي: ظاهرتين بيتتين. واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتبين علامتها ولا يكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين. وأما إذا وجدت الموالاة والمواصلة فإن ذلك يدل على عدم البغضاء فعليك بتأمل هذا الموضع فإنه يجلو عنك

شبهات كثيرة»^(١).

٥ - حبوط العمل:

من تولى الكفار حبط عمله، قال ابن القيم: «ثم أخبر عن حبوط أعمال متوليهم ليكون المؤمن لذلك من الحذرين، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ اقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣]»^(٢).

٦ - بيان عداوتهم للمؤمنين وحقدهم الشديد عليهم:

الكفار جميعاً أعداؤنا حقيقة لا يمكن أن يريدوا لنا الخير أبداً. بل هم يريدون خبالنا وعنتنا وجميع ما يشق علينا، ولو ثقفونا لبسطوا أيديهم وألستهم بالسوء علينا وإن تسنى لهم أن يخرجونا من ديارنا ويظاهروا على إخراجنا فعلوا ولم يتأخروا ولا لحظة واحدة. بل لا يكفيهم كل هذا مع شناعته وقبحه حتى نكفر بربنا ونترك ديننا - وحاشانا من ذلك إن شاء الله - وما ذلك إلا لشدة الحقد الدفين والغیظ الشديد في قلوبهم حسداً من عند أنفسهم لما حباننا الله به من نعمة الإسلام.

ومن الآيات التي تبين ذلك:

قوله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ

(١) «سبيل النجاة والفكاك» (٤٣-٤٥).

(٢) «أحكام أهل الذمة» (١/٤٨٨).

مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨، ١١٩].

بل ويترجمون هذا الحقد والعداوة المتجذرة في قلوبهم إلى عمل جوارحهم حين تسنح الفرصة لذلك. قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَقُّوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ [المتحنة: ٢].

وأعظم ما يريدون هو إخراجنا من ديننا، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فلا يرضون منا بدون الكفر: ﴿وَلَنْ رَّضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].
فهل بعد بيان الله بيان.

فمن كان يؤمن بالله وبما أنزل على رسوله اعتقد عداوتهم وبغضهم ومن لم تنفعه الآيات من كتاب الله فليُنظر إلى واقع المسلمين مع الكفار منذ بعثة النبي ﷺ إلى يومنا هذا ليرى الجرائم التي ارتكبوها في حق المسلمين والحروب التي شنوها عليهم في كل قطر ومصر.

واحذر أن تنخدع بالدهان والطلاء الذي يخفون به جرائمهم من الكلام المعسول الذي لا حقيقة له. كيف وقد أوضح الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

٧- بيان استهزاء الكافرين بالمؤمنين وسخريتهم منهم ومن دينهم:

لا يفتأ الكفار من استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٧، ٥٨].

فإذا كان الكفار يقدحون في ديننا ويحتقرونه ويستصغرونه ويهزؤون به ويستهزؤون بأعظم شعائره الظاهرة وهي الصلاة فهم في نفس الأمر يسخرون من تلك العقول والقلوب التي تعتقد صحة هذا الدين وأهمية أعظم فرائضه وهي الصلاة فيجب علينا معاداتهم قال السعدي: «فإذا علمتم أيها المؤمنون حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص وأنه لا يبالي بمن قدح فيه بالكفر والضلال وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء».

فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً وأنه الدين الحق وما سواه باطل وترضى بموالاته من اتخذ هزواً ولعباً وسخر به وبأهله من أهل الجهل والحمق.

وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم^(١).

٨- سخريتهم بالله والرسول ﷺ:

ما فتى اليهود والنصارى والمشركون يسخرون بربنا وإلهنا في كل لحظة وحين، فزعموا أنه يتعب وأن يده مغلولة فنفى ذلك عن نفسه بقوله: ﴿وَمَا مَسَنَا مِنَ الْغُوبِ﴾ [ق: ٣٨]، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وزادوا بجاحة وقبحاً فشتموه بنسبتهم له الابن: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ومثلهم قال المشركون «الملائكة بنات الله»، وكيف يكون لله ولد وهو الغني والخلق كلهم خلقه وفي ملكه ولذا تحداهم الله بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨] فأين لهم الحجة والبرهان على ذلك، فصح أنهم يقولون على الله بغير علم. قبحهم الله.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٣٧).

ولقبح هذه المقولة وشناعتها وعظيم جرمها فإن الجهادات الصلبة تكاد تتشقق، وتندك وتتهدم كل ذلك غضباً لله من هذه المقولة الشنعاء، قال تعالى مبيناً شناعة هذه المقولة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩١]. والهدُّ: هدم له وقع وسقوط شيء ثقيل^(١). ولشناعتها سماها الله شتمًا كما في الحديث القدسي قال الله تعالى: «يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني... أما شتمه، فقوله: إن لي ولداً»^(٢).

وأما سخريتهم بالرسول ﷺ فهو زعمهم أنه كاذب. فلو قلت لهم أما بشر عيسى وموسى ﷺ بمحمد قالوا: نعم، ثم قلت لهم هذا محمد فآمنوا. قالوا ليس هذا الذي بشرت به الرسل، فالنتيجة إذاً أنهم يكذبونه ﷺ ويزعمون أنه يفترى على الله الكذب بقوله إنه رسول من عند الله.

فتعبد لله ب بغض الكفار من اليهود النصارى وغيرهم. وكلما تذكرت سخريتهم بربك وبرسولك وجددت بغضهم كلما زاد إيمانك وعلت درجاتك عند ربك، قال عمر بن الخطاب: «أهينوهم ولا تظلموهم فإنهم سبوا الله أعظم مسبة»^(٣) وقال معاذ بن جبل «لا ترحموا النصارى فإنهم سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر»^(٤).

(١) «المفردات» (٥١٥).

(٢) البخاري مع الفتح (٢٨٧/٦) كتاب «بدء الخلق»/ باب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. رقم (٣١٩٣).

(٣) «إغاثة اللهفان» (٢/٢٨٣).

(٤) «الجواب الصحيح» (٤/١٥٥).

٩ - الأمر بقتالهم:

أمر الله نبيه بقتال الكفار بقوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. وأمر النبي ﷺ بقتالهم أمرٌ لجميع المؤمنين ومع ذلك أمر المؤمنين أمرًا عامًا فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وكان النبي ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بخاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «اغزُوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله...»^(١). فهل تجتمع الموالاة مع القتال؟ هذا لا يمكن أبدًا. بل لا يكون قتال إلا معه المعادة والبغض كيف والجهاد مستمر إلى قيام الساعة «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود»، وكذلك ما ورد من الأحاديث في قتال النصارى.

١٠ - البعد عنهم في السكن:

حرم النبي ﷺ السكن والإقامة بين المشركين ومنع منها فقال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما»^(٢). وقال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه؛ فإنه مثله»^(٣).

(١) مسلم (٣/ ١٣٥٧) كتاب «الجهاد والسير»/ باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث. رقم (١٧٣١).
(٢) أبو داود (٣/ ١٠٤-١٠٥)، كتاب «الجهاد»/ باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود. رقم (٢٦٤٥)،
والترمذي (٤/ ١٥٥)، كتاب «السير»/ باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. رقم (١٦٠٤).
وصحح إسناده الصنعاني في «سبل السلام» (٤/ ٤٢-٤٣)، وابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/ ٣٨١).

(٣) أبو داود (٣/ ٢٢٤) كتاب «الجهاد»/ باب الإقامة بأرض الشرك، رقم (٢٧٨٧).

وفي رواية: «لا تساكنا المشركين، ولا تجامعهم، فمن ساكنهم أو جامعهم، فهو مثلهم»^(١). وفي رواية: «فهم منهم»^(٢). وفي رواية: «فليس منا»^(٣).

وعن جرير قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وعلى فراق المشرك» وفي لفظ: «وتنصح المسلمين وتفارق المشركين»^(٤)؛ لأنه «لا يسلم أحد من الشرك إلا بالمباينة لأهله»^(٥)، ولهذا يقول شيخ الإسلام: «رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام»^(٦).

١١ - النهي عن بداءتهم بالسلام:

السلام سبيل المحبة والوئام، قال النبي ﷺ: «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»^(٧).

ولكي نقطع محبة الكفار والولاء لهم يجب أن نقطع بداءتهم بالسلام، قال ﷺ: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم فاضطروهم إلى أضيق الطريق»^(٨).

(١) الترمذي (٤/ ١٥٥-١٥٦)، كتاب: «السير»/ باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. رقم (١٦٠٥).

(٢) الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢١٧) رقم (٦٩٠٥).

(٣) «المستدرک» (٢/ ١٥٤)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

(٤) النسائي (٧/ ١٤٧)، «كتاب البيعة»/ باب البيعة على فراق المشرك.

(٥) «حاشية الروض» لابن قاسم (٤/ ٢٦٠) نقلاً عن ابن تيمية.

(٦) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٨).

(٧) مسلم (١/ ٧٤) كتاب «الإيمان»/ باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سبب لحصولها. رقم (٥٤).

(٨) مسلم (٤/ ١٧٠٧) كتاب «السلام»/ باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام. رقم (٢١٦٧).

فنهانا رسول الهدى ﷺ أن نبأهم بالسلام ونفسح لهم في الطريق وأوجب علينا أن نفرض عليهم الذل والصغار لأجل استمرار البغضاء بيننا وبينهم.

١٢ - الأمر بمخالفتهم والنهي عن التشبه بهم:

حذر النبي ﷺ من التشبه بالكفار، فقال ﷺ: «من تشبه بقوم؛ فهو منهم»^(١).

قال شيخ الإسلام: هذا الحديث أقل أحواله أن يقتضى تحريم التشبه بهم وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله: «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» [المائدة: ٥١].

وهو نظير ما سنذكره عن عبدالله بن عمرو أنه قال: «من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة»^(٢).

فقد يحمل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك وقد يحمل على أنه منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً لها كان حكمه كذلك^(٣).

ولخطورة التشبه أمرنا بمخالفتهم كي يَسْلَمَ لنا ديننا، قال ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبَغُونَ فِخَالْفَوْهُمْ»^(٤)، وقوله: «خالفوا اليهود؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَصْلُونَ فِي نَعَالِهِمْ وَلَا خِفَافِهِمْ»^(٥).

(١) سبق تحريجه.

(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (٩/ ٢٣٤ و ٣٩٢)، وصحح إسناده شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥١٣)، وابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (٣/ ١٢٤٨).

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٦٩-٢٧١).

(٤) البخاري مع الفتح (٦/ ٤٩٦) كتاب «الأنبياء»/ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم (٣٤٦٢).

(٥) أبو داود (١/ ٤٢٧) كتاب «الصلاة». رقم (٦٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥/ ٥٦١) رقم

(٢١٨٦)، والحاكم في «المستدرک» (١/ ٣٩١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»،

وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣/ ١٠٦) رقم (٣٢٠٥).

والأدلة على هذا «أكثر من مائة دليل»^(١) أكد فيها النبي ﷺ على مخالفتهم لأن مشابهتهم في الظاهر «تورث نوع مودة ومحبة وموالاتة في الباطن كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»^(٢)، و«هذا أمر مجمع عليه عند أهل العلم»^(٣).

بل إن التأكيد على مخالفتهم قد استقر حتى عند الكفار أنفسهم فضلاً عن المسلمين، فعن أنس قال: «إن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: الآية ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ...﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه»^(٤).

قال الذهبي محذراً من التشبه باليهود والنصارى -الذين وصفوا بأنهم مغضوب عليهم وضالون- ومبيناً قبحه وشناعته: «وقد أوجب الله عليك يا هذا المسلم أن تدعو الله تعالى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة بالهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين».

فكيف تطيب نفسك بالتشبه بقوم هذه صفتهم وهم حطب جهنم ولو قيل لك: تشبه بمسخرة لأنفت من ذلك وغضبت، وأنت تشبه بأقلف عابد صليب في عيده»^(٥).

(١) «أحكام أهل الذمة» (٣/ ١٢٨٦).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٩).

(٣) «كشاف القناع» (٣/ ١٣١).

(٤) مسلم (١/ ٢٤٦) كتاب «الحيض»/ باب الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد. رقم (٣٠٢).

(٥) «تشبيه الخسيس بأهل الخميس» (٢١-٢٢). وانظر: «الرد على من جَوَّز لبس قلنسوة النصارى» للشيخ

محمد عlish مفتي المالكية بمصر.

١٣ - أن من أحب في الله وأبغض في الله ذاق طعم الإيمان:

يتحدث أسلافنا عن لذة المناجاة وعن طعم يجدونه في قلوبهم نتمنى أن نجد تلك اللذة وذلك الطعم للإيمان ونتساءل كيف نجده فيجيب ابن عباس رضي الله عنه عن هذا التساؤل بقوله: «من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنها تنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً»^(١).

وسر ذوقه طعم الإيمان هو كمال إيمانه لأن من أحب لله وأبغض لله وأعطى ومنع لله كمل إيمانه وتم. كما يدل عليه حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»^(٢).

قال شيخ الإسلام: «وذلك أن من كان حبه لله وبغضه لله وهما عمل قلبه وعطاؤه لله ومنعه لله وهما عمل بدنه دل على كمال محبته لله ودل ذلك على كمال الإيمان»^(٣).

١٤ - الخصومة بين الأتباع والمتبوعين:

عندما يعاين الناس العذاب يوم الفزع الأكبر تنفصم عرى المحبة بين المتبوعين الماكرين الصادين عن الحق، المزينين للباطل وبين تابعيهم من الجهلة الذين يتبعون كل ناعق، وتبدأ خصومة كلُّها حسرة وأسى من التابعين، وجحودٌ واتهام من المتبوعين. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٢٠) رقم (٣٥٣).

(٢) رواه أبو داود (٦٠ / ٥) كتاب «السنة» / باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه. رقم (٤٦٨١)،

والطبراني في «الأوسط» (٤١ / ٩) رقم (٩٠٨٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧٥٤ / ١٠).

لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿سبأ: ٣١-٣٣﴾. ولا ينتهي الأمر عند الخصومة، بل يزيد شدة فيتبرأ المتبوعون من الأتباع في أعظم المواقف وأشدّها، وفي ذلك ما فيه من الألم الشديد والحسرة البالغة على نفوس التابعين ما فيه.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٦-١٦٧﴾.

فتبرأ منهم أيها الأخ المبارك اليوم قبل أن يتبرؤوا منك غداً، وعادهم الله في هذه الدنيا تنجو من عقوبة الآخرة.

١٥ - بيان ثمرة الولاء والبراء:

كثيراً ما يربط الله في كتابه بين العمل وثمرته سواء كانت الثمرة في الدنيا أو في الآخرة، وذلك لما لها من أثر على العامل يدفعه إلى الحرص عليه والتفاني فيه ومن ثمار الولاء والبراء ما يلي:

أ- إعطاء الإنسان العوض عما ترك:

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فهذا إبراهيم عليه السلام لما عادى قومه وتبرأ منهم لله رزقه الله عوضاً خيراً منهم حيث وهب له ذرية صالحة جعلهم أنبياء يسر بهم في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿مريم: ٤٨-٤٩﴾، بل جعل جميع الأنبياء من بعده في ذريته قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ ﴿العنكبوت: ٢٧﴾.

ب- السلامة من الفتن والفساد الكبير:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

«أي إن تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل»^(١).

ج- النجاة من سخط الله والفوز برضاه:

قال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثَبِّتَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

فإذا كان من تولى الكفار سخط الله عليه فإن من عاداهم رحمته وعن فعله وأحبه. ولهذا انغرس الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والعداوة للكافرين في مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم كباراً وصغاراً رجالاً ونساءً ونضرب لذلك ثلاثة أمثلة:

(١) قصة كعب بن مالك رحمته:

قصة كعب بن مالك رحمته عندما تخلف عن غزوة تبوك قصة طويلة لكنني أختصرها وأبين الشاهد للموضوع منها: وذلك أن كعب بن مالك رحمته تخلف عن غزوة تبوك لغير عذر فلما قدم النبي ﷺ راجعاً من تبوك جاء المتخلفون يعتذرون إليه وكان من ضمنهم كعب رحمته ولكنه لم يعتذر وإنما ذكر الواقع بحاله. وصدق في مقاله فأنظره النبي ﷺ ريثما ينزل الوحي فيه ثم نهى الناس أن يكلموه وبعد أربعين ليلة أمر زوجته أن تفارقه ولا تبقى معه في بيت واحد. يقول وتسلفت ذات يوم على حائط لابن عمي وهو أحب الناس إلي

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣١٦).

فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام. ثم قلت: ألا تعلم أني أحب الله ورسوله قال: الله ورسوله أعلم، فدمعت عيني، يقول كعب: وكنا كما قال الله عنا: وضائق عليهم الأرض بما رحبت - تخيل هذه الصورة الشديدة. قائد المسلمين لا يكلمه وأصحابه لا يكلمونه حتى أقرباءه لا يكلمونه - فهل غيّر هذا من ولائه للإسلام وجعله يوالي أعداء الله. كلا فاستمع إليه وهو يقول: بينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه أما بعد: فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرت به^(١).

انظر إلى قوة ولاء كعب للمسلمين وشدة عدائه للكفار فيها هو زعيم من زعمائهم يدعو ليواسيه وهو في حال الشدة والضعف عند المسلمين ومع ذلك كله يسجرها في التنور ولا يلتفت إليها فيا لها من براءة من الكفار ما أعظمها، ويا له من ولاء للمسلمين ما أقواه.

٢) عمير بن سعد:

قد يقول قائل هذا في مجتمع الرجال الأشداء الأقوياء فكيف بمجتمع صغار السن فلن يبلغ هذا المستوى من الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين نقول له: كلا فإن الشباب الصغار في السن قد أشربت قلوبهم عقيدة الولاء والبراء وإليك هذا المثال:

شاب صغير اسمه عمير بن سعد مات أبوه وهو صغير فتزوجت أمه برجل من أثرياء الأوس اسمه الجلاس بن سويد فأحب كل منهما الآخر حب الولد لوالده والوالد لولده فلما أن كانت غزوة تبوك جاء عمير إلى الجلاس وجعل يذكر له من تصدق للجهاد

(١) انظر البخاري مع الفتح (٨/١١٣) كتاب «المغازي»/ باب حديث كعب بن مالك. رقم (٤٤١٨).

وأخبار البكائين ليشير همته على الصدقة والبذل، فقال الجلاس كلمة عظيمة خطيرة أذهلت عميرًا وأطارت صوابه هي: «والله لئن كان ما يقول محمدًا حقًا لنحن شر من الحمير» فقال عمير بن سعد: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ وأحسنهم عندي بلاءً وأعزهم عليّ من أن يصله شيء يكرهه ولقد قلت مقالة لئن أفشيتها لتفتضحنّ، ولئن كتمتها لأهلكن، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب عليّ فنزل قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَيْمَانُ لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ^ط وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

فأمسك رسول الله بأذن عمير وقال: «وَقَدْ أَذْنُكَ وَصَدَّقَكَ رَبُّكَ» فتاب الجلاس: وحسن إسلامه^(١).

فتحمل عمير هذا الموقف الصعب مع علمه أن أخبار النبي ﷺ بهذه المقولة فضيحة عند الناس، ولكن شعوره التام بولائه لله ورسوله جعله يؤثر أخبار النبي ﷺ بما قال الجلاس، وإن كان ما كان.

٣) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان:

أسلمت أم حبيبة ثم هاجرت إلى الحبشة فتنصر زوجها فثبتت على إسلامها فكافأها النبي ﷺ أن تزوجها فصارت أم المؤمنين، ولها مع أبيها موقف يدل على شدة ولائها لله ولرسوله وبراءتها من الشرك وأهله حتى وإن كان ذلك المشرك هو أبوها.

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٤/ ٣٧٥-٣٧٦)، و«تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٩٧).

قال الزهري: «لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية، فلم يُقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنية، أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه، فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر»^(١).

وتربية رسول الله ﷺ لأصحابه بالولاء للمؤمنين والبغض والعداوة للكافرين رسخت هذه العقيدة في قلوبهم. فربوا عليها من بعدهم. ومن النماذج ما يلي:

١ - كان أحمد بن حنبل إذا نظر إلى نصراني أغمض عينيه، فقيل له في ذلك فقال رحمه الله: «لا أقدر أنظر إلى من افتري على الله وكذب عليه»^(٢).

٢ - بهلول بن راشد وكان من أصحاب الإمام مالك، دفع إلى بعض أصحابه دينارين ليشتري بهما زيتاً فذكر للرجل أن عند نصراني زيتاً أعذب ما يوجد فانطلق إليه الرجل بالدينارين وأخبر النصراني أنه يريد زيتاً عذباً لبهلول بن راشد، فقال النصراني: نتقرب إلى الله بخدمة بهلول كما تتقربون أنتم إلى الله بخدمته، وأعطاه بالدينارين من الزيت ما يعطى بأربعة دنانير، ثم أقبل الرجل على بهلول وأخبره الخبر فقال بهلول: قضيت لي حاجة فاقض لي الأخرى، رد عليّ الدينارين فقال: لم؟ قال تذكرت قول الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فخشيت أن أكل زيت النصراني فأجد له في قلبي مودة فأكون ممن حادّ الله ورسوله على عرض من الدنيا يسير»^(٣).

(١) «الطبقات الكبرى» (٨/ ٩٩)، و«تاريخ دمشق» (٦٩/ ١٥٠).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٢).

(٣) «ترتيب المدارك» (٣/ ٩٨).

٣- سئل الإمام أحمد عن رجل له جار رافضي يسلم عليه؟ فقال: «لا وإذا سلم عليه لا يرد عليه»^(١).

٤- وكان ابن رجاء يهجر من باع لرافضي كفنه أو غسله أو حملة^(٢).

٥- دخل أبو الوليد الطرطوشي على الخليفة في مصر فوجد عنده وزيراً راهباً نصرانياً قد سلّم إليه القيادة وكان يأخذ برأيه فقال الطرطوشي:

يا أيها الملك الذي جوده يطلبه القاصد والراغب
إن الذي شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب

فعندئذ اشتد غضب الخليفة فأمر بالراهب فسحب وضرب وأقبل على الشيخ فأكرمه وعظمه^(٣).

هذه حالهم فما حالنا؟ لقد ضيعنا هذا الأصل العظيم إلا من رحم الله وأخشى أن ينطبق علينا وصف ابن عقيل لأهل زمانه حيث يقول:

«إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل هذا الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع ولا ضجيجهم في الموقف بلييك وإنما انظر إلى مواطنهم أعداء الشريعة، عاش ابن الراوندي والمعري عليهما لعائن الله ينظمون وينثرون كفرًا... وعاشوا سنين وعظمت قبورهم واشترت تصانيفهم وهذا يدل على برودة الدين في القلب»^(٤).

(١) «السنة» للخلال (١/ ٤٩٤) رقم (٧٨٤).

(٢) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٥٧).

(٣) «الفروق» (٣/ ١٦).

(٤) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢٣٧).

حالات إظهار الموافقة للمشركين:

لإظهار الموافقة للمشركين ثلاث حالات هي:

١ - أن يوافقهم في الظاهر والباطن:

فينقاد لهم بظاهره ويميل إليهم ويوادهم بباطنه فهذا كافر خارج من الإسلام، وهو ممن قال الله فيه: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

٢ - أن يوافقهم ويميل إليهم في الباطن مع مخالفته لهم في الظاهر:

فهذا كافر أيضاً ولكن إذا عمل بالإسلام ظاهراً عصم ماله ودمه وهو المنافق.

٣ - أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن:

وهو على وجهين أحدهما: أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم مع ضربهم أو تقييدهم له أو تهديدهم إياه بالقتل فيقولون له: إما أن توافقنا وتظهر الانقياد لنا وإلا قتلناك فإنه والحالة هذه يجوز له موافقتهم في الظاهر مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان كما جرى لعمار حين أنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] وكما قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا مِنْهُمْ تَقَنَّةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

الثاني: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن وهو ليس في سلطانهم وإنما حمله على ذلك إما طمع في رئاسة أو مال أو مشحة بوطن أو عيال أو خوف مما يحدث في المال فإنه في هذه الحال مرتد ولا تنفعه كراهته لهم في الباطن وهو ممن قال الله فيه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧] فأخبر أنه لم يحملهم على الكفر الجهل بالحق أو بغضه ولا محبة الباطل وإنما هو أن لهم حظاً من حظوظ الدنيا فآثروه على الدين^(١).

(١) «سبيل النجاة والفكاك» (٨٩-٩٠).

من صور موالاة الكفار:

١ - التولي العام: قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل

عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

قال القرطبي: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: في النصرة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ شرط

وجوابه أي: لأنه خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ووجبت له النار كما وجبت لهم فصار منهم أي من أصحابهم^(١).

بل نقل ابن حزم الإجماع على ذلك فقال: صح أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ

مِنْهُمْ﴾ إنما هو على ظاهره فإنه كافر من جملة الكفار وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين^(٢).

٢ - المحبة والمودة الخاصة، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ

مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

٣ - الركون القليل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]،

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [٧٤] إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ

الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥]، قال ابن عباس: إن من الركون إليهم أن تليق لهم دواة أو تبري لهم قلماً^(٣).

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ١٤٠-١٤١).

(٢) «المحلى» (١٣/ ٣٥).

(٣) «مسائل في المنكرات والبدع» لعبد اللطيف آل الشيخ (٣٣).

٤ - مداهنتهم: قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ نَدُّهُمْ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

٥ - طاعتهم فيما يقولون وفيما يشيرون به: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٦ - تقريبهم في المجلس والدخول بهم على أمراء الإسلام.

٧ - مشاورتهم في الأمور.

٨ - استئذانهم واستعمالهم في أمر من أمور المسلمين أي أمر كان إمارة أو عمالة أو كتابة أو غير ذلك. فعن أبي موسى قال قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً قال: مالك قاتلك الله. أما سمعت الله تبارك وتعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١] ألا اتخذت حنيفاً؟ قال قلت يا أمير المؤمنين لي كاتبته وله دينه. قال لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله. ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله ^(١).

وفي رواية: «أن عمر رضي الله عنه أمره أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان لأبي موسى كاتب نصراني يرفع إليه ذلك، فعجب عمر رضي الله عنه وقال: إن هذا لحافظ، وقال: إن لنا كاتباً في المسجد، وكان جاء من الشام فادعه فليقرأه، قال أبو موسى: إنه لا يستطيع أن يدخل المسجد، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا، بل نصراني، قال: فانتهرني، وضرب فخذي، وقال: أخرجته، وقرأ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

(١) «أحكام الملل» (١١٧) رقم (٣٢٨)، وقال شيخ الإسلام «رواه أحمد بإسناد صحيح». «اقتضاء الصراط

المستقيم» (١/ ١٨٤) و«مجموع الفتاوى» (٣٢٦/ ٢٥).

قال أبو موسى: والله لا توليته، إنما كان يكتب. قال: أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب لك؟ لا تدنهم إذ أقصاهم الله ولا تأمنهم إذ خَوَّنهم الله، ولا تعزهم بعد إذ أذلهم الله، فأخرجه»^(١).

وقال عمران بن أسد: أتانا كتاب عمر بن عبد العزيز إلى محمد بن المنتشر: أما بعد: فإنه بلغني أن في عملك رجلاً يقال له: حسان بن برزى على غير دين الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وإذا أتاك كتابي هذا فادع حسان إلى الإسلام، فإن أسلم فهو منا، ونحن منه، وإن أبى؛ فلا تستعن به، ولا بأحد من غير أهل الإسلام من أعمال المسلمين، فقرأ عليه الكتاب، فأسلم»^(٢).

قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «ولهذا وغيره منعوا أن يكونوا على ولاية المسلمين.... بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم»^(٣).

٩ - اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨]؛ لما في ذلك من معرفة أخبار المسلمين. قال شيخ الإسلام: «عرف أهل الخبرة أن أهل الذمة من اليهود والنصارى والمنافقين يكاتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين، وبما يطلعون على ذلك من أسرارهم حتى أخذ جماعة من المسلمين في بلاد التتر وسُبيَ بمطالعة أهل الذمة لأهل دينهم.

(١) «السنن الكبرى» (٢١٦/١٠) رقم (٢٠٤٠٩).

(٢) «سراج الملوك» للطرطوشي (٥٤٦/٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٦٤٦/٢٨).

ومن الأبيات المشهورة قول بعضهم:

كل العداوات قد ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك في الدين»^(١)

١٠ - مصاحبته ومجالستهم ومزاورتهم والدخول عليهم.

١١ - البشاشة لهم وطلاقة الوجه.

١٢ - الإكرام العام.

١٣ - الشاء عليهم ونشر فضائلهم وذكرهم بما فيه تعظيم لهم كتسميتهم سادة وحكماء كما يقال لطواغيتهم السيد فلان.

١٤ - الرضى بأعمالهم أو التشبه بهم والتزيي بزيهم.

١٥ - الانخراط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية وبذل الحب لها والنصرة. ومن ذلك اتفاق بعض الأحزاب الإسلامية مع الأحزاب العلمانية ليكونا حزباً واحداً كي يفوزا في الانتخابات.

١٦ - مشاركتهم في أفراحهم وأتراحهم.

١٧ - الاستغفار لهم: فقد نهى الله عن الاستغفار للمشركين وإن كان أقرب قريب قال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. ولما استأذن رسول الله ﷺ ربه أن يستغفر لأمه، منعه لأنها مشركة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «اسْتَأذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي...»^{(٢)(٣)}.

(١) المرجع السابق.

(٢) مسلم (٦٧١ / ٢) كتاب «الجنائز» / باب استأذن النبي ﷺ ربه رضي الله عنه في زيارة قبر أمه. رقم (٩٧٦).

(٣) «أوثق عرى الإيمان» (٤٩-٥١)، وإن أردت بيان الأدلة على هذه الصور مع نقل كلام المفسرين على

الآيات، فراجع «الولاء والبراء» للقططاني (٢٣٢-٢٤٥).

١٨ - القول بوحدة الأديان:

ومن صور الموالاتة القول بوحدة الأديان التي يتزعمها الكفار أو من تشبعوا بأفكارهم كابن الفارض^(١) وابن سبعين وابن عربي^(٢) والتلمساني، وابن هود وغيرهم، ومن نحا نحوهم، ولذلك: «يسوغون للرجل أن يتمسك باليهودية والنصرانية كما يتمسك بالإسلام ويجعلون هذه طرقاً إلى الله بمنزلة مذاهب المسلمين»^(٣).

ومن نادى بها جمال الدين الأفغاني حيث قال: «إن الأديان الثلاثة الموسوية والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في الواحدة شيء من أوامر الخير المطلق استكملته الثانية... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة...»^(٤).

وإني لأعجب أشد العجب كيف يقول هذا الكلام أحد ينتسب إلى الإسلام أو أحد قرأ القرآن، أليس الله يقول: ﴿قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

(١) انظر: «ديوان ابن الفارض» (ص ٨٢) حيث جعل الأديان كلها صحيحة تركتها لطلوها.

(٢) عقد الخلائق في الإله خلائفاً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه. «الفصوص» (٣٤٥).

(٣) «الصفدية» (١/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٤) «المجموعة الكاملة» لجمال الدين الأفغاني (٦٩)، نقلاً عن «دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام». مصطفى غزال (٢٤٤).

ويقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].
 ويقول ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١). فمن هذه الأدلة يتبين أن القول بوحدة الأديان كفر صريح وردة عن دين الله، كيف يجتمع التوحيد والشرك في قلب عبد. هذا لا يمكن أن يكون أبداً فانتبهوا أيها المسلمون^(٢).

الفرق بين المداراة والمداهنة:

المداهنة: المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه وهو معاشره الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه^(٣). وقيل «هي ترك ما يجب لله من الغيرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لغرض دنيوي، وقيل: هي الاستئناس والمعاشرة مع القدرة على الإنكار»^(٤). «فالمداهن هو الذي لا يبالي ما نقص من دينه إذا سلمت له دنياه قد هان عليه ذهاب دينه وانتهاك عرضه بعد أن تسلم له دنياه»^(٥).
 فالمداهنة مشاركة بالجريمة وإشاعة للفاحشة لأن الفجرة إذا أمنوا الإنكار أفسدوا في الأرض.

(١) مسلم (١/ ١٣٤)، كتاب «الإيمان» / باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته. رقم (١٥٣).

(٢) من أراد الاستزادة فليراجع «الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان» بكر أبو زيد، و«نواقض الإيمان القولية والعملية» د. عبد العزيز العبد اللطيف (٣٣٧-٣٩٠)، و«دعوة التقريب بين الأديان» د. أحمد القاضي.

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٨).

(٤) «الدرر السنية» (٨/ ٧١).

(٥) «الغرائب» (٧٩-٨٠).

ولهذا كان المشركون لا يطمعون أن يطيعهم النبي ﷺ فيفعل مثلهم بل أرادوا أقل من ذلك وهو أن يداهنهم فيسكت عن شركهم وفسادهم وباطلهم ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

أما المداراة: هي درء الشر المفسد بالقول اللين وترك الإعراض عنه إذا خيف أشد منه أو مقدار ما يساويه^(١).

قال الآجري: «المداراة يثاب عليها العاقل ويكون محموداً بها عند الله عز وجل وعند من عقل عن الله عز وجل وهو الذي يداري جميع الناس الذين لا بُدَّ له منهم ومن معاشرتهم لا يبالي ما نقص من دنياه وما انتهك به من عرضه بعد أن يسلم دينه. فهذا رجل كريم غريب في زمانه»^(٢) ومن أمثلة المداراة: الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله والإنكار عليه بلطف القول والفعل.

والفرق بين المداراة والمداهنة أنَّ المداراة بذل الدنيا لصالح الدنيا أو لصالح الدين أو هما معاً وهي مباحة ومستحسنة في بعض الأحوال.

والمداهنة: بذل الدين لصالح الدنيا^(٣).

قال الطرطوشي: «من دارى سَلِمَ، ومن داهن أْثَمَ، وهذا باب اختلط على معظم الخلق، فداهنوا وهم يحسبون أنهم يدارون، فالمداهنة منهي عنها، والمداراة مأمور بها... والمداهنة أن تداري الناس على وجه يذهب فيه دينك، والمداراة مخالفتهم على وجه يسلم لك دينك»^(٤).

(١) انظر: «الدرر السنية» (٧٢ / ٨).

(٢) «الغرائب» (٧٩).

(٣) «المفهم» (٥٧٣ / ٦) بشيء من الاختصار.

(٤) «سراج الملوك» (٥٨٨ / ٢).

والدليل: قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لا: نافية. تنفي اجتماع الإيثار ومحبة المشركين في قلب عبدٍ أبداً.

تجد: تذكر بعد البحث والتفتيش غالباً كما في قصة موسى مع الخضر حيث قال الله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

وفي هذه الآية المبالغة في المنع من موادة الكفار من وجوه:

الأول: بيان أن موادة الكفار لا يمكن أن تجتمع مع الإيثار بالله واليوم الآخر أبداً لأنها نقيضان إذا وجد أحدهما انتفى الآخر. قال شيخ الإسلام: «فأخبر الله أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيثار ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر فإذا وجد الإيثار انتفى ضده وهو موالة أعداء الله فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيثار الواجب»^(١).

الثاني: أنه تعالى أوجب قطع موادة أقرب القرابة إذا كفروا، فيجب أن يكون إيمانه بالله واليوم الآخر حائلاً بينه وبين هذه المودة.

كما فعل عبدالله بن عبدالله بن أبي مع أبيه حين منعه من دخول المدينة حتى أذن له النبي ﷺ. وذلك عندما قال: ليخرجن الأعز منها الأذل^(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/٧).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (٦٧٦-٦٧٧).

وعندما أَسَرَ أبو عَزِيز بن عمير بن هاشم بعد وقعة بدر. «قال أبو عَزِيز: مرَّ بي أخي مصعب بن عمير - وكان أخي لأمي وأبي - ورجل من الأنصار يأسرني فقال: شُدْ يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك. قال أبو عَزِيز: فقلت له يا أخي هذه وصاتك بي، فقال مصعب: إنه أخي دونك»^(١).

الثالث: أن الله عدد نعمه على مبغضي الكفار ممتناً بها عليهم وهي كَتَبُ الإِيْمَانِ في قلوبهم، وتأييدهم بروح منه، وإدخالهم الجنة وخلودهم فيها، ورضاه عنهم وإرضاءهم عنه وأنهم حزب الله المفلحون. فمن أنعم الله عليه بهذه النعم فهل يمكن أن يحب أعداء الله ويواليهم؟.

قوِّماً: القوم هم الجماعة من الناس.

يؤمنون بالله واليوم الآخر: ذكر الإِيْمَانِ بالله لأن الإِيْمَانِ الصادق يمنع محبة أعداء الله. وذكر اليوم الآخر لأن فيه الجزاء والحساب فيخاف أن يعاقب على محبته لعدو ربه. يوادون: أي يحبون.

فنفى الله الإِيْمَانِ عمن يحب أعداءه. وهذا يحتمل أحد أمرين:

١ - إما أنه كان منافقاً يظهر الإسلام ويبطن الكفر فهو لا يبالي أن يحب أعداء الله لأنه ليس عنده إِيْمَانِ يردعه ويمنعه عن محبتهم.

٢ - أو أن عنده إِيْمَاناً حقيقة لكن لما جاءت البلوى أحب الكفار ووالاهم يخشى بذلك الدوائر فانتفى عنه الإِيْمَانِ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

من حاد الله ورسوله: أي من عادى وشاق الله ورسوله وخالف أمرهما وصار بسبب ذلك في حد غير حد الله ورسوله.

ولو: الواو حالية ولو: حرف شرط غير جازم.

كانوا آباءهم: بدأ بالآباء لشعور الأبناء بالانتفاء لآبائهم ولفضلهم عليهم؛ ولعظيم حقهم ووجوب برهم ومع هذا كله نهاهم عن محبتهم ومودتهم.

أو أبناءهم: وثنى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب قال يعلى العامري: جاء الحسن والحسين يسعيان إلى النبي ﷺ، فضمهما إليه، وقال: «الولد مبخلة مجبنة»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال أبو بكر رضي الله عنه يوماً: «والله ما على الأرض رجل أحب إليّ من عمر، فلما خرج: رجع، فقال: كيف حلفت أي بنية؟ فقلت له، فقال: أعز عليّ والولد ألوط»^(٢)،^(٣).

أو إخوانهم: وثلت بالإخوة لأنهم هم المثابة عند الحاجة والناصر عند نشوب الأزمة ولما لهم من قوة القرابة.

أو عشيرتهم: وهم الأعمام فمن بعدهم.

أولئك: إشارة إلى الذين لا يوادون الكفار.

كتب في قلوبهم الإيمان: أي ثبته وغرسه غرساً لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك وخص القلوب بالذكر لأن القلوب موضع الإيمان فهي التي تعمى وتبصر

(١) أحمد (٤/ ١٧٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٩٧) رقم (١٢٢٢٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٠٩)، كتاب «الأدب»/ باب بر الوالد والإحسان إلى البنات. رقم (٣٦٦٦)، قال البوصيري: «هذا إسناد صحيح». «مصابيح الزجاجة» (٤/ ٩٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٢٩٥).

(٢) قال أبو عبيد: «الولد ألوط»: «أي ألصق بالقلب». «تهذيب اللغة» (١٤/ ٢٣).

(٣) «الأدب المفرد» (٤٢)/ باب الولد مبخلة مجبنة. رقم (٤٨)، وقال الألباني: «حسن الإسناد».

وتعقل، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٦٤] وقال عن إِبصار القلوب: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فالنور هو البصيرة في القلب.

وأما أنها تعقل فكما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ فبصلاح القلب يصلح الجسد كله وبفساده يفسد الجسد كله، وسمي القلب قلبًا لتقلبه ولهذا كان أكثر دعاء المصطفى ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، فقال له أصحابه: أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به؟ قال: إن القلوب بيد الله عز وجل يقلبها. زاد الترمذي: «كيف يشاء»^(١)، وبهذا يعرف المسلم قدر نعمة الله عليه بقوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ وأن من أعظم وسائل تثبيت القلب على الإسلام هو الولاء والبراء.

وأيدهم: أي قواهم ونصرهم.

بروح منه: أي بوحيه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني وقيل: بنصر منه، وسمى نصره روحًا لأنه به يحيى أمرهم.

والضمير في (منه) يعود إلى الله تعالى. فعلى العبد أن يكثر من الافتقار إلى الله واللجوء إليه فإنه هو المستغاث وهو المستعان ولا حول ولا قوة إلا به.

(١) أحمد (٢٥٧/٣)، وابن أبي شيبة في كتاب «الإيمان» (١٧) رقم (٥٥)، والترمذي (٤٤٨/٤-٤٤٩)، كتاب «القدر»/ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن. رقم (٢١٤٠)، وقال: «وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمر، وعائشة، وهذا حديث حسن»، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٨٧-٨٨) عن جابر، وقال: «هذا حديث ثابت باتفاق»، وقال أيضًا: «حديث النواس بن سمعان حديث ثابت رواه الأئمة المشاهير ممن لا يمكن الطعن على واحد منهم». «الرد على الجهمية» (٨٨).

ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها: وكل من دخل الجنة فإنه يخلد فيها أبداً ولا يخرج قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وصح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملحٍ فينادي منادٍ: يا أهل الجنة فيشرَّبُون وينظرون. فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار فيشرَّبُون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ - وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا - وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

رضي الله عنهم: فيها إثبات صفة الرضا لله ﷻ وسبب الرضا: أنهم أسخطوا الناس وعادوهم لأجله فرضي عنهم وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله تعالى عنه، وأرضى عنه الناس»^(٢).

ورضوا عنه: لأنه وفقهم لسلوك طريقه المستقيم، وغفر لهم وأدخلهم الجنة، وذلك لأنهم سخطوا على الناس لأجله فأرضاهم عنه.

قال أنس: أنزل الله ﷻ في الذين قتلوا ببئر معونة قرآنا قرأناه حتى نسخ بعد «أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه»^(٣).

قال ابن كثير: «وفي هذا سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله

(١) البخاري مع الفتح (٤٢٨ / ٨) كتاب «التفسير» / باب وأنذرهم يوم الحسرة. رقم (٤٧٣٠).

(٢) ابن حبان في «صحيحه» (٥١٠ / ١) رقم (٢٧٦). قال أبو حاتم وأبو زرعة: «الصحيح أنه موقوف على عائشة» «علل الحديث» لابن أبي حاتم (١٠٣ / ٢) رقم (١٨٠٠).

(٣) مسلم (٤٦٨ / ١) كتاب «المساجد» / باب استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة. رقم (٦٧٧).

تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم»^(١).

أولئك حزب الله: جند الله الذي يمثلون أمره ويقاتلون أعداءه وينصرون أوليائه وفي إضافتهم إلى الله تشریف لهم عظيم وتكريم وتفخيم.

ألا: أداة تنبيه.

إن: للتوكيد.

حزب الله: أي عباد الله وأهل كرامته وجنده وأوليائه.

هم: ضمير الفصل يفيد اختصاص حزب الله بالفلاح دون غيرهم من الأحزاب الأخرى.

المفلحون: الفلاح هو الظفر بالمطلوب، والمفلحون هم الناجون الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة المختصون بالظفر بدخول جنات النعيم، و«قيل لأهل الجنة: مفلحون لفوزهم ببقاء الأبد»^(٢).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٦٠).

(٢) «تهذيب اللغة» (٧٢ / ٥).

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم.

لما كان التمسك بالدين والعمل بأحكامه وأخصها التوحيد ومعاداة الكافرين لكفرهم ومحبة المؤمنين لإيمانهم شاقاً على النفوس تحتاج فيه إلى قدوة تقتدي بها حتى يسهل عليها ذلك، أبرز المؤلف القدوة المقتدى به وهو نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال: اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم.

اعلم: أي كن متهيئاً ومتفهماً لما يلقي عليك من العلوم، ويؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة.

أرشدك الله: الرشد نقيض الغي والضلال، ومنه: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] والإرشاد: هو الهداية والدلالة، والمعنى: أي هداك الله للإيمان والعمل الصالح ووفقك للاستقامة على طريق الحق وثبتك عليه.

والرشد ثمرة الإيمان والاستجابة لأمر الله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا إِلَى وَلِيّوْمُنَا بِإِذْنِهِمْ يَرْشُدُوا﴾ [البقرة: ١٨٦] فإذا استجبت وأطعت وفقك الله للاستقامة ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى﴾ [٥] ﴿وَصَدَقَ بِالْحَقِّ﴾ [٦] ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧] وهو منة من الله على عباده قال تعالى ممتناً به على إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، وكان النبي ﷺ يعلمها أصحابه، كما في حديث حصين حين قال له ﷺ: لو أسلمت لعلمتك كلمتين تنفعانك، فلما أسلم جاء إلى النبي ﷺ، فقال: علمني الكلمتين اللتين وعدتني، فقال له: «قل: اللهم ألهمني رشدي وأعذني شر نفسي»^(١).

(١) الترمذي (٥١٩/٥-٥٢٠)، كتاب «الدعوات» رقم (٣٤٨٣)، والدارمي في «نقضه على المريسي» (٥٩) رقم (٣٤)، وصححه ابن القيم في «الوابل الصيب» (٣٠٦)، وقال الترمذي كما في «تحفة الأحوذى» =

وفي رواية: «اللهم قني شر نفسي، واعزم لي على أرشد أمري»^(١).

لطاعته: قال الأزهري: الطوع نقيض الكره طاع له إذا انقاد له ومضى لأمره^(٢).

أن: حرف توكيد.

الحنيفية: قال ابن جرير: «الحنيف المستقيم من كل شيء، وقد قيل بأن الرجل الذي تقبل إحدى قدميه على الأخرى إنما قيل له أحنف نظرًا له إلى السلامة كما قيل للمهلكة من البلاد مفازة بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة، وكما قيل للديغ: السليم تفاؤلاً له بالسلامة من الهلاك فمعنى الكلام إذاً: قل يا محمد بل نتبع ملة إبراهيم مستقيماً»^(٣)، وذكر رحمته معنى آخر للحنيف، وهو المخلص، ومعنى ثالثاً وهو المتبع، ولم يذكر غير هذه المعاني الثلاث. وقال ابن عبد البر: «والحنيف في كلام العرب المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من الإسلام»^(٤)، وقال ابن قتيبة: «الحنيف المستقيم وقيل: للأعرج حنيف نظرًا له إلى السلامة»^(٥)، قال شيخ الإسلام: الحنيف للسلف فيه ثلاث عبارات، قال محمد بن كعب: مستقيماً، وقال عطاء وخصيف: مخلصاً^(٦).

(٩/٤٥٥) رقم (٣٥٥٠): «هذا حديث حسن غريب»، وقال شيخنا عبد الله الدويش: «وهو كما قال».

«تنبيه القارئ» ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ (٥/١١٩).

(١) أحمد (٤/٤٤٤)، وقال شيخنا عبد الله الدويش: «وهذا الإسناد صحيح». «تنبيه القارئ» ضمن مجموعة مؤلفات الشيخ (٥/١١٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (٣/١٠٣-١٠٤).

(٣) «جامع البيان» (١/٥٦٤-٥٦٦).

(٤) «درء التعارض» (٨/٣٦٩).

(٥) «تفسير غريب القرآن» (٦٤).

(٦) تفسير عطاء (١٠٣)، و«جامع البيان» (١/٥٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/٢٤٢)، وبه قال مقاتل

في «تفسيره» (١٤١ و ٤١٠)، ويحيى بن سلام (١/٩٧)، وابن المنذر في «تفسيره» (١/٢٤٦)، ويستدل =

وقال آخرون: متبعاً^(١)، فهو مستقيم القلب إلى الله دون ما سواه، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [الأحقاف: ١٣] قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة»^(٢)، وقال أيضاً: «الحنيف المستقيم إلى ربه دون ما سواه»^(٣)، وقال ابن كثير: «حنيفاً: أي مخلصاً على بصيرة»^(٤). وروى ابن نجدة عن أبي زيد أنه قال: الحنيف المستقيم وأنشد:

تعلّم أن سيهديكم إلينا طريق لا يجور بكم حنيف^(٥)

وقال القرطبي: قال قوم: الحنف الاستقامة فسمي دين إبراهيم حنيفاً لاستقامته. وسمي المعوج الرجلين أحنف تفاقماً بالاستقامة كما قيل للديغ سليم وللمهلكة مفازة في قول أكثرهم^(٦). وقال ابن القيم: «الحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه ومن فسر بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ وإنما فسر به بلازم المعنى، فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره»^(٧). فالميل لازم معنى الحنيف لا أنه موضوعه لغة.

له بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، ثم بين من هم المخلصون، فقال: ﴿حُنَفَاءَ﴾ فتبين بهذا أن الحنيف هو المخلص.

(١) ممن قاله مجاهد. «جامع البيان» (١/ ٥٦٥)، و«التمهيد» (١٨/ ٧٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٢٣٩).

(٤) «البداية والنهاية» (١/ ٣٨٩).

(٥) «تهذيب اللغة» (٥/ ١١٠).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٤٠).

(٧) «جلاء الأفهام» (١٥٥).

وقال الشيخ عبدالعزيز بن باز: الحنيف: هو الذي أقبل على الله وأعرض عما سواه^(١). وهذا التفسير أعني تفسير السلف للحنيف هو الموافق للآيات القرآنية وللأحاديث النبوية، قال تعالى آمراً نبيه ﷺ أن يفخر ويعتز بدينه ويفرح ويغبط به: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأَنْعَام: ١٦١].

فذكر أن الصراط المستقيم، هو الدين القيم، وهو الحنيف. فصار الحنيف هو المستقيم.

قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد: لهؤلاء العادلين برهم الأوثان والأصنام ﴿إِنِّي هَدَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يقول: قل لهم: إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به وذلك الحنيفية المسلمة فوفقني لها ﴿دِينًا قِيمًا﴾ يقول مستقيماً ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول دين إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ يقول مستقيماً^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]، فقال سبحانه: ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾، ولم يقل: فميلوا إليه.

وكما في حديث عياض بن حمار: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَعْلَمَكُم مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا. كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَنَفَاءَ كُلِّهِمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يَشْرَكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا»^(٣).

فبين ﷺ أن الأصل هو الاستقامة وأن الشياطين هي التي مالت بهم عن الطريق

(١) «شرح ثلاثة الأصول» (٣٥).

(٢) «جامع البيان» (٨ / ١١١).

(٣) مسلم (٤ / ٢١٩٧) كتاب «الجنة وصفة نعيمها» / باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. رقم (٢٨٦٥).

المستقيم قال ابن عبد البر: الفطرة: السلامة والاستقامة، ثم استدل بالحديث السابق، ثم قال عن قوله: إني خلقت عبادي حنفاء يعني على استقامة وسلامة والحنيف في كلام العرب المستقيم السالم وإنما قيل للأعرج أحنف على جهة الفأل كما قيل للفقير مفازة^(١).

وهنا نكتة لطيفة يجب أن نعيها جيداً وهي:

أن الأصل في آدم وبنيه هو التوحيد وأن الشرك طارئ ودخيل عليهم، ويدل له ما يلي:

- ١ - أنه الغاية الكبرى من إيجادهم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا كان هو الغاية الكبرى من إيجادهم وجب أن يكونوا عليه أول أمرهم.
 - ٢ - أن آدم وحواء على التوحيد من أول وجودهم وهم أول البشر:
- ويدل لذلك ما يلي:

- أ - حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله»^(٢).
- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح: عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم...»^(٣).

(١) «التمهيد» (١٨ / ٧٠ - ٧١).

(٢) ابن حبان في «صحيحه» (٣٧ / ١٤) رقم (٦١٦٥)، والحاكم في «المستدرک» (٤ / ٢٩٢)، وقال: «حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، وإن كان موقوفاً؛ فإن إسناده صحيح بمرّة»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: «وهو كما قالوا». «السلسلة الصحيحة» (٥ / ١٩١) رقم (٢١٥٩).

(٣) الترمذي (٥ / ٤٥٣)، كتاب «تفسير القرآن». رقم (٣٣٦٨)، وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي في «الكبرى» (٩٢ / ٩) رقم (٩٩٧٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١ / ٤١٠) رقم (٦٠٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١ / ١٦٠) رقم (٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤ / ٤٠) رقم (٦١٦٧)، والحاكم في «المستدرک» (٤ / ٢٩٢)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

ب- أن آدم أول البشر كان نبياً مكلماً والأنبياء موحدون معصومون من الكفر والشرك ويدل لذلك أيضاً أنه يوم القيامة يعتذر بالأكل من الشجرة فقط^(١) ولو كان قد وقع منه الشرك لاعتذر به لأنه أكبر إثماً من الأكل من الشجرة.

ج- أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة لم يلتجئ إلى غير الله وإنما تاب لله وحده فقط ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ولو كان على الشرك -وحاشاه من ذلك- لالتجأ إلى من يعظمه ويدعوه غير الله عز وجل.

د- أن آدم عليه السلام ربي أبناءه على التوحيد وعاشوا عليه عشرة قرون ولم يكن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إلا بعد ذلك قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»^(٢).

وقال قتادة: «كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ» فكان أول نبي بعث نوحاً^(٣).

وذكره ابن كثير عن أبي هريرة -مرفوعاً- من طريق آخر عند البزار بلفظ: «لما خلق الله آدم عطس فقال: الحمد لله، فقال له ربه: رحمك الله يا آدم». ثم قال ابن كثير: «وهذا إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه». «البداية والنهاية» (١/ ٢٠٢).

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٣٧١)، كتاب «الأنبياء» / باب قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٥]. رقم (٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٥)، كتاب «الإيمان» / باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. رقم (١٩٤).

(٢) «جامع البيان» (٢/ ٣٣٤)، و«كشف الأستار» (٣/ ٤١) رقم (٢١٩٠)، والحاكم في «المستدرک» (٢/ ٤٨٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، وصححه ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٠٤)، وابن كثير في «تفسيره» (١٦٢).

(٣) «جامع البيان» (٢/ ٣٣٥).

وهذا يدل على أن التوحيد هو الأصل وأن الشرك طارئ دخيل.

قال شيخ الإسلام: «إن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر عليه السلام حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان... فابتعث الله نبيه نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن عبادة ما سواه»^(١).

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]: «أخبر الله تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام»^(٢).

٣- ويدل على أن التوحيد هو الأصل وأن الشرك طارئ دخيل حديث عياض بن حمار المجاشعي وفيه: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم اتَّهَمُوا الشَّيَاطِينَ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتَهُمْ أَنْ يُشْرَكُوا بِمَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»^(٣).

فقوله خلقت: فعل ماض يدل على أن الله حين خلقهم خلقهم حنفاء على التوحيد ثم إن الشياطين اجتالتهم ونقلتهم من التوحيد إلى الشرك.

٤- أن الفطرة هي التوحيد:

ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُمْ لَهَا ذَلِكَ أَلَدُّ الْإِثْمِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣] والفطرة هي الأصل فهي مقدمة على الشرك والضلال يوضحها قول النبي ﷺ: «ما من مولود إلا

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٦٠٣-٦٠٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦٥٤).

(٣) سبق تخريجه.

يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو يُنصرّانه أو يُمجّسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هلّ تحسون فيها من جدعاء»، ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه: «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِي يُقَيِّمُ»^(١).

يعلق ابن القيم على هذا الحديث فيقول: «فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير وتغيير الخلقة بالجدع... فغير الفطرة إلى الشرك والخلقة إلى البتك والقطع فهذا تغيير خلقة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة»^(٢).

والفطرة هي الإسلام كما تفسرها الرواية الأخرى: «ما من مولود إلا ويولد على الفطرة»^(٣).

قال ابن القيم: «فهذا صريح بأنه يولد على ملة الإسلام»^(٤).

وقد سبقه إلى هذا القول جمع من أهل العلم وعلى رأسهم أبو هريرة والزهري^(٥) وأحمد^(٦) والبخاري^(٧) وغيرهم. بل قال ابن عبد البر وهو المعروف عن عامة السلف^(٨).

(١) البخاري مع الفتح (٣/٢١٩)، كتاب «الجنائز»/ باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلي عليه. رقم (١٣٥٩)، ومسلم (٤/٢٠٤٧)، كتاب «القدر»/ باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة. رقم (٢٦٥٨).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/١٠٧).

(٣) مسلم (٤/٢٠٤٨)، كتاب «القدر»/ باب معنى: «كل مولود يولد على الفطرة». رقم (٢٦٥٨).

(٤) «شفاء العليل» (٢/٣٠٢).

(٥) «التمهيد» (١٨/٧٦).

(٦) «درء التعارض» (٨/٣٦١).

(٧) البخاري مع الفتح (٨/٥١٢)، كتاب «التفسير»/ باب لا تبديل لخلق الله.

(٨) «التمهيد» (١٨/٧٢).

أما قوله ﷺ: «يا عبادي كلکم ضالُّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدکم»^(١).

فله محملان:

الأول: أن المقصود بالضلال هنا هو عدم التمكن من معرفة تفاصيل الشريعة إلا بهدى من الله ويدل له لفظ الحديث فإنه قال فاستهدوني أهدکم فقله فاستهدوني أهدکم أنهم يستقبلون أمراً جديداً وهو معرفة تفاصيل أسماء الله وصفاته، وأمور الآخرة، وما يتعلق بها، ومعرفة الأحكام الشرعية.

ويدل لهذا الوجه: قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]، ويوضح الضلال في هذه الآية وضوحاً تاماً قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

قال ابن كثير: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، يعني: القرآن، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ على التفصيل الذي شرع لك في القرآن. ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]^(٢).

وقال ابن رجب: «وقوله: «كلکم ضال إلا من هديته»: قد ظن بعضهم أنه معارض لحديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: خلقت عبادي حنفاء، وفي رواية: «مسلمين فاجتالتهم الشياطين»، وليس كذلك، فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام، والميل إليه دون غيره، والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة، لكن لا بد للعبد من تعلم الإسلام بالفعل، فإنه قبل التعلم جاهل لا يعلم شيئاً، كما قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ

(١) مسلم (٤/ ١٩٩٤) كتاب «البر والصلة» / باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١٢٢٨).

﴿بُطُونٌ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، وقال لنبیه ﷺ: ﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

والمراد: وجدك غير عالم بما علمك من الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ^(١).

وقال السعدي: ﴿﴿وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب والإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق ^(٢).

الثاني: أن المقصود به أن هداية التوفيق لا يملكها إلا الله عز وجل فيجب أن تطلب منه وحده قال عز وجل مخاطباً أفضل خلقه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

واعترف أهل الجنة بذلك فقالوا كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ولذلك يجب أن تطلب منه وحده ولهذا قال: «فاستهدوني أهدكم» أي اطلبوها مني فإنني أنا الذي أملكها وأعطيكم إياها.

ولا منافاة بينهما فهداية التوفيق بيد الله وحده ومعرفة تفاصيل صفات الرب وأحكامه لا تعرف إلا منه سبحانه فلتطلب جميعها منه.

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٦٦٢-٦٦٣)، وللکلام بقية نافعة، تركتها خشية الإطالة، فراجعها إن شئت.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٨٧).

وأما حديث الكتابة: حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَظْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحُ...»^(١).

فيجاب عنه بأنه لا يخالف الأحاديث الدالة على أنه يولد على الفطرة والملة؛ لأن المراد بكتابة الشقاوة والسعادة إنما هو باعتبار المآل والخاتمة ولهذا قال النبي ﷺ بعد ذلك في نهاية الحديث السابق: «فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ».

قال شيخ الإسلام: «والمقصود هنا تفسير قوله: «كل مولود يولد على الفطرة»، وأن من قال بإثبات القدر وأن الله كتب الشقي والسعيد لم يمنع ذلك أن يكون ولد على الإسلام ثم تغير بعد ذلك كما تولد البهيمة جمعاء ثم تغير بعد ذلك فإن الله تعالى يعلم الأشياء على ما هي عليه فيعلم أنه يولد سليماً ثم يتغير.

والآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على هذا القول الذي رجحناه وهو أنهم ولدوا على الفطرة ثم صاروا إلى ما سبق في علم الله فيهم من سعادة وشقاوة»^(٢).

وكذلك قوله ﷺ: «إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طَبَعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبْوِيهِ طَغْيَانًا وَكَفْرًا»^(٣)، فإن المراد إنما هو باعتبار القدر والمآل قال شيخ الإسلام: «طبع أي طبع

(١) البخاري (٤/ ١٦١) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب خلق آدم. رقم (٣٣٣).

(٢) «درء التعارض» (٨/ ٤١٠).

(٣) مسلم (٤/ ٢٠٥٠) كتاب «القدر»/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة. رقم (٢٦٦١).

في الكتاب: أي قُدِّرَ وقُضِيَ لا أنه كان كفره موجودًا قبل أن يولد. فهو مولود على الفطرة السليمة وعلى أنه بعد ذلك يتغيَّر فيكفر كما طُبِعَ كتابه يوم طُبِعَ^(١).

ملة إبراهيم: الملة هي السنة والطريقة^(٢). والمقصود بملة إبراهيم أي طريقته ودينه وهي التوحيد.

ولأهميتها الكبرى أوصى نبينا محمد ﷺ أمته كلهم أن يرددوها بألسنتهم في الصباح والمساء فرحًا وتذكيرًا للنفس بها فقال: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين»^(٣).

فتأمل هذه الألفاظ كيف جعل الفطرة للإسلام فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها وكلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلا الله، والملة لإبراهيم فإنه صاحب الملة وهي التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة، والدين للنبي ﷺ وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله^(٤).

ونسبة الحنيفية إلى إبراهيم عليه السلام أمرٌ مشتهر عند الناس حتى قبل الإسلام ونزول الوحي على نبينا محمد ﷺ، قال موسى حدثني سالم بن عبدالله -ولا أعلمه إلا تحدث به عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم فقال إني لعلّي أن أدِين دينكم فأخبرني فقال: لا تكون على ديننا

(١) «درء التعارض» (٨/٣٦٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٥/٣٥١).

(٣) أحمد (٣/٤٠٧)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (٧٧/٩) رقم (٦٥٩١)، و«سنن الدارمي» (٢/١٧١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩/٥) رقم (٩٧٤٣)، وصحح إسناده النووي في «الأذكار» (٦٨)، والعراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/٤٣٢)، وقال ابن باز: «خرجه الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد صحيح». «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٢٦/٣٢).

(٤) «جلاء الأفهام» (١٥٤).

حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله قال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال ما أفر إلا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنى أستطيع. فهل تدلني على غيره؟ قال ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال: «اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم»^(١).

ونسبت الحنيفية إليه: لأن له من مقام تحقيق العبودية لله ما ليس لأحد قبله (فهو خليل الرحمن) قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] والخلة هي أعلى درجات المحبة، وقد جعله الله قدوة يقتدى به في الخير فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وأمة: أي إماماً يقتدى به في الخير.

وصار عليه السلام قدوة لأنه اجتمع فيه عدة أمور:

١ - أنه أعطي الرشد (فجمع بين العلم والعمل) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ

مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١] والرشد هو الاستقامة على الحق، ولا تحصل الاستقامة إلا بالعلم، ولهذا قال لأبيه عندما دعاه إلى التوحيد: ﴿يَتَابَتِ إِيَّايَ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

٢- الدعوة إلى التوحيد بجميع الطرق:

دعا قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك بل أضعف وخلخل ثقتهم بالأصنام ومحبتهم لها بالطرق التالية:

أ- المناظرة:

أبطل عبادة الكواكب بحجة أنها تغيب فمن ينفعهم ويدفع عنهم الضر إذا غابت، قال تعالى ذاكراً تلك المناظرة: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٨]. فأقام البرهان على بطلان الشرك بأفولها جميعاً، ثم تبرأ منه.

ب- تحطيم الآلهة:

من أعظم الجهل أن يصنع الإنسان شيئاً ما يتخذه إلهاً، أين العقل، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ اتَّعَبُودُونَ مَا نَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]، فالعقل السليم هو من يتجه إلى خالقه، هو: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وليس لما صنعه هو، فما كان منهم إلا أن احتجوا بالآباء والأجداد، ولم يقبلوا نصيحته، فلما لم تجد النصيحة انتقل إلى كسر الأصنام ولم يبق إلا أكبرها، لعله أن يخرج عبادة الأصنام من قلوبهم، ولما سألوه عمّن كسرها وجعلها جذاذاً: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]؛ أي: أن أكبرها أصابته الغيرة كيف تعبد معه هذه الآلهة الصغيرة، فكسرها لينفرد بالعبادة وحده، ومقصود إبراهيم هو إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه. ولهذا ثابت عقولهم إليهم وعلموا أنهم مخطئون في عبادتهم لها فأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك فلزمتهم الحجة بإقرارهم بأن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، قال تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤].

ج - طريقة الموعدة واللفظ في التعليم:

تلطف خليل الرحمن ﷺ مع أبيه أثناء دعوته إلى التوحيد موضحاً له أن هذه الأصنام ليس لديها القدرة على جلب نفع أو دفع ضرر إذ هي لا تسمع داعيها ولا تبصر خضوعه وذله لها مؤكداً أنه قال له ذلك عن علم ويقين وهدى من الله لم يدركه أبوه ولم يعلم به لأنه وحي من الله. محذراً إياه من عبادة أشد أعدائه وأخسهم وذلك أن من أطاع الشيطان فقد عبده فهل يرضى بعبادة أخس خلق الله ثم ختم تلك الدعوة المباركة بأنه ما دعاه وكرر عليه وأبدأ وأعاد إلا شفقةً وخوفاً عليه من عذاب الله.

وفي هذا كفاية لمن أراد الله هدايته قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

٣- الصبر على مشاق الدعوة:

لا يمكن للداعية أن يستمر في دعوته إلا إذا صبر وصابر.

ولقد سطر نبي الله إبراهيم ﷺ أروع الأمثلة ومن ذلك:

أ- ألقى في النار لأجل دعوته إلى التوحيد فماذا فعل؟ إنه صبر وقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ب- هجران أبيه له بدون سبب إلا أنه أمره بالتوحيد، ونهاه عن الشرك قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهِتِ يَابْرَاهِيمُ لِمَ تَتَّبِعُهُمْ لَآرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي ۖ مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] وهذا موقف ما أصعبه. أقرب الناس إليه يهجره ولا يكلمه مع أنه لم يخطئ في حقه. بل هو محسن إليه يريد نجاته من نار تلظى لا يصلها إلا الأشقى.

ج - موقف البراءة والمفاصلة:

ومن لوازم دعوة التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: الولاء والبراء. موالاتة المؤمنين والبراءة من الكافرين. وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام لما رأى أن جميع وسائل الدعوة لم تجد مع قومه قرر الاعتزال عنهم والبراءة منهم وهذا من أشق وأصعب الأمور على النفوس قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

٤ - الاستسلام التام لأمر الله:

ويظهر ذلك جلياً عندما ذهب بابنه إسماعيل إلى مكة هو وأمه ووضعهما في مكان قفر ليس به أنيس، ولما رجع عليه الصلاة والسلام لحقته هاجر وهي تقول له إلى من تركنا وهو لا يجيبها ثم قالت له الله أمرك بهذا، قال: نعم، قالت: إذا لا يضيعنا ثم رجعت. وضعهما في هذا المكان ولم يمتنع من وضعهما فيه، ويتعلل بخوف الموت والوحشة مع شدة حبه لهما، ألا ترى أنه يدعو لهما: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وعندما رأى في المنام أنه يذبح ابنه خرج به ليذبحه استسلاماً لأمر الله قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ١٠٣ ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّيِبْهُمَا﴾ ١٠٤ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٠٥ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ أَلْبَتَأُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٦].

الله أكبر ما أعظم هذا الاستسلام لله [ابن رزق إياه عند الكبر ومع ذلك استرخصه لأجل الله].

٥ - أنه أب للمدعوين:

عندما دعا الرسول ﷺ قريشاً إلى الإسلام اعتذروا بأنهم على دين الآباء وأن ترك دينهم تسفيه لهم. فقال لهم: إن إبراهيم عليه السلام هو أبوكم الأول، فإذا لم تعبدوا الله وحده

وتتبعوا ملة أبيكم إبراهيم فقد سفهتهم أباكم الأول، وهذا من قلب الحجة على المبطل: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٦- أن الناس تفخر بالانتساب إلى دين إبراهيم عليه السلام وتحبه:

فاليهود قالوا نحن على دين إبراهيم والنصارى قالوا: نحن على دين إبراهيم والمشركون قالوا نحن على دين إبراهيم والمسلمون قالوا: نحن على دين إبراهيم فيا ترى من هو الصادق من هؤلاء؟

إن الصادق من هؤلاء هم المسلمون وحدهم فقط، قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧) إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

فبين الله أن أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين على دين إبراهيم عليه السلام فقط دون غيرهم فعليكم أيها المشركون أن تتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم حتى يكون انتسابكم إلى إبراهيم عليه السلام انتساباً صحيحاً.

٧- أنه أول خليل لله حيث إنه وصل درجة لم يصلها أحد قبله. تفضل الله عليه بها لشدة في معاداة أعدائه ومصارمتهم لأجله.

ولذلك نوع الله الأساليب الداعية للاقتداء به عليه الصلاة والسلام فجاءت بصيغ متعددة منها:

(أ) الأمر المباشر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[النحل: ١٢٣].

(ب) أمر الرسول ﷺ بالفرح والاعتباط والافتخار بأنه على دين إبراهيم عليه السلام: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

(ج) الأمر العام لجميع الأمة باتباع ملة إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨].

و﴿مِلَّةً﴾ منصوب على إضمار فعل أي اتبعوا والزموا ملة إبراهيم ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وهذا هو الذي يقال له الإغراء^(١).
(د) - أن تارك ملة إبراهيم جاهل رضي لنفسه بالدون:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي جهلها وامتنعها ورضي لها بالدون وباعها بصفقة المغبون^(٢) وذلك أن الله قسم الخلائق قسمين:

(أ) سفيها لا أسفه منه وهو من رغب عن ملة إبراهيم إلى الشرك.

(ب) رشيدا لا أرشد منه: وهو من لزم التوحيد وتبرأ من الشرك قولاً وعملاً وحالاً. فكان قوله توحيداً وعمله توحيداً وحاله توحيداً ودعوته إلى التوحيد وبهذا أمر الله جميع المرسلين من أولهم إلى آخرهم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]^(٣).

(١) «جلاء الأفهام» (١٥٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٨).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨٢).

أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين.

أن: وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر (أن) والتقدير: اعلم أن الحنيفية ملة إبراهيم عبادة الله تعالى وحده بإخلاص^(١).

قال تعالى أمراً نبيه بالعبادة وإخلاصها لله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]. وأمره أن يخبر الناس بإخلاصه لله ليقصدوا به فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. وقال: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]. وأمر الرسول ﷺ بالإخلاص أمر لأمته، ومع ذلك ورد أمر لعموم الأمة بإخلاص العبادة لله، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

تعبد الله: أتى بصيغة الفعل المضارع لبيان استمرار العبادة في المستقبل فليس لها نهاية إلا بالموت، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هنا هو الموت ويدل له حديث أم العلاء قالت: سكن عندنا عثمان بن مظعون فاشتكى فمريضناه حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله ﷺ فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال لي النبي: «وما يدريك أن الله أكرمك»، فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فقال رسول الله: «أما عثمان فقد جاءه والله اليقين، وإني لأرجو له الخير»^(٢).

(١) «حصول المأمول» (٤٢).

(٢) البخاري مع الفتح (٥ / ٢٩٣) كتاب «الشهادات»/ باب القرعة في المشكلات. رقم (٢٦٨٧).

وبوب البخاري باباً سماه: «باب: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾» [الحجر: ٩٩]، ثم ذكر تحته قول سالم، فقال: «قال سالم: اليقين الموت»^(١).

والعبادة: أصل معناها الذل، يقال: طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن غاية الذل لله^(٢) بغاية المحبة له^(٣).

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان^(٤)

فقد يخضع الإنسان لأحد مع بغضه له فلا يكون عابداً له وقد يجب أحداً ولا يخضع له فلا يكون عابداً له كمن أحب ولده وصديقه.

وعلى هذا فتكون العبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح.

وفي الاصطلاح: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة^(٥).

وعبادة الله شرف للإنسان بل هي أعظم ما يشرف به بنو آدم، ولذلك أثنى الله على النبي ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته وأكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] وقال في التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ

(١) البخاري مع الفتح (٨/ ٣٨٣).

(٢) فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد لأنه مرغ جبهته بالتراب وخضع للملك الوهاب وأظهر غاية الذل والخضوع والانكسار بين يديه بأعلى شيء فيه وهو الجبهة.

(٣) انظر: «الرد على المنطقيين» (١٤٥).

(٤) «الكافية الشافية» (١/ ١٧٩-١٨٠) رقم (٥١٤، ٥١٥).

(٥) «العبودية» (٣٨).

مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۖ ﴿البقرة: ٢٣﴾.

وقد جمعت في هذا البيت:

إسراء عبد ثم دعوة ربه وكذلك وحي في التحدي أربع

أنواع العبودية:

العبودية نوعان:

١ - عبودية عامة: وهي عبودية الخضوع لأمر الله الكوني وهذه يشترك فيها كل المخلوقات: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وتسمى العبودية الكونية.

٢ - عبودية خاصة: وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم وهي محبة الله وطاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿[الزمر: ١٧، ١٨] وتسمى العبودية الشرعية، ولذا كان الناس من حيث العبودية الخاصة ثلاثة أقسام:

(١) من لم يعبد الله فهو كافر مستكبر، قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

(٢) من عبد الله وعبد معه غيره فهو كافر مشرك: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٩٧) إِذْ تُسَوِّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الشعراء: ٩٧-٩٨].

(٣) من عبد الله وحده فهو المسلم المخلص: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠].
فالإخلاص هو حقيقة الإسلام، والإسلام: الاستسلام لله لا لغيره قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

شرطا صحة العبادة:

لا تصح العبادة ولا تكون مقبولة عند الله إلا إذا توفر فيها شرطان:

١ - الإخلاص: قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]

٢ - المتابعة: قال ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

ويجمع هذين الدليلين قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المالك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه^(٢).

وشيخ الإسلام يذكرهما بطريقة أخرى فيقول: إن الدين يقوم على أصليين هما:

١ - أن لا نعبد إلا الله.

٢ - أن لا يعبد إلا بما شرع^(٣).

أقسام الناس بحسب هذين الأصلين:

وينقسم الناس بحسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام.

١ - أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ:

وهم أهل (إياك نعبد) حقيقة، فأعمالهم وأقوالهم وحبهم وبغضهم كلها لله، لا يريدون جاهاً ولا محمداً - قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور - فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وجعلها موافقة لأمره ولما شرعه رسوله ﷺ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٣).

٢- من لا إخلاص له ولا متابعة:

فليس عمله موافقاً للشرع وليس خالصاً للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرأين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله فلهم أوفر نصيب من قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]. يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمداً باتباع السنة والإخلاص وهم ليسوا من أهله.

٣- من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة:

كجهال العباد الذين يظنون أن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة وأن مواصلة صيام الليل والنهار قربة، وأن سماع المكاء والتصدية قربة.

٤- من وجدت عنده المتابعة ولكنه فقد الإخلاص:

كالرجل يتعلم العلم ليقل عالم، ويقاقل شجاعة وليرى مكانه في الصف، ويقرأ القرآن ليقل قارئ، ويتصدق ليقل جواد، قال ﷺ قال الله عز وجل: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتَهُ وَشَرَكَهُ»^(١) (٢).

فالقسم الأول عملهم مقبول وما عداه فمردود لا قيمة له، بل هو وبال على صاحبه. مخلصاً له الدين: فسر المؤلف الحنيفية «بالإخلاص» وهو أحد تفاسير السلف^(٣).

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ الَّذِي يُقِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر كتاب «التوحيد» لشيخ الإسلام (٨٩-٩٠)، و«حقيقة العبودية» لابن القيم (٢٥-٣٠).

(٣) انظر: (ص ٢٤٧) من هذا الكتاب.

«فحنيفاً حال مفردة لمضمون قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ ولهذا فسرت «مخلصاً» فتكون الآية قد تضمنت الصدق والإخلاص. فإن إقامة الوجه للدين هو أفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف: المفرد لمعبوده لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك فالأول توحيد الطلب والثاني توحيد المطلوب»^(١).

الإخلاص: لغة: الخاء واللام والصاد أصل واحد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، وأخلص الشيء؛ أي: أصفاه ونقاه من شوبه، ومنه: ﴿لَبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل: ٦٦]. قال الليث: الإخلاص: التوحيد لله خالصاً، ولذلك قيل لسورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص^(٢).

واصطلاحاً: هو أفراد الله بالقصد في الطاعة فعلاً أو تركاً.

قال سهل بن عبدالله: «الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خالصة».

وقال ابن القيم: «الإخلاص: قصد المعبود وحده بالتعبد»^(٣).

وقال ابن مفلح: «الإخلاص عمل القلب وهو أن يقصد بعمله الله وحده»^(٤).

فيجب على المسلم أن يكون همه وقصده في عمله هو وجه الله تعالى فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي

(١) «جلاء الأفهام» (١٥٥).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٠٨)، و«تهذيب اللغة» (٧/ ١٣٩).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٨١).

(٤) «المبدع» (١/ ٤١٤).

العليا فهو في سبيل الله»^(١).

فلم يعتبر النبي ﷺ للقتال مع مشقته أية قيمة في ميزان الله إلا إذا صلح القصد وأريد به وجه الله.

فإذا لم يصلح القصد صار العمل وبالا على صاحبه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يَقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

ورجلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتَهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ. وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ وَقَرَأْتَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

ورجلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يَنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(٢).

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٧)، كتاب «الجهاد»/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا. رقم (٢٨١٠)، ومسلم (٣/ ١٥١٢) كتاب «الإمارة»/ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. رقم (١٩٠٤).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٣-١٥١٤)، كتاب «الإمارة»/ باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. رقم (١٩٠٥).

فهذه أعمال جليلة عظيمة. قتال في سبيل الله ضد الكفار، وتعلم القرآن وتعليمه، وصدقة وإنفاق. كلها تضيع سدى. لا. بل يعذب أهلها بها لأنها فقدت شرطاً عزيزاً هو الإخلاص. وذلك أنه: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضرب والحوت. فإذا حدثت نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح.

قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله خزائنه لا يملكها غيره.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال رجل للنبي ﷺ: إن مدحي زين وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: «ذلك الله»^(١)، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه وارغب في مدح مَنْ كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين»^(٢).

أما إذا وجد الإخلاص في العمل الصالح عظمه وجُزِيَ صاحبه عليه الجزاء الأوفى.

(١) الترمذي (٣٨٧-٣٨٨)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة الحجرات. رقم (٣٢٦٧)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والطبري في «جامع البيان» (١٢١/٢٦)، وقال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد متصل»، «البداية والنهاية» (٢٤٤/٧)، واسم الرجل هو الأقرع بن حابس، كما بيّنته رواية أحمد (٤٨٨/٣).

(٢) «الفوائد» (٢٦٠-٢٦١).

وذلك أن «النوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر كما في حديث البطاقة»^(١). فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم يقولون: (لا إله إلا الله) ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة... وكذلك المرأة البغي التي سقت الكلب بإيمان وإخلاص غفر الله لها^(٢) والذي وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له^(٣)، فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها وإلا فليس كل بغي سقت كلبًا يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص»^(٤) وبهذا المعنى يقول عبدالله بن المبارك: «رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تُصغره النية»^(٥).

ولعظم قيمة الإخلاص في الطاعة والعبادة كان السلف يدعون الله أن يرزقهم ذلك كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا واجعله

(١) أحمد (٢/ ٢١٣)، الترمذي (٥/ ٢٤-٢٥)، كتاب «الإيمان»/ باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله. رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧)، كتاب «الزهد»/ باب ما يرجي من رحمة الله يوم القيامة. رقم (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرک» (١/ ٤٦)، وقال: «هذا حديث صحيح لم يخرج في «الصحيحين»، وهو صحيح على شرط مسلم». قال الذهبي: «إسناد جيد». «معجم الشيوخ» (١/ ١١٤).

(٢) مسلم (٤/ ١٧٦١)، كتاب «السلام»/ باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها. رقم (٢٢٤٥).
(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ١٣٩)، كتاب «الأذان»/ باب فضل التهجير إلى الظهر. رقم (٦٥٢)، ومسلم (٣/ ١٥٢١)، كتاب «الإمارة»/ باب بيان الشهداء. رقم (١٩١٤).
(٤) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢١٨-٢٢٦) باختصار، وإن شئت فانظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٢).
(٥) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٦٩)، «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٠).

لوجهك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»^(١).

بل يربون غيرهم على الإخلاص ويحذرونهم من حظوظ النفس التي تفسد العمل فهذا شداد ابن أوس بن ثابت الأنصاري يقول: «يا بقايا العرب يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية»^(٢).

وما أحوج المسلمين جميعًا إلى الإخلاص وأهل العلم والدعوة على وجه الخصوص، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب على هذه الآية: «التنبيه على الإخلاص، لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه»^(٣).

ولقد كان السلف يهتمون لسلامة العمل وخلوصه من الشوائب المحبطة للعمل، المفسدة للنية أكثر من اهتمامهم للعمل.

ومن أقوالهم في ذلك:

قال الإمام أحمد: «شرط النية شديد»، لما قال له أبو داود: «كتبت الحديث بنية»^(٤).

وقال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي إنها تتقلب عليّ»^(٥).

(١) «الزهد» للإمام أحمد (١٤٧).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٣).

(٣) كتاب «التوحيد مع القول السديد» (٢٨).

(٤) «الآداب الشرعية» (٢ / ٤٠).

(٥) «الجامع» للخطيب (١ / ٣١٧).

وقال يوسف بن أسباط: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد»^(١).

وقال عبدالله بن مطرف «تخليص العمل حتى يخلص أشد من العمل»^(٢).

وقال أويس القرني: «إذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك فلن تعالج شيئاً أشد عليك منهما»^(٣).

وأما يوسف بن الحسين فيشير إلى صعوبة الإخلاص، قائلاً: «أعز شيء في الدنيا الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه ينبت فيه على لون آخر»^(٤).

وسر مشقة الإخلاص بينه سهل بن عبدالله فقال: «ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب»^(٥).

ومما يعين على الإخلاص إخفاء العمل الصالح عن الناس، قال الزبير بن العوام رحمته الله: «أيكم استطاع أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»^(٦).

وقال الخريبي: «كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها»^(٧).

والأمثلة من حال السلف في إخفاء الطاعات كثيرة لكن أكتفي بذكر مثالين منها:

١ - صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله وكان خرازاً يحمل غداءه من

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٦٩).

(٢) «حلية الأولياء» (١٠/ ١٢١).

(٣) «صفة الصفوة» (٣/ ٥٥).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٥).

(٥) «صفة الصفوة» (٤/ ٦٥)، و«جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٥).

(٦) «الزهد» لابن المبارك (٣٩٢)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٣٢٣).

(٧) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤٩).

عندهم فيتصدق به في الطريق ويرجع عشيًا فيفطر معهم^(١).

٢- قال عبدالله بن سنان كنت مع ابن المبارك ومعتمر بن سليمان بطرسوس فصاح الناس النفير فخرج ابن المبارك والناس فلما اصطف الجمعان خرج رومي فطلب البراز فخرج إليه رجل فشدّ العليج عليه فقتله حتى قتل ستة من المسلمين. وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إلي ابن المبارك فقال: يا فلان إن قتلت فافعل كذا وكذا ثم كتم وجهه بكمه ثم حرّك دابته وبرز للعلج فعالج معه ساعة فقتل العلج وطلب المبارزة فبرز له علج آخر فقتله حتى قتل ستة علوج وطلب البراز فكأنهم كاعوا عنه^(٢) فضرب دابته وطرده بين الصفين فأخذ عبدة بن سليمان المروزي بطرف كمه فمده فإذا هو عبدالله بن المبارك فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنع علينا^(٣).

له الدين: اللام: للاستحقاق. والضمير في له يعود إلى الله تعالى.

الدين: لغة: الطاعة والعبادة والخضوع والخلق، ومنه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] قال ابن عباس: «دين عظيم»^(٤)، واصطلاحًا: طاعة الله الدائمة اللازمة التي صارت عادة وخلقًا.

والدين مصدر والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول. فإذا أضيف الدين إلى العبد فلائنه العابد المطيع وإذا أضيف إلى الله فلائنه المعبود المطاع^(٥).

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٩٤) وقوله أربعين سنة لا يلزم منه أن يصوم كل يوم فتنبه.

(٢) كاعوا عنه: أي جبنوا عنه.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٨ و ٣٩٤).

(٤) «جامع البيان» (٢٩/ ١٨).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥٨/ ١٥) باختصار.

وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومعنى يعبدون: يوحدون.

وبذلك: إشارة إلى ملة إبراهيم (الإخلاص).
 أمر الله: الأمر هنا هو واحد الأوامر وهو الطلب على سبيل الإلزام.
 والأدلة على أن الله أمر الخلق بعبادته كثيرة، منها:
 أن الله أمر نبيه أن يخبر الناس أن الله أمره بإخلاص العباداة حتى يقتدوا بنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].
 بل جاء الأمر عامًا لكل الناس في أي كثيرة من القرآن منها:
 ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]. وقوله تعالى ذاكراً جواب عيسى عليه السلام، عندما سأله أهو قال للناس اتخذوني وأمي إلهين: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. وقوله تعالى: مبيناً أنهم أمروا به في سائر الشرائع: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].
 وأنه عاقب من عصى أوامره، فقال: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤].

وإذا أمر الله العبد بأمر وجب عليه فيه سبع مراتب:

- ١ - العلم به: مثال: إذا عرف الإنسان أن الله أمر بالتوحيد ونهى عن الشرك وجب عليه أن يعلم المأمور به ويسأل عنه إلى أن يعرفه ويعلم المنهي عنه ويسأل عنه إلى أن يعرفه.
- ٢ - محبته ما أنزل الله وما أمر به وهو التوحيد.
- ٣ - العزم على الفعل: وقد يوجد من الناس من علم وأحب ولكنه لم يعزم على الفعل.

٤- العمل: وكثير من الناس يعزم أو يعمل، ثم إذا نهاه من يعظمه من الشيوخ ترك العمل.

٥- أن يقع خالصاً صواباً: فإن كثيراً ممن عمل لا يقع خالصاً فإن وقع خالصاً لم يقع صواباً.

٦- الحذر من فعل ما يحبطه: فإن الصالحين يخافون من حبوط العمل لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] وهذا من أقل الأشياء في زماننا.

٧- الثبات على الحق والتوحيد والخوف من سوء الخاتمة^(١).

جميع الناس: أي كل الناس.

الناس: كلمة يعني بها الجن والإنس، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَهُمُ النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولا خلاف أنه ﷺ مرسل إلى الجن كما أنه مرسل إلى الإنس.

وخلقهم: الخلق هو الإيجاد من العدم على غير مثال سابق.

لها: الضمير في لها يعود إلى ملة إبراهيم وهي عبادة الله وحده مخلصاً له الدين.

وقدم الأمر على الخلق لأن الخلق لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فمن لم يعمل بالأوامر صارت حياته وبالاً عليه.

وما: الواو للاستئناف و(ما) نافية فتنفي العبث من خلق الإنس والجن، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

خلقت: فيه أعظم دليل على أنه المنفرد بالخلق لأنه تعالى ذكر الخلق بصيغة الإفراد وأضافه إلى نفسه، فهو خالق كل شيء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وحصر

(١) «الدرر السنية» (٢/ ٣٨-٣٩) بشيء من التصرف.

الخلق على ذاته المقدسة، فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فقدم ما حقه التأخير ليفيد حصر الخلق له سبحانه وحده، وذلك لأن الخلق هو أخص خصائص الإله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

الجن والإنس: الألف واللام في الجن والإنس للاستغراق، فيكون الأمر بالعبادة عامًا لجميع الإنس والجن، وليس خاصًا بالمؤمنين، ويدل له ما يلي:

١- لو كان المراد المؤمنين فقط لم يكن فرق بينهم وبين الملائكة فإن الجميع قد فعلوا ما خلقوا له فلماذا لم تذكر الملائكة فيقال وما خلقت الجن والإنس والملائكة مع أن الطاعة والعبادة وقعت من الملائكة دون كثير من الإنس والجن.

٢- لو كان المقصود المؤمنين فقط لم يذكر الإنس والجن عمومًا ولخصهم بالذكر.

٣- سياق الآية يقتضي أن هذا ذم وتوبيخ لمن لم يعبد الله منهم. لأن الله خلقه لشيء فلم يفعل ما خلق له ولهذا عقبها بقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ [الذاريات: ٥٧] فإثبات العبادة ونفي طلب الرزق منهم يبين أنه خلقهم للعبادة ولم يرد منهم ما يريده السادة من عبيدهم من الإعانة لهم بالرزق والإطعام ولهذا قال بعد ذلك: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي نصيبًا ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩] أي المتقدمين من الكفار... فذكر هذا الوعيد عقيب هذه الآيات من أولها إلى آخرها يتضمن وعيد من لم يعبد من الإنس والجن.

٤- ذكره عقابه لهم في الدنيا والآخرة ثم ذكره وعده للمؤمنين ثم ذكره قصص من آمن فنفعه إيمانه ومن كفر فعذبه بكفره كقصة إبراهيم ولوط وقومه وعذابهم، ثم قال: ﴿وَتَرْكَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧] ثم ذكره قصة موسى وعاد وثمرود وآياته في بناء السماء وفرش الأرض وخلق كل شيء من زوجين، ثم لما بين الآيات الدالة

على وجوب الإيمان به وعبادته أمر بذلك، فقال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الذاريات: ٥٠، ٥١] ثم بين أن هؤلاء المكذبين من جنس من قبلهم ليتأسى الرسول والمؤمنون بمن سبقهم من الرسل فيصبروا على ما ينالهم من أذى الكفار. فهذا كله يتضمن أمر الإنس والجن بعبادته وطاعته وطاعة رسله واستحقاق من يفعل العقوبة في الدنيا والآخرة فإذا قال بعد ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧] كان هذا مناسباً لما تقدم مؤتلفاً معه: أي هؤلاء الذين أمرتهم إنما خلقتهم لعبادتي لا أريد منهم غيرها.

٥- أنه لو قيل لم يرد بذلك إلا المؤمنين كان هذا عذراً لمن عصى الله ولم يطع أمره. كأن يقول يا رب أنت خلقتني لأكفر ولم تخلقني لأكون مؤمناً فليس علي ذنب ولا أستحق العقوبة. وكلام الله منزّه عن هذا القول. فوجب المصير إلى القول بالعموم^(١).

والواو في قوله والإنس عاطفة فجمعت المعطوف والمعطوف عليه في حكمين هما:

١- في كونها جميعاً خلق الله.

٢- في علة الخلق.

إلا: استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي وما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة^(٢). وفائدة حذف المستثنى منه ليكون أبلغ في النفي.

ليعبدون: اللام تنقسم إلى قسمين:

١- لام العلة الباعثة للفعل، وهي لبيان الجملة الشرعية المتعلقة بالإرادة الشرعية

الدينية وهي مستلزمة لمحبة المراد. ولكن قد تقع وقد لا تقع كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٤٠-٥٦).

(٢) «القول المفيد» (١/ ١٩).

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦]. فالله خلقهم لعبادته وقد يعبدونه وحده وقد لا يعبدونه وحده.

٢- لام الصيرورة والعاقبة: وتكون لبيان العاقبة الكونية [الإرادة الكونية القدرية] فهذه مستلزمة لوقوع المراد فلا بد من وقوعها كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ» [هود: ١١٨، ١١٩] أي خلق قومًا للاختلاف وقومًا للرحمة^(١).

فاللام في ليعبدون هي لام العلة الباعثة المتعلقة بالإرادة الشرعية فقد تقع وقد لا تقع، فالله أراد منهم شرعًا أن يعبدوه فمنهم من عبده ومنهم من عصاه^(٢).

يعبدون: قال علي بن أبي طالب: إلا لأمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي^(٣). واختاره الزجاج ومجاهد، وشيخ الإسلام، واستدل له بأحد عشر دليلًا من القرآن ودليلين من السنة، وقال: فهذا هو المعنى الذي قصد بالآية قطعًا^(٤)، وابن كثير^(٥) والشنقيطي^(٦) وغيرهم.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣٦/٤)، و(٨/٥٥-٥٦ و٨٦-١٨٩). و«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٢٠١/٣).

(٢) ولا يمكن أن يكون المقصود بهذه اللام في ليعبدون لام العاقبة لأن لام العاقبة التي لم يقصد فيها الفعل لأجل العاقبة إنما تكون من جاهل أو عاجز فالجاهل كقوله: ﴿فَالْفَقْطَةُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فلم يعلم فرعون بهذه العاقبة، والعاجز كقولهم: «لدوا للموت وابنوا للخراب» فإنهم يعلمون هذه العاقبة لكنهم عاجزون عن دفعها والله تعالى عليم قدير، فلا يقال: إن فعله كفعل الجاهل أو العاجز. «مجموع الفتاوى» (٨/٤٤).

(٣) «معالم التنزيل» (٢٣٥/٤).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٨/٥٢-٥٣).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٢٥).

(٦) «أضواء البيان» (٧/٦٧٣-٦٧٤) وقال هذا هو التحقيق واستطرد بذكر الأدلة على ذلك.

وقيل: يوحدون^(١)، قال ابن قتيبة عند قوله تعالى: ﴿فَأَنَّا أَوَّلَ الْعَبِيدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، أي: «أول الموحدين، ومن وحد الله فقد عبده، ومن جعل له ولداً أو نداً، فليس من العابدين، وإن اجتهد»^(٢)، واختاره المؤلف.

قال ابن الجوزي: وذكر أهل التفسير أن العبادة في القرآن على وجهين:

١ - التوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] أي وحدوه.

٢ - الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾^(٣) [القصص: ٦٣].

ولا منافاة بين هذين القولين، فإن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد بل لا تسمى عبادة إلا بالتوحيد، قال ابن قاسم: «كلما وردت العبادة في القرآن فمعناها توحيد الله بجميع أنواع العبادة وسميت وظائف الشرع عبادات لأنهم يفعلونها خاضعين لله فيكونون من أهل رضاه»^(٤).

(١) «تفسير غريب القرآن» (٤٢٢)، و«مشكل القرآن» (٣٧٣)، و«معالم التنزيل» (٤ / ٢٣٥).

(٢) «تأويل مشكل القرآن» (٣٧٣).

(٣) «نزهة الأعين النواظر» (٤٣١ - ٤٣٢).

(٤) «حاشية على كتاب التوحيد» (١٣).

وأعظم ما أمر الله به: التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة.

أعظم: أفعل تفضيل وأفعل التفضيل يكون بين شيئين أو أشياء اتفقت في صفه فيكون أعظم: هنا بمعنى: أكبر^(١). فلما كان الإيمان شعباً متفاضلة فيه أعلى وفيه أدنى صار أعلاها وأعظمها التوحيد لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ أو بضعٌ وستونَ شُعبةً فأفضلُها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ والحَيَاءُ شُعبةٌ من الإيمان»^(٢).

ما أمر الله به: يفيد قوله ما أمر الله به أن الدين ينقسم إلى قسمين: أوامر ونواهي.

التوحيد لغة: مصدر وحد يوحد توحيداً.

والأحد في صفة الله أي واحد لا ثاني له، فلا يجوز أن يوصف به غير الله^(٣)، ومنه قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

اصطلاحاً: هو إفراد الله^(٤) بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

أو: إفراد الله بما يختص به.

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

(٢) مسلم (١/ ٦٣) كتاب «الإيمان»/ باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها. رقم (٥٨).

(٣) «تهذيب اللغة» (٥/ ١٩٢).

(٤) إفراد الله: أي جعله فرداً أي واحداً لا ثاني له، فلا يخلق ولا يرزق، ولا يدبر، ولا يملك الملك التام إلا هو سبحانه، ولا سمي له، ولا يعبد إلا هو.

وأقسامه ثلاثة:

١ - توحيد الربوبية:

وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير: «إفراد الله بأفعاله» قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فهذه الآية تفيد حصر الخلق والتدبير له سبحانه لأنه قدم ما حقه التأخير.

وأما دليل الملك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٢٧] أيضًا قدم ما حقه التأخير ليفيد الحصر.

٢ - توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإيمان بما ورد في كتاب الله وصح في سنة رسوله ﷺ من أسماء الله وصفاته على ما يليق بجلاله من غير تكيف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٣ - توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله بالعبادة (إفراد الله بأفعال العباد)، والإفراد: هو صَرْفُ العبادة له وحده لا شريك له.

الله: مأخوذ من الإله بمعنى مألوه، قال ابن عباس «ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»^(١)، ولا يتحقق جعله فردًا إلا بالنفي والإثبات. «لأن النفي المحض عدم محض والإثبات المجرد لا يمنع المشاركة» ولأجل ذلك جمعت لا إله إلا الله بين النفي والإثبات. والمقصود بالعبادة هنا العبادة الشرعية التي أمر الله بها عباده على ألسنة رسله كالصلاة والصوم والخوف والتوكل وغيرها من أنواع العبادة فيجب أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له.

(١) «جامع البيان» (١/ ٥٤).

وعرف الشيخ التوحيد هنا بأنه أفراد الله بالعبادة لأمر:

١ - أنه التوحيد التي بعثت الرسل لتحقيقه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. قال شيخ الإسلام: «إن التوحيد الذي بعثت به الرسل أن يعبد الله وحده لا شريك له فيعبد الله دون ما سواه وعبادته تجمع كمال محبته وكمال الذل له»^(١).

ولذا ركز القرآن تركيزاً شديداً على توحيد الألوهية وإخلاص العبادة لله بجميع أنواعها وذلك من خلال محورين:

أ) الدعوة لعبادة الله وحده.

ب) نفي استحقاق غير الله للعبادة.

لأنه لا يتم توحيد الألوهية إلا بهذين الجانبين المتلازمين^(٢).

٢ - أن توحيد الألوهية إذا أطلق شمل التوحيد كله وذلك أن توحيد الألوهية تقرره شهادة أن لا إله إلا الله وهي أفراد الله بالتأله والتعظيم، وذلك لا يكون إلا لمن آمن به رباً مدبراً كامل الصفات. قال شيخ الإسلام: «فدين الإسلام مبني على أصلين من خرج عن واحدٍ منهما فلا عمل له ولا دين: أن نعبد الله وحده لا نشرك به. وعلى أن نعبد بهما شرع لا بالحوادث والبدع وهو حقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن الإله هو الذي تأله القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيماً وخوفاً ورجاءً وإجلالاً وإكراماً وهو سبحانه له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف إلا الله...»^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٣٥٢).

(٢) «عقيدة التوحيد في القرآن الكريم» (١١٩).

(٣) «تلخيص الاستغاثة» (٥٢).

وقال ابن القيم في وصفه لتوحيد الألوهية: «هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وذروة سنامه وقطب رحاه، وأمرنا تعالى أن نتأسى بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْ كِفَافٍ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٢] وإذا تدبرت القرآن من أوله إلى آخره رأيته يدور على هذا التوحيد وتقريره وحقوقه»^(١).

٣- أن كلا نوعي التوحيد مستلزم توحيد الألوهية:

ذكر الله توحيد الربوبية مبيناً استلزامه لتوحيد العبادة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، [٢٢].

فمن خلق الناس أولهم وآخرهم. وجعل لهم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل المطر وأخرج الثمرات فهو المستحق للعبادة^(٢).

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٤٨٤-٤٨٥).

(٢) راجع إن شئت: «مدارج السالكين» (١/ ٤١١)، فقد بين رحمه الله أن قَدَمَ العبد ينبت في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الألوهية.

أما توحيد الأسماء والصفات فهو كذلك، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مَائَةً إِلَّا وَاحِدًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

وإحصاؤها معرفتها وحفظها والعمل بمعانيها فإذا استشعر أن الله يراه لم يرتكب معصية، بل سيقدم على طاعة الله وإفراده بالعبادة، لعله أن يرضى عنه.

٤- أن توحيد الألوهية هو الفارق بين الموحدين والمشركين:

قال شيخ الإسلام: «وهذا التوحيد - أي توحيد الألوهية - هو الفارق بين الموحدين والمشركين وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة فمن لم يأت به كان من المشركين الخالدين، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»^(٢).

وصار التوحيد أعظم ما أمر الله به لأمر:

١- لأنه خالص حق الله تعالى، قال ﷺ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد...»^(٣).

٢- لأنه لأجله خلقت الخليقة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٣- به تصح العبادات وبدونه تفسد: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٤).

٤- لأجله أرسلت الرسل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٥- لأجله أنزلت الكتب.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤ / ٣٨٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

- ٦- به قامت السموات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.
- ٧- لأجله خلقت الجنة والنار: فمن وحد فله الجنة ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
- ومن أشرك وترك التوحيد فله النار ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].
- ٨- لأجله جرت سيوف الجهاد: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] ^(١).
- ٩- عنه يسأل الناس يوم القيامة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، قال البخاري: «قال عدة من أهل العلم عن قول لا إله إلا الله» ^(٢).
- قال السعدي: «أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق وأكملها وأفضلها وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح، وبفقدته يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه أو نهى عن ضده أو إقامة حجة عليه أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين» ^(٣).

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٤).

(٢) البخاري مع الفتح (١/ ٧٧)، كتاب «الإيمان» / باب من قال: إن الإيمان هو العمل.

(٣) «القواعد الحسان» (١٩٢).

وأعظم ما نهى عنه الشرك وهو دعوة غيره معه.

وأعظم ما نهى عنه الشرك.

نهي: النهي في اللغة: الزجر عن الشيء، وهو ضد الأمر^(١).

اصطلاحًا: طلب الكف على وجه الإلزام.

والضمير المستتر في نهى يعود إلى الله تعالى، وأما الضمير في عنه فيعود على أعظم المنهي عنه وهو الشرك.

الشرك في اللغة: مخالطة الشريكين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكُوا فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣٢]^(٢).

اصطلاحًا: صرف شيء مما يختص به الله لغيره أو: تسوية غير الله بالله فيما يختص به الله.

والدليل من الكتاب على أن الشرك أعظم ما نهى عنه من الذنوب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

والاستدلال بهذه الآية من وجهين:

(١) أن الله جعل الشرك هو الذنب الذي لا يغفر فقط فدل على أنه أعظم الذنوب والمنهيات.

(٢) أن جميع الذنوب أهون منه، قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ما هو دون الشرك وأخف منه.

ومن السنة: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند

(١) «تهذيب اللغة» (٦/٤٣٩)، و«العين» (٤/٩٣)، و«المفردات» (٥٠٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠/١٦-١٧).

الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: إن ذلك لعظيم. قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(١).

ورواه البخاري في التوحيد وزاد: فأنزل الله تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ الآية^(٢) [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

قال شيخ الإسلام: «والله أمر بالتوحيد والإخلاص ونهى عن الإشراك به فأعظم الحسنات التوحيد، وأعظم السيئات الشرك»^(٣)، وقال: «الشرك أعظم من التكذيب بالرسالة، ولهذا كان المشركون أكفر من اليهود والنصارى»^(٤).

وقال: «وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل، وضده وهو الشرك أعظم الظلم، كما أخرجنا في «الصحيحين» عن عبدالله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ إنه ليس بذاك «ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: إِنَّ الشَّرَّكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»^(٥)، ومعنى: يلبس: أي

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٥٠٣) كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]. رقم (٧٥٣٢).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٥١-٢٥٢)، وانظر: «جامع الرسائل»، المجموعة الثانية/ تحقيق رشاد سالم (٢٥٤).

(٤) «الرد على البكري» (١٤٧).

(٥) البخاري مع الفتح (٨/ ٥١٣) كتاب «التفسير»/ باب لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم. رقم (٤٧٧٦)، ومسلم (١/ ١١٤) كتاب «الإيمان»/ باب صدق الإيمان وإخلاصه. رقم (١٢٤).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٦١) وانظر: (١٦١-١٦٦).

يخلط إيمانه بشرك.

وصار الشرك أعظم الذنوب لما يلي:

(١) أنه أشد أنواع الاعتداء: فهو اعتداء على الله بصرف خالص حقه لغيره. قال شيخ الإسلام: «ومن أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان أن يدعى غير الله فإن ذلك من الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإن الشرك لظلم عظيم»^(١).

(٢) أنه قدح في الله وتقص له وعدل غيره به:

مقارنة الأعلى بالأدنى تنقص للأعلى كما قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فكيف إذا سوي به؟ لا شك أنه يكون أشد تنقصاً.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وقال تعالى ذاكراً ندم المشركين وحسرتهم حين يقولون: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

فانظر كيف قدح المشركون في ربهم فسووا مالك الرقاب بمن خلق من تراب، وسووا مالك الأمر كله بمن لا يملك من الأمر شيئاً ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣] وسووا المنعم بالنعم التي لا تحصى بالفقير المحتاج الذي لا يستطيع أن ينعم بمثقال ذرة، وسووا الكامل في كل شيء بالناقص من جميع الوجوه. فما أعظم ظلمهم وأقبح صنيعهم! أفلا يعقلون.

(١) «الرد على البكري» (٩٥).

(٣) لأنه مناقض للمقصود بالخلق:

الخلق خلقوا لأجل عبادة الله وحده لا شريك له. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والمشرِك مناقض لهذا كله ولهذا كان الشرك غاية المعاندة والمشاقة لله عز وجل ولذلك إذا عم الشرك الأرض في آخر الدنيا وفقد الموحدون لم يستحق الموجدون البقاء ومن ثم خرب العالم وقامت القيامة، قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتَّى لا يقال في الأرض: الله الله»^(١).

(٤) لأنه ليس للنفس فيه نصيب بخلاف المعاصي والمحرمات فإن دواعي الشهوة تدعو إليها بخلاف عبادة غير الله.

(٥) لأن الشرك إذا وجد محى أعظم حقوق الله وهو التوحيد، فالشرك الأكبر لا تبقى معه حسنة ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

ولعظم ذنب الشرك فإنه لا يغفر. كله كبيره وصغيره. بل لا بد من عقاب فاعله، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا عام في الشرك الأكبر والأصغر، قال شيخ الإسلام: «وأعظم الذنوب عند الله الشرك به وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والشرك منه جليل ودقيق وخفي وجلي»^(٢). وقال أيضًا: «وقد يقال الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر على مقتضى عموم القرآن وإن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلمًا، لكن شركه لا يغفر له. بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة»^(٣).

(١) مسلم (١/ ١٣١) كتاب «الإيمان»/ باب ذهاب الإيمان آخر الزمان. رقم (١٤٨).

(٢) «جامع الرسائل»، المجموعة الثانية تحقيق رشاد سالم (٢٥٤).

(٣) «الرد على البكري» (١٤٧).

وقال ابن القيم:

والشرك فاحذره فشرک ظاهر
وهو اتخاذ الند للرحمن أي
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه
ذا القسم ليس بقابل الغفران
أكان من حجر ومن إنسان
ويجبه كمحبة الرحمن^(١)

أنواع الشرك:

الشرك نوعان:

(١) شرك أكبر: وهذا النوع مخرج من الملة ومحبط للعمل وضابطه: «أن يصرف العبد نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله».

(٢) شرك أصغر: وهذا النوع لا يخرج من الملة، ولكنه أكبر من الكبائر والقاعدة تقول: «كل معصية سماها الله شركاً فهي أعظم مما لم تسم شركاً».

وضابطه: «كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة»^(٢) كالحلف بغير الله، ويسير الرياء، والغلو في المخلوق الذي لا يصل إلى رتبة العبادة، وقيل: «كل ما نهى عنه الشرع مما هو ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه» وقيل: «كل معصية ورد في النصوص تسميتها شركاً ولم تبلغ رتبة العبادة».

هل للشرك مبرر؟

الجواب: لا، لعدة أمور:

١ - أن الله اختص بالملك، فلا ملك لأحد دونه، ولا مثقال ذرة.

(١) «الكافية الشافية» مع شرح ابن عيسى (٢/٢٦٣).

(٢) «القول السديد» (٤٤-٤٥).

٢- أنه ليس لأحد مع الله شراكة.

٣- أنه لا يوجد معين لله تعالى.

٤- أن الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذنه.

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (سبأ: ٢٢، ٢٣).^(١)

قال شيخ الإسلام: «هدد سبحانه من دعا شيئاً من دون الله وبيّن أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركاً في ملكه وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين، فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق، لكن قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]»^(١)، فبين: «أن الشفعاء عنده لا يشفعون إلا لمن ارتضى فنفى بذلك وجوه الشرك»^(٢).

أقسام الشرك من حيث الربوبية والألوهية:

١- شرك في الربوبية: وهو اعتقاد تصرف بعض المخلوقات بشيء من الأمور^(٣)، كما يقول بعض القادرية:

عبد القادر يا جيلاني يا متصرف في الأكوان

٢- شرك في الألوهية: وهو الذي عرفه المؤلف بقوله: «وهو دعوة غيره معه»^(٤).

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٩٤).

(٢) المرجع السابق (٢٧/ ٦٦).

(٣) وعرفه شيخ الإسلام فقال: «أن يجعل معه تدبيراً ما». «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٢٦).

(٤) ويمكن أن يقال: «أن يجعل لغيره معه في العبادة شيئاً ما».

وينقسم الشرك الأكبر إلى أقسام، هي:

١ - شرك الدعوة: قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فالمشركون الأولون يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، أما مشركو زماننا فيشركون في الرخاء والشدة، فيكونون أغلظ شركاً من الأولين^(١).

٢ - شرك النية والإرادة والقصد:

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قال ابن القيم: «وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته وهذه هي الحنفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها»^(٢).

٣ - شرك الطاعة:

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وتفسيرها الذي يوضحها حديث عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن»، وسمعتة يقرأ في سورة براءة:

(١) القاعدة تقول: «الشرك يزداد غلظاً وقبحاً في الكمية والكيفية».

(٢) «الجواب الكافي» (١٥٩).

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه»^(١).

قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية:
«إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا»^(٢).

٤ - شرك المحبة:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فشرّكوا بين الله وأندادهم في المحبة فأحبوهم كما يحبون الله، والذين آمنوا أشد حُباً لله منهم، والفرق بينهما: أن حب المشركين فيه شرك أما حب المؤمنين فهو مجرد لله مخلص^(٣).
وقول المؤلف: دعوة غيره معه:

دعوة غيره: أي: دعاء غير الله مع الله سبحانه.

ولفظه: غير: شاملة لكل شيء سوى الله تعالى.

ولفظه مع: تفيد عموم المشاركة، فكل من دعا غير الله مع الله فهو مشرك سواء قلّ أو كثر، ومعنى قوله دعوة غيره معه أي الطلب من غيره سبحانه معه من إنس أو جان أو ملائكة أو غيرهم سواء كان طلب عبادة أو طلب مسألة كمن صلى للميت أو دعاه ليقضي له حاجة.

وعرف الشرك بقوله دعوة غيره معه ليشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

(١) الترمذي (٢٧٨/٥)، كتاب «تفسير القرآن»/ باب ومن سورة التوبة. رقم (٣٠٩٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩٢/١٧) رقم (٢١٨)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٩٨/١٠) رقم (٢٠٣٥٠)، وحسنه شيخ الإسلام في كتاب «الإيمان» (٦٤).

(٢) «مجموعة التوحيد»، الرسالة الأولى (٦-٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/٣٥٨ و٧/١٨٨).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

و: الواو استئنافية.

اعبدوا الله: أمر بعبادة الله والأمر يقتضي الوجوب، وهو أمر شرعي، أمرٌ بالتوحيد والإخلاص. قال ابن عباس: اعبدوا الله أي وحدوا الله^(١). وتوحيد الله هو أعظم الحقوق؛ لأنه خالص حقه سبحانه، فلا يجوز أن يشركه غيره، ولهذا أكد به بقوله: «ولا تشركوا به شيئاً».

ولا تشركوا: الواو عاطفة.

لا: ناهية، والنهي يقتضي المنع والتحريم مع الزجر.

لا تشركوا به: أي لا تجعلوا له شريكاً تعظمونه كتعظيمكم إياه. وفيها تأكيد لإخلاص العبادة لله وحده، فإن النهي عن الشرك بعد الأمر بالتوحيد تأكيد له. قال القرطبي: «فالأية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره»^(٢).

شيئاً: نكرة في سياق النهي فتفيد العموم، أي: عموم النهي عن الشرك صغيره وكبيره في أي عبادة كانت، وبأي أحد مهما عظمت منزلته، قال ابن قاسم: «قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرّمه فدلّت على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة»^(٣).

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩٤٧/٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨٠/٥).

(٣) «حاشية كتاب التوحيد» (١٥).

ومع أهمية التوحيد وخطورة الشرك أهملت الأمة العناية به حتى جهل حقيقته أبناء المسلمين، قال مبارك الملي^(١) متعجباً من هذا الفعل ومبيناً نتيجته وخطورته: «وإن لم يكن بعقلك بأس فستسلم معي شدة عناية من بعثه الله خاتم النبيين ببيان الشرك وعدم الاكتفاء بشرح التوحيد وستعجب معي من قلة اهتمام علمائنا بذلك، كأن لا حاجة بالمسلمين إليه تجد في كلامهم على الفروع عناية بتفصيل أحكام مسائل نادرة أو لا توجد عادة ولا تجدهم يعنون تلك العناية بالأصول فيحددون الشرك ويفصلون أنواعه ويعددون مظاهره حتى يرسخ في نفوس العامة الحذر منه والابتعاد عن وسائله، ولا يفقد المتأخر نص من قبله في جزئية من ذلك.

نتيجة إهمال الكلام في الشرك:

نتج عن قلة الخوض في هذا الموضوع أن صار الشرك أخفى المعاصي معنى، وإن كان أجلاها حكماً، فلظهور حكمه وكونه من الضروريات ترى المسلمين عامتهم يتبرؤون منه ويغضبون كل الغضب إن نسبوا إليه ولخفاء معناه وقع من وقع منهم فيه وهم لا يشعرون ثم وجدوا من أدعياء العلم من يسمي لهم عقائد الشرك وأعماله بأساء تدخل في عقائد الإسلام وأعماله ثم يدافع عنهم ويحشرهم في زمرة أهل السنة ويشنع على العلماء الناصحين حتى إنه ليخيل إليك أن العامي الواقع في حماة الشرك جهلاً واغتراراً أقرب إلى السنة والاستقامة من أولئك العلماء النصحاء المؤتسقين برسول الله ﷺ عن خبرة وصدق»^(٢).

والأدهى من ذلك والأمر أن كثيراً من أهل العقيدة الصافية أهل السنة والجماعة في هذه الأيام ضعفوا عن تدريسها في دروسهم العلمية وأكبوا على تدريس الفقه أما الخطب

(١) مبارك بن محمد الملي، أمين مال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

(٢) «رسالة الشرك ومظاهره» (٢١-٢٢).

والمحاضرات فلا تكاد تسمع فيها بياناً للتوحيد وحثاً عليه وترغيباً فيه ونهيًا عن الشرك وتحذيرًا منه إلا من رحم ربك وقليل ما هم، حتى بلغ بالناس أنه إذا حذرهم محذر من الشرك تغيرت وجوههم، وقالوا: نحن على التوحيد، كيف تتهمنا في عقائدنا.

فالله الله يا شباب الإسلام، خذوا على أنفسكم العهد أن تقتفوا سنة نبيكم ﷺ في كثرة تكرار بيانه للتوحيد، حتى وهو في مرضه الأخير يحذر صحابته من الوقوع في حماة الشرك مع ما هم فيه من قوة الاستمساك بالتوحيد، فيقول: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^{(١)(٢)}، وما ذلك إلا ليزيد تمسكهم بالتوحيد قوة وشدة وصلابة.

(١) سبق تخريجه.

(٢) يحذر أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة، وطلحة، والزبير، وعبد الله بن عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم، من جلة الصحابة رضوان الله عليهم وأرضاهم.

فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها.

ثم بعد أن بينَ ﷺ كيف يتربى المسلم. وذلك بطلب العلم والعمل به ونشره بين الناس، حتى لو أصابه ما أصابه من الأذى. وأن أعظم ما يشرف به العبد هو التوحيد ومن فقد التوحيد صار مشرّكاً في أسفل سافلين، وأن من أعظم ما يعينه على الثبات على التوحيد والإسلام التميز. فيوالي المؤمنين ويعادي الكافرين مقتدياً بخليل الله إبراهيم عليه السلام، أوضح أنه لا بد من معرفة الأسس والركائز التي يبنى عليها دين المسلم وعقيدته. ولذا أتى المؤلف بالفاء الرابطة ليبين أن الكلام المتأخر مرتبط بالمتقدم ومبني عليه. وتكون الفاء رابطة: إذا جاءت في جواب الشرط؛ فكأن المؤلف يقول: من أراد الاستقامة فليبن عبادته على هذه الأصول الثلاثة. أو كان المبتدأ يفيد العموم فكأنه قال: كل من أراد الاستقامة فليبن عبادته على هذه الأصول. إذا: تأتي لليقين.

قيل لك: لم يحدد القائل لأنه ليس المقصود تعيين السائل ولكن المقصود هو الجواب. وأوردها المؤلف بصيغة السؤال اقتداءً بالنبي ﷺ عندما سأل معاذاً: «يا معاذ أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقُّ الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً...»^(١).

ولأنها مسألة عظيمة لا بد فيها من انتباه السامع ليعي ما يقال له.

ما الأصول: الأصل: هو ما يبنى عليه غيره.

(١) البخاري مع الفتح (٥٨/٦) كتاب «الجهاد»/ باب اسم الفرس والحمار. رقم (٢٨٥٦)، ومسلم

(٥٨/١) كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة. رقم (٣٠).

يقال: استأصلت الشجرة إذا ثبت أصلها^(١).

فالأصل: هو الشيء الثابت الراسخ الذي يمكن البناء عليه حسيًّا كان أو معنويًّا.

أدلة الأصول الثلاثة:

وهذه الأصول يستدل لها بالأثر والنظر:

أما الأثر فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، فقوله ربنا: دليل على من ربك، وقوله: (آمنّا بما أنزلت) دليل على ما دينك، وقوله: (اتبعنا الرسول) دليل على من نبيك، فتوسلوا إلى الله بأفضل ما يؤمنون به، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣]، ومن السنة: حديث البراء بن عازب الطويل وفيه: «وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حين يقال له: يا هذا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟...»^(٢).

وقوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولاً»^(٣). وأما النظر: فإنه لا بد للعبد من رب يعبده ويطيعه ويأتمر بأمره ويتتبعي عما نهاه عنه وهو الله عز وجل، ولا بد من طريق يوصل إلى مرضاة الرب، وهو الدين دين الإسلام، ولا يستطيع الإنسان أن يعرف الطريق الموصل إلى رضا الله وجناته إلا بدليل يدل عليه وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو الذي يبلغ دين الله تعالى للناس.

يجب على الإنسان: الواجب هو ما أمر العبد بفعله على سبيل الإلزام.

معرفتها: المعرفة هنا المقصود بها العلم اليقيني الموجب للعمل.

(١) «تهذيب اللغة» (١٢ / ٢٤٠)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مسلم (١ / ٦٢)، كتاب «الإيمان» / باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً، فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي الكبائر. رقم (٣٤).

ويدل لذلك حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن، قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ ﷻ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تَأْخُذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فتردُّ إلى فقرائهم، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كِرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»^(١) فدل هذا الحديث على أن المعرفة علمية موجبة لعمل القلب والجوارح.

فمعرفة الأصول الثلاثة والعمل بمقتضاها أيما سعادة، قال عبدالله بن المبارك: «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها، قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله ﷻ»^(٢).

وبنحوه قال مالك بن دينار: «خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطعم شيء فيها، قالوا: وما هي يا أبا يحيى؟ قال: «معرفة الله تعالى»^(٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «حلية الأولياء» (٨ / ١٦٧).

(٣) المرجع السابق (٢ / ٣٥٧).

فقل : معرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ .

فإذا قيل لك : مَنْ ربك؟ فقل : ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه .

ذكر المؤلف هذه الأصول إجمالاً، وهي معرفة الرب الذي يجب أن نعبد والدين الذي يجب أن نسير عليه إلى الله تعالى وإلى مرضاته، والرسول الذي يجب أن نتلقى منه الدين فيكون هو المصدر الوحيد لمعرفة دين الله ﷻ، وذلك بما أوحاه الله إليه سواء من القرآن أو السنة، قال تعالى مبيناً وحدة المصدر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا أَنْبَأْنَاهُ بِمَنْعِهِمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِهِمْ﴾ [الحشر: ٧].

فمعرفة العبد ربه ودينه ونبيه محمداً ﷺ أصل كل علم، وليس للناس صلاح إلا بها قال شيخ الإسلام بعد كلام سبق: «وإنما الغرض هنا أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات والآخر الذي تصير إليه الحادثات، فهو الأصل الجامع، فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته وإذا حصل لهم ذلك: فما سواه إما فضل نافع وإما فضول غير نافع وإما مضرة»^(١).

ثم شرع في التفصيل فقال: فإذا قيل لك من ربك فقل ربي الله.

والرب: مصدر مستعار للفاعل^(٢) فيكون بمعنى رابٍ، قال ابن الأنباري «الرب ينقسم إلى ثلاثة أقسام يكون الرب: المالك، ويكون الرب: السيد المطاع... ويكون الرب: المصلح»^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٢).

(٢) «المفردات» (١٩٠).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٧٦/١٥).

وأصله: من التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام^(١).

«فهو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها»^(٢).

أنواع التربية:

التربية نوعان:

تربية عامة: لكل المخلوقين وهي رزقهم وهدايتهم لما فيه صلاح معاشهم في دنياهم

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

تربية خاصة: خاصة بالمؤمنين من عباده، وهي التربية الإيمانية، فيربيهم ﷺ بوحيه

ويوفقهم للعمل الصالح الموصل إلى رضاه تعالى وإلى جنته.

ومنه قوله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

فتكون حقيقة التربية الخاصة: تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر.

فقول المؤلف: «رباني وربى جميع العالمين بنعمه» يقصد بها التربية العامة، بدليل قوله:

وربى جميع العالمين.

جميع العالمين: أي: كل خلق الله.

بنعمه: نعمة الله منه وعطاؤه، قال الله عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠].

ولا شك أن النعم كثيرة جداً لا نستطيع إحصاءها، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا

تُحْصَوْنَ﴾ [النحل: ١٨]، بل قد لا يخطر بعضها منّا على بال.

(١) «المفردات» (١٩٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٢٢).

كنعمة المكروهات التي تصيب العبد، قال ابن القيم: «فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يجب»^(١).

وفي قوله: «ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه» لفتة تربوية هي: أنه يجب علينا الاعتراف بأن المنعم علينا بهذه النعم صغيرها وكبيرها هو الله تكرمًا منه وجودًا وإحسانًا، كما في دعاء النبي ﷺ: «اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أبوء لك بنعمتك، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت»^(٢).

قال ابن القيم: «فجمع في قوله ﷺ: «أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي» بين مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل»^(٣).

وهذا هو دأب الصالحين وعباد الله المتقين من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، فعن زيد بن عاصم، قال: لما أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم في الناس. في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي»، كلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمّن، قال: «ما يمنعكم أن تُجيبوا رسول الله؟»

(١) «الفوائد» (١٥٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١١ / ١٣٠)، كتاب «الدعوات» / باب ما يقول إذا أصبح. رقم (٦٣٢٣)، ومسلم

(٢ / ٧٣٨-٧٣٩)، كتاب «الزكاة» / باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، وتصبر من قوي إيمانه.

رقم (١٠٦١).

(٣) «الوابل الصيب» (١١).

قال: كُلُّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمِنْ...»^(١).

وهو قول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] فالفضل لله أولاً وآخرًا.

فمن اعترف بنعم الله عليه أوجب له ذلك شدة الافتقار إليه، قال أبو سليمان الداراني «كيف يعجب عاقل بعمله؟ وإنما يعد العمل نعمة من الله. إنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع»^(٢).

ومعرفة الله والافتقار إليه تقود إلى عبادته وحده لا شريك له ولهذا قال المؤلف «وهو معبودي ليس لي معبود سواه».

قال بعض العلماء «أول فرض فرضه الله على خلقه معرفته، فإذا عرفه الناس عبدوه قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها فيعظموا الله حق عظمته»^(٣).

وقال السعدي: «إن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له وهذا عين سعادة العبد... فالله تعالى خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه فهذا هو الغاية المطلوبة منهم فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة وفضله عليه عظيمًا من كل وجه أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته»^(٤).

(١) البخاري مع الفتح (٨ / ٤٧) كتاب «المغازي» / باب غزوة الطائف. رقم (٤٣٣٠).

(٢) «حلية الأولياء» (٩ / ٢٦٣).

(٣) «الحجة في بيان المحجة» (١ / ١٢٢).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٥).

وهو معبودي ليس لي معبود سواه، والدليل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. وكل ما سوى الله عالم وأنا واحد من ذلك العالم.

.....

وهو معبودي: هذه نتيجة الاعتراف بنعم الله وهي عبادته وحده لا شريك له،
والعبادة: هي ما جمع غاية المحبة مع غاية الذل. وأتى بـ (هو) ضمير الفصل ليفيد
اختصاص الرب سبحانه بالعبودية.

ليس لي معبود: ليس نافية جميع ما يعبد من دون الله فهي بمعنى: «لا إله».
لي: اللام هنا للتمليك، أي: أني لا أملك أن أعبد غيره، فيجب عليّ أن أخضع وأذلّ
له وحده لا شريك له، وفي نفس الوقت لا يستحق أن يعبد إلا الله فهو المربي والمنعم
والقادر على كل شيء والخالق لكل شيء ولهذا أبطل الله استحقاق غيره للعبادة بأي كثيرة
من القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١١١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا
أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [لقمان: ٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ
أُذِنَ لَهُ... [الآية [سبأ: ٢٢، ٢٣].

وفي إبطال إبراهيم لآلهة قومه ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. وغير ذلك من الآيات.
فإذا كان لا يستحق العبادة إلا الله وجب عليّ إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، فلا
أعبد ملكًا ولا وليًا ولا شيخًا، ولا كوكبًا، ولا شجرًا ولا غير ذلك، قال هود لقومه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] «أي ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره لأنه الخالق الرازق المدبر فهو وحده المعبود»^(١) بل وجب الاستسلام له في جميع ما قضى وشرع. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فإذا لم تكن للناس الخيرة في فعل الطاعات أو تركها فكيف تكون لهم الخيرة في عبادة غير الله.

سواه: أي غيره وهي بمعنى «إلا الله».

فحصر العبودية لله وحده لا شريك له سبحانه.

الحمد لله:

ال: تفيد الاستغراق أي: استغراق جميع المحامد لله ﷻ على الدوام وفي جميع الأحوال لأن الآية هنا مبتدأة باسم والجملة الاسمية تفيد الدوام والاستمرار ولذلك قال في الآية الأخرى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، والله سبحانه يستحق الحمد لأمرين:

(١) لكمال صفاته (اتصافه بصفات الكمال) ولهذا قال بعدها ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ

الدِّينِ ﴿[الفاتحة: ٣-٤]﴾.

(٢) لكمال إنعامه وإحسانه إلى عباده، ولهذا قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿[الفاتحة: ٥-٧]﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

«والحمد: هو خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته وتعظيمه، والذم خبر بمساوئ المذموم مقرون ببغضه، فلا يكون حمد لمحمود إلا مع محبته، ولا يكون ذم لمذموم إلا مع

(١) «معارج الصعود» (١٣٧).

بغضه وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة»^(١).

وإذا كرر الحمد مرة ثانية سمي ثناءً وإذا كرر ثلاثة سمي تمجيداً بدليل قول النبي ﷺ قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: ﴿مَحَدَنِي عَبْدِي﴾، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. قال: ﴿مَجَدَنِي عَبْدِي...﴾»^(٢).

والحمد اسم جنس والجنس له كمية وكيفية. فالثناء كمية الحمد وتكثيره والتمجيد كفيته وتعظيمه^(٣).

لله: تفيد: اختصاص جميع المحامد لله جل وعلا استحقاقاً^(٤) وإله بمعنى مألوه، فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً^(٥)، قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] أي المعبود في السموات والمعبود في الأرض.

فيجب «إثبات الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم وهو المحمود على عدله

(١) «منهاج السنة النبوية» (٥/ ٤٠٤)، وانظر «مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٣) ففيه مقارنة بين الحمد والشكر.

(٢) مسلم (١/ ٢٩٦)، كتاب الصلاة/ باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة. رقم (٣٩٥).

(٣) انظر: «اللباب» د. اللاحم (٢١٤)، و«مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٦٦)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٨-٥٩).

(٤) وذلك أن اللام تأتي للملك إذا كان ما قبلها من الأعيان كقولنا الكتاب لصالح أي ملك له، وتأتي للاستحقاق إذا كان ما قبلها من المعاني كقولنا العز لمحمد أي العز مستحق لمحمد.

فالحمد معنى فصارت اللام بعده للاستحقاق فكل حمد مستحق لله ﷻ بعمومه وكماله.

(٥) انظر: «التوحيد» لابن تيمية (٧٣).

في أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ مَلَأَ السَّمَاءَ وَمَلَأَ الْأَرْضَ، وَمَلَأَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمَلَأَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ»، فله سبحانه الحمد حمداً يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السموات والأرض ويملاً ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده... أما قول الحمد كله لله فهذا له معنيان:

(١) أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام... وفي الدعاء المأثور: «اللهم لك الحمد كله...»^(١).

(٢) أن يقال: «لك الحمد كله» أي الحمد التام الكامل فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة. والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعاً فله عموم الحمد وكماله^(٢).

ولعلو شأن الحمد فإن أحق ما قاله العبد هو حمده تعالى: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مَلَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَلَأَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ أَهْلِ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ...»^(٣).

ولهذا أوجب الله قوله في كل صلاة وأن تفتتح به الفاتحة وأوجب قوله في كل خطبة وفي كل أمر ذي بال^(٤).

رب العالمين: أحد أوصاف الإله الذي يجب أن يعبد.

العالم: مشتق من العلامة لأنهم علم على وجود الخالق ووحدانيته.

(١) أحمد (٣٩٦/٥).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (١١٢-١٤٠).

(٣) مسلم (٣٤٧/١) كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. رقم (٤٧٧).

(٤) «دقائق التفسير» (٢/٢١١).

والعالمين: قال ابن عباس: العالمين الخلق كله، السموات والأرض ومن فيهن وما بينهن مما يعلم ولا يعلم^(١).

«وإيثار صيغة الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس. والتعريف لاستغراق أفراد كل منها بأسرها»^(٢).

وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: فائدتان:

(١) انفراده بالخلق والتدبير.

(٢) تمام فقر العالمين إليه بكل الوجوه.

قال شيخ الإسلام: «قال الله عز وجل في أول السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فبدأ بهذين الاسمين: الله، الرب، والله هو الإله المعبود، فهذا الاسم أحق بالعبادة، ولهذا يقال: الله أكبر، الحمد لله، سبحانه الله، لا إله إلا الله، والرب: هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة.

ولهذا يقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]، ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ

لِي﴾ [القصص: ١٦]، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧] فعمامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب.

فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله وهو عبادة الله، والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتداه، وهو أنه يَرْبُّهُ ويتولاه مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية والربوبية تستلزم الألوهية أيضاً»^(٣).

(١) «جامع البيان» (١/٦٣).

(٢) «محاسن التأويل» (٢/٨).

(٣) «التفسير الكبير» (٢/٣٠٧-٣٠٨).

وكل ما سوى الله عالم: سوى بمعنى غير: أي كل غير الله فهو عالم، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿[الشعراء: ٢٣، ٢٤]، فإذا كان الله رب جميع المخلوقات، فهي عالم لأنه لا ثم إلا خالق أو مخلوق.

وأنا واحد من ذلك العالم: أي أنني واحد من خلقه، فأنا عبد مريبوب لله تعالى وأَعُدُّ عبوديتي لله كرامة لي وفخرًا وشرفًا فإن الله شَرَّفَ بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، فأثنى على نوح بها، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، بل أثنى بها على سادات الأولياء، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل بآياته ومخلوقاته، ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر.

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك:

أي: فإذا طرح عليك سؤال بأي شيء استدلت على ربك؟ فالجواب أني عرفته بالآيات الدالة عليه، والآية: مشتقة من التأي الذي هو التثبت والإقامة على الشيء^(١)، فتكون الآية هي العلامة الظاهرة التي تدل على الشيء وتبينه وتثبته.

والمخلوقات: هي ما أوجدها الله ﷻ على مثال لم يسبق إليه ﴿خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٥] أي أبدعها^(٢) فإذا رآها الإنسان فإنَّ أوَّل ما يتبادر إلى ذهنه من هو الذي أوجدها وخلقها؟ فيكون الجواب: الله جل جلاله.

وطرق معرفة الله تعالى كثيرة متنوعة وذلك لشدة الحاجة إلى معرفته، قال شيخ الإسلام: «وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيء وذكره أشد وأكثر، كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر وكانت طرق معرفته أكثر وأظهر وكانت الأسماء المعرفة له أكثر وكانت على معانيه أدل... ولما كانت حاجة النفوس إلى معرفة ربها أعظم الحاجات كانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه»^(٣) فلذا جاد الله بطرق معرفته على عباده جوداً عاماً ميسراً، ففي كل شيء له آية ودليل.

(١) «المفردات» (٤١).

(٢) المرجع السابق (١٦٣).

(٣) «درء التعارض» (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

ودلائل الربوبية من حيث الظهور وعدمه قسمان:

(١) قسم ظاهر بين لكل أحد مثل السموات والأرض والسحاب ونزول المطر ونحوها.

(٢) قسم يختص به المختصون: مثل دقائق التشريح، ومقادير الكواكب وحركاتها^(١).

والآيات الدالة على ربوبية الله كثيرة جداً لكن يجمعها ما يلي:

الأول: الأدلة الشرعية: وهي ثلاثة أقسام:

(أ) سمعي: وهو ما دل على ربوبية الله بمجرد الإخبار عن الله تعالى وأسمائه وصفاته

كما في كثير من آيات القرآن الكريم قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٢).

(ب) عقلي:

وهو ما دل على ربوبية الله من المعقولات كقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ

الْخَلْفُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، أي: هل وُجدوا من غير موجد، أم هم الذين أوجدوا أنفسهم، فإذا تبين أنه لا هذا ولا ذاك، وجب أن يكون الخالق هو الله عز وجل^(٣).

(ج) حسي: وذلك بإجابة الداعين وغوث المكروبين، ويدل له حديث عبد الله بن

أبي نمر: أنه سمع أنس بن مالك يذكر أن رجلاً دخل يوم الجمعة من باب كان وجاه المنبر

(١) انظر: «الجواب الصحيح» (٤/ ٧٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٣/ ٩) كتاب «فضائل القرآن»/ باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل. رقم (٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤)، كتاب «الإيمان»/ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس. رقم (١٥٢).

(٣) انظر: «درء التعارض» (٨/ ٣٧)، و«بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٤٥٠)، وإن شئت زيادة بيان وتفصيل فانظر «مدارج السالكين» (١/ ٥٩-٦١).

ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله قائماً، فقال: يا رسول الله: هلكت المواشي وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: «اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قرعة، ولا شيئاً، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، قال: فوالله ما رأينا الشمس سبتاً، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر»، قال: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس»^(١).

فشاهدوا إجابة الداعي وإغاثة المكروب.

وكذلك معجزات الأنبياء تدل على مرسلهم وربوبيته لعباده لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر كفلق البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى وانشقاق القمر لمحمد عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(الثاني) الأدلة الكونية:

أي النظر في الآيات الكونية والاستدلال بما خلقه الله وأوجده من المخلوقات العظيمة الدالة على عظمة الخالق ومنها ما ذكره المؤلف كالسموات والأرض وغيرها.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، بل في الأنفس أيضاً قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وجمعها الله بقوله: ﴿سَرِيرِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠١) كتاب «الاستسقاء»/ باب الاستسقاء في المسجد الجامع (١٠١٣).

قوله: (بآياته ومخلوقاته)، ففرق بين الآيات والمخلوقات لأمرين:

١ - أنه اتبع لفظ القرآن.

٢ - أن الآيات المتغيرة أبلغ في التأثير في القلوب من الآيات الثابتة، لأن الناس تتأثر بالآيات المتغيرة أكثر من المستقرة التي لا تتغير؛ لأن الإلف على شيء معين ينسي أهل الغفلة عن أثره ولهذا استدل إمام الحنفاء بالمتغير على ربوبية الله وألوهيته في موقفين مختلفين.

أ) مع النمرود حين قال له: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ب) مع قومه حينما أراد إظهار بطلان آلهتهم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ﴾ (٧٦) ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُكُونُكَ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (٧٧) ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بِرِئِّهِ مُّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٨].

فاستدل بتغيرها وأفولها على أنها آية وعلامة على موجدها لا أنها إله يعبد.

قال ابن كثير: «فبين بطريق البرهان القطعي أن هذه الأجرام المشاهدات من الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للإلهية؛ لأنها كلها مخلوقة مربوبة مدبرة مسخرة في سيرها لا تحيد عما خلقت له ولا تزيع عنه إلا بتقدير متقن محرر لا تضطرب ولا تختلف وذلك دليل على كونها مربوبة مصنوعة مسخرة مقهورة.

ولهذا قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١) [فصلت: ٣٧].

وأكد هذه الحقيقة نبينا محمد ﷺ حين قال في خطبته: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يخوف بهما عباده»^(١).
واستدل ﷺ بالليل والنهار والشمس والقمر والسموات والأرضين لثلاثة أمور هي:

١ - لظهورها ووضوحها لجميع الناس.

٢ - لعظيم خلقها وبديع صنعها.

٣ - إكثار الله من ذكرها في كتابه والدعاء إلى التفكير في خلقها.

ويقصد بقوله: بآياته: هنا الآيات الكونية، لأنه قال: «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر»، فبآيتي الليل والنهار المرتبطتين بطلوع الشمس والقمر وغروبهما تتم مصالح العباد ديناً وأخرى قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾^(٣٧) وَالشَّمْسُ بَجَرَى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ^(٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠]، وقال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَاسَمْعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

ويتم تذكر نعم الله وشكره، قال تعالى: ﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾^(٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢].

فكون الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر ولا يجتمعان دليل على عظمة مدبرهما وموجدتهما وهو الله تعالى، فيستحق أن يعبد ويشكر.

(١) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٣٦)، كتاب «الكسوف» / باب قول النبي ﷺ: «يخوف الله عباده بالكسوف». رقم (١٠٤٨).

قال ابن القيم: ومن آياته ﷻ الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبيده كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]. وهذا كثير في القرآن^(١).

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٠٣) وانظر إن شئت كتاب «العظمة» لأبي الشيخ الأصبهاني فإنه خصص المجلد الأول تقريباً عن التفكير في مخلوقات الله وآلائه.

ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن وما بينهما.

إذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيته من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً وذلها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعاشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها لقضاء حوائجهم وأرساها بالجلال فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكفاتاً للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا... وقد أكثر الله من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكير في خلقها، فقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [١٧] ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [١٨] ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [١٩] ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠] ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحاثية: ٣]. وهذا كثير في القرآن... ومن المعلوم أنه لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، قال تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [٢٧] رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله ﴿لَا يَتَذَكَّرُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. فبدأ بذكر خلق السموات.. وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخباراً عن عظمتها وسعتها وإما إقساماً بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو... وقد أثنى سبحانه على المتفكرين في خلق السموات والأرض ودم

المعرضين عن ذلك، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء، قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢]، وقال: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا [النازعات: ٢٧-٢٨]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتداء خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان.

فسبحان مَنْ لَا يَقْدُرُ الْخَلْقُ قَدْرَهُ وَمَنْ هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ فَرْدٌ مُوَحَّدٌ

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعريفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم^(١).

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٩٦-٢٠٠) مع شيء من الاختصار والتقديم والتأخير، وانظر إن شئت:

كتاب «التوحيد» لابن منده المجلد الأول كله، و«الحجة في بيان المحجة» (٢/ ٤١٦).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

من: تبعية أي بعض آياته.

آياته: أي علاماته وحججه على خلقه الدالة على وحدانيته وعظيم سلطانه وكمال قدرته «ومن آياته» خبر مقدم يفيد الحصر والقصر.

الليل والنهار: أي: اختلافهما وتعاقبهما ومصالح العباد العظيمة فيهما.
والشمس والقمر: وكيف أن الله سخرهما دائبي الحركة.

لا تسجدوا للشمس ولا للقمر:

لا: ناهية فتفيد منع وتحريم السجود للشمس والقمر؛ لأنها مخلوقان لله لا يستحقان أن يعبدوا من دون الله أو معه حتى وإن جريا في الفلك بمنافعكم، فإنهما يجريان بإجراء الله لهما فلو أراد الله أن يقفا وقفا، ولو أراد طمس نور الشمس لطمسه وتعطلت منافعكم.
«والشمس أعظم ما يرى في عالم الشهادة وأعمه نفعاً وتأثيراً. فالنهي عن السجود لها نهي عما هو دونها بطريق الأولى من الكواكب والأشجار»^(١)، وكأنه جاء سؤال: إذا لمن نسجد؟ فجاء الجواب.

واسجدوا لله الذي خلقهن: في هذا الأمر دلالة على أن السجود للخالق لا للمخلوق وإن عظم نفع المخلوق وقدره وحقه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد؛ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»^(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/١٤٦).

(٢) الترمذي (٣/٤٦٥)، كتاب: «الرضاع»/ باب ما جاء في حق الزوج على المرأة. رقم (١١٥٩)، وقال: =

فمن لم يخلص السجود لله في الدنيا مُنع منه يوم الحسرة فلم يستطع أن يسجد كما في الحديث الطويل الذي رواه أبو سعيد الخدري، وفيه: «فيأتيهم الله جل وعلا فيقول أنا ربكم. فيقولون أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون الساق فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»^(١) وزاد مسلم «كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه»^(٢).

خلقهن: أي أوجدهن الله من العدم. وإذا كان الخالق للشمس والقمر هو الله، فهل يليق أن يشارك المخلوق الخالق في ربوبيته وإلهيته؟ كلا.

إن كنتم إياه تعبدون: أي إن كنتم موحدين له غير مشركين به.

إن: شرطية.

كنتم: فعل ماض ناقص وهو فعل الشرط، والتاء اسمها.

إياه: مفعول مقدم فيفيد الحصر، أي: خصوه بالعبادة وحده وأخلصوا له الدين كله.

تعبدون: أي تذلون له بالطاعة مخلصين له في عبادتكم إياه لأن العبادة لا تصلح إلا له ﷻ. وجواب الشرط محذوف تقديره فاسجدوا له، وجملة إياه تعبدون في محل نصب خبر كان.

«وفي الباب عن معاذ بن جبل، وسراقة بن مالك بن جعشم، وعائشة، وابن عباس، وعبد الله بن أبي أوفى، وطلق بن علي، وأم سلمة، وأنس، وابن عمر، وهذا حديث حسن غريب».

(١) البخاري مع الفتح (٤٢١ / ١٣) كتاب «التوحيد» / باب قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. رقم (٧٤٣٩).

(٢) مسلم (١٦٩ / ١) كتاب «الإيمان» / باب معرفة طريق الرؤية. رقم (١٨٣).

وخص السجود لأنه نهاية التعظيم فلا يليق إلا لأشرف وأعظم موجود ولهذا كان قبول الدعاء فيه أحرى من غيره، قال ﷺ: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنْ أَنْ يَسْتَجَابَ لَكُمْ»^(١).

ورفع الدرجات فيه وخط الخطيئات به أرجى. قال الأحنف بن قيس: دخلت مسجد دمشق فإذا أنا برجل يصلي يكثر الركوع والسجود فقلت لا أنتهي حتى أنظر أيدري على شفع ينصرف أم على وتر فلما انصرف قلت له أتدري على شفع تنصرف أم على وتر؟ قال: إن لم أدر فإن الله هو يدري حدثني خليلي أبو القاسم ﷺ ثم بكى ثم قال: حدثني خليلي أبو القاسم قال: «ما من عبد يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة، وخط عنه بها سيئة». قال: قلت: من أنت يرحمك الله، قال: أنا أبو ذر، صاحب رسول الله ﷺ، فتقاصرت إلى نفسي^(٢).

(١) مسلم (٣٤٨/١)، كتاب «الصلاة»/ باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود. (٤٧٩).

(٢) أحمد (١٦٤/٥)، والدارمي في «السنن» (٣٧٠/١)، كتاب «الصلاة»/ باب فضل من سجد لله سجدة.

رقم (١٤٦١)، و«تعظيم قدر الصلاة» (٣١٢/١) واللفظ له، وصححه الألباني في «الإرواء»

(٢/٢٠٩). رقم (٤٥٧).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

إن ربكم الله: بين الله في هذه الآية أنه وحده المنفرد بالخلق والإيجاد من العدم، وهذا يوجب علينا توحيده وعبادته.

وأكد أنه ربنا بـ«إِنَّ» وإضافة الرب إلينا ليبين أنه لا رب لنا غيره. وأنا المنفردون بعبادته دون سائر الأمم الكافرة، وأنه أعطى عباده المؤمنين التربية بنوعيتها العامة والخاصة فهم يشتغلون بعبادته وحده دون ما سواه.

خلق السموات والأرض في ستة أيام: أي: أوجد السموات والأرض وما فيهما على عظمهما وسعتهما وإحكامهما وإتقانها وبديع خلقهما في ستة أيام فقط ولو شاء خلقهما بلحظة واحدة.

في ستة أيام: بداية الأيام هو يوم الأحد بإجماع أهل العلم.

قال ابن جرير: «اليوم الذي ابتداء الله تعالى ذكره فيه خلق السموات والأرض يوم الأحد لإجماع السلف من أهل العلم على ذلك»^(١).

وقال شيخ الإسلام: وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته أن آخر المخلوقات كان آدم خلق يوم الجمعة، وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دلل على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة ولو كان أول الخلق يوم السبت وآخره يوم الجمعة لكان قد خلق في الأيام السبعة وهو خلاف ما أخبر به القرآن.

(١) «تاريخ الأمم والملوك» (١/٢٦).

وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله: «خلق الله التربة يوم السبت»^(١) فهو حديث معلول قدح فيه أئمة الحديث كالبخاري، ويحيى بن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، وغيرهم، قال البخاري: الصحيح أنه موقوف على كعب الأخبار^(٢)، وقد ذكر تعليقه البيهقي^(٣) أيضًا وبينوا أنه غلط ليس مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ وهو مما أنكر الحذاق على مسلم إخرجه إياه^(٤).

وأعله علي بن المديني: فقال: «وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبي يحيى»^(٥). وقال شيخ الإسلام: «ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن آخر ما خلقه هو آدم، وكان خلقه يوم الجمعة وهذا الحديث المختلف فيه يقتضي أن خلق ذلك في الأيام السبعة وقد روي إسناد أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد»^(٦).

وقال ابن كثير: «وقد تكلم في هذا الحديث علي بن المديني والبخاري والبيهقي وغيرهم من الحفاظ، قال البخاري في «التاريخ»: وقال بعضهم عن كعب وهو أصح يعني أن هذا الحديث مما سمعه أبو هريرة، وتلقاه عن كعب الأخبار، فإنهما كانا يصطحبان ويتجالسان للحديث، فهذا يحدثه عن صحفه وهذا يحدثه بما يصدق عن النبي ﷺ، فكان هذا الحديث مما تلقاه أبو هريرة عن كعب عن صحفه فوهم بعض الرواة فجعله مرفوعاً

(١) مسلم (٢١٤٩/٤) كتاب «صفات المنافقين وأحكامهم»/ باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام. رقم (٢٧٨٩).

(٢) قال البخاري: وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح. «التاريخ الكبير» (١/٤١٣، ٤١٤).

(٣) «الأسماء والصفات» (٢/٢٥٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٧/٢٣٥-٢٣٦ و ١٨/١٨-١٩)، و«الجواب الصحيح» (٢/٤٤٣-٤٤٥).

(٥) «الأسماء والصفات» (٢/٢٥٦).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١/٢٥٧)، وانظر: «بغية المرتاد» (٣٠٣-٣٠٧).

إلى النبي ﷺ...، ثم في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام وهذا خلاف القرآن لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السموات في يومين من دخان»^(١).

استوى في اللغة: بمعنى علا وارتفع واستقر وصعد.

قال امرؤ القيس:

فأوردتها ماءً بفيفاء قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

والعرش: هو سرير الملك وعرش الله لا يقدر قدره إلا الله فهو أعظم المخلوقات كلها وله قوائم كما قال النبي ﷺ: «فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَخَذَ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ»^(٢). وهو أعلى المخلوقات، لقول النبي ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ؛ فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ...»^(٣).

وهو أعظم المخلوقات اتساعاً.

ولذا كان منهج السلف الصالح الإيمان بهذه الصفة لله فيقولون: إن الله استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله.

قال الإمام مالك: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»^(٤).

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٣٢-٣٣) وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٠)، و«بدائع الفوائد» (١/ ٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٥) كتاب «التوحيد»/ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم. رقم (٧٤٢٧).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٠٤) كتاب «التوحيد»/ باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم. رقم (٧٤٢٣).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٣/ ٣٩٨) رقم (٦٦٤).

وصفة الاستواء صفة جلال وكمال، «تمدح بها رب السموات والأرض والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله التي هي منها»^(١). واستواؤه على العرش عنوان كمال الملك والسلطان، ولهذا فإنه سبحانه مع علوه على عرشه واستوائه عليه فهو يدبر الممالك ويصرف أمور العالم ومنها: أنه «يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ» والتغشية في الأصل: إلباس الشيء بالشيء، أي: يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه.

﴿يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ﴾: الحثيث هو المسرع، أي: يطلبه طلباً سريعاً لا يتأخر عنه ولا يفتر عنه بحال فكلما جاء الليل ذهب النهار وكلما جاء النهار ذهب الليل فيعقب كل واحد منهما الآخر.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾: التسخير هو سياقه إلى الغرض المختص قهراً ومنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾^(٢).

فمعنى مسخرات: أي مقهورات مذللات لما يراد منهن من طلوع وأفول وسير على حسب إرادة المدبر لهن وهو الله تعالى، وفي يوم القيامة يكورهن، قال ﷺ: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة»^(٣).

ويجمعهما في النار، قال ﷺ: «إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار»^(٤).

(١) «منهج ودراسات لآيات الصفات» للشنقيطي (١٥).

(٢) «المفردات» (٢٣٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/٢٩٧)، كتاب «بدء الخلق»/ باب صفة الشمس والقمر بحسبان. رقم (٣٢٠٠).

(٤) «مسند الطيالسي» (٢/٥٧٤) رقم (٢٢١٧).

قال الخطابي: «ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك، ولكنه تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا»^(١).

﴿بِأَمْرِ﴾: أي: أمره الكوني القدري وهو متعلق بمسخرات أي خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتديره.

فما دمن مقهورات مذلات مأمورات فهل يصلح أن يعبدن من دون الله تعالى؟
﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾: ثم بين بعد ذلك أن المختص بالأمر والخلق وحده هو الله تعالى فأتى بـ «ألا» الدالة على التنبيه ثم قدم ما حقه التأخير «له» ليفيد الحصر والقصر، أي: حصر الخلق والأمر له وحده. فـ «الخلق»: هو جميع المخلوقات كلها علويها وسفليها فهو يتضمن أحكامه الكونية القدرية.

والأمر: هو الكلام المتضمن للشرائع والنبوات فالأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية وما يترتب عليها من أحكام الجزاء في الآخرة.

﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعل من البركة وهو الكثرة والاتساع أي كثرت بركته واتسعت وقيل: تعالى وتعظم وتقدس.

وجمع بينهما السعدي فقال: أي عَظُمَ تعالى وكَثُرَ خيره وإحسانه فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكماله، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢). ولهذا لا يجوز أن يقال: تبارك إلا لله تعالى.

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٠٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٩١).

استدل المؤلف على قوله: ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما بالآية مع أن الآية ليس فيها (وما بينهما) فهل هذا الدليل كاف أم لا؟
يجيب عن هذا التساؤل شيخ الإسلام فيقول: «فتارة يذكر قوله (وما بينهما) فيما خلقه في ستة أيام كقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤].

وتارة لا يذكره وهو مراد، فإن ذكره كان إيضاحاً وبياناً وإن لم يذكره دخل في لفظ السموات والأرض، ولهذا كان النبي ﷺ تارة يقول: «ملء السموات وملء الأرض»، ولا يقول: «وما بينهما» وتارة يقول: «وما بينهما»^(١)^(٢).

(١) مسلم (١/٣٤٦-٣٤٧)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع. رقم (٤٧٦)، (٤٧٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/٤١٧).

والرب هو المعبود، والدليل: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

.....

الرب: الألف واللام للتعميم^(١) أي أنه ربُّ لكل مخلوق ولا يقال: الرب مطلقاً، بدون إضافة إلا لله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾^(٢) [سبأ: ١٥].

وأما إذا أطلق على غير الله فلا بد أن يكون مضافاً كقولهم: ربُّ الإبل ورب الدار، ونحو ذلك^(٣).

هو: ضمير الفصل يفيد اختصاص استحقاق العبادة لله عز وجل.

أي: أن الرب هو المستحق للعبادة وحده دون سواه ولذا قال: هو المعبود.

وقدم الربوبية على الألوهية لأمر:

١ - لأن علم النفوس ب فقرها وحاجتها إلى الرب قبل علمها بحاجتها إلى الإله المعبود، قال شيخ الإسلام: «لما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود وقصدهم إياه لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه»^(٤).

٢ - أن الإقرار بتوحيد الربوبية يلزم منه الإقرار بتوحيد الألوهية.

(١) «معالم التنزيل» (١/ ٤٠).

(٢) «المفردات» (١٩٠).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٥).

(٤) «دقائق التفسير» (١/ ١٨٥).

وذلك أنه: «إنما بعث الله الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية»^(١).

وقول النبي ﷺ: «لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»^(٢) توحيد الربوبية الذي يقضي أنه سبحانه هو الذي يسأل ويدعى ويتوكل عليه وهو سبب لتوحيد الإلهية ودليل عليه كما يحتج به في القرآن على المشركين^(٣).

لما ذكر الله فرق المكلفين الثلاث وصفاتهم ونتائج حالاتهم أقبل عليهم بالخطاب، وهو من الكلام جزل فيه هز وتحريك للسامع.

فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١].

يا: حرف وضع لنداء البعيد، وأي والهمزة للقريب ثم استعمل في مناداة من غفل وسها وإن قرب ودنا تنزيلاً له منزلة من بُعد ونأى فإذا نودي به القريب فذاك للتوكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معتنى به جداً.

وقول الداعي: يا رب، وهو أقرب إليه من حبل الوريد استقصار منه لنفسه واستبعاد لها عن مظان الزلفى هضمًا لنفسه وإقرارًا عليها بالتفريط. مع فرط التهالك على استجابة دعوته.

وكثر النداء في القرآن على هذه الطريقة لأن ما نادى الله به عباده من أوامره ونواهيه ووعدته ووعيده أمورٌ عظام وخطوب جسام يجب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ.

(١) المرجع السابق.

(٢) مسلم (١/٤١٤)، كتاب «المساجد»/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وصفته. رقم (٥٩٣).

(٣) «دقائق التفسير» (٢/٢٧٦).

﴿النَّاسُ﴾: عام لجميع المكلفين من الجن والإنس فيكون الأمر للمؤمنين بإخلاص العبادة واستدامتها، والكافرين بابتدائها.

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾: أي أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنه: «كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد»^(٢).

وقال ابن القيم: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ «أمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد مملوكة له ملكاً خالصاً حقيقياً وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه فعبادته له وشكره إياه واجب عليه»^(٣).

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾: أي أوجدكم من العدم فقوله سبحانه (الذي خلقكم) صفة كاشفة مبينة للواقع وليست قيداً، وذلك أنه ليس لنا ربان أحدهما يخلق والثاني لا يخلق. بل الخالق هو الله وحده وهو ربنا ورب كل شيء لا رب لنا غيره ذكرها الله لينبه بها «على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم، فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود... وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية»^(٤).

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: ذكر تعالى من قبلنا لأمر:

١ - أنه أبلغ في التذكير.

٢ - أقطع للحجة.

(١) «جامع البيان» (١/٣٦٣).

(٢) «معالم التنزيل» (١/٥٥).

(٣) «بدائع الفوائد» (٤/١٣٢).

(٤) المرجع السابق (٤/١٣٢).

٣- للتنبيه على الاعتبار بأحوالهم من إثابة المطيع ومعاقبة العاصي.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾: متعلقة بقوله خلقكم على قول الأكثرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) [الذاريات: ٥٦].

فيكون المعنى خلقكم لتتقوه، وليس اعبدوا ربكم لتتقوه، واستظهره ابن القيم لوجوه:

١- أن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه.

٢- أنه نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٣- أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله: لعلكم تتقون من الأمر^(٢).

﴿تَتَّقُونَ﴾: التقوى هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية فتوحد الله وتحذر من الوقوع في الشرك والمعصية.

وعندما سأل عمر أبي بن كعب: ما التقوى؟ قال: هل أخذت طريقاً ذا شوك، قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال: حذرت وتشمرت، قال كعب: وذلك التقوى^(٣).

وعرف شيخ الإسلام التقوى فقال: «التقوى: هي الاحتماء عما يضره بفعل ما ينفعه» ثم شرح هذه الجملة بقوله: «فإن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع وأما استعمال النافع فقد يكون معه أيضاً استعمال الضار فلا يكون صاحبه من المتقين»^(٤).

(١) «درء التعارض» (٨/ ٤٦٩).

(٢) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٣).

(٣) «معالم التنزيل» (١/ ٤٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٤).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

.....

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾: أي جعل الأرض بساطًا تقرون عليها فتعدون وتنمون وتسافرون وتزرعون وتتفنون بجميع وجوه الانتفاع.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: سقفًا مرفوعًا عليها كالقبة.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: أنزل المطر من السحاب فكل ما ارتفع عنك سمي سماءً.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾: الثمرات جمع ثمرة، وهو ما يخرج الله من الأرض من حبوب وخضار وزراعة وفواكه ونحوها.

﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي: طعامًا لكم وعلفًا لدوابكم، قال تعالى: ﴿مِنْ ثَمَرَاتِ الْحَبِّ وَالنَّارِ وَالزَّيْتُونِ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخْلِ وَالتَّمَرِ﴾ [النحل: ١١].

«ذكر سبحانه قرار العالم وهو الأرض، وسقفه وهو السماء، وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء، فذكر المسكن والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه ونبه تعالى بجعله للأرض فراشًا على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها فجعلها فراشًا ومهادًا وبساطًا وقرارًا، وجعل سقفها بناءً محكمًا مستويًا لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب»^(١)، فكل من أقر بذلك لله لزمه أن لا يعبد إلا الله لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك. ولهذا قال تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾: الفاء الدالة على التفريع والسبب «المشعرة لاقتضاء تلك النعوت

(١) «بدائع الفوائد» (٤/ ١٣٤).

الاختصاص بالعبادة»^(١). أي فبسبب ذلك فلا تجعلوا لله أنداداً^(٢). لا: ناهية تفيد المنع والتحريم. و(تجعلوا) أي: تصيروا، أي فلا تصيروا وتعتقدوا.

﴿لَّهِ أُنْدَادًا﴾: الند هو العدل والمثل والشبيه والنظير.

فيكون معنى أنداداً: أي شركاء ونظراء وأمثالاً تعبدونهم كعبادة الله وتطيعونهم في معصية الله وتحبونهم كحب الله.

قال ابن عباس: «الأنداد هو الشرك أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل»^(٣).

قال ابن مسعود: «أي فلا تجعلوا لله أكفأ من الرجال تطيعونهم في معصية الله»^(٤).

قال ابن القيم: «فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح»^(٥).

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: الجملة في موضع نصب حال من فاعل (تجعلون) أي والحال أنكم تعلمون أن الأنداد لا تخلق ولا ترزق وتقرن بذلك فإنه يجب على من أقر بذلك أن يعبد وحده. فكما أنه لا شريك له في خلقه وملكه فكذلك يجب أن لا يكون له شريك في عبادته. فالشرك قبيح من كل أحد ومن يعلم انفراد الله بالربوبية أقبح، ولهذا جعله النبي ﷺ أعظم الذنب، قال ابن مسعود رحمته الله: سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟

(١) «معارج الألباب» (٢٠٥).

(٢) «القول المفيد» (٣١٩/٢).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦٢/١).

(٤) «جامع البيان» (١٦٣/١).

(٥) «بدائع الفوائد» (١٣٤/٤).

قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١).

ف «هذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده والنهي عن عبادة ما سواه وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته وبطلان عبادة من سواه وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحدٍ مقرًّا بأنه ليس له شريك في ذلك. فكذلك فليكن إقراره بأن (الله) لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري وبطلان الشرك»^(٢).

وفي هذه الآية بين الله ستة أدلة تدل على وجوب عبادة الله، اثنين منها في الأنفس «خلقكم» «والذين من قبلكم» وأربعة منها في الآفاق: «السماء» «الأرض» «إنزال المطر» «إخراج النبات»، قال تعالى: ﴿سَرُّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

فمن لم يعبد الله ويوحده بعد هذه الأدلة، فقلبه ميت لا خير فيه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٥).

قال ابن كثير رحمه الله : الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

فقوله: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة:

أي: الموجد للسموات والأرضين والجبال والأشجار والشمس والقمر والليل والنهار والإنسان وغير ذلك من المخلوقات من العدم، هو الذي يستحق أن يعبدته الناس وحده لا يشركون به في عبادته أحداً، وهذا استدلال بالربوبية على الألوهية.

ولهذا أبطل الله استحقاق غيره للعبادة في آي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

والقاعدة في ذلك: «من انفرد بالخلق والملك والتدبير: وجب إفراده بالعبادة».

وَمَنْ بَخَلَقَهُ وَمَلَكَهُ تَفَرَّدَا فَاعْبُدْهُ وَحْدَهُ كَذَلِكَ السَّعْدَا

وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان.

كان المتوقع أن يذكر المؤلف أنواع العبادة تحت الأصل الثاني لأنها جزء منه ولكنه قدّمها ليكون كما يقال: «الطرق والحديد ساخن» وهذه طريقة تربوية لأن النفوس إذا تهيأت لقبول أمرٍ ما فلا ينبغي تأخيرها، لأنك إذا أخرته ربما ضعف التهيؤ له فلم يؤخذ مأخذ الحزم والجد.

ولذلك لما بيّن المؤلف من هو المعبود بالأدلة الشرعية والأدلة الواقعية المشاهدة وتهيأت القلوب لعبادته والتقرب إليه ناسب أن يذكر بعده أنواع العبادة التي يجب على العبد أن يعبد بها ولم يجعل الإسلام والإيمان والإحسان من أنواع العبادة لأن هذه مراتب الدين فأدناها الإسلام ثم الإيمان ثم أعلاها الإحسان.

العبادة: أصل معناها الذل يقال طريق معبد إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام.

قال الزجاج: معنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع^(١).

وقال الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى^(٢).

فالعبادة متضمنة لأمرين:

(١) غاية الذل.

(٢) غاية المحبة.

(١) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٣٤).

(٢) «المفردات» (٣٢٢).

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان^(١)

فالعبرة: «اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين. ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله»^(٢).

وينبغي أن يعلم أن كمال الحب يتضمن معنى الحمد وأن كمال الذل يتضمن معنى التعظيم^(٣).

وعرفها شيخ الإسلام بتعريف عام شامل فقال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»^(٤)، فالظاهرة: كالصلاة والزكاة وبر الوالدين والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان إلى الجار واليتيم، ونحو ذلك والباطنة كحب الله ورسوله والخشية والإنابة والرضا بقضائه والوجل والخشوع وأمثال ذلك مما هو من أعمال القلوب. فالعبادة هي الغاية المحبوبة والمرضية لله عز وجل التي خلق الخلق لها وأرسل الرسل من أجلها ووصف بها ملائكته ورسله ومدحهم بها فهي أكمل المدح وأعلاه ولذا وصف الله رسوله محمدًا ﷺ بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وقال في الإحياء: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] وقال في التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

(١) «النونية مع شرح هراس» (١/ ٩٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥١).

(٤) «العبودية» (٣٨).

إسراء عبد ثم دعوة ربه وكذلك وحي في التحدي أربع
والعبادة الحق لا تكون إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ
سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن
تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وللعبادة أصلان هما:

(١) ألا يعبد إلا الله.

(٢) ألا يعبد إلا بما أمر وشرع. فلا يعبد لا بالأهواء ولا البدع، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ
يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾: العمل الصالح هو الإحسان وهو فعل الحسنات التي أمر الله بها
ورسوله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ إخلاص الدين لله وحده.
فكمال المخلوق في تحقيق عبادته لله وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبادة ازداد كماله وعلت
درجته.

ولذا فكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله كقول نوح ومن بعده
من الرسل ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ﴾ [هود: ٥٠]^(١).

وينبغي أن تعلم بأن «العبادة أصلها عبادة القلب المستتبع للجوارح»^(٢)، قال ﷺ:
«الإسلام علانية والإيمان في القلب»^(٣)، وقوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩ - ١٨٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢) وانظر: (١٠/ ٢٧٤).

(٣) أحمد (٣/ ١٣٤)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥) رقم (٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥/ ٣٠١) رقم

(٢٩٢٣)، والبزار في «كشف الأستار» (١٩/ ١) رقم (٢٠)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٩٦ -

صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

ويوضح هذا المعنى أبو هريرة فيقول: «القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا صلح الملك صلحت جنوده وإذا فسد الملك فسدت جنوده»^(٢).

ولما كان أصل العبادة عبادة القلب زين الله الإيمان فيه، فقال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ
الْإِيمَانُ وَرَزَقْنَاهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

وامتن على عباده بتثبيت الإيمان في قلوبهم حتى حماهم الله به من موالاة أعدائه.
فقال: ﴿لَا تَحْدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ
بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ
حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبين أن المنتفع بالقرآن هم أصحاب القلوب الحية، فقال: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ
الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، فحياة البدن دون حياة القلب من جنس حياة البهائم. وذلك
لوجود الارتباط الوثيق بين القلب والبدن، فعمل القلب يؤثر على عمل البدن، وكذلك
عمل البدن يؤثر على القلب، كما أن فقدان عمل البدن قد يكون سبباً في طمس القلوب،
قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ

٧٩٧) تحقيق رضا نعتسان، وقال الهيثمي: «رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه والبزار باختصار ورجاله رجال
الصحيح، ما خلا على ابن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان وأبو داود الطيالسي، وأبو حاتم وابن معين،
وضعفه آخرون». «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢)، وقال السبكي: «هذا حديث جيد». «طبقات الشافعية»
(١/ ١٢١).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٣٥٠) رقم (١٠٩).

يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿[الأنفال: ٢٤]﴾.

قال شيخ الإسلام: «وهذه الأمور الظاهرة والباطنة بينهما ارتباط ومناسبة، فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا»^(١).

[إنما الأعمال بالنيات - نصف الدين - إخلاص - عمل القلب]

[من عمل عملاً - النصف الآخر - متابعة - عمل الجوارح]

ليس عليه أمرنا فهو رد.

قوله: «ومنه الدعاء»: الضمير يعود إلى أنواع العبادة أي أن «من أنواع العبادة الدعاء كما كان المؤمنون يدعون الله وحده ليلاً ونهاراً في الشدة والرخاء ولا يشك أحد أن هذا من أنواع العبادة»^(٢).

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩).

(٢) «الدرر السنية» (٢/ ٥٤)، وانظر: «رسالة في وجوب توحيد الله» للشوكاني (٥٥).

ومنه : الدعاء.

.....

الدعاء: لغة هو الطلب والسؤال.

قال ابن سيده: الدعاء: «طلب الطالب للفعل من غيره»^(١).

اصطلاحًا: طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه، رغبة ورهبة^(٢)،
يوضحه قوله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل
الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(٣).
قوله: فأستجيب له: إجابة الداعي، من يسألني فأعطيه: إعطاء السائل وكلاهما
جلب منفعة (وهذا هو طلب ما ينفع الداعي).

وقوله: «مَنْ يَسْتَغْفِرْني فَأَغْفِرْ لَهُ»: المغفرة للمستغفر. وهذا دفع مضرة.

أهمية الدعاء:

الدعاء من أجل العبادات وأعلاها ولذلك ورد ذكره في القرآن في نحو ثلاثمائة
موضع^(٤).

و«قد جاءت السنة المطهرة بما يدل أبلغ دلالة على أن الدعاء من أكمل أنواع
العبادة»^(٥).

(١) «المخصص» (١٣ / ٨٨).

(٢) قال شيخ الإسلام: ولا يتصور أن يخلو داع لله دعاء عبادة أو دعاء مسألة من الرغب والرهب، «مجموع
الفتاوى» (١٠ / ٢٤٠)، وانظر: (١٥ / ٧٤).

(٣) البخاري مع الفتح (١٣ / ٤٦٤)، كتاب «التوحيد» / باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾.
رقم (٧٤٤٩).

(٤) «الدرر السنية» (٩ / ٤١٨).

(٥) «رسالة في وجوب توحيد الله»، للشوكاني (ص ٥٨).

«ومن أمعن النظر في آيات الكتاب وما قص من محاورات الرسل مع أمهم وجد أن أسَّ الشأن ومحط رحال القصد شيوخاً وكثرة وانتشاراً وشهرة هو دعاء الله وحده»^(١).

وتتجلى أهمية الدعاء والبداءة فيه قبل غيره بما يلي:

١ - أن النبي ﷺ حصر العبادة فيه:

حصر النبي ﷺ العبادة في الدعاء لأهميته ولشموله للدين كله كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٢) [غافر: ٦٠] «فهذه الصيغة الشريفة النبوية المصطفوية قد اشتملت على ثلاثة أشياء كل واحدٍ منها يقتضي الحصر.

الأول: تعريف المسند إليه «وهو الدعاء».

الثاني: تعريف المسند «العبادة».

الثالث: ضمير الفصل «هو».

وقد صرح أرباب علم المعاني والبيان والأصول بأن كل واحد آلة من آلاته وأداة من أدواته وأن وجود أحدها يقتضي الحصر فكيف إذا اجتمعت جميعاً وانضم إليها حرف التأكيد المشعر بأن ما دخل عليه كلام مؤكد فانظر هذه المبالغة البليغة والعبادة المنادية بأبلغ نداء المفيدة أكمل إفادة المشعرة أتم إشعار»^(٣).

(١) «معارج الألباب» (٢١٤).

(٢) أحمد (٤/٢٦٧)، وأبو داود (٢/١٦١)، كتاب «الصلاة»/باب الدعاء. رقم (١٤٧٩)، والترمذي (٥/٤٥٦)، كتاب «الدعوات»/باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧٢)، وقال: «حديث حسن صحيح». وصححه النووي في «الأذكار» (٣٤٥)، وقال ابن حجر: «إسناده جيد». «فتح الباري» (١/١٤٩).

(٣) «رسالة في وجوب توحيد الله ﷻ» (٥٨-٥٩).

أضف إلى ذلك: الجملة الاسمية التي تدل على الاستمرار والدوام^(١).

٢- أن الله بدأ القرآن بالدعاء وختمه به: فبدأه بالفاتحة، والفاتحة أولها ثناء على الله، وآخرها طلب منه، وكذلك المعوذتان كلاهما طلب من الله ودعاء له.

قال شيخ الإسلام: «ختم المصحف بحقيقة الإيمان، وهو ذكر الله ودعاؤه، كما بنيت عليه أم القرآن، فإن حقيقة الإنسان المعنوية هو المنطق، والمنطق قسمان: خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجه ما كان خبراً عن الله كنصف الفاتحة، وسورة الإخلاص، وأفضل الإنشاء الذي هو الطلب، وأنفعه وأوجه ما كان طلباً من الله، كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين»^(٢).

٣- أن الدعاء لبّ العباد، وعنوان التذلل والافتقار.

ولذا روي: «الدعاء مخ العباد».

قال ابن عبد البر: «الدعاء مخ العباد لما فيه من الإخلاص والخضوع والضرعة والرجاء، وذلك صريح الإيمان واليقين»^(٣).

قال شيخ الإسلام عند قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فذكر التضرع فيهما معاً^(٤) وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء^(٥).

(١) «الدعاء» للعروسي (١/ ١٣٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٧٩).

(٣) «الاستذكار» (٣/ ٨٤).

(٤) قوله فيهما معاً يقصد أن الله ذكر التضرع في الذكر كما في قوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وفي الدعاء كما في هذه الآية.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩-٢٠).

وبمثله قال ابن رجب: «واعلم أن سؤال الله ﷻ دون خلقه هو المتعين لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار وفيه الاعتراف بقدرة المسئول عن رفع الضر ونيل المطلوب... ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة^(١).
وكذلك النعيمي قال: «لما كان -الدعاء- بكيفية الاضطرار والافتقار إلى القوي القهار العزيز الغفار وضِعاً وضبطاً وصنعاً، وإبداء الفاقة والاحتياج إليه وعدم الاستغناء عنه، مترجماً عن معنى عبدٍ مملوكٍ مربوبٍ والمدعو مالكة وربّه كان حينئذ قاعدة أفق العبادة وممثل كنانتها وهذا سرُّ اختصاص الله به^(٢)».

٤ - أن الدعاء يجتمع فيه من العبادات ما لا يجتمع في غيره:

يجتمع في الدعاء توجه القلب ورجاء الإجابة وخوف الرد والتوكل والتعظيم ومحبة المدعو واللهج باللسان وانكسار البدن وغير ذلك^(٣).

٥ - أن الشرك في الدعاء هو أصل شرك العالم:

قال ابن القيم أثناء كلامه عن الشرك: «ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم^(٤). كما هي حال قوم نوح عليه السلام».

٦ - أن وقوع الشرك في الدعاء أكثر من غيره:

أغلب عبادة المشركين لأوثانهم هو الدعاء والطلب. ولهذا لم يرد في القرآن التحذير من سائر أنواع الشرك مثل ما ورد في التحذير من الشرك في الدعاء^(٥).

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٧١-٥٧٢) وانظر إن شئت: «الفوائد» (٣٤٨).

(٢) «معارج الألباب» (٢٢٤).

(٣) انظر: «تصحيح الدعاء» (١٧)، و«الدعاء» للعروسي (١/ ٢٩٦-٢٩٧).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٦).

(٥) «الدعاء» للعروسي (١/ ٧).

٧- أن دعاء غير الله تعالى بحجة طلب الشفاعة هو أعظم مسألة خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية: «فأتى بالإخلاص وأخبرهم أنه دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه وأخبر أن من فعل ما يستحسنونه فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وهذه المسألة هي الدين كله ولأجلها تفرق الناس بين مسلم وكافر وعندها وقعت العداوة ولأجلها شرع الجهاد»^(١).

أقسام الدعاء:

ينقسم الدعاء إلى قسمين:

١ - دعاء ثناء وعبادة:

وضابطه: قصد المدعو لذاته.

وأثره على العبد: أن يمتلئ قلبه بعظمة الله وجلاله؛ لأن العابد «يدعو خوفاً ورجاءً دعاء عبادة»^(٢). قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] «فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال لرغبة ورهبة والمعنى أنا كنا من قبل نخلص له العبادة»^(٣).

٢ - دعاء مسألة وطلب:

وضابطه: قصد المدعو لأمر يطلبه منه؛ لأن العابد «يدعو للنفع والضرر»^(٤).

وأثره على العبد: أن يمتلئ قلبه بالرغبة والافتقار لله والإنكسار والانطراح بين يديه. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] «لأن المضطر يريد نيل مطلوبه ولذا قال: ويكشف السوء، «وهذا الدعاء ظاهر في دعاء المسألة حال الشدة والضرورة»^(٥).

(١) «مسائل الجاهلية مع شرحها للألوسي» (٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١ / ١٥).

(٣) «بدائع الفوائد» (٥ / ٣).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١١ / ١٥). وانظر: «بيان تلبس الجهمية» (٤ / ٥٣١).

(٥) «تحفة الطالب والجلس» (١٠٣).

ووجه انقسام الدعاء إلى نوعين: «أن الدعاء هو قصد المدعو تارة لذاته وتارة لمسألته أمراً منه»^(١)، والذي يقصد لذاته ولما يطلب منه هو الله تعالى: «كونه أحداً وكونه الصمد يتضمن أنه الذي يقصده كل شيء لذاته ولما يطلب منه، وأنه مستغن بنفسه عن كل شيء»^(٢).

فلا يجوز أن يتجه العبد بالدعاء إلا لمن يملك النفع والضرر لأن الدعاء طلب نفع الداعي وطلب دفع ما يضره وكشفه. ولا يملك ذلك إلا الله عز وجل.

ولهذا أنكر الله على من دعا من دونه ما لا يملك ضرراً ولا نفعاً فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]. وقال إبراهيم عليه السلام لقومه مبيناً جهلهم وسفههم وعدم استحقاق آلهتهم للعبادة: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾^(٦٦) أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^(٦٧) [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

وأبطل دعاء غير الله مرة أخرى بسؤالهم هل تنفعهم آلهتهم وتسمع قولهم، قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ^(٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظِيمِينَ^(٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ^(٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ^(٧٣) [الشعراء: ٦٩-٧٣]. فلما أجمعوا حادوا عن الجواب وقالوا: ﴿وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].

«فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بُدَّ أن يكون مالكا للنفع والضرر»^(٣).

(١) «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٤٥٣).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٤٥٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٠-١١).

فمن دعا غير الله فقد أساء وظلم واستحق العقوبة. ولذلك توعد الله بالعذاب فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

قال شيخ الإسلام: «وهذان النوعان - أي نوعا الدعاء - هما جميعاً مختصان بالله، حقان له لا يصلحان لغيره، بل دعاء غيره بأحد النوعين شرك، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠)﴾ (١).

تلازم نوعي الدعاء:

مر معنا أن الدعاء ينقسم إلى قسمين وليس معنى ذلك أن بينهما تضاداً أو أن أحدهما لا يدل إلا على النوع الذي أريد به فقط. بل معناه أنه في أحدهما أظهر.

قال شيخ الإسلام عند قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦] (٢).

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء. دعاء العبادة، ودعاء المسألة. فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان... فالداعي يدعو دعاء مسألة لجلب النفع ودفع الضرر، ويدعو خوفاً ورجاءً دعاء عبادة فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزمٌ لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة (٣).

(١) «بيان تلبس الجهمية» (٢/ ٤٥٧).

(٢) قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ في دعاء المسألة أظهر، أما قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في دعاء العبادة أظهر. انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٠-١١) وانظر: زيادة في الأمثلة في (١٥/ ١٢-١٥) وانظر: (١٠/ ٢٤٠).

ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فهذه الآية تتناول نوعي الدعاء. وبكل منهما فسرت الآية.

قيل: «أعطيه إذا سألني وقيل: أثيبه إذا عبدني، والقولان متلازمان،... وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعاً»^(١).

ضابط معرفة نوعي الدعاء:

يكون الدعاء في دعاء المسألة أظهر إذا فهم من الدعاء التجاء أو كان طلباً من أحد أن يدعو له^(٢)، أو نداءً مباشراً لله عز وجل، أو عدم سماع المدعويين غير الله تعالى.

أما دليل الالتجاء لكشف الضر، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنِ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٠) بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١].

«وهذا الدعاء ظاهر في دعاء المسألة حال الشدة والضرورة»^(٣).

ودليل الطلب من أحد ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

أما النداء المباشر لله عز وجل: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/١٥).

(٢) والمقصود به طلب الدعاء من حي حاضر قادر.

(٣) «تحفة الطالب والجلس» (١٠٣).

أما عدم سماع المدعوين غير الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) **﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾** [فاطر: ١٣-١٤].

ويكون في دعاء العبادة أظهر فيما عدا ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]؛ أي: دعاؤكم إياه... والمراد به نوعا الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر؛ أي: ما يعبا بكم لولا أنكم ترجونه.

وعبادته تستلزم مسألته. فالنوعان داخلان فيه.

وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فالدعاء يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر، ولهذا أعقبه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] ^(١).

أنواع الدعاء:

ينقسم الدعاء إلى نوعين اثنين:

الدعاء التوحيدي العبادي الإيماني:

وهو دعاء الله وحده دون ما سواه لجلب نفع أو دفع ضرر، أو تعظيم.

وقد أمر الله به في آي كثيرة من كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

ونهى عما يضاده، فقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وبين غناه وسعة جوده وفضله على من دعاه وحده، فقال في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/١٢).

كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر»^(١).
وأثنى على رسله بذلك، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وأخبر بإجابته للداعين الموحدين، بل وقربه منهم، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي
فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وللداعي دعاء توحيداً إيماناً عبادياً ثلاث حالات هي:

١ - أن تسأل الله بأسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾
[الأعراف: ١٨٠].

٢ - أن تسأله بحاجتك وفقرك وظلمك: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾
[القصص: ٢٤]، ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَا تَغْفِرٌ لَّنَا وَتَرْحَمْنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

٣ - أن تسأله حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين: كقول الداعي رب اغفر لي...
فالأول أكمل من الثاني والثاني أكمل من الثالث. فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان
أكمل.

كما في الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لأبي بكر: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا
يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٢).

فهذا -الدعاء- فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة وفيه وصف
ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري مع الفتح (٣١٧/٢) كتاب «الأذان»/ باب الدعاء قبل السلام. رقم (٨٣٤)، ومسلم
(٢٠٧٨/٤) كتاب «الذكر»/ باب استجباب خفض الصوت بالذكر. رقم (٢٧٠٥).

وفيه بيان المقتضى للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة. فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب^(١).

الثاني: الدعاء الشركي الكفري:

وهو دعاء غير الله مع الله، أو دونه، تعظيماً، أو لجلب منفعة، ودفع مضرة، قال الشوكاني: «إن الشرك هو دعاء غير الله تعالى...»^(٢).

وهذا النوع من الدعاء هو الذي جاءت الرسل كلهم بالنهي عنه، وتقبيحه والتحذير منه، وتنفير الناس عنه.

فنهى عن دعاء من لا ينفع، ولا يضر، فقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، فهم أعجز من أن يجيبوهم، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكَمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧]، ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

ووبّخ من دعا غيره، فقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ.

وحذّر مَنْ أشرك به في الدعاء من العذاب الأليم، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وبيّن العذاب رسوله ﷺ فقال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً: دخل النار»^(٣). وفي لفظ لمسلم: «من مات يشرك بالله شيئاً: دخل النار»^(٤).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٢٤٤-٢٤٧) و«جلاء الأفهام» (٧٩-٨٠).

(٢) «الدر النضيد» (١٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٨ / ١٧٦)، كتاب «التفسير» / باب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]. رقم (٤٤٩٧).

(٤) مسلم (١ / ٩٤)، كتاب «الإيمان» / باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار. رقم (٩٢).

ومن نماذج الدعاء الشركي:

قول أحدهم في البدوي:

يا من رماه الدهر بالإزعاج ناد بعزم يا أبا فراج
فهو المراد إذا الخطوب تراكت وهو المجيب لدعوة المحتاج

وقال آخر في البدوي:

وهو المجيب لسائل يتوسل إذ باسمه عند المخاوف يهتف
وهو الملاذ إذا الخطوب تراكت وهو المعاذ وفي الشدائد يعرف^(١)

وقول محمد السنوني داعياً عبد القادر الجيلاني:

من ضاق عنه لأمر مسلك الحيل فما له غير عبد القادر الجيلي
فهو السريع لما يدعى إليه إذا ضاق الخناق على من ضل في السبل
فناد باسمه فيما عز مدركه تلق العناية قد جاءتك بالأمل
غوث يغيث الذي يدعوه منتصراً بغاية الحزم إذ يأتيه عن عجل^(٢)

علاقة الدعاء بأنواع التوحيد:

«الإله» هو المعبود الذي يستحق أن يعبد.

و«الرب» هو الذي يرب عبده فيدبره.

«فهو سبحانه مستحق التوحيد الذي هو دعاؤه وإخلاص الدين له: دعاء العبادة بالمحبة والإنابة والطاعة والإجلال والإكرام والخشية والرجاء ونحو ذلك من معاني تألهه

(١) «البدوي بين الحقيقة والخرافة» (٢٨٠) نقلاً عن «الدعاء» للعروسي (١/ ٤٧١).

(٢) «الرحلة الحجازية» (٣/ ٨٥)، وانظر: «الانحرافات العقدية» في القرنين الثالث عشر والرابع عشر

(١/ ٣٢٠) فما بعدها.

وعبادته، ودعاء المسألة والاستعانة بالتوكل عليه والالتجاء إليه والسؤال له ونحو ذلك مما يفعل سبحانه بمقتضى ربوبيته وهو سبحانه الأول والآخر والباطن والظاهر»^(١).

ولما كانت العبادة متعلقة باسمه (الله) تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم مثل كلمات الأذان والصلاة: الله أكبر، والشهادتين والتشهد والتسبيح والتحميد والتهليل.

وأما السؤال فكثيراً ما يجيء باسم الرب كقول آدم عليه السلام: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» [الأعراف: ٢٣]، وقول نوح عليه السلام: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ» [هود: ٤٧]، وموسى عليه السلام: «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي» [القصص: ١٦]، وقول إبراهيم عليه السلام: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» [إبراهيم: ٣٧]، «رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا» [البقرة: ١٢٧]، «رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ» [البقرة: ٢٠١]، وغيرها كثير.

فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه: الرب، وإن سأله باسمه: الله، لتضمنه اسم الرب كان حسناً، وأما إذا سبق إلى قلبه قصد العبادة فاسم الله أولى بذلك^(٢).

ولا يمكن أن يتجه القلب إلى الله فيدعوه ويرجوه ويخافه ويستعين به إلا إذا آمن بأسمائه وصفاته، فيرجوه لأنه يعلم أنه الوهاب، الرحمن، الرحيم، الغفور، الودود. ويخافه لأنه يعلم عظيمته فهو القهار، الجبار، المنتقم من المجرمين. ويستعين به لأنه يعلم أنه الملك القوي القادر سبحانه.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/٤٥٦).

(٢) المرجع السابق (١٠/٢٨٤ - ٢٨٦) باختصار.

أسباب قبول الدعاء:

لقبول الدعاء أسباب منها:

١ - الإخلاص:

الإخلاص: هو إفراد الله بالقصد في الطاعة.

وقد أمر الله نبيه أن يصرح بإخلاصه لله فقال له: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤].
وأمرنا الله به أمرًا عامًا، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤] قال
عبد الواحد بن زيد: «الإجابة مقرونة بالإخلاص لا فرق بينهما»^(١).

٢ - التضرع والخشوع والتذلل:

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

التضرع والخشوع هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل إنما يسأل
مسألة مسكين ذليل قد انكسر قلبه وذلت جوارحه وخشع صوته. قال شيخ الإسلام: ذكر
الله التضرع وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء^(٢).

٣ - قوة الرجاء في إجابة الدعوة:

حث النبي ﷺ على قوة رجاء الله بقبول الدعاء، فقال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون
بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه»^(٣).

(١) «حلية الأولياء» (٦ / ١٦٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥ / ١٩ - ٢٠).

(٣) الترمذي (٥ / ٥١٧)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٤٧٩)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والطبراني في «الدعاء» (٣٩) رقم (٦٢)، والحاكم في «المستدرک» (١ / ٦٧٠)، وقال: «هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المري، وهو أحد زهاد البصرة، ولم يخرجاه»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١ / ١٢٨) رقم (٢٤٣).

وعن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتكم الله ﷻ أيها الناس، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»^(١). وللرسل ﷺ القدح المعلق في ذلك، فهذا هو يعقوب ﷺ، يضرب أروع الأمثلة في قوة رجائه بإجابة ربه دعوته رد ابنه بعد طول مدة: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، ووعى هذا سفيان بن عيينة جيدًا، فقال: «لا يمنعن أحدًا من الدعاء ما يعلم في نفسه من التقصير فإن الله تعالى أجاب شر الخلق إبليس قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾» [الحجر: ٣٦]^(٢).

٤ - الجزم في الدعاء:

أمر النبي ﷺ بالجزم والعزم في الدعاء، فقال: «لا يقولنَّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإنه لا مستكره له»^(٣). وفي رواية له: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسأله، إنه يفعل ما يشاء، لا مكره له»^(٤).

وفي رواية لمسلم: «وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»^(٥).

فاتضح من هذه الأحاديث أن عدم الجزم فيه ثلاثة محاذير:

أ) اتهام الله بأنه يعطي السائل وهو مكره على ذلك، وهذا لا يليق بالله ولهذا أبطله

(١) أحمد (١٧٧/٢)، قال المنذري: «رواه أحمد بسند حسن». «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٩١-٤٩٢)،

وقال الهيثمي: «رواه أحمد وإسناده حسن». «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٨).

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٠٠).

(٣) البخاري مع الفتح (١١/ ١٣٩) كتاب «الدعوات»/ باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له. رقم (٦٣٣٩).

(٤) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٤٨) كتاب «التوحيد»/ باب في المشيئة والإرادة. رقم (٧٤٧٧).

(٥) مسلم (٤/ ٢٠٦٣) كتاب «الذكر»/ باب العزم بالدعاء ولا يقل: إن شئت. رقم (٢٦٧٨).

النبي ﷺ بقوله: «فإن الله لا مكره له».

(ب) أنه دليل على ضعف رغبة الداعي وعدم افتقاره إلى ربه، ولهذا عاجله النبي ﷺ بقوله: «وليعظم الرغبة».

(ج) أنه سوء ظن بالله تعالى حيث ظن أنه يستكثر شيئاً مما طلبه العبد فيمنعه ويخل به، ولهذا أبطله النبي ﷺ بقوله: «فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه».

٥ - حضور القلب:

عدم حضور القلب دليل على عدم الرغبة أو ضعفها، ومن كان كذلك فيخشى أن يرد الله دعوته قال ﷺ: «واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه»^(١) فينبغي لمن أراد أن يدعو أن يكون قلبه حاضراً أثناء دعائه؛ فإن ذلك أحرى بالقبول.

٦ - إخفاء الدعاء:

إخفاء الدعاء من أعظم أسباب قبوله، ولذلك أمر الله به بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومدح عبده زكريا بالإسرار به فقال سبحانه ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، أي دعا سرّاً من قومه في جوف الليل^(٢).

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة، منها:

(أ) أنه أعظم إيماناً؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

(ب) أنه أعظم في الأدب والتعظيم.

(ج) أنه أبلغ في التضرع والخشوع.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «معالم التنزيل» (٣/ ١٨٨).

(د) أنه أبلغ في الإخلاص.

(هـ) أنه أبلغ في جمعية القلب على الذلة في الدعاء.

(و) أنه دالٌّ على قرب صاحبه من الله، فكلما استحضر القلب قرب الله وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

(ز) أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف رفع الصوت^(١).

٧- رفع اليدين:

رفع اليدين في الدعاء من أسباب قبوله، لقوله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صَفَرًا»^(٢).

وذلك لأن «رفع اليدين وبسطهما لله تعالى: استكانة وعبودية واستطعام»^(٣).

من أسباب رد الدعاء وعدم قبوله:

لرد الدعاء وعدم قبوله أسباب كثيرة منها:

١ - الاعتداء في الدعاء:

الاعتداء مشتق من العدوان وهو تجاوز ما ينبغي أن يقتصر عليه، ولأجل ذلك نهى الله تعالى عنه.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥ / ١٥ - ١٩)، وانظر: «بدائع الفوائد» (٣ / ٦ - ١٠).

(٢) أبو داود (٢ / ١٦٥)، كتاب «الصلاة» / باب الدعاء. رقم (١٤٨٨)، والترمذي (٥ / ٥٥٦ - ٥٥٧)، كتاب «الدعوات». رقم (٣٥٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٢ / ١٢٧١)، كتاب «الدعاء» / باب رفع اليدين في الدعاء. رقم (٣٨٦٥). قال الذهبي: «وهذا حديث صحيح. رواه جماعة من الصحابة». «العرش» (٢ / ٦٦).

(٣) «تصحيح الدعاء» (٢٦).

ومن الاعتداء في الدعاء بل أعظم الاعتداء في الدعاء دعاء غير الله^(١)، فهو الشرك الأكبر، وصاحبه أضل الناس، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]. ولخطورة الاعتداء فيه تنوعت الأساليب في التحذير منه، فمنها:

أ- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أن فاعله ظالم: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

ب- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أن فاعله مُعَذِّبٌ معاقب، قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

ج- ما ورد بصيغة النهي المباشر مع بيان أن المدعوين يهلكون ويموتون وهذا دليل على أنه لا يجوز أن يدعوا: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

د- بيان حيرة من دعا غير الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ [الأنعام: ٧١].

هـ- عدم استجابة المدعوين من دون الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

و- عجز المدعوين وذلك لنقص في صفاتهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣]، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ﴿٧٣﴾ إِنَّكَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ

(١) انظر: «الرد على البكري» (٩٥).

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ» [الحج: ٧٣]، ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

ز - العقوبة بالنار: لقوله ﷺ «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار»^(١).

ومن الاعتداء في الدعاء سؤال الله ما لا يجوز سؤاله، كسؤاله ما لا يليق به من منازل الأنبياء. وسؤال ما لا يجوز سؤاله من المعونة على المحرمات. وسؤال ما لا يفعله كسؤال تخليده إلى يوم القيامة، أو يجعله من المعصومين ودعاؤه ربّه غير متضرع. وهذا من أعظم الاعتداء لمنافاته لدعاء الذليل. فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد^(٢).

وقد جمعها النبي ﷺ بقوله: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم...»^(٣).

فيدخل في الإثم جميع ما يآثم به من الذنوب ويدخل في قطيعة الرحم جميع حقوق الأقارب ومظالمهم.

٢ - أكل الحرام:

أكل الحرام من موانع إجابة الدعاء لقوله ﷺ حين ذكر: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام»، قال: «فأنى يستجاب لذلك»^(٤).

(١) البخاري مع الفتح (١٧٦/٨) كتاب «التفسير»/ باب ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا. رقم (٤٤٩٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٥/٢٢-٢٣).

(٣) مسلم (٢٠٩٦/٤) كتاب «الذكر»/ باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي. رقم (٢٧٣٥).

(٤) مسلم (٧٠٣/٢) كتاب «الزكاة»/ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب. رقم (١٠١٥).

فأني يستجاب لذلك: أي كيف يستجاب له.

فهذا الداعي أتى بأربعة أسباب من دواعي الاستجابة وهي: (أ) السفر. (ب) وكونه أشعث أغبر، (ج) يمد يديه إلى السماء، (د) الإلحاح حيث كرر يا رب. ومع هذه الأسباب الأربعة استبعد النبي ﷺ إجابته لسبب واحد هو حرمة المطعم والمشرب والملبس.

٣- الاستعجال:

آفة كثير من الداعين الاستعجال ولذلك عالجها النبي ﷺ بقوله: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(١) وفي رواية لمسلم: «قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الِاسْتَعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يُسْتَجَبْ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدْعُو الدَّعَاءَ»^(٢).

ويحفظك من الاستعجال أربعة أمور:

١ - معرفة أن الداعي قد تجاب دعوته أو يصرف عنه من سوء مثلها، وقد تدخر له دعوته يوم القيامة فالله أعلم بما يصلحه.

٢ - أن في تأخير إجابة الدعاء استمرار الداعي بالتضرع والذل لله ولو أجيب دعوته لترك التضرع والدعاء.

٣ - أن من الأنبياء من استجاب الله دعوتهم بعد موتهم بقرون كاستجابة الله دعاء أبينا إبراهيم عليه السلام، حينما دعا ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. فبعث الله نبينا محمداً ﷺ بعد قرون.

٤ - أن في الاستعجال آفتين عظيمتين هما سوء الظن بالله وفي المقابل تركية الداعي نفسه.

(١) البخاري مع الفتح (١١ / ١٤٠) كتاب «الدعوات»/ باب يستجاب للعبد ما لم يعجل. رقم (٦٣٤٠).

(٢) سبق تخرجه.

والخوف.

.....

الخوف: لغة: الفزع.

قال ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع»^(١).

واصطلاحاً: هو اضطراب القلب واحتراقه وفزعه عند تذكر مقام الله ووعيده بعقوبة من عصاه وخالف أمره.

أو: «الانخلاع عن طمأنينة الأمن والتيقظ لنداء الوعيد والحذر من سطوة العقاب»^(٢).

والخوف شعار الصالحين، وأقوالهم في ذلك كثيرة، منها:

قال أبو بكر الصديق رحمه الله: «يا ليتني شجرة تعضد ثم تؤكل»^(٣) وورد مثل هذا عن أبي ذر^(٤) وابن مسعود^(٥) وعائشة^(٦) وأبي الدرداء^(٧) وغيرهم^(٨) رحمهم الله.

وأما عمر رحمه الله فاقراً حواراه مع أبي موسى الأشعري تعرف شدة خوفه من ربه، كما رواه ابنه عبد الله بن عمر قال: قال أبي: «يا أبا موسى هل يسُرُّك إسلامنا مع رسول الله

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٢٣٠) مادة خوف.

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٨١).

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٢٥١).

(٤) «الزهد» لأحمد (١٨٢).

(٥) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٨٨)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١/ ١٣٣).

(٦) «الزهد» لوكيع (١/ ٣٩٥).

(٧) «الزهد» لهناد (١/ ٢٥٨).

(٨) انظر: «الزهد» لوكيع (١/ ٣٩٣) و«الزهد» لهناد (١/ ٢٥٨) كلاهما باب من قال: ليتني لم أخلق.

وهجرتنا معه وجهادنا معه وعملنا كله معه بَرَدَ لنا، وأن كل عمل عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس فقال أبو موسى الأشعري: لا والله قد جاهدنا بعد رسول الله ﷺ وصلينا وصمنا وعملنا خيراً كثيراً وأسلم على أيدينا بشر كثير وإننا لنرجو ذلك. قال عبدالله بن عمر فقال أبي: لكنني أنا والذي نفس عمر بيده لوددت أن ذلك بَرَدَ لنا وأن كل شيء عملناه بعد نجونا منه كفافاً رأساً برأس»^(١).

ويضرب عبدالله بن مسعود المثل في خوفه من الله فيقول: «وددت أن الله غفر لي ذنباً من ذنوبي أو خطيئة من خطاياي وإني لا أعرف لي نسباً»^(٢). وفي لفظ: «لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي رجلان، ولحثيتم على رأسي التراب، ولوددت أن الله غفر لي ذنباً من ذنوبي، وإني دعيت عبد الله بن روثة»^(٣).

ويضطرب قلبه رحمته عندما قال رجل عنده: «ليتني من أصحاب اليمين، فيقول مجيباً: ليتني إذا مت لم أبعث»^(٤) ومثله عمران بن حصين رحمته حيث يقول: «وددت أني رماد تذروني الرياح»^(٥).

ويصف عبدالله بن مسعود رحمته حال المؤمن وخوفه وحال المنافق وعدم مبالاته فيقول: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا»^(٦).

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٢٥٤) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩١٥).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٧)، و«المستدرک» (٣/ ٣٥٧).

(٣) «الزهد» لأحمد (١٩٥).

(٤) المرجع السابق (١٨٦).

(٥) البخاري مع الفتح (١١/ ١٠٢)، كتاب «الدعوات»/ باب التوبة. رقم (٦٣٠٨).

ولشدة خوف الحسن البصري فإنه يخشى أن ترد عليه أعماله الصالحة كلها فيقول: «نضحك ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئاً»^(١).

ويشخص حال كل من المؤمن والمنافق مع الخوف وعدمه فيقول: «المؤمن أحسن الناس عملاً وأشدّهم من الله خوفاً لو أنفق في سبيل الله ملء الأرض ذهباً ما أمن حتى يعاين ويقول: أبداً لا أنجو، أبداً لا أنجو. والمنافق يقول: سواد الناس كثير وما عسى ذنبي في جملة الذنوب إن الله رحيم وسيغفر لي ثم يقول: ابن آدم تعمل السيئات وتتمنى على الله الأمان»^(٢) ويصور مورك حال المؤمن من الخوف والحذر أبلغ تصوير فيقول: «ما وجدت للمؤمن في الدنيا مثلاً إلا كمثل رجل على خشبة في البحر وهو يقول: يا رب يا رب لعل الله ينجيه»^(٣).

ويحذر ابن عون رحمته الله من الثقة بالعمل والركون إليه ومن الأمن من الذنوب فيقول: «لا تثق بكثرة العمل، فإنك لا تدري تُقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك فإنك لا تدري هل كُفرت عنك أم لا، لأن عملك مغيب عنك كله لا تدري ما الله صانع فيه أيجعله في سجين أم يجعله في عليين»^(٤).

وإذا ما استشعرت أن ذنبك الذي أذنبته قد كتب أوجب لك الخوف قال بعضهم لرجل: «هل أذنبت ذنباً؟ قال: نعم، قال: فعلمت أن الله كتبه عليك، قال: نعم، قال: فاعمل حتى تعلم أن الله قد محاه»^(٥).

(١) «صفوة الصفوة» (٣/ ٢٣٣).

(٢) «آداب الحسن وزهده» لابن الجوزي (٤١).

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٤٨٤).

(٤) «الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ٥٥٨) رقم (٦٩٣٠).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٢٢).

وأختم هذه الآثار بصورتين حيتين من واقع سلفنا الصالح رحمهم الله:

أما الصورة الأولى فرواها المغيرة بن حكيم قال: قالت لي فاطمة بنت عبد الملك: يا مغيرة! إنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر بن عبد العزيز، وما رأيت أشد خوفاً من ربه منه، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده ثم يرفع يديه فلم يزل يبكي حتى تغلبه عينه ثم ينتبه فلا يزال يدعو رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عينه يفعل ذلك ليله أجمع»^(١).

وأما الثانية فهي: ما كان الضحاك بن مزاحم يفعل فإنه: «إذا أمسى بكى فيقال له: ما يبكيك؟ فيقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي»^(٢).

حالتا الخائف من حيث الاستقامة وعدمها:

١ - أن يكون مفرطاً عاصياً مائلاً عن الاستقامة:

فيكون خوفه من العقوبة على ميله.

ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أ - معرفته بالجناية وقبحها.

ب - تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

ج - أنه لا يعلم فربما يحال بينه وبين التوبة بسبب هذا الذنب ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا

أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فهذا النوع من الخوف ثمرة العلم بالوعد والوعيد.

(١) «الزهد» لابن المبارك (٣٠٨) رقم (٨٨٤)، و«الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٦٦).

(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٥٠).

٢- أن يكون مستقيماً على الطاعة:

فيكون خوفه مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء الله أقامه وإن شاء أزاغه، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه كان أكثر يمينه: «لا ومقلب القلوب»^(١)، فأَيُّ قرار لمن هذه حاله؟ ومن أحقُّ بالخوف منه؟ بل خوفه لازم له في كل حال. وهذا الخوف ثمرة العلم بقدره الله وعزته وجلاله^(٢).

متعلق الخوف:

يوضح أمير المؤمنين علي عليه السلام متعلق الخوف فيقول: «لا يرج عبد إلا ربه ولا يخف إلا ذنبه»^(٣).

فمتعلق الخوف (ذنب العبد وعاقبته) فيخاف العبد أن يخذل بسبب ذنوبه وأن يعاقبه الله ويخزيه بها.

وهذه الحقيقة واضحة وضوحاً تاماً لدى الصحابة عليه السلام، فعن أنس عليه السلام أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك» قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»^(٤)^(٥).

(١) البخاري مع الفتح (٥١٣/١١) كتاب «القدر»/ باب يحول بين المرء وقلبه. رقم (٦٦١٧).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٨٣-٢٨٤) بتصرف.

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢٨٣-٢٨٤/١٣)، و«الجامع لشعب الإيمان» (٢١٩/١٧).

(٤) الترمذي (٣١١/٣)، كتاب «الجنائز». رقم (٩٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (١٤٢٣/٢)، كتاب «الزهد»/ باب ذكر الموت والاستعداد له. رقم (٤٢٦١)، و«الجامع لشعب الإيمان» (٢٨٢/١)، قال النووي: «إسناده جيد». «خلاصة الأحكام» (٩٠٢/٢)، وحسن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٦٨/٤).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥٦/١٠)، و«طريق الهجرتين» (٢٨٥).

قَدْرُ الخوف وعلو منزلته:

تتجلى قيمة الخوف وعلو منزلته بما يلي:

١ - أن الخوف من الله شرط في تحقيق الإيمان:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، «فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف، انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه... فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان، وكلُّ منهما مستلزم للآخر»^(١).

قال إبراهيم التيمي: «ينبغي لمن لا يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار لأن أهل الجنة قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] وينبغي لمن لا يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾^(٢) [الطور: ٢٦] فمن فقد الخوف خسر الإيمان قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

٢ - أنه لا يمكن أن تخلو منه عباده:

فالعابد الذي يريد وجه الله راج خائف راغب راهب يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، ولا يتصور أن يخلو داع لله دعاء عبادة أو دعاء مسألة من الرغب والرهب من الخوف والطمع^(٣).

(١) «طريق الهجرتين» (٢٨٢).

(٢) «صفة الصفوة» (٩١ / ٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٤٠ / ١٠).

٣- أن الله مدح أوليائه وأنبياءه بالخوف منه:

لما كان الخوف أحد أركان العبادة العظام مدح الله أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال عن الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] ومدح الله تعالى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بالخوف منه فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ [التوبة: ١١٤] الأواه كثير التأوه خوفاً من الله عز وجل^(١).

«قال ابن إسحاق: قيل لابن المبارك: رجلان أحدهما أخوف والآخر قتل في سبيل الله، قال أحبهما إليّ أخوفهما»^(٢).

٤- أنه إذا كمل الخوف من الله ذهب الخوف من المخلوق:

إذا كمل خوف العبد من ربه لم يخف أحداً سواه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وإذا نقص خوفه من الله خاف من المخلوق. وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف من غير الله. فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحدٌ يسلم منه إلا من عصمه الله.

فإذا خاف الرجل غير الله دل على وجود مرض في قلبه كما ذكروا أن رجلاً شكاً إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة، فقال: «لو صححت ما خفت أحداً»^(٣)، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك. ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان بل لا يخافوا إلا هو سبحانه، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونِ﴾^(٤) [المائدة: ٤٤].

(١) «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٧١).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (١٩٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٤) و(٢٨/ ٤٩٤).

أقسام الخوف:

الخوف الذي يعتري القلوب أنواع، هي:

الأول: الخوف الواجب «الخوف العبادي التوحيدي الإيماني»:

وهو الخوف من الله تعالى وحده لا شريك له وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان، بل إنَّ فقد هذا الخوف علامة على فقد الإيمان وهو من أفضل مقامات الدين وأنفعها للقلب. وأمر الله به في آي كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿وَلِيَتَنَبَّهُوا بِاللَّهِ فَأَرْسَلْنَا فِي آيَاتِنَا أَنْبِيَاءَ بِحُكْمِ رَبِّهِمْ فَآذَنُوا بِهِمْ وَفِي آيَاتِنَا أَنْبَاءُ الْبَرِّ وَالنَّارِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ومدح الملائكة بإخلاص الخوف له فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] ومدح المبلغين لرسالاته وخصهم بمدحه لإخلاصهم الخوف منه سبحانه فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ولذا صار فرضاً على كل أحد^(١).

بل أجمع العلماء على فرضيته، قال ابن بطة: «أجمعت العلماء لا خلاف بينهم أن الله عز وجل قد افترض على الخلق الخوف والرجاء وأنه دعا عباده إليه بالرغبة والرغبة»^(٢).

وقدر الخوف الواجب هو ما حجزك عن محارم الله^(٣).

وأما الخوف المستحب: فهو ما حمل العبد على «التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات»^(٤).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١١)، و«العواصم والقواصم» (٩/ ١٥٦).

(٢) «الشرح والإبانة» (٣٤٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

(٤) «التخويف من النار» لابن رجب (٢١).

وهذا هو الذي عناه أبو عثمان حين قال: «صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا»^(١).

وأما «حقيقة الخوف: فألا تخاف مع الله أحدًا»^(٢).

ثمرة الخوف: ثمرة الخوف هي الزجر والمنع من الخروج عن الطريق وذلك أن المحبة تلقي العبد في السير على محبوبه والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب^(٣)، وفي ذلك صلاح القلب فكلما استقر الخوف في القلب استقام القلب وصلاح وكلما نقص الخوف أو انعدم انحرف القلب وضلَّ عن الصراط المستقيم. قال أبو سليمان الداراني: «ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب»^(٤).

والخوف العبادي التوحيدي يشمل أمورًا ثلاثة:

١ - خوف مقام الله: وفسر مقام الله بعظمة الله ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]. أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة. وفسر بالمقام بين يدي الله يوم القيامة ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

٢ - خوف وعيد الله لمن عصاه: كالخوف من عقوبة الله بالنار ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [١٥] مَن يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ [١٦] ﴿[الأنعام: ١٥-١٦].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٤).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ٩٥).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣).

وقد جمع الله بين خوف مقامه وخوف وعيده، بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

٣- خوف القواطع عن الله تعالى:

من أخطر ما يواجه المسلم وهو سائر في طريقه إلى الله: تلك القواطع التي تقطعه عن الله، فتحرف مساره عن الطريق الصحيح، كالشرك والنفاق والفتن ونحو ذلك، فيتحتم على المسلم الخوف منها.

ومن أدلة ذلك: خوف أبي الحنفاء حين دعا ربه، فقال: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (٢٥) رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ [إبراهيم: ٣٥-٣٦].

وحذر ﷺ صحابته من الشرك، فقال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»^(١).

وفزعوا ﷺ خوفاً من النفاق، كما صوره ابن أبي مليكة بقوله: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه»^(٢).

خَوْفُ الْمَقَامِ مَعَ الْوَعِيدِ تَصَدَّعَتْ	مِنْهُ الْقُلُوبُ قُلُوبُ ذِي الْإِيمَانِ
وَكُذَّاءُ خَوْفِ قَوَاطِعٍ مِنْ فِتْنَةٍ	مَعَ شُرَكَهِ وَنِفَاقِ ذِي الْكُفْرَانِ

الثاني: الخوف المحرم:

وينقسم الخوف المحرم إلى قسمين:

١- الخوف الشرقي الكفري:

وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل أو نحو ذلك

(١) أحمد (٤٢٨/٥)، قال المنذري: «رواه أحمد بإسناد جيد». «الترغيب والترهيب» (١/٦٩).

(٢) البخاري (١/١٨)، كتاب «الإيمان» / باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

بقدرته ومشيتته، فهذا شرك أكبر مناف للتوحيد، قال تعالى عن المشركين: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦] ثم ردّ عليهم ربنا جل وعلا فقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ معرفة معادة الأوثان وقالوا: كف عن شتم آلهتنا أو ليصيبناك منها خبل أو جنون^(١).

ولما خوف إبراهيم عليه السلام قومه آلهتهم رد عليهم بما ذكره الله ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] فبين لهم أنه لا يخاف آلهتهم ثم رد الأمر إلى مشيئة الله سبحانه لأنه هو الذي يخاف فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠] وهذا الاستثناء منقطع ومعنى ذلك لا أخاف من تلك الآلهة التي تخوفوني بها فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إذا شاء الله أن ينالني بشيء لا راد لذلك لأن الله وحده له المشيئة النافذة والقدرة التامة، وهذا كقول قوم هود لهود عليه السلام: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ﴾ [هود: ٥٤] فكان رده عليهم قويا حتى تحداهم جميعا هم وآلهتهم فأبطل بذلك ظنهم الشركي الكاذب كما قال الله عنه: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤-٥٥].

ولم يهددوا الرسل بالآلهة المزعومة إلا لأنهم يخافون منها. «وهذا القسم هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت كما يخافون الله عز وجل بل أشد. ولهذا لو توجهت على أحدهم باليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذباً أو صادقا فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذباً، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله... وإذا أراد أن يظلم أحداً فاستعاذ بالله لم يُعْذَهُ ولو استعاذ

(١) «معالم التنزيل» (٤ / ٨٠).

بصاحب التربة لم يقدم عليه ولم يتعرض له بالأذى»^(١).

وسأكتفي بنموذجين اثنين من الخوف الشرطي:

أ- عندما هجا الحاج العربي المشرفي السيد عبد الله بن أحمد احتمى بضريح المولى إدريس نحو عامين^(٢)، عامين لم يستطيعوا أن يمسه بسوء خوفاً من صاحب الضريح.

ب- لما ثار الناس على والي فاس من أجل المكس عام (١٢٩١هـ) هدموا داره، وانتهبوا أثاثه، وأرادوا قتله، فاختلفوا ببعض الأماكن حتى سكنت الهيعة، ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس، فأقام به، وأمن على نفسه^(٣). كل أهل فاس خافوا أن يمسه بسوء خوفاً من صاحب الضريح.

ومن المقولات الخاطئة قول بعض الناس: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك. قال شيخ الإسلام: «هذا كلام ساقط لا يجوز بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه وإذا قيل قد يؤذيني قيل: إنما يؤذيك بتسليط الله له وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله وإنما يسلط على العبد بذنوبه وأنت إذا خفت الله فاتقته وتوكلت عليه كفاك شر كل ذي شر ولم يسلطه عليك، فإنه قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرت له لم يسلط عليك»^(٤).

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٤٥٨).

(٢) «الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام» (٥٢/٣).

(٣) المرجع السابق (٥٢/٣).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٥٧-٥٨)، ومثلها ما اشتهر على ألسنة بعض الناس، وهي قولهم: «الذي لا يخاف

من الله خف منه».

٢- خوف المعصية:

وذلك أن يرتكب المسلم المعصية خوفاً من الناس وهو خوف محرم ولا شك. قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه». قال فبكى أبو سعيد فقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا^(١).

فإن وصل إلى الردة صار كفراً وشرّاً أكبر ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ومن الناس من يقول أقررنا بالله فوحدناه، فإذا آذاه المشركون في إقراره بالله جعل فتنة الناس إياه في الدنيا كعذاب الله في الآخرة، فارتد عن إيمانه بالله راجعاً على الكفر به. قال ابن عباس: «فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ»^(٢).

الثالث: الخوف الجائز «وهو الخوف الطبيعي»:

وهو الخوف من شيء مخوف انعقدت أسبابه، وهو الخوف من سبب جرت العادة بخطورته كالخوف من سبع أو حية أو هدم أو غرق ونحو ذلك فهذا لا يمدح ولا يذم لذاته والفرق بينه وبين السابق أن المحرم يجر إلى ارتكاب معصية أو ترك طاعة أما الخوف الطبيعي فلا يجر إلى ارتكاب معصية أو ترك طاعة كخوف موسى عليه السلام عندما أرادوا قتله قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١] ولم يلّمه الله على هذا الخوف فدلّ على أنه جائز لا بأس به.

وكما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أسلم.

(١) الترمذي (٤/٤٨٣-٤٨٤) كتاب «الفتن»/ باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة. رقم (٢١٩١)، وقال: «حديث حسن صحيح». وابن ماجه (٢/١٣٢٨)، كتاب «الفتن»/ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رقم (٤٠٠٧).

(٢) «جامع البيان» (٢٠/١٢).

كما يروى ذلك عبدالله بن عمر عن أبيه فيقول: «بينما هو في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحريير وهو من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أسلمت، قال: لا سبيل إليك بعد أن قالها أمنت. فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي. فقال أين تريدون، فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبا. قال: لا سبيل إليه. فكّر الناس»^(١).

الأسباب الجالبة للخوف:

الخوف من أجل منازل الطريق فهو الزاجر للقلب عن الخروج من طريق أهل الاستقامة.

وعندما ننظر إلى أنفسنا نجد ضعفها في هذا الجانب فتساءل هل من سبيل إلى تقوية الخوف من الله؟ والجواب نعم وذلك بالأمور التالية:

(١) التوحيد:

التوحيد هو العامل الأول للخوف من الله إذ يشعر الموحد أن النفع بيد الله والضرر بيده، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

ويقرر النبي ﷺ هذه الحقيقة جيداً بل ويغرسها في قلوب الشباب من الصغر فيقول في وصيته لابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(٢).

(١) البخاري مع الفتح (١٧٧/٧) «مناقب الأنصار»/ باب إسلام عمر بن الخطاب. رقم (٣٨٦٤).

(٢) أحمد (١/٢٩٣)، والترمذي (٤/٦٦٧)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٥١٦)، وقال: «هذا حديث

حسن صحيح»، وابن منده في كتاب «التوحيد» (١٠٧/٢) وقال: «هذا إسناد مشهور، رواه ثقات، =

ونتيجة ذلك: أن يتوكل عليه وحده، ويخلص له العبادة.

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله بل يفرد الله بالمخافة ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين^(١) قال الفضيل بن عياض: «من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»^(٢).

(٢) العلم:

من الأسباب الرئيسة في جلب الخوف من الله هو العلم وهو حقيقة بينها الله بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وكلما كان المرء بالله أعلم كان له أخوف وأتقى ولما كان أعلم الناس هو رسول الله ﷺ صار هو أتقاهم وأخشاهم قال ﷺ: «إِنَّ أَتَقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ أَنَا»^(٣).

وفي لفظ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي»^(٤).

وهذه حقيقة مستقرة في قلوب سلف هذه الأمة من الصحابة فمن بعدهم والآثار في ذلك كثيرة أكتفي بثلاثة منها:

أما الأول فقال ابن عباس رضي الله عنه: «من خشي الله فهو عالم»^(٥) وأما عبدالله ابن المبارك

وقيس بن الحجاج مصري روى عنه جماعة ولهذا الحديث طرق عن ابن عباس وهذا أصحها، وقال ابن رجب: «طريق حنش التي أخرجها الترمذي حسنة جيدة». «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٤٨).

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٤٥) بتصرف.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (١/ ٢٦٥).

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٧٠) كتاب «الإيمان»/ باب قوله ﷺ: «أنا أعلمكم بالله». رقم (٢٠).

(٤) مسلم (٢/ ٧٨١) كتاب «الصيام»/ باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب. رقم (١١١٠).

(٥) «سنن الدارمي» (١/ ٩٢) «المقدمة»/ باب فضل العلم والعلم.

فيقول: «أكثركم علمًا ينبغي أن يكون أشدكم خوفًا»^(١).

وثالثها قول الفضيل بن عياض: «إن رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله»^(٢).

٢ - قراءة القرآن وسماحه:

كلام ربي فيه من الزواجر ما يجعل القلوب تلين وتتحرك وتخاف، ولذلك أثنى الله على المتأثرين بالقرآن الخائفين عند سماعه بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣].

وإمام الخائفين الخاشين لله هو رسول الله ﷺ كان القرآن يحرك قلبه بالخشية فيبكي ومن ذلك بكاءه ﷺ عندما قرأ عليه ابن مسعود آية النساء حتى إذا بلغ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال لي: «كف أو أمسك، فرأيت عينيه تذر فان»^(٣).

وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً بكاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن^(٤).

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فتبكي حتى تبل خمارها^(٥).

وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿وَبَلِّغُوا لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦] فبكى حتى خرّ وامتنع عن قراءة ما بعده^(٦).

(١) «حلية الأولياء» (٨ / ١٦٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١ / ٢٠٧).

(٣) البخاري مع الفتح (٩ / ٩٨) كتاب «فضائل القرآن» / باب البكاء عند قراءة القرآن. رقم (٥٠٥٥).

(٤) البخاري (٧ / ٢٣١) كتاب «فضائل أصحاب النبي» / باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة. رقم (٣٩٠٥).

(٥) «الزهد» لأحمد (٢٠٥).

(٦) المرجع السابق (٢٤٠).

٣- استشعار كتابة ما يصدر عنه:

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأخذ بطرف لسانه في مرضه فيلوكه ويقول: هذا أوردني الموارد^(١).

وكان الإمام أحمد يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رضي الله عنه^(٢).

٤- تأمل معاني أسماء الله التي فيها الجلال والعظمة:

من أعظم ما يوجد الخوف في قلب المسلم تأمل أسماء الله تعالى. قال ابن القيم: «وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات وانقبضت أعينها رعوناتها فأحضرت المطيئة حظها من الخوف والخشية والحذر»^(٣).

٥- استشعار أن الله مطلع عليه عالم بفعله ونيته:

قال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمْتُ أَيْنَهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

«الخبر هو العالم بخفايا الأشياء وحقائقها وهذا الوصف من أكبر الدواعي لإعظام الله ومراقبته وطاعته في أمره ونهيه لأنه مطلع على أسرار الضار والنافع»^(٤).

(١) «الزهد» لو كيع (٢/ ٥٥٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «الفوائد» (١٢٠).

(٤) «معارج الصعود» (٣٩).

قال سهل بن عبدالله: «لا يبلغ العبد حقيقة الخوف من الله حتى يخاف مواضع علم الله فيه ويحزن على ذلك»^(١).

٦- إرسال الآيات المخيفة:

كلما غفل الناس وضيعوا من أوامر الله ما ضيعوا أرسل الله إليهم ما يذكرهم من الآيات - قال تعالى: ﴿وَمَا نُزِّلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِّفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] - لعلهم ينزجرون ويعودون إلى الجادة وإلى الطريق المستقيم ومنها:

أ- الكسوف والخسوف:

كسفت الشمس في عهد النبي ﷺ ففزع فرعاً شديداً، ومن شدة فزعه أخطأ بدرع إحدى زوجاته حتى أدرك بردائه ﷺ^(٢) وذهب يصلي، فأطال القيام والركوع والسجود، ثم خطب بعد الصلاة ومما قال ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخُوفُ بِهِمَا عِبَادَهُ»^(٣).

ومما قال لهم: «لله أغير من أن يزني عبده أو أمته فنهاهم عن الذنوب وأمرهم بالتعود من عذاب القبر وأرشدهم إلى الصدقة والصلاة والدعاء حتى يكشف الله ما بهم»^(٤).

ب- الرياح الشديدة والغيم:

فعن أنس رضي الله عنه قال: «كانت الرياح الشديدة إذا هبت عُرف ذلك في وجه النبي ﷺ»^(٥).

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢١٥).

(٢) مسلم (٢/ ٦٢٥) كتاب «الكسوف»/ باب ما عرض للنبي ﷺ في صلاة الكسوف. رقم (٩٠٦).

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٣٦) كتاب «الكسوف»/ باب قول النبي يخوف الله عباده بالكسوف. رقم (١٠٤٨).

(٤) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٢٩) كتاب «الكسوف»/ باب الصدقة في الكسوف (١٠٤٤)، ومسلم (٢/ ٦١٨-٦٣٠)، كتاب «الكسوف». رقم (٩٠١-٩١٥).

(٥) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٢٠) كتاب «الاستسقاء»/ باب إذا هبت الرياح. رقم (١٠٤٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «إذا تخيلت السماء تغير لون النبي ﷺ وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سُرِّي عنه فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته، فقال: «لَعَلَّه يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌنَا﴾»^(١) [الأحقاف: ٢٤].

وقد كان السلف يستشعرون ذلك ويخافون منه، قال أبو زكريا الهمداني: كنا عند علي بن بكار فمرت سحابة فسألته عن شيء فقال لي: «اسكت حتى تجوز هذه السحابة أما تخشى أن تكون فيها حجارة تُرمَى بها»^(٢).

ومن الآيات الزلازل والفيضانات وغيرها، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

٧- تذكر عقوبات الأمم الغابرة:

كل أمة عصت وخالفت أمر الله وتجبرت وطغت ولم تطع رسل الله نزلت بها عقوبة الله ﷻ كقوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم، فعلينا أن نتذكر تلك العقوبات ونتوب إلى ربنا، قال تعالى في سورة القمر بعد ذكره عقوبة كل قوم عصوا: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ [القمر: ١٥-١٦]، وفي سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨].

وعندما ذكر عقوبة قوم لوط قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وهذا يقودنا إلى الخوف من الله أن يأخذنا على غرة بسبب ذنوبنا ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَّتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨].

(١) مسلم (٦١٦/٢) كتاب «صلاة الاستسقاء»/ باب التعوذ من رؤية الريح والغيم. رقم (٨٩٩).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (٢٧٦/١).

٨- تذكر الأمور المستقبلية:

يستقبلنا أمور عظام، وأهوال جسام (موت، ثم قبر، ثم قيامة، ثم صراط ونار)، فمن أكثر من ذكرها أورثه ذلك الخوف والإشفاق، قال ابن القيم: «فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو»^(١).

ولقد استقر ذكر الآخرة في قلوب السلف، حتى سيطر الخوف منها على قلوبهم، ومن ذلك: ما رواه المروزي، فقال: «كان أبو عبدالله إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب. وإذا ذكرت الموت هان علي أمر الدنيا»^(٢). «ودخل رجل على الحسن فإذا هو يبكي، قال: ما يبكيك أصلحك الله؟ قال: أخاف أن يدخلني مالكي النار ولا يبالي»^(٣).

ومن شدة استقرار أمر الآخرة في قلوبهم أن كل شيء يذكرهم الأمور المستقبلية ومن ذلك ما رواه الحسن قال: خرج هرم بن حيان وعبدالله بن عامر يريدان أرض الحجاز فبينما راحلتاهما ترعيان قال هرم بن حيان يا بن عامر! أيسرك أنك شجرة من هذه الشجر أكلتك هذا الراحلة فقدفتك بعراً فأنحذت جلة قال والله لما أرجو من رحمة الله ﷺ أحب إليّ من ذلك. فقال هرم بن حيان: ولكنني والله لوددت أني شجرة من هذا الشجر أكلتني هذه الناقة فقدفتني بعراً فأنحذت جلة ولم أكابد الحساب يوم القيامة إما إلى جنة وإما إلى نار ويحك يا ابن عامر إني أخاف الداهية الكبرى. قال الحسن كان والله أفقههما وأعلمهما بالله ﷺ^(٤).

(١) «طريق الهجرتين» (٢٨٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١ / ٢١٥).

(٣) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (٢٥).

(٤) «الزهد» لأحمد (٢٨٤-٢٨٥).

والرجاء.

الرجاء لغة: الرء والجيم والحرف المعتل أصلان متباينان يدل أحدهما على الأمل^(١).
قال الليث: الرجاء ممدود وهو نقيض اليأس^(٢).

وإنما يستعمل الرجاء في موضع الخوف إذا كان معه حرف نفي ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] والمعنى: ما لكم لا تخافون لله عظمة^(٣).

واصطلاحًا: حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار والآخرة ويطيب لها السير طامعة فيما عنده من النعيم المقيم وذلك بفعل الطاعات والبعد عن المعاصي^(٤).
مكانة الرجاء وأهميته:

الرجاء من أجل المنازل وأعلاها وأشرفها وتتضح مكانته وأهميته بما يلي:
الأول: أن الله مدح أهله وأثنى عليهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].
وأثنى على خواص عباده الصالحين برجائهم رحمته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٥٩) مادة (رجا).

(٢) «تهذيب اللغة» (١١/ ١٧٩) مادة (رجا).

(٣) المرجع السابق (١١/ ١٨١) مادة (رجا).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥) وقوله يحدو القلوب: أي يحثها على السير ويقال للسهم إذا مضى حدا الريش وحدا النصل، انظر: «تهذيب اللغة» (٥/ ١٨٦)، وانظر: «المصباح المنير» (١٢٥).

وأن المقتدين بالرسول حقيقة هم أهل الرجاء، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

الثاني: أن الرجاء من أعظم أسباب المغفرة:

يجلي ذلك النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ فيقول: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي»^(١).

الثالث: أن الرجاء هو محرك القلوب والجوارح إلى الله: ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح بل لولا الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة.

لولا التعلق بالرجاء تقطعت	نفس المحب تحسراً وتمزقاً
وكذاك لولا برده لحرارة الـ	أكباد ذابت بالحجاب تحرقاً
أ يكون قط حليف حب لا يرى	برجائه لحبيبه متعلقاً
أم كلما قويت محبته له	قوي الرجاء فزاد فيه تشوقاً
لولا الرجاء يحدو المطي لما سرت	بحمولها لديارهم ترجو اللقا ^(٢)

وهذا يدل على أهمية الرجاء وعظيم منزلته وأنه يدخل في جميع أنواع العبادات فلا يتصور أن تخلو منه عبادة^(٣).

الرابع: أن الرجاء ضرورة: الرجاء ضروري للعبد فلو فارقه لحظة لتلف أو كاد، لأن العبد دائر بين أمور خمسة:

١ - ذنب يرجو غفرانه.

(١) الترمذي (٥٤٨/٥) كتاب «الدعوات»/ باب في فضل التوبة والاستغفار. رقم (٣٥٤٠). قال ابن رجب: «إسناده لا بأس به». «جامع العلوم والحكم» (٣/١١٥٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٤٢٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٤٠).

- ٢- عيب يرجو إصلاحه.
 - ٣- عمل صالح يرجو قبوله.
 - ٤- استقامة يرجو حصولها ودوامها.
 - ٥- قرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها.
- فالرجاء من أقوى الأسباب التي يصل بها العبد إلى مطلوبه^(١).
- متعلق الرجاء:

متعلق الرجاء هو الله سبحانه وذلك لأن رحمة الله من لوازم ذاته -التي لا تنفك عنه بحال- فسبقت غضبه^(٢). بين ذلك النبي ﷺ حينما دخل على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك؟»، فقال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»^(٣).

ووعاها علي عليه السلام فقال: «لا يرج عبد إلا ربه»^(٤).

فعلق رجاءك بربك سبحانه. واحذر أن تعلقه بمخلوق، «لأن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسباباً فالسبب لا يستقل بنفسه بل لابد له من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى.

ولهذا قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد»^(٥).

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤١-٥٢).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٨٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٥٦-٢٥٧).

أقسام الرجاء:

ينقسم الرجاء إلى قسمين هما:

الأول: الرجاء التوحيدي العبادي:

الرجاء التوحيدي العبادي: هو رجاء المؤمنين بالله واليوم الآخر ربهم سبحانه فقط، مخلصين له وحده، آملين منه أن يحقق الله لهم ما يرجون.

ورجاؤهم على وجوه أربعة هي:

(١) رجاء الظفر بالمطلوب.

(٢) رجاء دوامه بعدما قد حصل.

(٣) رجاء دفع المكروه وصرفه لئلا يقع.

(٤) رجاء الدفع والإمالة لما قد وقع^(١).

وأهل الرجاء التوحيدي العبادي نوعان هما:

أ- رجاء المسيئين المفرطين:

ينبغي لكل من أساء بارتكاب الذنب وكلنا كذلك إلا من رحم ربك أن يخافوا أن يخذلوا بذنوبهم ومع ذلك ينبغي لهم أن يرجوا عفو الله ورحمته، قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢] وعسى من الله واجبة لأنها إطماع من كريم قد غلبت رحمته غضبه. وإليك أنموذجاً يحرك قلبك برجاء العفو من العفو الرحيم قال ﷺ: «يجيء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوبٍ أمثال الجبال يغفرها الله لهم»^(٢).

(١) «المنهاج» للحليمي (١/٥١٧).

(٢) مسلم (٤/٢١٢٠) كتاب «التوبة»/ باب قبول توبة التائب. رقم (٢٧٦٦).

وأما آخر أهل الجنة دخولاً فله نبأ عجيب أخبر به النبي ﷺ بقوله: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها. رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، وكذا، فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: إن لك مكان كل سيئة حسنة. فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها هنا فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»^(١).

ب- رجاء المطيعين الصالحين:

لما كان الخوف لا يمكن أن يفارق القلب مهما ارتقى في مدارج الكمال واجتهد في طاعة ربه وانكف عن معاصيه. كان لا بُدَّ له من رجاء يبرد حرارة ذلك الخوف ويقويه على الاجتهاد في الطاعة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

ومن ذلك ما فعل عمير بن الحمام رضي الله عنه في غزوة بدر عندما دنا المشركون قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض». قال عمير رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض. قال: «نعم». قال: بخ بخ. قال رسول الله ﷺ: «ما يملك على قولك: بخ بخ» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل هذه إنها حياة طويلة فرمى بها كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل»^(٢).

(١) مسلم (١/ ١٧٧) كتاب «الإيمان»/ باب أدنى أهل الجنة منزلة. رقم (١٩٠).

(٢) مسلم (٣/ ١٥١٠-١٥١١) كتاب «الإمارة»/ باب ثبوت الجنة للشهيد. رقم (١٩٠١).

وهو على درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: رجاء يبعث المسلم على الاجتهاد في الطاعات متلذذاً بها مع بغضه للمحرمات وتركه لها.

قال شاه الكرمانى: «علامة صحة رجاء العبد حسن الطاعة».

الدرجة الثانية: رجاء المجاهدين لأنفسهم بترك المشتبهات:

فهؤلاء يتركون كثيراً من المباحات خوفاً من الوقوع في المكروهات ويتركون المشتبهات لئلا يقعوا في المحرمات ممثلين قول النبي ﷺ: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهة فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجتراً على ما يشك فيه من الإثم أو شك أن يواقع ما استبان والمعاصي حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع»^(١).

قال حسان بن أبي سنان: «ما رأيت شيئاً أهون من الورع، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٢).

وقال عبدالله بن عمر: «لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر»^(٣).

الدرجة الثالثة: رجاء أصحاب القلوب الممتلئة بالإيمان واليقين لقاء ربهم:

أعظم الراجين لله سبحانه نبينا محمد ﷺ، ولذلك كان أشد الناس شوقاً للقائه، ولهذا كان يقول في دعائه: «وأسألك لذّة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء

(١) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٩٠) كتاب «اليوع»/ باب الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبّهات. رقم (٢٠٥١).

(٢) البخاري مع الفتح (٤/ ٢٩١) كتاب «اليوع»/ باب تفسير المشبهات.

(٣) البخاري مع الفتح (١/ ٤٥) كتاب «الإيمان»/ باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس».

مضرة، ولا فتنة مضلة»^(١)، لعلمه ﷺ: «أن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه».

قال تعالى مبشراً من يرجوه ويحب لقاءه بقرب لقاءه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥].

وهذه هي أفضل درجات الرجاء وأعلاها وهي محض الإيمان وزبدته وإليها شخصت أبصار المشتاقين ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقاءه وضرب لهم أجلاً يسكن قلوبهم ويطمئنهم^(٢).

الثاني: الرجاء الشرقي الكفري:

الرجاء الشرقي: هو رجاء غير الله في دفع الضر وجلب النفع.

كلما تباعد الناس عن عصر النبوة. خفت عندهم نور الوحي فانتكست مفاهيمهم فعبدوا غير الله واتجهوا بقلوبهم وأعمالهم إليهم راجين منهم جلب النفع ودفع الضر وتفريج الكرب كما وقعت فيه الأمم المشركة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: «ولا ريب أن الاستشفاع بالأموال يتضمن أنواعاً من العبادة: سؤال غير الله، وإنزال الحوائج به من دونه، ورجاؤه والرغبة إليه، والإقبال عليه بالقلب والجوارح واللسان. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله»^(٣).

(١) النسائي (٥٤/٣)، كتاب «السهو»، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢٩/١) رقم (١٣)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٦١)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٩٦)، والحاكم في «المستدرک» (٥٢٤/١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣١٩/١) رقم (٢٤٤)، وصححه الألباني في تحقيقه «للكلم الطيب» (٦٦) رقم (١٠٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٥٤/٢) بتصرف يسير.

(٣) «القول الفصل النفيس» (٩٠).

والمصيبة الكبرى والداهية العظمى أن هذا الانحراف قد تسرب إلى المسلمين من اليونان، وأمم الكفر، فأنحرفت مفاهيم بعضهم حتى جهلوا معنى لا إله إلا الله. ففسروها بأنه القادر على الاختراع أي بتوحيد الربوبية فظنوا أن من آمن بتوحيد الربوبية فقد صح إيمانه وتم، فوقعوا فيما وقع فيه الأولون من الشرك بالله تعالى.

ومن أمثلة ما وقعوا فيه مما زينته لهم الشياطين:

١ - قول قائلهم: «قبر معروف ترياق مجرب»^(١).

٢ - لما قدم التتار إلى دمشق خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور التي يرجونها لكشف الضر.

حتى قال قائلهم:

يا خائفين من التتر لو ذوا بقبر أبي عمر^(٢)

٣ - ومن صور الاستغاثة بالشيخ عبدالقادر الجيلاني: «بأن من كان له حاجة وصلّى ركعتين في الليل ثم استقبل بغداد وتوجه إلى الشيخ عبدالقادر واستغاثه بهذين البيتين:

أيدركُنِّي ضيِّمٌ وأنت ذخيرتي وأظلمٌ في الدنيا وأنت نصيري
وعار على راعي الحمى وهو في الحمى إذا ضاع في الهيجا عقال بعير

وناداه باسمه وذكر حاجته فإنها تقضى^(٣).

ويظن بعض الناس أن رجاء أصحاب القبور ودعائهم والطلب منهم في وقت مضى. وليس الأمر كذلك بل كثير منها موجود اليوم كما يؤكد ذلك محمد الغزالي فيقول متحدثاً عن القبور في هذا العصر «ومع ذلك فهي مزارات معمورة مشهورة تقصد لتفريج

(١) «وفيات الأعيان» (٥/ ٢٣٢).

(٢) «غاية الأمان في الرد على النبهاني» (٢/ ٣٤٤).

(٣) «صيانة الإنسان» (١٩٣).

الكرب وشفاء المرضى وتهوين الصعاب»^(١).

وأختم بما ذكره عبدالرحمن الوكيل عن حالة الطلبة في معهد ديني عند الاختبار حيث يصف حالته وحالة زملائه فيقول: «عندما توزع أسئلة اختبار آخر العام تهب هذه الآلاف المضطربة من الطلبة رافعة أكفها في ضراعة.. حتى يبح صوتها وتتمزق حناجرها إذ تنعق ضارعة يا سيد ويا ويل السمع من ياء النداء، لقد كانت تطول وتطول حتى ليخيل إليك أنها دخان بارد يحترق فيلمس دخانه قبة النجم، ولعلك تسألني وماذا يفعل بكم شيوحكم؟ كانوا يرفعون في سكرة الحب وذل الخشية أيديهم المعروقة يمسحون بها وجوههم أو يمشطون لحاهم ومن بين الشفاء الذوابل تنساب هذه المهمة رضي الله عنك يا سيد ثم يلتفتون إلينا وعلى وجوههم ألق الرضى ناصحين في تأييد وإعجاب «كفاية ما خلاص سمعكم السيد»^(٢).

وهل الرجاء الشرطي ينفع صاحبه؟

لا، لا ينفع صاحبه فما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه لأنه وضع الرجاء في غير موضعه.

بل يحصل له نقيض قصده، قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١]^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، فرجوا منهم الأمن والحماية، فعوملوا بنقيض قصدهم، فأصابهم الرعب والرهق.

وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

(١) «عقيدة المسلم» (٢٨).

(٢) «هذه هي الصوفية» (٤ - ٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٥٦-٢٥٧).

مذموماً لا ماح لك، مخذولاً لا ناصر لك.

وذلك أن «المشرك يرجو بشركه النصر تارة والحمد والثناء تارة فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم»^(١).

فمن رجا غير الله عومل بنقيض قصده لأنه أساء في رجائه وعمله.

أقسام الرجاء من حيث الصحة والكذب:

ينقسم الرجاء من حيث الصحة والكذب إلى قسمين:

(١) الرجاء الصحيح: هو ما قارنه العمل وبينه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فجعل شرط الرجاء الصحيح العمل الصالح الذي يتغى به وجه الله تعالى.

ووصف أهله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ

يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فجمعوا بين أمور ثلاثة عظام هي: الإيمان والهجرة والجهاد، فمن قام بها على

صعوبتها وشدتها كان للقيام بها سواها أولى وأحرى.

«وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة»^(٢).

(٢) الرجاء الكاذب: وهو «حديث النفس بحصول ذلك المقصود مع تعطيل

الأسباب الموصلة إليه»^(٣). فالرجاء الكاذب حقيقته التمني. والأماشي رؤوس أموال

المفاليس وصاحبه من العجزة كما قال ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤٠).

(٢) «تيسير الكريم المنان» (١/ ٢٧٠).

(٣) «الروح» (٢٤٥).

الأماني»^(١).

قال ابن أبي الدنيا: «الرجاء بلا عمل اجترأ على الله عز وجل»^(٢).

وبهذا يتضح الفرق بين الرجاء الصحيح وبين الرجاء الكاذب الذي هو في الحقيقة تمنٍّ وغرور.

الأسباب الجالبة للرجاء:

الأسباب الجالبة للرجاء كثيرة منها:

١ - التوحيد:

وعد الله أهل التوحيد وعدين لم يعدّ بهما أحداً غيرهم، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أَمِنُ في الدنيا والآخرة، واهتداء في الدنيا والآخرة، ومن رزق هذين الوعدين، فلا أحد أرجى منه.

ولكونه أعظم أسباب الرجاء ربط النبي ﷺ الفلاح والسعادة به حين كان يطوف بالعرب بسوق ذي المجاز ويقول: «أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا»^(٣).

٢ - العمل الصالح:

لما كان العمل هو شرط الرجاء الصحيح صار من أهم الأسباب الجالبة للرجاء ولهذا بشر الله العاملين بجنات النعيم في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

(١) أحمد (٤/ ١٢٤)، والترمذي (٤/ ٦٣٨)، كتاب «صفة القيامة». رقم (٢٤٥٩)، وقال: «هذا حديث

حسن»، وحسنه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠٨) رقم (٤١١٦).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٩٨).

(٣) «دلائل النبوة» (٢/ ١٨٦) للبيهقي، وقال الذهبي: «إسناده قوي». «السيرة النبوية» (٨٦).

ومن الأعمال البدنية قوله ﷺ: «من حجَّ هذا البيت فلم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمه»^(١). وإذا كانت أعمال الجوارح بهذه المثابة، فأعمال القلوب أعظم وأعظم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظللهم في ظلي يوم لا ظلَّ إلَّا ظلي»^(٢).

٣- تأمل أسماء الله التي فيها العفو والمغفرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣].

«أي يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات فيستر ويضاعف فيشكر»^(٣). فمن استشعر عفو الله ومغفرته قوي رجاءه بربه تبارك وتعالى.

٤- سعة رحمة الله تعالى:

إذا استشعر المسلم رحمة الله التي وسعت كل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] طمع في أن تسعه رحمة أرحم الراحمين الذي خلق مائة رحمة، قال النبي ﷺ: «الله خلق يومَ خلق السموات والأرض مائة رحمة. كُلُّ رَحْمَةٍ طَباق ما بين السماء والأرض...»^(٤).

٥- الشفاعة:

الشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ يفرح بها العبد المسلم لأن النبي ﷺ خير بين أن يدخل نصف أمته الجنة أو الشفاعة فاختر الشفاعة، كما في حديث عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أنَّه أتاني الليلة من ربي آت يخبرني بين أن يدخل نصف أمّتي

(١) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٨٢) كتاب «الحج»/ باب الحج المبرور. رقم (١٨٢٠).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١١٤).

(٤) مسلم (٤/ ٢١٠٩) كتاب «التوبة»/ باب سعة رحمة الله. رقم (٢٧٥٣).

الجنة، وبين الشفاعة، وإني اخترت الشفاعة»^(١).

٦ - فتح باب التوبة:

ما أكثر الذنوب والخطيئات التي نرتكبها في الليل والنهار «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»^(٢)، وكثرة الخطأ والزلل مما يخيف العبد ولكن الله تكرم علينا ففتح باب التوبة كي نمحو خطيئاتنا وزلاتنا وذلك لعظم كرمه وجوده. قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٣).

قال ابن القيم: «قلت لشيخ الإسلام رحمه الله يوماً: سئل بعض أهل العلم أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار فقال: إذا كان الثوب نقياً فالبخور وماء الورد أنفع له، وإن كان دنساً، فالصابون والماء الحار أنفع له، فقال لي رحمه الله: فكيف والثياب لا تزال دنسة»^(٤). أي لازم التوبة والاستغفار لتجلوا عنك أثر الذنوب والخطايا.

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسلم (٤/١٩٩٤)، كتاب «البر والصلة» / باب تحريم الظلم. رقم (٢٥٧٧).

(٣) مسلم (٤/٢١١٣) كتاب «التوبة» / باب قبول التوبة من الذنوب. رقم (٢٧٥٩).

(٤) «الوابل الصيب» (١٩٨).

والتوكل.

التوكل لغة: الواو والكاف واللام أصل صحيح يدل على اعتماد غيرك في أمرك... والتوكل هو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك^(١).

واصطلاحًا: هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المنافع ودفع المضار في الدنيا والآخرة، وعرفه ابن عباس بقوله: «هو الثقة بالله تعالى»^(٢).

قال أحمد بن حنبل: «وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به»^(٣).

وقال الحسن: «إِنْ مِنْ تَوَكَّلِ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ هُوَ ثِقَتَهُ»^(٤).

ف «التفويض روح التوكل ولبه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلبًا واختيارًا لا كرهاً واضطرارًا»^(٥) ولهذا أمر الله بتفويض الأمور إليه وحده فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن مسعود رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] هذه الآية أكبر آية في القرآن تفويضًا^(٦).

وكان رسول الله ﷺ مفوضًا أمره إلى ربه قائلاً: «اللهم أسلمت وجهي إليك،

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٦ / ١٣٦) مادة (وكل).

(٢) «زاد المسير» (٢ / ٢٤).

(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٢ / ٧٢).

(٤) «التوكل على الله» لابن أبي الدنيا (١٨) و«الحث على التجارة» للخلال (١٢٥).

(٥) «مدارج السالكين» (٢ / ١٢٢).

(٦) «جامع البيان» (٢٨ / ١٤٠).

وفوضتُ أمري إليك»^(١).

ولما نصح مؤمن آل فرعون قومه بطاعة الله ورسوله بيّن لهم صدق اعتماده على الله، وتفويض أمره إلى ربه؛ لأنه هو الذي يحفظه ويحميه من ضررهم وأذاهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

فماذا حصل بسبب تفويضه أمره إلى الله؟ أن وقاه الله شرهم ومكرهم: ﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

وكان سعيد بن جبير يدعو الله أن يرزقه التوكل عليه، فيقول: «اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك»^(٢).

ومما يدل على أن التوكل هو اعتماد القلب على الله لجلب المنافع ودفع المضار ورود كلمة (حسبي الله) فإنها وردت في القرآن في كليهما، فأما في جلب المنافع ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وأما في دفع المضار ففي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ومعنى حسبنا الله: أي كافينا الله.

وجمعها النبي ﷺ بقوله: «إذا خرج الرجل من بيته، فقال: بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، قال: يقال حينئذ: هديت وكفيت، ووقيت، فتتنحى له الشيطان،

(١) البخاري مع الفتح (٣٥٧/١) كتاب «الوضوء»/ باب فضل من بات على وضوء. رقم (٢٤٧).

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبه (٥٣٨/١٣) رقم (١٧١٩٢).

فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجلٍ قد هدي وكفي ووقي»^(١).

فقوله: «هدي»: جلب منفعة، وكفي ووقي: دفع مضرة.

ولازم التوكل: «قطع الاستشراف بالإيأس من الخلق»^(٢).

أهمية التوكل وعلو منزلته:

التوكل من أجل أعمال القلوب وأعلاها، ومما يدل على أهميته وعلو منزلته ما يلي:

١ - أن الله جعله شرطاً في الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فدلّ الشرط على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل فمن لا توكل له لا إيمان له. قال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الإيمان»^(٣).

وقال سهل: «من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان»^(٤).

٢ - أن التوكل على الله نصف الإيمان^(٥) ولأجل ذلك جمع الله بين التوكل والعبادة في

سبعة مواضع من كتابه، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال حكاية عن عباده المؤمنين إنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا

(١) أبو داود (٣٢٨/٥) كتاب «الأدب»/ باب ما يقول إذا خرج من بيته. رقم (٥٠٩٥)، والترمذي

(٥/٤٩٠)، كتاب «الدعوات»/ باب ما يقول إذا خرج من بيته. رقم (٣٤٢٦)، وقال: «حديث حسن

صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، قال ابن القيم: «حديث حسن». «زاد المعاد» (٢/٣٦٨-٣٦٩).

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/٤١٦).

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبه (١٣/٥٣٨) رقم (١٧١٩١)، وابن أبي الدنيا في «التوكل» (٥)، و«حلية الأولياء» (٤/٢٧٤).

(٤) «حلية الأولياء» (١٠/١٩٥)، و«الجامع لشعب الإيمان» (٢/١٧٩).

(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/١٦٥٦).

وإِلَيْكَ أُنَبِّئُكَ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» [المتحنة: ٤]، وأمر الله نبيه بالتوكل، فقال: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٨) رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» [المزم: ٨-٩]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٠]، وأمرنا به جميعاً فقال: ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].
فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين التوكل وهو الوسيلة والإنابة وهي الغاية، فأشرف الغايات هي عبادة الله والإنابة إليه ولا وسيلة إليها إلا بالتوكل على الله والاستعانة به، فلذا صارت هذه الوسيلة أشرف الوسائل (١).

قال شيخ الإسلام: «إن الله لم يأمر بالتوكل فقط بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ما حذر، فمن ظن أنه يرضى ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالاً كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي الله عليه دون التوكل كان ضالاً» (٢).
وهذا ظاهر في هدي النبي ﷺ كما في قوله عند ذبح الأضحية: «اللهم منك ولك» (٣).
فإن قوله: «منك» هو معنى التوكل والاستعانة وقوله «لك» هو معنى العبادة (٤).
وبهذه الأدلة يتضح أن «التوكل نصف الدين والنصف الثاني هو الإنابة فإن الدين استعانة وإنابة» (٥).

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢٥٥-٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٥٢٧/٨).

(٣) أبو داود (٢٣١/٣) كتاب «الضحايا»/ بباب ما يستحب من الضحايا. رقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه (١٠٤٣/٢)، كتاب «الأضاحي»/ باب أضاحي رسول الله ﷺ. رقم (٣١٢١)، والدارمي (٥٣٧/١)، كتاب «الأضاحي»/ باب السنة في الأضحية. رقم (١٩٤٦)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٨٧/٤)، باب استحباب توجيهه للقبلة والدعاء عند الذبح. رقم (٢٨٩٩)، والحاكم في «المستدرک» (٦٣٩/١)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

(٤) «التوحيد» لابن تيمية (٩٩).

(٥) «مدارج السالكين» (١١٣/٢).

٣. تلازم التوكل والهداية:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]. فكل مهتد لا بُدَّ أن يكون متوكلاً على الله تعالى، فهو لاء الرسل «عجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً، وهذا دليل على أن التوكل والهداية متلازمان»^(١).

ولما أمر الله نبيه أن يتوكل عليه علل ذلك بأنه على الحق المبين فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

فإن كون العبد على الحق يقتضى تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به فهو ناصر دينه ومؤيده وهو حسب من قام به وتوكل عليه وكافيه.

٤ - أن التوكل يجمع أصليين اثنين هما علم القلب وعمله.

«أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه. وأما عمله: فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه وتفويضه وتسليمه أمره إليه ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه»^(٢).

٥ - أن التوكل أقوى الأسباب لدفع الأذى:

«فمن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع لعدوه فيه... قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاءً من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال»^(٣). ومن

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٧).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٧).

(٣) «ذم الحسد وأهله» لابن القيم (٣٢).

ثم كانت الرسل عليهم السلام يربون أتباعهم على التوكل على الله كما كان موسى عليه السلام يفعل مع قومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمُ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فأمرهم بالتوكل على الله لأن فيه الوقاية من أذى فرعون وقومه.

ولأجل هذا صار التوكل على الله ملجأ الخليلين ومعاذهما فلقد توكلا على الله في أحلك الظروف وأحرج المواقف فوقاهما الله شر أعدائهما.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وقالها محمد عليه السلام حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ [آل عمران: ١٧٣]. وفي رواية عنه: كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار (حسبي الله ونعم الوكيل) (١).

بل تحدى نوح عليه السلام قومه بتوكله على الله كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

«فلولا أن تحقيقه هذه الكلمة وهو توكله على الله يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزاً لهم من مناجزته، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه وهذا لا يجوز وهذا طلب تعجيز لهم. فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به» (٢).

(١) البخاري مع الفتح (٨ / ٢٢٩) كتاب «التفسير»/ باب الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم. رقم (٤٥٦٣ و ٤٥٦٤).

(٢) «جامع الرسائل» المجموعة الأولى (٩٦).

ولقوة التوكل في دفع الأذى ربطه الله باسميه العزيز والحكيم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها فينصر من يستحق النصر ويخذل من هو أهل للخذلان»^(١).

٦ - أنه أوسع المنازل وأجمعها:

«منزلة التوكل أوسع المنازل وأجمعها ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العالمين وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار... فأفضل التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس، وأوسع وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في جلب مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض وهذا توكل ورثتهم»^(٢).

«والأصل الجامع الذي تتفرع عنه الأفعال والعبادات هو التوكل على الله وصدق الالتجاء إليه والاعتماد بالقلب عليه وهو خلاصة التفريد ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضا به رباً وإلهاً والرضا بقضائه بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء وعدّه من النعماء كما في حديث السبعين ألفاً الذي يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فسبحان من يتفضل على من شاء بما يشاء والله ذو الفضل العظيم»^(٣).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣١٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣-١١٤).

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (١١٠)، وانظر: «طريق المهجرتين» (٢٥٨).

ولسعته ذكره الله وأمر به في مقامات كثيرة منها:

أ- مقام العبادة: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (٧) واذكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ [المزمل: ٧-٩].

ب- مقام الدعوة ووجود المعاندين والمناوئين: قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿يَقَوْمُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

ج- في مقام الحكم والقضاء: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

د- في مقام الإيمان: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر؟ - وفي رواية الترمذي: فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ - قال المسلمون: يا رسول الله، فما نقول، قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(١).

هـ- في مقام الجهاد: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ [آل عمران: ١٢١-١٢٢] بل جعله الله أعظم أسباب النصر فقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٢٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ ﴿١٢٤﴾ [آل عمران: ١٧٣].

و- في حال السلم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]. ذكر الله التوكل في حال السلم لأن الناس قد يظنون أن التوكل في حال الحرب

(١) أحمد (٣/ ٧٣)، والترمذي (٤/ ٦٢٠) «صفة القيامة»/ باب ما جاء في شأن الصور. رقم (٢٤٣١)،

وقال: «هذا حديث حسن».

والخوف فقط^(١).

٧- أن الله أمر به الأنبياء ﷺ وأتباعهم وجعله شعاراً لهم:

قال تعالى أمراً نبينا محمد ﷺ بالتوكل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً﴾ [الفرقان: ٥٨].

وأما أنه شعار لهم، ففي قوله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيئِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤].

وأما أنه شعار لأتباعهم ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

قال قتادة: «هذا نعت لأهل الإيمان، نعتهم فأثبت نعتهم ووصفهم فأثبت صفتهم»^(٢).

حكم التوكل:

التوكل على الله واجب لما يلي:

(١) أن الله ذكر التوكل أمراً به أو مثلياً على المتوكلين في خمسة وعشرين موضعاً، تسعة مواضع منها لنبينا محمد ﷺ. ومنها قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]، والأمر يقتضي الوجوب.

(١) انظر: «التوكل على الله» للقرني (٦٦-٧٥)، فقد ذكر مقامات غير هذه. تركتها لأجل الاختصار.

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٦٥٦/٥)، و«جامع البيان» (١٧٩/٩).

(٢) أنه «أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان وجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل»^(١).

قال شيخ الإسلام: «فالتوكل على الله واجب من أعظم الواجبات كما أن الإخلاص لله واجب وحب الله ورسوله واجب، وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾»^(٢) [هود: ١٢٣].

أنواع التوكل:

ينقسم التوكل إلى قسمين:

الأول: التوكل الشرعي التوحيدي العبادي:

وهو توكل أهل التوحيد على الله وحده في كل شأن من شؤون دينهم ودنياهم. قال تعالى حاصراً التوكل عليه سبحانه وحده: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. فأتى بآية الدالة على الحصر والقصر، وقدم ما حقه التأخير لحصر توكل المؤمنين عليه وحده.

وأمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه وحده معللاً بأنه الحي الذي لا يموت وغيره يموتون، وهو الخبير ومن عداه ليس عندهم علم، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُدْءَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/٧).

وبين النبي ﷺ أن التوكل على الله وحده من أخص صفات السبعين ألفاً الذين استحقوا دخول الجنة بلا حساب كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه وفيه: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(١).

فلنحرص على تحقيقه لأن من لم يحققه كان مآله الخذلان^(٢).

درجات الناس في التوكل:

الناس في التوكل على درجات متعددة، هي:

(١) درجة أولياء الله المتوكلين عليه في نصره دينه:

وهذه حال أصحاب الهمم العالية الذين همهم إعلاء كلمة الله ونصر دينه، وأعلى هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام وصحابتهم رضوان الله تعالى عليهم فإن همهم في التوكل عليه أعلى من غيرهم، فإن توكلهم كان في نصر دين الله وإعلاء كلمته وعبادته وحده لا شريك، وفتح قلوب العباد وبصائرهم لنور الهدى، فملؤوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيماناً، وفتحوا ديار الكفر فصارت ديار إيمان وإسلام. وصدوا عدوان المفسدين ودحروهم، وهكذا ورثتهم إلى قيام الساعة.

(٢) المتوكل على الله في استقامته في نفسه فقط:

وهذه حال كثير من العباد الذين لم تكن لهم همة إلا صلاح نفوسهم فقط، وهذه دون الأولى.

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٤٠٥-٤٠٦) كتاب «الرقاق»/ باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب. رقم (٦٥٤١)، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠) كتاب «الإيمان»/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب. رقم (٢٢٠).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٧).

(٣) المتوكل على الله في جلب حوائجه الدنيوية أو دفع المكروهات والمصائب الدنيوية، وهذا حال من يبحث عن الدنيا من منصب ومال وزوجة، وولد ونحو ذلك، وهذه المرتبة دون الثانية.

(٤) المتوكل على الله في حصول الإثم والفواحش^(١):

«وهؤلاء لا ينالون مطالبهم غالباً إلا باستعانتهم بالله وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم»^(٢).

الغبن في التوكل:

«كثير من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله، وقد توكل حقيقة التوكل وهو مغبون، كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء.... فهذا توكل العاجز القاصر المهمة كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعائه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين وزيادة الإيثار ومصالح المسلمين»^(٣).

متى يبرز التوكل على الله ويتضح أو يختفي ويتلاشى؟

يبرز التوكل على الله ويتضح في مواقف الشدة والضيق والخرج، كتوكل إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار، وموسى عليه السلام عندما خافت بنو إسرائيل حين لحقهم فرعون، والنبي ﷺ وأصحابه عندما قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فإذا لم يجد الإنسان التوكل على الله في مثل هذه المواطن فليراجع إيمانه.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٣)، و«التحفة العراقية» (٤٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٤).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٥-١٢٦).

الثاني: التوكل الشركي:

وهو الاعتماد على غير الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار وهذا النوع من التوكل ينافي ويضاد التوكل على الله تعالى بل هو شرك، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١] في هذه الآية دليل على أن التوكل على الله عبادة فصرفه لغير الله شرك.

ولأنه لما كان لا كافي إلا الله سبحانه كان التوكل على غيره شركاً وباطلاً، ولهذا قال الصالحون: «حسبنا الله» ولم يقولوا حسبنا الله ورسوله.

ويدل على التوكل الشركي قوله ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّهْنِمْ وَالتَّوَلَّ شَرَكٌ»^(١).

فحكم على التهائم بأنها من الشرك لما فيها من الاعتماد على غير الله تعالى في دفع الشرور والآفات^(٢).

وأبطل الطيرة وغيرها مما يكون سبباً في الاعتماد على غير الله تعالى.

وينقسم التوكل الشركي إلى قسمين:

(١) التوكل والاعتماد على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء النصر والحفظ ونحو ذلك. ويسمى هذا النوع توكل السر، لأنه لا يقع إلا لمن يعتقد أن لهذا الميت تصرفاً سرّياً في الكون.

(٢) التوكل على الأسباب الظاهرة، كالتوكل على السلطان فيما جعله الله بيده وهذا

(١) أحمد (١/ ٣٨١) وأبو داود (٤/ ٢١٢)، كتاب «الطب»/ باب في تعليق التهائم. رقم (٣٨٨٣)، وابن

ماجه (٢/ ١١٦٦-١١٦٧)، كتاب «الطب»/ باب تعليق التهائم. رقم (٣٥٣)، وصححه الألباني في

«صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٢٦٩).

(٢) «الوعد الأخرى» (٢/ ٨٣٤-٨٣٥).

من الشرك وإن كان دون الأول. قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «هذا نوع شرك خفي»^(١) إلا إن كان يعتقد أنها مؤثرة بنفسها فهذا شرك أكبر.

ومن توكل على غير الله واعتمد عليه عوقب بالخذلان.

قال شيخ الإسلام: «إن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته فإنه يُخَذَّلُ من تلك الجهة وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء. ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ولا استنصر بغير الله إلا خُذِلَ وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا»^(٢) [مريم: ٨١-٨٢].

ولما توكل بعض الإنس على الجن ليؤمنوهم زاد الجن الإنس خوفًا وذعرًا قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

ولما لبس الرجل تلك الحلقة متوكلاً عليها أن تحميه من الواهنة أخبره النبي ﷺ أنها لا تزيد إلا وهناً، كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقه من صُفْرٍ، فقال: «ويحك ما هذه؟». قال: من الواهنة، قال: «أما إنها لا تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك؛ فإنك لو متَّ وهي عليك ما أفلحت أبداً»^(٣).

قال شقيق البلخي: «لكل واحد مقام فمتوكل على ماله ومتوكل على نفسه ومتوكل على لسانه ومتوكل على سيفه ومتوكل على سلطنته ومتوكل على الله عز وجل، فأما المتوكل على

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٣٧٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٩/١).

(٣) أحمد (٤/٤٤٥)، وابن ماجه (٢/١١٦٧-١١٦٨)، كتاب «الطب»/ باب تعليق التائم. رقم (٣٥٣١)،

وابن حبان (١٢/٤٤٩) رقم (٦٠٨٥). وقال البوصيري: «هذا إسناد حسن». «مصباح الزجاجاة»

(٤/٧٧)، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «رواه أحمد بسند لا بأس به». «كتاب التوحيد» (٩).

الله ﷻ فقد وجد الاسترواح، نوّه الله به ورفع قدره، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وأما من كان مستروحاً إلى غيره يوشك أن ينقطع به فيشقى^(١).

ويلحق بهما الوكالة الجائزة: وهي توكل الإنسان غيره في فعل مقدور عليه. ولكن ليس له أن يتوكل عليه وإن وكله بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وكله فيه^(٢). ومن ذلك وكالة يعقوب أبناءه بالبحث عن يوسف وأخيه: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

ووكالة النبي أبا هريرة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وكلني رسول الله بحفظ زكاة رمضان»^(٣).

الأسباب الجالبة للتوكل:

الأسباب الجالبة للتوكل على الله كثيرة منها:

١ - التوحيد: التوحيد هو أعظم الأسباب الجالبة للتوكل «فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده بل حقيقة التوكل توحيد القلب فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة»^(٤).

(١) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ١٨٢).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٣٧٣).

(٣) البخاري مع الفتح (٤/ ٤٨٧)، كتاب «الزكاة»/ باب إذا وكل رجلاً فترك شيئاً فأجازة الموكل؛ فهو جائز. رقم (٢٣١١).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).

وذلك أنه إذا علم العبد بتفرد الحق تعالى وحده بملك الأشياء كلها وأنه ليس له مشارك في ذرة من ذرات الكون، كان هذا العلم من أقوى أسباب توكله وأعظم دواعيه... وذلك لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته وجميع مصالحه كلها بيده وحده لا بيد غيره، فأين يجد قلبه مناصاً من التوكل بعد هذا؟^(١) قال تعالى عن هود عليه السلام أنه قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] فاستشعاره أن أمور العباد كلها بيد الله جعله يتوكل على ربه وحده.

٢ - معرفة أسماء الله وصفاته:

معرفة أسماء الله وصفاته شرط أساس في حصول التوكل «فالتوكل من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى، فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات، فله تعلق باسم «الغفار والتواب والعفو الرؤوف والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن» وتعلق باسم «المعز المذل الخافض الرافع المانع» من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله. وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى»^(٢).

ولأجل هذا فإن الله لما أمر نبيه بالتوكل عليه قرنه باسمين من أسمائه فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾، ثم ثلث بالرؤية: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨) ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ ثم بين اختصاصه بالسمع والعلم فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

(١) المرجع السابق (٢/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٢٥).

٣- استشعار العبد حاجته إلى الله تعالى وضرورته إليه:

إذا عرف العبد فقره وفاقته وضعفه وحاجته إلى الغني الكبير الكريم أوجب ذلك له التوكل عليه، وهذا ظاهر جلي في كتاب الله ف «القرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه ومن ذكر نعمائه عليهم ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه»^(١).

فإذا استشعر حاجته إلى ربه افتقر إليه وتوكل عليه، قال سهل: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إليه من الافتقار»^(٢).
فإذا كان خير الخلق وأكملهم أمره الله أن يبين للناس حاجته وفقره إلى ربه فكيف بغيره، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٤- حسن الظن بالله ﷻ:

«على قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله. والتحقيق أن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه. إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به»^(٣).

ثمرات التوكل:

١- الرضى:

الرضا ثمرة التوكل، وذلك أن الرضا والتوكل يكتنفان المقدور فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/١).

(٢) «صفة الصفوة» (٦٥/٤).

(٣) «مدارج السالكين» (١٢١/٢).

وهذا هو معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم»، فهذا توكل وتفويض ثم قال: «فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»، فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: «واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»^(١).

فقد اشتمل هذا الدعاء على التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده وهو ثمرة التوكل والتفويض وهو علامة صحته، فإن لم يرض بما قُضي له فتفويضه معلول فاسد.

ومن فسّر التوكل بالرضا فقد فسّره بأجل ثمراته وأعظم فوائده فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيّله^(٢).

٢ - تحقيق الإيمان:

قال تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

فلا تحقيق للإيمان إلا بتحقيق التوكل على الله تعالى وحده، فمن حقق التوكل على الله وحده فقد حقق الإيمان. ومن لا فلا.

٣ - طمأنينة النفس وانسراح الصدر:

أقوى الناس توكلًا هم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتوكلهم على الله أورثهم انسراح الصدور وطمأنينة النفوس والصبر مهما أصابهم من الأذى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَوَكُّ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلًا وَلَنْصَبِرَ عَلَى مَا أَدَيْتُمونا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]

(١) البخاري مع الفتح (١٨٣/١١) كتاب «الدعوات»/ باب الدعاء عند الاستخارة. رقم (٦٣٨٢).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١٢٢/٢-١٢٣)، «التحفة العراقية» (٤٤).

«وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه فإن الله لا يخيّب أمله فيه البتة... فإنه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الإيمان من ثقته بالله ورجائه له وحُسن ظنه به»^(١).

٤ - كفاية الله للمتوكلين:

الله كافٍ من توكل عليه، قال ابن القيم: «ولا ريب أن الكفاية من الله لا تنال إلا بأسبابها من عبوديته، وسببها المقتضى لها هو التوكل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيّه فجعل التوكل سبباً للكفاية»^(٢).

فيكفيه الله من كل ما أهمه، ألا ترى أن الله كفى نبينا محمداً ﷺ لما توكل عليه من الأعرابي (غورث بن الحارث) عند ما جاءه وهو نائم وأخذ سيفه واختارطه وكان معلقاً بشجرة فاستيقظ وهو في يده صلتاً فقال له: من يمنعك مني، قال رسول الله ﷺ: «الله»^(٣) «فسقط السيف من يده...»^(٤).

ولما خشي يعقوب عليه السلام على أبنائه من أعين الحاسدين توكل على الله مع فعل الأسباب: ﴿وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمَكُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] فحفظهم الله ووقاهم شر الحاسدين.

ويكفي الله العبد من الشيطان بتوكله عليه ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [النحل: ٩٨-٩٩].

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٧١).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ٤٢٦)، كتاب «المغازي»/ باب غزوة ذات الرقاع. رقم (٤١٣٥، ٤١٣٦).

(٤) «دلائل النبوة» (٣/ ٣٧٦).

ويكفيه من الفتن: كفتنة الدجال، قال ﷺ: «إِنَّ رَأْسَ الدَّجَالِ مِنْ وَرَائِهِ حُجُّكَ حَبِكَ»^(١)، فمن قال: أَنْتَ رَبُّ افْتِنَ، ومن قال: كَذَبْتَ، رَبِّي اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، فَلَا يَضُرُّهُ، أَوْ قَالَ: فَلَا فِتْنَةَ عَلَيْهِ»^(٢).

«فالتوكل على الله من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، ومن كان الله كافيهِ وواقِيهِ فلا مطمع لعدوه فيه ولا يضره إلا أذى لا بُدَّ منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً»^(٣).

٦ - العزّة والنصر:

كما أن من توكل على غير الله خذل من تلك الجهة التي أراد منها العزّة والنصر، فإن من توكل على الله رزقه العزّة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ووهب له النصر، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

-
- (١) الحبك هو: «المتكسر من الجعودة». «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٢٦٤).
- وفي حديث ابن عمر في وصف الدجال: «... جعد قطط...». «صحيح البخاري» (٧/ ١٦١)، كتاب «اللباس» / باب «الجعد». رقم (٥٩٠٢)، ومسلم (١/ ١٥٤)، كتاب «الإيمان» / باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال. رقم (١٦٩).
- وقال ابن عبد البر: «أما قوله: «جعد قطط» في صفة الدجال، فالقطط هو المتكسر الشعر الملتوي الذي لا يسترسل شعره ألبته، مثل شعر الحبش». «التمهيد» (١٤/ ١٩٢).
- (٢) أحمد (٤/ ٢٠)، و«جامع معمر بن راشد» المطبوع مع «المصنف» لعبد الرزاق (١١/ ٣٩٥)، والحاكم في «المستدرک» (٤/ ٥٥٤) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٧/ ٣٤٢) رقم (١٢٥٢٢).
- (٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٧).

«نهى عن التوكل على غيره وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غيره»^(١).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ ﴿١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

«فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل»^(٢).

٧- دخول الجنة بلا حساب:

كما في حديث السبعين ألفاً وفيه: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(٣).

٨- جلب الرزق:

قال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطَّير، تغدو خفاصاً، وتروحُ بطاناً»^(٤).

قال ابن رجب: «فهذا الحديث أصل في التوكل وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق»^(٥).

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٩٥).

(٢) «جامع الرسائل» (١/ ٩٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٤/ ٥٧٣) كتاب «الزهد»/ باب في التوكل على الله، رقم (٢٣٤٤). وقال:

«هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠١) رقم

(٤١٠٨) وقال: «حديث حسن».

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٣/ ١٢٦٦).

٩ - الشجاعة وقوة القلب:

الشجاعة والقوة ظاهرة في تحدي الرسل ﷺ لأقوامهم الكفرة. فعادُ وَهُمْ أَقْوَى الأُمم في عصرهم بلغت بهم قوتهم أن اغتروا بأنفسهم حتى قالوا: من أشد منا قوة؟ ومع هذا يأتي شخص واحد يقابلهم ويقول لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ ويعلل سر هذا التحدي بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٥-٥٦] فسرُّ التحدي هو قوة التوكل على الله تعالى، قال شيخ الإسلام: «وهم كانوا أكثر وأقوى منه فكانوا يهلكونه لولا قوته بتوكله على الله»^(١).

قال بعض السلف: «من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»^(٢) وإذا كان المتوكل لا يبالي بالناس وقوتهم وهم أمام ناظريه فحري به ألا يبالي بالأشياء الوهمية التي لا حقيقة لها كالطيرة ونحوها.

الأسباب والتوكل:

ينقسم الناس في موقفهم من الأسباب إلى أربعة أقسام هي:

- ١ - الاعتماد على الأسباب.
- ٢ - محو الأسباب.
- ٣ - الإعراض عن الأسباب.
- ٤ - الاعتماد على الله مع فعل الأسباب وهو الذي عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان.

(١) «جامع الرسائل» (١/ ٩٧).

(٢) «التحفة العراقية» (٤٠) وروى مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولكن ضعفه كثير من أهل العلم وحسنه المناوي والسيوطي. انظر «التوكل» لابن أبي الدنيا تحقيق جاسم الفهيد (٦٠).

قال طائفة من العلماء: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل المأمور به ما اجتمع فيه مُقتَضَى التوحيد والعقل والشرع»^(١). وهو الاعتماد على الله مع فعل الأسباب.

والمحوها جنون فهو إفك	الالتفات للأسباب شرك
في شرعنا إيّاه لا يصفح	ومعرض عن الأسباب قاذح
على الإله سنة أتتك فاعملا	وفعلك الأسباب والتوكلا

وإليك البيان والتوضيح:

الالتفات للأسباب شرك في التوحيد، وذلك لاعتماده عليها واطمئنان قلبه إليها في جلب النفع ودفع الضر ظاناً أنها بذاتها محصلة للمقصود الذي يريده قال شيخ الإسلام: «الالتفات إلى الأسباب - وحدها - شرك في التوحيد وهو ظلم وجهل وهذه حال من دعا غير الله وتوكل عليه»^(٢).

ومحو الأسباب أن تكون أسباباً: أي نفي تأثير الأسباب، فقالوا: إن الله لم يجعل فيها قوى تؤثر فنفوا أن يكون في النار قوة الإحراق ونفوا أن يكون في السم قوة الإهلاك، وليس الشبع بالأكل ولا الري وإذهاب العطش بالماء وليس التوحيد سبباً لدخول الجنة ولا الشرك سبباً لدخول النار، وغير ذلك من الأسباب^(٣).

وكونه نقصاً في العقل لأن إنكار الأسباب مخالف لما عليه جميع العقلاء بل جميع الأسوياء فلو قلت لطفل صغير أعطني شيئاً أقطع به اللحم لجاءك بالسكين ولو قلت

(١) «التحفة العراقية» (٤٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧٥ / ٨) وانظر إن شئت: «مدارج السالكين» (٤٩٩ / ٣ - ٥٠٠).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٤٩٥ / ٣ - ٤٩٩).

لأحد أنضج لنا الطعام لأشعل النار ووضعه عليها ولو قلت لأحد إني جائع لأتاك بالطعام ولو قلت لأحد إني عطشان لأعطاك ماءً وهكذا.

أما الإعراض عن الأسباب: فهو تركها وعدم تعاطيها

كقول أبي سليمان الداراني: «لو توكلنا على الله ما بنينا الحائط ولا جعلنا لباب الدار غلقاً مخافة اللصوص»^(١).

قال ابن الجوزي: «لو قال رجل للصوفية: من أين أطعم عيالي لقالوا: قد أشركت ولو سئل عمن يخرج إلى التجارة لقالوا: ليس بمتوكل»^(٢).

وكونه قدحاً في الشرع لأن الله أمرنا بفعل الأسباب الشرعية ورتب على فعلها الثواب وعلى تركها العقاب.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فأمرنا بالدعاء ووعدنا الاستجابة.

وقوله تعالى: ﴿وَتُودُّوْا أَنْ تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة.

وأمرنا بالأسباب الحسية النافعة، مبطلاً ما يقوله المعرضون عن الأسباب، فقال: ﴿وَتَكَزَّوْدُوا فَإِنَّكُمْ خَيْرَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْغُلَامِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، قال ابن عباس رحمهما الله: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْدُوا فَإِنَّكُمْ خَيْرَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْغُلَامِ﴾» [البقرة: ١٩٧]^(٣).

(١) «حلية الأولياء» (٢٥٦/٩).

(٢) «تلبیس إبليس» (٢٨٢).

(٣) البخاري مع الفتح (٤٤٩/٣) كتاب «الحج»/ باب قول الله تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْدُوا فَإِنَّكُمْ خَيْرَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْغُلَامِ﴾. رقم (١٥٢٣).

وقال أبو عبد الله -أحمد بن حنبل- لما سأله رجل قائلاً: «الرجل يدخل المفازة بغير زاد، فأنكره إنكاراً شديداً، وقال: أف. أف. لا لا -ومد بها صوته- إلا بزاد ورفقاء وقافلة»^(١). وقال صالح بن الإمام أحمد: «سئل أبي وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ويقولون نحن متوكلون. قال: هؤلاء مبتدعة»^(٢).

فالمنادون للإعراض عن الأسباب بدعوى التوكل قدحوا في الشرع من وجهين:
(١) أنهم خالفوا جميع الأدلة الدالة على فعل الأسباب وأبطلوها.

(٢) أن قولهم يدل دلالة واضحة على اتهام الشرع بالتناقض إذ زعموا أن التوكل على الله ينافي الأسباب كما قال ذو النون المصري معرّفاً التوكل: «التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب»^(٣).

وما علموا أن الذي أمر بالتوكل عليه هو الذي شرع فعل الأسباب وأمر باتخاذها. فلا تناقض بينهما لأن التوكل عمل القلب وفعل الأسباب عمل الجوارح. وأما الاعتماد على الله مع فعل الأسباب فهو الذي عليه رسولنا عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان من أهل السنة والجماعة. ويدل على الاعتماد على الله جميع الآيات والأحاديث الآمرة بالتوكل على الله كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وأما فعل الأسباب فأدلتها كثيرة لا تحصى إلا بكلفة ومنها:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] فأمر الله المؤمنين بأخذ الأسباب ومنها الحذر من الكفار.

(١) «الحث على التجارة» (١٣٧) رقم (٩٠).

(٢) «مسائل الإمام أحمد» برواية ابنه صالح (٩/٢) رقم (٥٩٢).

(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٢/١٠٤) رقم (١٢٩١)، و«مدارج السالكين» (٢/١١٥).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] فأمر الله بأخذ أسباب النصر على الأعداء من قوة ومن رباط الخيل. وأما سنته ﷺ فكثيرة جدًا ومنها أنه ظاهر بين درعين يوم أحد واستأجر دليلاً ليدله على طريق هجرته إلى المدينة ونهى عن دخول أرض الطاعون وأمر أبا هريرة أن يحرس الصدقة وأمر بلالاً أن يرقب لهم الصبح في أحد أسفاره ورغب في الزواج وغير ذلك كثير وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم.

وجمع النبي ﷺ بين التوكل وفعل الأسباب في أكثر من حديث ومن ذلك قوله ﷺ: «لو أنكم توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا»^(١).

فجمع ﷺ بين الحث على التوكل والعمل وهو غدوها لطلب الرزق قال الإمام أحمد: «ليس في الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق لأن الطير إذا غدت فإنها تغدو لطلب الرزق»^(٢).

وقال رجل للنبي ﷺ: أرسل ناقتي وأتوكل، قال: «اعقلها وتوكل»^(٣). وفي لفظ: «بل قيدها وتوكل»^(٤).

فجمع له النبي ﷺ بين فعل الأسباب وهو عقل الناقة والتوكل على الله في حفظها.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (٢/ ٦٦-٦٧).

(٣) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٢/ ٢١٥) رقم (٩٧٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٢/ ٥١٠) رقم (٧٣١).

(٤) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٢/ ٢١٥) رقم (٩٧١)، والحاكم في «المستدرک» (٣/ ٧٢٢)، وقال الذهبي: «سنده جيد»، وقال العراقي: «رواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد» تخريج الإحياء (٤/ ٢٧٩).

وهكذا فهم أصحابه رحمهم الله ومن ذلك أن عمر بن الخطاب رحمته الله مر على قوم فقال: «من أنتم؟ فقالوا: نحن المتوكلون فقال: بل أنتم المتكلمون - أي على أموال الناس - ألا أخبركم بالمتوكلين رجل ألقى حبه في بطن الأرض ثم توكل على ربه»^(١).

قال ابن القيم: «فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها»^(٢).

(١) «التوكل» لابن أبي الدنيا (٦١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٠).

والرغبة.

.....

الرغبة لغة: الراء والغين والباء أصلان أحدهما طلب لشيء والآخر سعة في شيء...
والرغبة العطاء الكثير^(١). ويقال: رغب يرغب رغبة، إذا حَرَصَ على الشيء وطمع فيه.
ومنه أفضل العمل منح الرغاب، أي: الإبل الواسعة الدرّ الكثيرة النفع^(٢).
واصطلاحًا: «سفر القلب في طلب المرغوب فيه»^(٣).
وقيل: الرغبة «إرادة الشيء مع الحرص عليه»^(٤).
فالرغبة أخص من الرجاء، فالرجاء طمع والرغبة طلب فإن قوي الطمع صار طلبًا^(٥).
ومما يدل على أن الرغبة طلب: حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال صلى رسول الله
ﷺ: «صلاة فأطأها» قالوا: يا رسول الله، صليت صلاة لم تكن تصلّيها، قال: «أجل إنها
صلاة رغبة ورهبة، إنّي سألت الله فيها ثلاثًا فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة، سألته أن لا
يهلك أمّتي بسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يُسلّط عليهم عدوًا من غيرهم فأعطانيها، وسألته
أن لا يذيق بعضهم بأس بعضٍ فمنعنيها»^(٦).

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤١٥) مادة (رغب).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢٣٦-٢٣٧)، وانظر: «اللسان» (١/ ٤٢٢) مادة (رغب).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢).

(٤) «الكليات» (٤٨٢).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٥-٥٦) بتصرف.

(٦) أحمد (٥/ ٢٤٠)، والترمذي (٤/ ٤٧١-٤٧٢) كتاب «الفتن»/ باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثًا في

أمته. رقم (٢١٧٥)، وقال: «حديث حسن صحيح غريب، وفي الباب عن سعد وابن عمر»، وابن ماجه

(٢/ ١٣٠٣) كتاب «الفتن»/ باب ما يكون من الفتن. رقم (٣٩٥١) عن معاذ بن جبل س. قال =

فالنبي ﷺ حسن صلاته زيادة على العادة لأنه طلب بها شيئاً عظيماً لأتمته، لذا قال: «صلاة رغبة ورهبة».

ولعلو مرتبة الرغبة مدح الله سبحانه تعالى بها أنبياءه ورسله فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ولكونها من أعظم العبادات وأجلها أمر الله بصرفها له وحده لا شريك له فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

«فجعل الله الرغبة إليه وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتنال أوامره وترك زواجه»^(١).

وأرشد النبي ﷺ المسلم إلى تطهير القلب والبدن رغبة إلى الله وحده، لعله إن مات مات على التوحيد، فقال: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به»^(٢).

البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». «مصباح الزجاجة» (٤/ ١٧٠).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٦٢٤).

(٢) سبق تخريجه.

والرهبة.

الرهبة لغة: الرء والهاء والباء أصلان أحدهما يدل على خوف^(١).
قال الراغب الرهبة: مخافة مع تحرز واضطراب. ومنه الرهبانية: وهي غلو في تحمل
التعب من فرط الرهبة^(٢).
فهي أخص من الخوف، فالخوف هرب من المكروه وأما الرهبة فهي الإمعان في
الهرب من المكروه^(٣).
وفي الاصطلاح: «هي الخوف الدائم في القلب»^(٤).
ولكون الرهبة عبادة عظيمة أمر الله عباده أن يرهبوه سبحانه وحده لا شريك له
فقال: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَّهَبُونَ﴾ [النحل: ٥١] وتقديم ما حقه
التأخير (إيائي) يفيد الحصر أي حصر الرهبة منه سبحانه وحده.
وجمع لراهبيه الهدى والرحمة، فقال: ﴿وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ
يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. وذلك لأن أصل كل خير في الدنيا والآخرة هو رهبته وحده.
ولعلو منزلة الرهبة عند الله، أثنى على سادات الأولياء برهبتهم منه، فقال سبحانه:
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾
[الأنبياء: ٩٠].

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ٤٤٧) مادة (رهب).

(٢) «المفردات» (٢١٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٥٥) رقم (١٦٨). وبهذا عرفها الحسن.

وكان النبي ﷺ يدعو ربه أن يوصله تلك المرتبة، فيقول: «رَبِّ اعْنِي وَلَا تَعْنُ عَلَيَّ، وانصُرني وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وامْكُرْ لي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْني لكَ شَاكِرًا لَكَ ذَاكِرًا لَكَ رَاهِبًا لَكَ مُطِيعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي». قال أبو الحسن الطنافسي: قلت لو كيع: أقوله في قنوت الوتر؟ قال: نعم^(١) وفي هذا دليل على أنها مرتبة عالية ترنو لها القلوب الحية. فهي عبادة من أَجَلَ العبادات يجب أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له ولذلك وصف الله من يرهب غيره أَشَدَّ من رهبته منه بالجهل وعدم الفقه ومعرفة حقائق الأشياء، فقال: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣].

(١) أحمد (٢٢٧/١)، وابن ماجه (١٢٥٩/٢) كتاب «الدعاء»/ باب دعاء رسول الله ﷺ. رقم (٣٨٣٠) واللفظ له، والترمذي (٥٥٤/٥)، كتاب «الدعوات»/ باب دعاء النبي ﷺ. رقم (٣٥٥١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود (١٧٥-١٧٦)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقول الرجل إذا سلم. رقم (١٥١٠)، و«شرح السنة» للبخاري (١٧٦/٥) رقم (١٣٧٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وقال ابن القيم: «هذا حديث صحيح». «الوابل الصيب» (٤٠٤).

والخشوع.

.....

الخشوع في اللغة: الذلّ والسكون والانخفاض والتطامن.

قال أبو زيد: خشعت الشمس وكسفت بمعنى واحد. وقال أبو صالح الكلابي، خشوع الكواكب إذا غارت فكادت تغيب في مغيها وخشوع سنام البعير: إذا أنضى فذهب شحمه وتطأطا شرفه^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت، وكل ساكن خاضع خاشع.

ومنه: خشوع الأرض ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

«فأخبر أنها بعد الخشوع تهتز والاهتزاز حركة، وتربو والربو الارتفاع، فعلم أن الخشوع فيه سكون وانخفاض»^(٢).

وفي الاصطلاح: خضوع القلب ومسكنته لله منقاداً ذالاً لأمره وقضائه.

فيكون الخشوع معنى يلتئم من التعظيم والمحبة والذل والانكسار^(٣).

محله الخشوع:

أجمع أهل العلم على أن الخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح^(٤).

(١) «تهذيب اللغة» (١/ ١٥١-١٥٢)، «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٢) مادة (خشع).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٥٥).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١-٥٢٢).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾: أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له^(١).

قال علي بن أبي طالب: «الخشوع في القلب وأن تلين كنفك للمرء المسلم وألا تلتفت في صلاتك»^(٢)، وبمثله قال النخعي وقتادة وغيرهم^(٣).

وأما أن ثمرته على الجوارح فلأنها تتأثر به صلاحاً وفساداً وخشوعاً وخوفاً، قال عليه السلام: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(٤).

ومما يدل على أن خشوع الجوارح تبع لخشوع القلب ووجله قوله سبحانه: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ٨-١٠].

وقال تعالى عن خشوع الصوت: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

فلما وجلت القلوب وخافت وذلت وخضعت تبعتها الجوارح فخشع البصر وخشع الصوت.

فـ «الخشوع يتضمن معنيين: (أحدهما) التواضع والتذلل (والثاني) السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة فخشوع القلب يتضمن عبوديته لله

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٤٨).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٤٠٣) رقم (١١٤٨)، و«الزهد» لوكيع (٥٩٩/٢) رقم (٣٢٨)، وانظر: «تعظيم

قدر الصلاة» للمروزي (١/١٨٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٥٥-٥٥٦).

(٤) سبق تخرجه.

وطمأننته أيضاً... وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب»^(١).

قال ابن رجب: «وأصل الخشوع هو لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقة فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له»^(٢).
وقال القرطبي: «إن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه فتراه مطرقاً متأدباً متذللاً»^(٣).

علامة الخشوع:

علامة الخشوع «أنَّ العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد»^(٤).

حكم خشوع القلب: «خشوع القلب لذكر الله وما نزل من الحق واجب»^(٥).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فدعا الله عباده إلى الخشوع وأمرهم به وحذرهم من ضده فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] ففسوة القلب من أبرز صفات أهل الكتاب وذلك لفسقهم وبعدهم عن طاعة الله تعالى. ففي هذه الآية دليل على وجوب الخشوع من وجهين:

١ - عتاب الله المؤمنين بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

٢ - أن في قسوة القلوب مشابهة لليهود والنصارى، ومشابهة اليهود والنصارى جريمة منكرة، وذنب عظيم.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٧-٢٩).

(٢) «الخشوع في الصلاة» (١٧).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١/٣٧٥).

(٤) «مدارج السالكين» (١/٥٢١).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٧/٢٩).

درجات الخشوع:

الخشوع على درجات ثلاث هي:

١ - التذلل لأمر الله والاستسلام لحكمه: ومعنى التذلل للأمر أي تلقيه بالقبول والانقياد والامثال ظاهراً وباطناً مع إظهار العبد ضعفه وفقره وحاجته إلى ربه وهدايته وإعانتته على فعله، قال سهل بن عبد الله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة هو الخوف من الله تعالى»^(١).

وهذا يجعله يستسلم لحكم الله الديني الشرعي فلا يعارضه برأي أو شهوة، ويستسلم لحكمه القدري فيقابه بالصبر والرضا ولا يتلقاه بالتسخط والاعتراض ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»^(٢).

وقال ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(٣)، ولا يصبر إلا إذا استسلم لحكم الله.

٢ - مراقبة آفات النفس ورؤية فضل كل ذي فضل عليك:

وذلك بالنظر في عيوب النفس من الكبر والعُجب والغرور والرياء وضعف الإخلاص وقلة اليقين، وغير ذلك من عيوبها وباتهامها دائماً بالتقصير وضعف العمل وكثرة الذنوب.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠ / ٧).

(٢) البخاري مع الفتح (٣ / ١٦٣) كتاب «الجنائز» / باب ليس منا من شق الجيوب. رقم (١٢٩٤)، ومسلم

(٩٩ / ١) كتاب «الإيمان» / باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية. رقم

(١٠٣).

(٣) سبق تخرجه.

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لو كان للذنوب رائحة ما جلستم عندي». وقال محمد بن واسع: «لو كان يوجد للذنوب ريح ما قدرتم أن تدنوا مني»^(١).
وقال أبو العتاهية:

نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح لتموتن وإن عمرت ما عمر نوح
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح فإذا المستور منا بين جنبيه فُصُوح
وعندما سئل الإمام أحمد: «أطلبت العلم لله، قال: أما لله فعزير».
وذلك أن «النظر في عيوب النفس يجعل القلب خاشعاً لا محالة»^(٢).

وأما رؤية الفضل فأعلى فضل هو فضل الله علينا، فجميع النعم التي نتقلب فيها هي محض فضل الله علينا بداية من خلقنا، ثم هدايتنا إلى هذا الدين. قال أهل الجنة معترفين بفضل الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]
فهو المانُّ بها سبحانه بلا سبب من العبد.

وأما في تعامله مع الخلق، فإن الخاشع لا يرى له على غيره فضلاً، قال بكر بن عبدالله المزني: «إني لأخرج من بيتي فما ألقى أحداً إلا رأيت له الفضل عليّ، لأني من نفسي على يقين، أما من الناس في شك»^(٣).

وقال: «إذا رأيت من هو أكبر منك فقل: هذا خيرٌ مِنِّي سبقني إلى الجنة، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: هذا خير مني سبقته إلى الذنوب، وإذا رأيت أصحابك يجلونك فقال: هذا كرم منهم لا أستحقه، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل: هذا ذنب أحدثته»^(٤).

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٤٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٣) «الزهد» للإمام أحمد (٢١٨).

(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٢٦)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٢٤٨).

قال شيخ الإسلام: «العارف لا يرى له على أحد حقاً ولا يشهد له على غيره فضلاً ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب»^(١) وقال ابن القيم: «وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم فلا تعاوضهم عليها فإن هذا من رعونات النفس وحماقتها ولا تطالبهم بحقوق نفسك وتعترف بفضل ذي الفضل منهم وتنسى فضل نفسك»^(٢).

٣- ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال:

قد يعجب بعض الناس بعمله فيظن أن له فضلاً وإحساناً حتى قد يصل به الأمر أن يمن بذلك على الله، ومن كان كذلك فقد أصيبت مقاتله ولما من قوم في عهد رسول الله ﷺ عليه بإسلامهم أنزل الله قوله: ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٤]. وهذا خلل كبير سببه فقد الخشوع أو ضعفه. فالخاشع الموفق هو الذي يضبط نفسه بالاستمرار والمداومة على استشعار الذل والفاقة والانكسار بين يدي الله عز وجل حتى عند نشوة النصر، فهذا هو نبينا ﷺ دخل مكة فاتحاً منتصراً قد أعزه الله على عدوه دخلها حين دخلها متواضعاً متخشعاً متذللاً لله تعالى مطأطئاً رأسه حتى إنه ليكاد رأسه يمس مورك رحله. وهكذا أتباعه من بعده:

كما قال عمر رضي الله عنه: «وددت أني خرجت كفافاً، لا لي، ولا علي»^(٣).

وعندما ألف البخاري كتابه «الصحیح» ذكر أول حديث فيه: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها؛ فهجرته

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٣) سبق تخریجه.

إلى ما هاجر إليه»^(١)، فترك أول الحديث لئلا يزكي نفسه.

ولما قال رجل للإمام أحمد: جزاك الله عن الإسلام خيرًا، قال: لا، بل جزى الله الإسلام عني خيرًا ثم قال: «ومن أنا؟ وما أنا»^(٢).

وكان شيخ الإسلام إذا أثني عليه في وجهه يقول: «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا».

وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي

ومن شعره الذي كتبه في آخره عمره (وهو محبوس بالقلعة):

أنا الفقير إلى رب البريات	أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	والخير إن يأتنا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذاتٍ لازمٌ أبدًا	كما الغنى أبدًا وصفٌ له ذاتي
وهذا الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبْدٌ له آتي ^(٣)

منزلة الخشوع وأهميته:

الخشوع عبادة عظيمة منبعها من القلب وتفيض وتظهر على الجوارح، ولذلك خص به النبي ﷺ ربه فكان من دعائه في ركوعه: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري ونخي وعظمي وعصبي»^(٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٢٧٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٥) و«العقود الدرية» (٢٥٠).

(٤) مسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٥) كتاب «صلاة المسافرين»/ باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه. رقم (٧٧١).

ومما يبين منزلة الخشوع وأهميته ما يلي:

(١) أن الخشوع صفةُ الأنبياء ﷺ وأتباعهم: أثنى الله عليهم ومدحهم به. فقال

سبحانه: ﴿وَكَاْنُوْا لَنَا خٰشِعِيْنَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وهو حال أكملهم نبينا ﷺ كما وصفه ابن عباس رضي الله عنهما حال خروجه لصلاة الاستسقاء، فقال: «خرج رسول الله ﷺ متواضعاً متبذلاً متخشعاً مترسلاً متضرعاً»^(١).

والتخشع لله: هو الإخبات والتذلل^(٢).

وأثنى على أهل العلم بخصوصهم بالخشوع عند سماعهم لكلامه فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ۖ
أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّا الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ۖ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]. بل ذكره الله
وصفًا عامًا لأتباع الرسل من عباده الصالحين الذين أعدَّ لهم المغفرة والنعيم المقيم، فقال
سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ...﴾ إلى قوله:
﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(٢) الأمر به بصيغة عتاب من لم يخشع:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ

أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ [الحديد: ١٦].

(١) الترمذي (٢/ ٤٤٥)، كتاب «أبواب الصلاة»/ باب ما جاء في صلاة الاستسقاء. رقم (٥٥٨)، وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ١٥٦) كتاب «الاستسقاء»/ باب الحال التي يستحب للإمام أن يكون عليها إذا خرج، وأبو داود (١/ ٦٨٨-٦٨٩)، كتاب «الصلاة»/ باب جماع أبواب صلاة الاستسقاء. رقم (١١٦١)، وابن ماجه (١/ ٤٠٣)، كتاب «إقامة الصلاة والسنة فيها»/ باب ما جاء في صلاة الاستسقاء. رقم (١٢٦٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (١/١٥٢).

أي أما أن للمؤمنين أن تلين قلوبهم لذكر الله، وتنقاد له، قال ابن مسعود رحمته الله: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»^(١).

٣) عظيم ثمراته:

للخشوع ثمرات عظيمة منها:

أ) الرفع في الدنيا والآخرة:

قال ابن مسعود رحمته الله: «من تواضع لله تخشعاً رفعه الله يوم القيامة»^(٢) وقال ابن القيم: «وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣) وَنُمْكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمْ مِمَّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ» [القصص: ٥-٦]^(٣).

ب) يسر العبادات وسهولتها:

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ج) حماية العبد من الشيطان:

قال سهل بن عبد الله: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان»^(٤)، «فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي خشي به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار مخبتاً له»^(٥).

(١) مسلم (٤/ ٢٣١٩)، كتاب «التفسير» / باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾

[الحديد: ١٦]. رقم (٣٠٢٧).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٩٥).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٤٧٨).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٢).

(٥) «الروح» (٢٣٢).

٤) شموليته للقلب والجوارح:

لما كان الخشوع أصله في القلب ويظهر على الجوارح، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح ظهر من ذلك شموليته لهما معاً.

قال سهل: «لا يكون خاشعاً حتى تخشع كل شعرة على جسده لقول الله تبارك وتعالى: ﴿نَقَشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]»^(١).

وقال تعالى عن خشوع الصوت: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

ووصف تعالى خشوع الأبصار بقوله: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾^(٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ [النازعات: ٨-٩].

وتقرب النبي ﷺ إلى ربه بخشوع أعضائه له سبحانه فكان يقول في ركوعه: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، خشع لك سمعي وبصري ونفسي وعظمي وعصبي»^(٢).

ومدح الله عباده الصالحين بظهور الخشوع على وجوههم فقال: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال قيس بن عباد واصفاً عبداً لله بن سلام: «فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع»^(٣). قال مجاهد مبيناً ما المقصود بسيماهم في هذه الآية: «ليس بهذا الأثر الذي في الوجه ولكنه الخشوع والتواضع»^(٤).

قال ابن رجب: «إذا خشع القلب فإنه يسكن خواطره وإراداته الرديئة التي تنشأ عن

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البخاري مع الفتح (٧/ ١٢٩) كتاب «مناقب الأنصار»/ باب مناقب عبدالله بن سلام رحمته الله. رقم (٣٨١٣).

(٤) «الزهد» لو كيع (٢/ ٥٩٨).

اتباع الهوى وينكسر ويخضع لله عز وجل فيزول بذلك ما كان فيه من الترفع والتعظيم والتكبر ومتى سكن ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها حتى الصوت»^(١) ويدرك خشوع القلب «بسكون الجوارح إذ الظاهر عنوان الباطن»^(٢).

٥) ترتب الفلاح عليه:

مدح الله المؤمنين بالخشوع في أشرف عباداتهم لترتب فلاحهم عليه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

٦) التحذير من فقدته:

تخوف النبي ﷺ على أمته من فقد الخشوع وما ذلك إلا لسرعة فقدته لقلته من يتعلمه فهو أول علم يرفع من هذه الأمة.

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس، حتى لا يقدرُوا منه على شيء»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال: «ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تُغني عنهم». قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت قلت ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء؟ قال: صدق أبو الدرداء إن شئت لأحدثك بأول علم يرفع من الناس الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً»^(٣).

(١) «الذل والانكسار» (٣٧).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٢٢٦).

(٣) الترمذي (٣١-٣٢) كتاب «العلم»/ باب ما جاء في ذهاب العلم. رقم (٢٦٥٣)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، والدارمي في «سننه» (١/ ٨٤) «المقدمة»/ باب من قال: العلم الخشية وتقوى =

وفي رواية عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ نظر إلى السماء يوماً فقال: «هذا أوان يرفع العلم»، فقال له رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد: يا رسول الله كيف يرفع وقد أثبت ووعته القلوب؟ فقال له النبي ﷺ: «إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة»، ثم ذكر له ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله، قال فلقيت شداد بن أوس بحديث عوف فقال: ألا أخبرك بأوّل ذلك يرفع؟ فقلت بلى. قال: الخشوع حتى لا ترى خاشعاً^(١).

ولكي نحذر ونخاف من فقد حذرنا ربنا من حال أهل الكتاب قبلنا فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

«أي لا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه ولا ثبتوا بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تُذكر بما أنزله الله ولا ينبغي الغفلة فإن ذلك سبب لقسوة القلب وجهود العين»^(٢).

الله. رقم (٢٨٨)، والحاكم في «المستدك» (١/ ٧٩)، وقال: «هذا إسناد صحيح من حديث البصريين».

وله شاهد من حديث زياد بن لبيد عند أحمد (٤/ ١٦٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٤٤)، كتاب «الفتن» / باب ذهاب القرآن والعلم. رقم (٤٠٤٨). قال القرطبي: «إسناده صحيح». «التذكرة» (٢/ ٥١١)، وقال ابن كثير: «هذا إسناد صحيح». «تفسير القرآن العظيم» (٤٣٨).

(١) أحمد (٦/ ٢٦-٢٧) والبخاري في «خلق أفعال العباد» (١٠٥-١٠٦) رقم (٣٣٧-٣٣٩)، واللفظ له. والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٣٩٢) رقم (٥٨٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ٤٣٣) رقم (٤٥٧٢). قال القرطبي: «حديث حسن». «التذكرة» (٢/ ٥١٠)، وقال ابن مفلح بعد ذكره لحديث أبي الدرداء، وعوف بن مالك: «هذان حديثان جيدان للإسناد». «الآداب الشرعية» (٢/ ٦٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٨٤٠).

أنواع الخشوع:

ينقسم الخشوع إلى ثلاثة أقسام هي:

الأول: الخشوع التوحيدي العبادي:

وهو الذل والتطامن والخضوع واستشعار الفقر والحاجة لله وحده لا شريك له.

قال تعالى حاثاً عباده على الخشوع له سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ

اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وضرب المثل لعباده بخشوع الصم الصلاب لكلامه سبحانه فكيف تكون قلوبهم

أقضى منها، فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضِرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. فمن تفكر قاده ذلك التفكير إلى

الخشوع والذل لله سبحانه.

وأثنى على رسله بالخشوع له وحده فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَيَدْعُونَكَ رِعَابًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومدح المؤمنين بخشوعهم له وحده فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ

خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

«أفلحوا وفازوا ونالوا البغية وأحرزوا البقاء الدائم بخشوعهم في الصلاة لاستشعار

قلوبهم هيبة الموقف في الصلاة بين يدي الله وخشوعهم فيها وتذللتهم لله فيها بطاعته

وقيامهم فيها بما أمرهم بالقيام به فيها»^(١).

ومدح الصالحين من أهل الكتاب بإفرادهم الخشوع له فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَسْتُرُونَ بِكَائِبَتِ اللَّهِ

ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

(١) «جامع البيان» (١٦/٣٤٩-٣٥٠).

﴿خَشِيعِينَ﴾: «أي خاضعين لله بالطاعة مستكينين له بها متذللين»^(١).

وكان الخشوع التوحيد العبادي لله سمة رسول الله ﷺ كما وصفه ابن عباس رضي الله عنه عند خروجه لصلاة الاستسقاء فقال: «خرج رسول الله ﷺ متواضعاً متبذلاً متخشعاً مترسلاً متضرعاً»^(٢) هذه صفة خروجه لصلاة الاستسقاء.

أما في يوم عرفة في الموقف العظيم فخشوعه من أعجب العجب، قال ابن عباس: «رأيت رسول الله ﷺ بعرفة يدعو ويداه إلى صدره كاستطعام المسكين»^(٣). ووصفه جرير رضي الله عنه بقوله: «رأيت رسول الله ﷺ واقفاً بعرفة متأبطاً رداءه رافعاً يديه لا يجاوزان رأسه وعضلاته ترعدان»^(٤).

الثاني: الخشوع الشرقي الكفري:

وهو خشوع العبد لغير الله كخشوع بعض الناس لأصحاب القبور وذلمهم لهم وانكسارهم أمام قبورهم تقرباً إليهم ورجاء لما عندهم كما يزعمون وخوفاً منهم كما يتوهمون.

ومن ذلك ما حكاه عبد الله بن محمد بن خميس عن مشاهداته قائلاً: «لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق، فوجدت فئاماً من الناس يغدون إليه ويروحون... وجدت المرأة تضع خدها على شباك الضريح وتمرغه، وتنادي: أغثني يا محيي الدين... وجدت الصبايا البريئات يجئن إليه، ويمددن الأكف، ويمسحن الوجوه، ويخشعن ويتضرعن»^(٥).

(١) المرجع السابق (٣٨٣/٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «أخبار مكة» (٣٢٠/٤) رقم (٢٧٥٦)، و«المعجم الأوسط» (١٨٩/٣) رقم (٢٨٩٢)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٩٠/٥) رقم (٩٤٧٤).

(٤) «المعجم الكبير» للطبراني (٣٣٢/٢) رقم (٢٣٨٦).

(٥) «شهر في دمشق» (٦٤-٦٥) نقلاً عن «الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (٣٢٩/١).

وهذا النوع من الخشوع يلقي صاحبه في نار جهنم، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٢-٤] أي ذليلة خاضعة لا ينفعها ذلها وخضوعها وتعبها بل يضرها فبسببه تصلى النار عقوبة لها على خشوعها لغير الله.

الثالث: الخشوع النفاقي:

وهو ما يسميه السلف خشوع النفاق وهو خشوع الجسد دون خشوع القلب فيتكلف خشوع جوارحه وإسكانها وقلبه عارٍ من الخشوع. فظاهر جسده شيء وباطنه وقلبه شيء آخر.

ويصوره ابن القيم فيقول: «وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عبد تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراعاةً، ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة»^(١). وهذا النوع من الخشوع أكثر ما يخاف منه على العباد والقراء.

وسببه حرمان الخشوع الحقيقي، وذلك أن من حرم الخشوع الحقيقي الإيماني الشرعي ابتلي بأمرين أو أحدهما.
وهما:

١ - قسوة القلب:

قسوة القلب من الأمراض العظيمة، فصاحبه لا يرعوي لزاجر ولا ياتمر بأمر ولا ينتهي عن عصيان. ولو سمع كلام الله ما تأثر. فقلبه أقسى من الحجر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾: أي اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة حتى صار من غلظها أنها أشد قسوة من الحجارة علماً أن الحجارة أشد قسوة من الحديد لأن الحديد والرصاص إذا

أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار. فما أعظم قسوة هذه القلوب! وما أقبح هذه الصفة! ولقبحها تعوذ النبي ﷺ منها فقال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(١).

جمع ﷺ بين هذه الأمور الأربع؛ لأن عدم خشوع القلب دليل على أن علمه لم ينفعه؛ لأنه علم لسان وليس علم قلب، فنفسه جشعة منهومة بالدنيا فتفكيره فيها وحبها لها وبغضه لها، وربما جمع المال من غير حِلِّه فلذلك لا تستجاب دعوته لما يوجد من الصوارف عن إجابتها.

قال عبدالأعلى التيمي: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفعه لأن الله تعالى نعت العلماء فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا»^(٢) [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وقسوة القلب من أعظم عقوبات الذنوب، قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

«أي غليظة لا تجدي فيها المواعظ ولا تنفعها الآيات والنذر فلا يرغبهم تشويق ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى والخير إلا شراً»^(٣).

بل يقع فيها عكس ذلك فهي تستجيب لإلقاء الشيطان وتسويله السوء، قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣].

(١) سبق تخريجه.

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٨٥)، «المقدمة»/ باب من قال العلم الخشية وتقوى الله. رقم (٢٩١).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٢٢٥).

فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان جعلوه حجة لهم على باطلهم وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله ولهذا قال الله سبحانه بعدها: ﴿وَإِنَّكَ أَظْلَمُ لِمَنِ لَفَى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣].
فبذلك استحقوا وعيد الله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

٢- خشوع النفاق:

مَنْ حُرِّمَ خشوع القلب ابتلي بقسوته، ثم استهواه الشيطان، فزَيَّنَ له خشوع النفاق، فأظهر للناس الخشوع تكلفاً وتصنعاً وليس في قلبه من ذلك شيء.
ولخطورته على المصلين العابدين حذر منه السلف أيما تحذير قال حذيفة رضي الله عنه:
«إياكم وخشوع النفاق، فقليل له وما خشوع النفاق، قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع»^(١).
وبمثله قال أبو الدرداء إلا أنه قال: «استعينوا بالله من خشوع النفاق...»^(٢). وبنحوه عن أبي هريرة^(٣)، أما سفيان الثوري فقال: «إياك وخشوع النفاق، وأن تظهر على وجهك خشوعاً ليس في قلبك»^(٤).
وكان أهل الخير والاستقامة يكرهونه أشد الكره، كما قال الفضيل بن عياض: «كان يكره أن يُرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه»^(٥).
وكما كانوا يحذرون منه كانوا أيضاً يحذرونه على أنفسهم فيتعودون بالله منه فهذا هو

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

(٢) «الزهد» لأحمد (١٧٦) «المصنف» لابن أبي شيبة (١٤/ ٩٥).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (٤٦)، و«شرح السنة» (١٤/ ٣٢٧).

(٤) «حلية الأولياء» (٧/ ٤٨).

(٥) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢١).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعوذ من خشوع النفاق^(١) وكذلك سفيان الثوري^(٢)، وغيرهم رحمهم الله.

الأسباب الجالبة للخشوع:

عندما يحس المسلم بقسوة قلبه يتألم، فيتساءل: هل بالإمكان إزالة هذه القسوة، فيلتفت يمنة ويسرة، فلا يجد، فيتوجه صوب كتاب الله، فيجد النور هناك، فيتبعه، فيحيا قلبه، وتلين قسوته: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]. قال ابن كثير: «فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها ويفرج الكروب بعد شدتها فكما يحيي الأرض المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية براهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة»^(٣).

ومن الأسباب الجالبة للخشوع ما يلي:

(١) معرفة الله تعالى واستشعار رؤيته:

من كان بالله أعرف كان منه أخوف وله أخشع فإن العلم بالله يثمر للعبد الخشوع ولقد قال سيد الخائفين من الله والخاصعين له: «والله إنِّي لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي»^(٤).

فلقوة علمه بالله صار هو أخشع الخلق لله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤ / ٣٢٥).

(٢) المرجع السابق (٧ / ٣٦٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١٣٤٩).

(٤) مسلم (٢ / ٧٨١) كتاب «الصيام» / باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب. رقم (١١١٠).

«وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية فخوفه من هذا المقام يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً وإنما يفارق - الخشوع - القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه»^(١).

«وأصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف كان له أخشع.

وتفاوت القلوب في الخشوع بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع.

فمن خاشع لقوة مطالعته قرب الله من عبده واطلاعه على سرّه وضميره المقتضي للاستحياء من الله تعالى ومراقبته في الحركات والسكنات ومن خاشع لمطالعته لجلال الله وعظمته وكبريائه المقتضي لهيبته ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته ومن خاشع لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضي للخوف منه»^(٢).

٢ - قراءة القرآن وسماعه:

للقرآن أثر بالغ على إزالة قسوة القلوب وتليينها: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقْشَعُرْمِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

«ولين القلوب هو زوال قسوتها بحدوث الخشوع فيها»^(٣).

قال رجل للحسن البصري: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أدنه من الذكر»^(٤).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٣).

(٢) «الذل والانكسار» (٣٩).

(٣) «الخشوع في الصلاة» لابن رجب (٢٨).

(٤) «الزهد» لأحمد (٣٢٦).

٣- طلب العلم:

طلب العلم النافع لا بُدَّ أن يورث القلب الخشية والخشوع.
قال الحسن: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه،
وفي لسانه وبصره، وبرّه»^(١).

وقال ابن رجب: «فالعالم النافع هو ما باشر القلوب فأوجب لها السكينة والخشية
والإخبات لله والتواضع والانكسار»^(٢).

فمن لم يورثه العلم خشية وخشوعاً، فليعلم أن هناك صارفاً منعه، فليراجع نفسه.

٤- مطالعة عيوب النفس:

مطالعة عيوب النفس توجب للعبد خوفه من ربه وحياءه منه فيذل له ويخشع له.

(١) المرجع السابق (٣١٩).

(٢) «الخشوع في الصلاة» (٢٥).

والخشية.

.....

الخشية لغة: الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر.. ويقال هذا المكان أخشى من ذلك: أي أشد خوفاً^(١).

وفي الاصطلاح: خوفٌ يشوبه تعظيم.

وإنما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ولذلك خص الله العلماء بها وحصرها فيهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢) [فاطر: ٢٨].

قال ابن رجب عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ دلت هذه الآية على إثبات الخشية للعلماء بالاتفاق وعلى نفيها عن غيرهم على أصح القولين، فإن صيغة «إنما» تقتضي تأكيد ثبوت المذكور بالاتفاق لأن خصوصية إن إفادة التأكيد. وهذه الآية كقوله: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه: ٩٨].

وذلك أن الحصر في معنى الاستثناء والاستثناء من النفي إثبات عند جمهور العلماء. فنفي الخشية عمّن ليس من العلماء، وأثبتها للعلماء ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) [الزمر: ٩].

فمن كان بالله أعرف كان له أشد خشية وتعظيماً، فأخشى الناس على الإطلاق هو رسولنا ﷺ لكمال علمه بالله ومعرفته به وبصفاته، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: «ما بال

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢/ ١٨٤-١٨٥) مادة (خشى).

(٢) «المفردات» (١٥٥) بشيء من التصرف.

(٣) إنما يخشى الله من عباده العلماء (٢٨-٤٧)، كل هذه الصفحات في بيان حصر الخشية في العلماء.

أقوام يتزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إنني لأعلمهم بالله، وأشدّهم له خشية»^(١).
فتبين بذلك أن الخشية أخص من الخوف، ولأجل ذلك فسر عليه السلام أعلى مراتب الدين بها عندما سئل عن الإحسان. فقال: «أن تحشى الله كأنك تراه»^(٢).

وخص عبد الله بن مسعود رضي الله عنه العلم بها، فقال: «كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار به جهلاً»^(٣).

وحصر الشعبي العلم بها فقال لما قال له رجل: أيها العالم، فقال: «إنما العالم من يخشى الله»^(٤).

وجعلها الفضيل بن عياض علامة الفقيه الفارقة له عن غيره، فقال: «إنما الفقيه الذي أنطقته الخشية، وأسكته الخشية، إن قال قال بالكتاب والسنة، وإن سكت سكت بالكتاب والسنة، وإن اشتبه عليه شيء وقف عنده، ورده إلى عالمه»^(٥).

قال ابن القيم: فالخشية أخص من الخوف فإنها للعلماء فهي خوف مقرون بمعرفة فالخوف حركة، والخشية: انجماع وانقباض وسكون، ثم وضح ذلك بالمثال فقال: مثاله: العدو والسييل عندما يراهما الإنسان فله حالتان:

١. حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

٢. سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية. فصاحب الخوف يلتجئ

(١) البخاري مع الفتح (٥١٣/١٠) كتاب «الأدب»/ باب ما لم يواجهه الناس بالعتاب. رقم (٦١٠١)،

ومسلم (١٨٢٩/٤) كتاب «الفضائل»/ باب علمه عليه السلام بالله تعالى وشدة خشيته. رقم (٢٣٥٦).

(٢) مسلم (٤٠/١) كتاب «الإيمان»/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. رقم (١٠).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٧٨/١٦).

(٥) «طبقات الحنابلة» (١٥٠/٢).

إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم ومثلها مثل من لا علم له بالطب ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية^(١).

أهمية الخشية وعظيم منزلتها:

خشية الله عمل عظيم من أعمال القلوب كان النبي ﷺ يسألها ربه، فيقول: «وَأَسْأَلُكَ خَشِيَّتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»^(٢)، وتتجلى أهميتها بما يلي:

(١) الشاء على أهلها:

مدح الله تعالى رسله الكرام بها فقال: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وأثنى على أتباعهم بإفرادهم إياه بها فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

فأثنى بالنفي والإثبات الذي يفيد الحصر والقصر فقال: ولم يخش إلا الله.

وأثنى على ملائكته بها فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

(٢) الأمر بصرفها له وحده:

أنكر الله سبحانه على من صرف الخشية لغيره، فقال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ ثم بين أن الخشية

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٢-٥١٣).

(٢) سبق تخرجه.

حقه وحده، فقال: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ وجعلها شرطاً في صحة الإيمان فقال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، فدل على أن من فقد خشية الله، أو صرفها لغيره، فقد فقد الإيمان.

(٣) مغفرة الله لمن خشيته بالغيب:

يظهر صدق الخشية عندما تكون بالغيب قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] وذلك أن من يخشى الله بالغيب أي في الحالة التي لا يطلع عليه فيها إلا الله فقد صدق في خشيته لله، لعدم وجود من يرائيه، أو يخشاه من المخلوقات، ومن خشي الله بالغيب فهو في المشاهدة أخرى وأولى، فأعطي بذلك أمران عظيمان هما المغفرة والأجر الكبير.

(٤) منع العبد من ارتكاب الذنوب:

الخشية تمنع العبد وتحجزه عن ارتكاب الذنوب والخطيئات كما في قصة النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار ومنهم الذي أراد أن يزني بابنة عمه التي هي من أحب الناس إليه، فلما خوفته بالله تركها خشية الله قال في دعائه: «فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا»^(١)، قال سعيد بن جبير: «الخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيته بينك وبين معصيته، فتلك الخشية»^(٢).

(٥) الإعانة على فعل الطاعات:

كما أن الخشية مانعة من ارتكاب الآثام فهي من أكبر ما يعين على فعل الطاعات قال عبيد الله بن أبي جعفر: «ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله عز وجل»^(٣).

(١) البخاري مع الفتح (٦/ ٥٠٥-٥٠٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»/ باب حديث الغار. رقم (٣٤٦٥).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٣٥) رقم (١٣٨)، و«حلية الأولياء» (٤/ ٢٧٦).

(٣) «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٤١٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩).

(٦) محبة الله لها ولآثارها:

ولعظم الخشية عند الله؛ فإنه يحبها بل يحب أثرها كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس شيء أحبُّ إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تُهراق في سبيل الله. وأما الأثران: فأثرٌ في سبيل الله، وأثر فريضة من فرائض الله»^(١).

ولم يحب الله الدمعة من خشيته إلا لعظم منزلتها عنده، واستوعب ذلك عمرو بن العاص، فقال: «لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليَّ من أن أتصدق بألف دينار»^(٢).

ومما سبق نعلم أن الخوف والرغبة والخشية مراتب.

فالمرتبة الأولى: الخوف

والمرتبة الثانية: الرغبة.

والمرتبة الثالثة وهي أعلاها: الخشية.

فكل خاشٍ راهب خائف وليس كل خائف راهب خاشياً.

ومن جميل الترتيب ذكر الإنابة بعد الخشية لأن الذي يخشى الله لا بد أن يخاف عقابه فينيب إليه.

قال تعالى: ﴿وَأَزَلَقَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾^(٣١) هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيطٍ^(٣٢) مَنْ خَشِيَ

الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿ق: ٣١-٣٣﴾.

(١) الترمذي (٤/ ١٩٠)، كتاب «فضائل الجهاد»/ باب ما جاء في فضل المرباط. رقم (١٦٦٩)، وقال: «هذا

حديث حسن غريب»، و«المعجم الكبير» للطبراني (٨/ ٢٣٥) رقم (٧٩١٨).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١/ ٢٠٠).

والإنابة.

والإنابة في اللغة: مأخوذة من النَّوب وهو رجوع الشيء مرة بعد أخرى ومنه سميت النحل نُوبًا لرجوعها إلى مقارها^(١).

وفي الاصطلاح: انصراف دواعي القلب وجواذبه إلى الله بعكوفه عليه محبة وتعظيمًا وخضوعًا.

وينبغي أن يُعَلَمَ أن عكوف القلب يثمر عكوف الجوارح على الطاعات. وهذه الإنابة هي: إنابة أولياء الله لألوهيته فهي إنابة عبودية ومحبة متضمنة لأمر أربعة هي:

١ - محبته.

٢ - الخضوع له.

٣ - الإقبال عليه.

٤ - الإعراض عما سواه.

فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك^(٢).

درجات المنيبين:

المنيبون إلى الله تعالى على درجات متفاوتة بعضهم أعلى من بعض.

(١) «المفردات» (٥٠٩) وانظر: «معجم مقاييس اللغة» (٣٦٧ / ٥) مادة (نوب).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١ / ٤٣٤).

وهذه الدرجات هي:

- (١) المنيب إلى الله بالرجوع من المخالفات والمعاصي «مصدرها مطالعة الوعيد».
 - (٢) المنيب إلى الله بفعل الطاعات والقربات «مصدرها مطالعة الوعد».
 - (٣) المنيب إلى الله بالتضرع والافتقار والدعاء وسؤال الحاجات «مصدرها شهود فضل الله ومنتته وكرمه وغناه وقدرته».
 - (٤) المنيب إلى الله بروحه وقلبه وعقله ونفسه وجوارحه «مصدرها شدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى الله».
- فإنابة الروح بجملتها هي أعلى درجات المنيبين وأرفعها، وذلك أنها لما أنابت إلى الله دخلت كل مَفْصِل وعِرْق، فأنابت بذلك جميع قوى الإنسان وجوارحه^(١).
- أنواع الإنابة:

تنقسم الإنابة إلى قسمين:

الأول: الإنابة الشرعية العبادية التوحيدية:

وهي الإنابة إلى الله تعالى وحده لا شريك له وهي التي أمر الله بها جميع الناس بقوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

ثم بين أنها هي الواقعة من عذابه فقال: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

وحصر قدوتنا ﷺ الإنابة إليه تعالى فقدم ما حقه التأخير ليفيد الحصر كما قال الله عنه إنه قال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

وفي دعائه ﷺ إذا قام يتهجد من الليل: «اللَّهُمَّ لك الحمد أنت قيُّوم السَّمَاوَاتِ

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (١٧٣-١٧٤).

والأرض ومن فيهنّ... اللَّهُمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبتُ...»^(١).

بل جميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام إبراهيم عليه السلام، ومن معه حصروا إنابتهم إلى الله وحده، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿رَبَّنَا عَلِّتَكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤].

فمن أكثر التوبة لله صار من النبيين كفعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والله لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢).

وقال ابن عمر رضي الله عنه: إن كنا لنعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة: «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم»^(٣).
ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثر أن يقول: أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٤).

(١) البخاري (٦٠/٢) كتاب «التهجد»/ باب التهجد بالليل. رقم (١١٢٠)، ومسلم (٢٠٨٦/٤) كتاب «الذكر والدعاء»/ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل. رقم (٢٧١٧).

(٢) البخاري مع الفتح (١٠١/١١)، كتاب «الدعوات»/ باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة. رقم (٦٣٠٧).

(٣) الترمذي (٤٩٤-٤٩٥)، كتاب «الدعوات»/ باب ما يقول إذا قام من المجلس. رقم (٣٤٣٤)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وأبو داود (١٧٨/٢)، كتاب «الصلاة»/ باب في الاستغفار. رقم (١٥١٦) واللفظ له، وابن ماجه (١٢٥٣/٢)، كتاب «الأدب»/ باب الاستغفار. رقم (٣٨١٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٢) رقم (٦١٨)، والبغوي في «شرح السنة» (٧٢-٧١/٥) رقم (١٢٨٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٤) النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٣٠) رقم (٤٥٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٢٢) رقم (٣٦٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٠٧/٣) رقم (٩٢٨).

فمن شعر بكثرة ذنوبه وخطورتها عليه وعلم علم قلب بعفو الله ومغفرته وفرحه بتوبة عبده إليه قاده ذلك إلى كثرة الإنابة إليه والرجوع إليه فيفر منه إليه وحده.

الثاني: الإنابة الشريكية الكفرية:

وهي الإنابة إلى غير الله فيما هو من أمور الشرع والدين.

كما يفعله كثير من مريدي الشيوخ الذين إذا ارتكبوا الذنوب والعصيان جاؤوا إلى شيوخهم فاعترفوا عندهم وذلوا وخضعوا لهم زاعمين بجهلهم أنهم مذبنون ولا يستطيعون أن يدعوا الله مباشرة أو يتوبوا إلى الله مباشرة وإنما يتوبون إلى الشيخ فإذا قبل الشيخ توبتهم وإنابتهم رفعها الشيخ إلى الله فتاب الله عليهم وقبل منهم زعموا.

أهمية الإنابة وعلو منزلتها:

مما يدل على أهمية الإنابة وعلو شأنها ومنزلتها ما يلي:

(١) أن الله أثنى على رسله بها فقال عن خليله عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ

مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

«والمنيب إلى الله: هو المسرع إلى مرضاته الرجوع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه»^(١).

فأناب عليه السلام بروحه وقلبه وعقله ونفسه وجسده وجوارحه إلى الله تعالى وعكف قلبه على ربه فصار يحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله.

فمن حرم هذا العكوف «فلم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف فكان حظ قومه العكوف على التماثيل وكان حظُّه العكوف على الربِّ الجليل»^(٢).

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٣٤).

(٢) «الفوائد» (٣٣٩).

ومدح الله داود عليه السلام بالإجابة فقال: ﴿وَطَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

ومثله سليمان عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

٢- الوقاية من العذاب. قال تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

فأمر بالإجابة إليه لأنها هي الوقاية من العذاب.

٣- البشرى للمؤمنين: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

لهم البشرى التي لا يقادِرُ قدرها ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم الله بها وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربانية من الله ولهم البشرى في الآخرة عند الموت، وفي قبورهم ويوم القيامة ويتوجون بتلك البشارة وهي رضوان الله عليهم فلا يسخط عليهم أبداً^(١).

٤- الانتفاع والذكرى بما يرى من الآيات: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنًا خَفِيفٌ بِهِمُ الْأَرْضُ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

وذلك لأن المنيب مقبل على ربه ليس له هم إلا مرضاة ربه فيكون نظره إلى المخلوقات نظر تفكر واعتبار فيستدل بنظره إلى السماء والأرض على قدرة الله وعظمته.

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٧٢١).

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (٦) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِهَيْجٍ﴾ (٧) ﴿بَصَرَةً وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (ق: ٦-٨).
بل إن الله حصر المتذكرين في المنيبين فقط، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (غافر: ١٣).

٥- تقريب الجنة للمنيبين وإدخالهم إياها:

قال تعالى: ﴿وَأَزَلَقَتِ الْجَنَّةُ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) ﴿هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيطٍ﴾ (٣٢) ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (٣٣) ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (ق: ٣١-٣٤).
فجاء وصف القلب بالإنابة لأن الإنابة من أعمال القلوب، فأصل الدين ما وقع في القلب وثبت فيه. وذلك من أعظم أسباب دخول الجنة.
٦- أن الإنابة سبب للهداية:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ (الرعد: ٢٧).

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣).
فهذا السبب من الأسباب التي يتوصل بها العبد إلى هداية الله تعالى له، وهو إنابته لربه وانجذاب دواعي قلبه إليه وكونه قاصداً وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية من أسباب التيسير لها، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (١) [المائدة: ١٦].

٧- الأمر باتباع سبيل المنيبين:

الذين أنابوا إلى الله انجذبوا إليه بأرواحهم وقلوبهم وعقولهم وهممهم وإراداتهم وأعرضوا عما سوى الله، فلذلك حُسِّنَ اتباع سبيلهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٧٥٥).

إِلَى» [لقمان: ١٥]، لأنهم لا تصرفهم الصوارف مهما عظمت عن الله وعن مرضاته.
والتوبة: أصل تاب عاد إلى الله ورجع إليه وأتاب، وتاب الله عليه، أي عاد عليه بالمغفرة^(١).

وقيل: «الرجوع إلى الله وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»^(٢).

وقيل: «الرجوع إلى الله بعد الإباق منه»^(٣).

والتوبة والإنابة كالإسلام والإيمان بينهما عموم وخصوص فكل منيب تائب وليس كل تائب منيب.

وذكر المؤلف للإنابة بدلًا من التوبة أولى لأمر:

١ - أنها أعلى من التوبة لأنها تشعر الاعتماد على الله واللجوء إليه^(٤).

٢ - أن الإنابة ورد وصف القلب بها في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ

مُنِيبٍ﴾ فيكون ارتباطها بأعمال القلوب أقوى من أعمال الجوارح.

٣ - أن الإنابة تشارك التوبة بالإقلاع عن المعاصي والندم على ما مضى والعزم على ألا يعود إلى الذنب وبفعل الطاعات والافتقار إلى الله وتزيد عليها أن المنيب يقبل على ربه بكلية مستمراً على الدوام.

٤ - أن صورة العبادة بالنسبة للإنابة أوضح من صورتها بالنسبة إلى التوبة بسبب زيادة الإقبال على العبادة^(٥).

(١) «تهذيب اللغة» (١٤ / ٣٣٢).

(٢) «التوبة» لابن تيمية (٤٢).

(٣) «طريق الهجرتين» (٢٣١).

(٤) «شرح الأصول» للشيخ العثيمين (٥٧).

(٥) «حصول المأمول» (٩١).

والاستعانة.

.....

الاستعانة لغة: طلبُ العون^(١). لأن الألف والسين والتاء في اللغة للطلب، فإذا قيل استعان فمعناه طلب الإعانة وإذا قيل: استغاث أي طلب الغوث وإذا قيل: استخبر أي طلب الخبر^(٢).

وفي الشرع: طلب العون من الله مع الاعتماد عليه والثقة به في تحصيل ما يطلب.

أركان الاستعانة:

(١) الثقة بالله.

(٢) الاعتماد عليه.

فلا بُدَّ من اجتماع هذين الركنين في الاستعانة بالله فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره. مع ثقته به. لاستغنائه عنه وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به - لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به^(٣).

وتنقسم إلى قسمين:

١ - استعانة عبادية، وضابطها: «هي الاستعانة المطلقة التي يستقل بها المغيث»^(٤).

٢ - استعانة مباحة، وضابطها: «ما كان من باب فعل الأسباب».

(١) «المفردات» (٣٥٦).

(٢) «حصول المأمول» (٩٢)، وانظر: «بدائع الفوائد» (٢٠١ / ٢).

(٣) «مدارج السالكين» (٧٥ / ١)، وانظر أيضًا: (٨٢ / ١).

(٤) قاعدة: «كل عمل قلب أو جوارح فوق الأسباب العبادية؛ فهو عبادة».

الفرق بين الاستعانة والتوكل:

أن الاستعانة لجلب المنفعة والتوكل لجلب المنفعة ودفع المضرة.

قال شيخ الإسلام: «يكون التوكل عليه لجلب المنفعة ودفع المضرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾»^(١) [آل عمران: ١٧٣].

أنواع الاستعانة:

الاستعانة ثلاثة أنواع هي:

(١) الاستعانة التوحيدية العبادية:

وهي الاستعانة بالله وحده في جميع أمور العبد. لأن العبد ضعيف لا يستطيع أن يستقل بنفسه في أفعاله فلا بُدَّ له من معين وهو الله تعالى.

ومن ثم شرع الله له الاستعانة به وحده فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فقدم ما حقه التأخير ليفيد الحصر، فكأنه قال: لا نعبد إلا أنت، ولا نستعين إلا بك. وأرشد النبي ﷺ إلى الاستعانة بالله فقال: «استعن بالله، ولا تعجز»^(٢)، وقال ﷺ: «وإذا استعنت؛ فاستعن بالله»^(٣)، وأمر موسى عليه السلام قومه بها عندما خافوا من فرعون. ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧٧/٨).

(٢) مسلم (٢٠٥٢/٤)، كتاب «القدر»/ باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. رقم (٤٦٦٢).

(٣) سبق تخرجه.

(٢) الاستعانة الشركية الكُفْرِيَّة:

وهي الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالاستعانة بأصحاب القبور في قضاء الحوائج أو الاستعانة بالطفل الصغير الذي لا يميز ولا يعقل وكالاستعانة بالأحياء الغائبين لأن من استعان بهؤلاء فقد ظن أو اعتقد أن لهم قوة غيبية لا يقدر عليها سائر الناس وهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة والعياذ بالله.

ومن ذلك: استعانة المريدين بمشايخهم في رفع دعائهم إلى الله تعالى. قال شيخ الإسلام: «وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم لا ظاهراً ولا باطناً بهذه الوسائط والحجاب فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقول الظالمون علواً كبيراً»^(١). ومن أمثلة الاستعانة الشركية ما نقله البريلوي:

ناد علياً مظهر العجائب تجده عوناً لك في النوائب
كل همٍّ وغمٍّ سينجلي بولايتك يا علي يا علي^(٢)

ويقول البريلوي: «إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا بأصحاب القبور»^(٣).

(٣) الاستعانة المباحة (الجائزة):

وهي الاستعانة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه، وهذا لا خلاف في جوازه عند أهل العلم بل هو في غاية الوضوح والظهور ومن أدلة ذلك طلب ذي القرنين من الذين اشتكوا إليه يأجوج ومأجوج الإعانة حتى يبني لهم السد ﴿قَالَ مَا مَكْنِيَ فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٩).

(٢) «البريلوية» إحسان إلهي ظهير (٥٧).

(٣) المرجع السابق (٦٤).

ومن السنة قول النبي ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(١)، وقوله ﷺ: «ويعين الرجل على دابته، فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة»^(٢).

ومن أقوال الصحابة في الاستعانة بالجائزة قول حكيم بن حزام لما أخبره عبدالله بن الزبير عن دين على أبيه فاستكثره وظن أن ما خلف الزبير لن يُوفي دينه الذي عليه فقال حكيم له: «ما أراكم تطيقون هذا فإن عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي»^(٣).
منزلة الاستعانة:

للاستعانة بالله منزلة عظيمة من الدين ومما يدل على عظمة منزلتها ما يلي:

١ - أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات، وذلك لأن الله سبحانه لا يعبد إلا بمعونته^(٤)، ولهذا كان النبي ﷺ يرشد أصحابه إذا أرسلهم للجهاد أن يستعينوا بالله على قتال المشركين كما في حديث بريدة رضي الله عنه، وفيه:
«فإذا هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...»^(٥).

بل كان النبي ﷺ يستعين بالله في جميع أموره، كما يقول في خطبه رضي الله عنه: «إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ»^(٦).

(١) مسلم (٤/ ٢٠٧٤)، كتاب «الذكر» / باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الكريم، وعلى الذكر. رقم (٢٦٩٩).

(٢) البخاري مع الفتح (٦/ ١٣٢)، كتاب «الجهاد» / باب من أخذ بالركاب ونحوه. رقم (٢٩٨٩).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٢٨)، كتاب «فرض الخمس» / باب بركة الغازي في ماله حيًا وميتًا مع النبي ﷺ، وولاية الأمر. رقم (٣١٢٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٧٦).

(٥) مسلم (٣/ ١٣٥٧)، كتاب «الجهاد والسير» / باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام. رقم (١٧٣١).

(٦) مسلم (٢/ ٥٩٣)، كتاب «الجمعة» / باب تخفيف الصلاة والخطبة. رقم (٨٦٨).

ومن دعائه ﷺ: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّي عَلَيَّ»^(١).

وربّي أصحابه على الاستعانة بالله، ومن ذلك ما قاله لمعاذ ﷺ: «يا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ فَلَا تَدْعُنِّي فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحَسَنِ عِبَادَتِكَ»^(٢).

وكان من دعاء عمر بن الخطاب ﷺ في قنوته: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك...»^(٣). وبمثله عن علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب^(٤)، وعبدالله بن مسعود ﷺ^(٥).

فعباد الله الصالحون الذين جعلوا عبادة الله وطاعته غاية مرادهم علموا أنه لا يمكنهم ذلك إلا بمعونة الله تعالى فسألوا الله العون على ذلك، قال شيخ الإسلام: «تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته تعالى ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»^(٦).

«فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاة الله وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا وعلى دفع ما يضاده وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها»^(٧).

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «المصنف» لابن أبي شيبة (٣١٤ / ٢)، قال ابن حجر: «إسناده صحيح». «تلخيص الخبير» (٢ / ٢٥).

(٤) المرجع السابق (٣١٤ / ٢).

(٥) المرجع السابق (٣٠١ / ٢).

(٦) «مدارج السالكين» (٧٨ / ١).

(٧) المرجع السابق.

«ومن المعلوم أن العبد لا بُدَّ له من غاية مطلوبة ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية فأشرف غاياته التي لا غاية له أجلّ منها عبادة ربه والإنابة إليه، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة فهذه أشرف الغايات وتلك أشرف الوسائل»^(١).

٢- أن الاستعانة بالله تدفع الكبر والعجب والشرك:

من أعظم الأمراض التي تعرض للعباد وغيرهم مرض العجب، فيشرك الإنسان بنفسه فيستكبر «والكبر مستلزم للشرك»^(٢) ولا دفع لها إلا بتحقيق الاستعانة بالله وإظهار الافتقار والحاجة إليه في جميع الأمور، كما قال سهل بن عبد الله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار»^(٣).

قال شيخ الإسلام: «وكثيراً ما يقرن الناس بين الرياء والعجب فالرياء من باب الإشراف بالخلق والعجب من باب الإشراف بالنفس وهذا حال المستكبر. فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء ومن حقق قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج من الإعجاب»^(٤).

٣- أن من لم يستعن بالله خذل:

من استعان بغير الله خذله أحوج ما يكون إليه، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] أي مخذولاً لا ناصر لك.

(١) «طريق الهجرتين» (٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٩٩).

(٣) «صفة الصفوة» (٤/٦٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٧٧).

وذلك أنه يُوكَلُّ إلى من استعان به من الخلق الضعفاء المحتاجين إلى الإعانة، وقد كتب الحسن رحمته إلى عمر بن عبدالعزيز: «لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه»^(١).

فكل من لم يحقق الاستعانة بالله: «مخدولون فيما يقصدونه، إذ لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة والإعجاب أخرى، فإن لم يحصل له مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع فإن حصل مراده نظر إلى نفسه وقوته فحصل له إعجاب وقد يعجب بحاله فيظن حصول مراده فيُخَذَلُ»^(٢).

٤ - أن الاستعانة بالله هي السبيل الوحيد للتغلب على المصائب والملمات:

قال يعقوب عليه السلام عندما فقد ابنه: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» [يوسف: ١٨].

وقال موسى عليه السلام لقومه: «أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا» [الأعراف: ١٢٨].

ولما آذى المشركون النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقبلوا دعوته استعان بالله وحده، حيث قال الله عنه إنه قال: «وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» [الأنبياء: ١١٢].

وربى النبي صلى الله عليه وسلم أمته على ذلك فقال: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ؛ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تفتحُ عمل الشيطان»^(٣).

ومن ثم انغrust الاستعانة بالله وحده في قلوب السلف عند الملمات والمصائب.

(١) «نور الاقتباس» (٧٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٧٧ / ١٠).

(٣) مسلم (٤ / ٢٠٥٢)، كتاب «القدر» / باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. رقم (٢٦٦٤).

فعثمان رضي الله عنه لما بشر بالجنة على بلوى تصيبه حمد الله، ثم قال: «الله المستعان»^(١).
وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لما رميت بالزنا، قالت: «والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾»^(٢) [يوسف: ١٨].
والزبير رضي الله عنه لما أحسّ بالوفاة أوصى ابنه أن يقضي دينه وكان ديناً كثيراً وقال له: إن عجزت فاستعن بمولاي، فقال له: يا أبت من مولاك؟ قال: الله عز وجل، قال: فما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه فيقضيه»^(٣).

٥- أن الاستعانة بالله هي السبيل الوحيد للعصمة من الذنوب والخطيئات:

ويوضحه ويدل عليه عصمة الله ليوسف عليه السلام، عندما راودته امرأة العزيز مع وجود المغريات الكثيرة من جمالها وكونها في بيت الملك وإغلاق الأبواب وكونه شاباً عزباً غريباً فلما استعان بالله صرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.

لماذا الاستعانة بالله وحده؟

أجاب عن هذا التساؤل ابن رجب فقال:

وأما الاستعانة بالله عز وجل دون غيره من الخلق فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره ولا معين له على مصالح دينه وديناه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإن المعنى لا تحوّل للعبد من حال إلى حال ولا قوة له على ذلك إلا بالله، وهذه كلمة عظيمة وهي كنز من كنوز الجنة فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات وترك

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ٤٣)، كتاب «فضائل الصحابة»/ باب مناقب عمر بن الخطاب. رقم (٣٦٩٣).

(٢) البخاري مع الفتح (٨/ ٤٥٤)، كتاب «التفسير»/ باب ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾. رقم (٤٧٥٠).

(٣) البخاري مع الفتح (٦/ ٢٢٧)، كتاب «فرض الخمس»/ باب بركة الغازي في ماله حياً وميتاً. رقم

المحظورات والصبر على المقدورات كلها، في الدنيا، وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ يوم القيامة ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله عز وجل، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»^(١).

ومن ترك الاستعانة بالله واستعان بغيره وكَلَّه الله إلى من استعان به فصار مخذولاً^(٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٧٢-٥٧٣).

والاستعاذة.

.....

الاستعاذة: الألف والسين والتاء دالة على الطلب فقوله: أستعِذ بالله أي أطلب العياذ به كما إذا قلت: أستخير الله أي أطلب خيرته.

ولفظ عاذ وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة، وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا ويسمى ملجأً ومنه الحديث «فمن وجد ملجأً أو معاذًا فليعذ به»^{(١)(٢)}.

فيكون معناها لغة: ألتجئ وأعتصم وأتحرز^(٣).

اصطلاحًا: الالتجاء إلى الله والاعتصام به من شر كل ذي شر.

فائدة الاستعاذة: «إظهار العبد فاقته لربه وتضرعه إليه»^(٤).

أصل الاستعاذة:

في أصلها قولان:

١ - أنه مأخوذ من السَّتر.

٢ - أنه مأخوذ من لزوم المجاورة.

والقولان حق والاستعاذة تنظمهما معًا فإن المستعِذ مستتر بمعاذه متمسك به

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٢٩-٣٠) كتاب «الفتن»/ باب تكون فتنة القاعد خير فيها من القائم. رقم (٧٠٨١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠).

(٣) انظر: «لسان العرب» (٣/ ٤٩٨)، «المفردات» (٣٥٥).

(٤) «فتح الباري» (١١/ ١٤٩).

معتصم به، فقد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك فكذلك العائد قد هرب من عدوه الذي يبغى هلاكه إلى ربه ومالكة وفر إليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به واستجار به والتجأ إليه^(١).

وتنقسم إلى قسمين:

١ - استعاذة عبادية، وضابطها: «الاستعاذة المطلقة التي يستقل بها المعيد».

٢ - استعاذة مباحة، وضابطها: «ما كان من باب فعل الأسباب»^(٢).

أنواع الاستعاذة:

الاستعاذة ثلاثة أنواع هي:

الأول: الاستعاذة العبادية التوحيدية الإيمانية:

وهي الاستعاذة بالله وحده من شر كل ذي شر.

وهي الاستعاذة التي أمر الله بها بقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦]، ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ

هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (١٧) ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

والاستعاذة بالله هي حال رسل الله وعباده الصالحين:

فهذا نوح عليه السلام استعاذ بالله وحده لما نهاه أن يدعوا لابنه الكافر فقال: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وموسى عليه السلام استعاذ بالله من الجهل: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٠-٢٠١).

(٢) هذا التقسيم يصح في الاستعاذة.

[البقرة: ٦٧]، ولما خشي من فرعون وقومه استعاذ بالله والتجأ إليه واعتصم به من شرهم فقال: ﴿وَلِإِيَّيْ عُدْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

ومريم ابنة عمران عند ما جاء إليها جبريل عليه السلام بصورة بشر خافت منه فاستعاذت بالله منه: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨].

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يخصه بالاستعاذة به سبحانه، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١] وشرعها لنا المصطفى ﷺ عند دخول المسجد فكان يقول «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»^(١).

أو بصفة من صفاته كقوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»^(٢). «وقد نص الأئمة كأحمد وغيره أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله ﷻ غير مخلوق»^(٣).

وقوله ﷺ: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»^(٤). قال شيخ الإسلام: «والمستعيذ يطلب منع المستعاذ منه أو رفعه، فإذا كان مخوفاً طلب

(١) أبو داود (٣١٨/١)، كتاب «الصلاة»/ باب فيما يقوله الرجل عند دخوله المسجد. رقم (٤٦٦)، قال النووي: «حديث حسن، رواه أبو داود بإسناد جيد». «الأذكار» (٣١) رقم (٨٢)، وصححه الألباني في تحقيقه «الكلم الطيب» لشيخ الإسلام (٥١) رقم (٦٥).

(٢) مسلم (٢٠٨٠/٤)، كتاب «الذكر والدعاء»/ باب التعوذ من سوء القضاء. رقم (٢٧٠٨).

(٣) «تلخيص الاستغاثة» (٢٨٧) قوله: «وهذا مما استدلوا به» يقصد حديث: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق».

(٤) مسلم (١٧٢٨/٤)، كتاب «السلام»/ باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء. رقم (٢٢٠٢).

منعه، كقوله ﷺ: «أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر»^(١).
 وإن كان حاضرًا طلب رفعه كقوله في الحديث الصحيح: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، فتعوذ بالله من شر الموجود، وشر المحاذر»^(٢).
 وقال ابن القيم: «تعوذ بالله من شر الموجود طالبًا رفعه ودفعه كقوله: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] وشر المحاذر الذي لم يقع طالبًا عدم وقوعه كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤]»^(٣).
 وقوله ﷺ: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك»^(٤). وهذا النوع «وهو الاستعاذة الكاملة التي يستقل بها المغيث»^(٥)، لا يجوز أن يطلب إلا من الله.
٢- الاستعاذة الشريكية:

وهي الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالاستعاذة بالأموات والغائبين، وهي استعاذة ضارة في الدين والدنيا.
 قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، طلبوا الأمن في الدنيا فأصيبوا بالرهق وأما في الآخرة فصاحبها مخلد في النار أبد الأبد.
 وهذا النوع من الاستعاذة الشريكية ممنوع بالنص والإجماع، قال شيخ الإسلام: «نُفِي عنه -أي النبي ﷺ- وعن غيره من الأنبياء والمؤمنين وهو أنهم لا يُطْلَبُ منهم بعد الموت شيء ولا يطلب منهم في الغيبة شيء لا بلفظ الاستغاثة، ولا الاستعاذة، ولا غير ذلك، ولا يطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وهذا حكم ثابت بالنص وإجماع علماء الأمة مع

(١) مسلم (١/ ٤١٢)، كتاب «المساجد ومواضع الصلاة»/ باب ما يستعاذ منه في الصلاة. رقم (٥٨٨).

(٢) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٤٥١-٤٥٢).

(٣) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٠٨).

(٤) مسلم (١/ ٣٥٢)، كتاب «الصلاة»/ باب ما يقال في الركوع والسجود. رقم (٤٨٦).

(٥) «تلخيص الاستغاثة» (٣١٦).

دلالة العقل على ذلك»^(١).

٣- الاستعاذة المباحة: وهي الاستعاذة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه:

وهذا النوع يختص بالعمل الظاهر، أما القلب فهو معتمد على الله وحده.

ويدل له قول النبي ﷺ: «من استعاذ بالله، فأعيذوه»^(٢).

ويجب: اعتقاد أنها سببٌ إن شاء الله أمضاها، وإن شاء منعها.

(١) «تلخيص الاستغاثة» (٣٦٩)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (١/ ٣٣١).

(٢) أحمد (٦٨/ ٢)، وأبو داود (٣١٠/ ٢)، كتاب «الزكاة»/ باب عطية من سأل بالله. رقم (١٦٧٢)،

والنسائي (٨٢/ ٥)، كتاب «الزكاة»/ باب من سأل بالله ﷻ، وقال النووي: «حديث صحيح رواه أبو

داود والنسائي بأسانيد الصحيحين». «رياض الصالحين» (٥٤٧-٥٤٨) رقم (١٧٣٢).

والاستغاثة.

.....

الاستغاثة لغة: الغين والواو والثاء كلمة واحدة وهي الغوث من الإغاثة وهي الإغاثة والنصرة من الشدة.

قال الأزهري: الغياث ما أغاثك الله به ويقول الواقع في بلية أغثني أي فرّج عني^(١). واصطلاحًا: طلب الغوث وهو طلب كشف الشدة والتخليص منها^(٢).

ومنه سميت صلاة الاستغاثة لأنها طلب كشف الجذب وإبداله بالخصب والنبات. وكان من دعائه ﷺ فيها: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا»^(٣).

الفرق بين الدعاء والاستغاثة:

أنَّ الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. قال الحلبي: «الغياث هو المغيث وأكثر ما يقال غياث المستغيثين ومعناه: المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ومجيهم ومخلصهم»^(٤). وأما الدعاء فيكون من المكروب وغيره فهو أعم من الاستغاثة فبينهما عموم وخصوص فكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة.

(١) «تهذيب اللغة» (٨/ ١٥٨) مادة (غوث) و«معجم مقاييس اللغة» (٤/ ٤٠٠).

(٢) انظر: «تلخيص الاستغاثة» (٢٨٧)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (١/ ٣٨٧)..

(٣) البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠٧)، كتاب «الاستسقاء»/ باب الاستسقاء في خطبة الجمعة. رقم (١٠١٤)،

مسلم (٢/ ٦١٢)، كتاب «صلاة الاستسقاء»/ باب الدعاء في الاستسقاء. رقم (٨٩٧).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/ ١١١).

أنواع الاستغاثه:

الاستغاثه ثلاثة أنواع:

١ - الاستغاثه التوحيدية العبادية الإيمانية:

وهي التي لا تطلب إلا من الله تعالى وحده فقط، وضابطها: «الاستغاثه المطلقة التي يستقل بها المغيث»، فلا يجوز أن تطلب إلا منه سبحانه لأن الأمور كلها بيده، قال شيخ الإسلام: «فأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين فلا يجوز لأحد الاستغاثه بغيره لا بملك مقرب ولا نبي مرسل»^(١).

وعلى هذا إجماع علماء المسلمين^(٢).

«قال أبو عبد الله القرشي: استغاثه المخلوق بالمخلوق كاستغاثه المسجون بالمسجون» وهذا تقريب وإلا فهو كاستغاثه العدم بالعدم فإن المستغاث به إن لم يخلق الحق فيه قوه وحولاً وإلا فليس له من نفسه شيء قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) [البقرة: ١٠٢]. والمقصود بها الاستغاثه المطلقة الكامله التي يستقل بها المغيث وهي التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ. كإنزال المطر وغفران الذنوب، وإزالة المرض والانتصار على العدو، وهداية القلوب، وليست الإغاثة التي هي من باب فعل الأسباب^(٤).

وقال الشوكاني: «وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يستغاث إلا به كغفران الذنوب والهداية وإنزال المطر ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٧).

(٢) «الاستغاثه في الرد على البكري» (٢/ ٥١٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ٢٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٦)، و«الاستغاثه في الرد على البكري» (٢/ ٥١٤ و ٥٢٠).

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ^(١).

ولأجل ذلك وبَّخ سبحانه من يستغيث بغيره بصيغة الاستفهام، فقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَأَلَهُ مَعَهُ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

أي: هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده وهل يكشف الضر والبلاء والنقمة إلا هو، فلماذا تستغيثون بغيره.

وحَصَرَ الاستغاثة به وحده، فجمع بين النفي والإثبات فقال: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧]، فأثبت لذاته كشف الضر، ونفاه عن غيره والله قريب مجيب يغيث من استغاث به ومن أمثلة ذلك:

استغاثة النبي بربه في غزوة بدر لما رأى كثرة المشركين وكثرة عدتهم وعتادهم، وقلة المسلمين وعدتهم وعتادهم، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه ^(٢): «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله ﻋﺰّو: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمده الله بالملائكة.

(١) «الدر النضيد» (٤).

(٢) أي يستغيث بربه.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفه وشُقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ» فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين^(١).

وكذلك استغاثه يونس عليه السلام لما التقمه الحوت، وغير ذلك.

وينبغي أن تكون الاستغاثة قبل نزول العذاب فإن العبد إذا خشي من عذاب الله بسبب ذنوبه وما اقترفت يدها ثم استغاث بالله وتاب إليه رفع عنه العذاب كما وقع لقوم يونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَاءَ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

«لم توجد قرية آمنت بكما لها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فلما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضرُوا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا»^(٢).

أما إذا وقع العذاب فلا تنفع الاستغاثة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ۖ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤-٦٥].

فإن المنعمين بالدنيا إذا أصابهم عذابُ الله وبأسه ونقمته، يصرخون ويستغيثون

(١) مسلم (٣/١٣٨٣)، كتاب «الجهاد والسير» / باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. رقم (١٧٦٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٦٦٨).

ولكنهم لا يجيرهم أحد مما حلّ بهم سواء جأروا أو سكتوا إذ لزم الأمر ووجب العذاب^(١).

وكذلك إذا استغاثوا وهم في النار ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

٢- الاستغاثة المباحة:

وهي الاستغاثة بالحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه، وضابطها: «ما كانت في الأسباب العادية، بحيث لا يستقل بها المغيث».

قال صنع الله الحلبي: «والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه»^(٢).

ولها وقتان: أحدهما: في الدنيا، والثاني: يوم القيامة.

أما في الدنيا فمن أدلته قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَاسْتَعِذْ بِالَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢].

لكن يجب عليك أن تعلم أن المستغاث به سبب «والنصر المطلق وهو خلق ما به يغلب العدو لا يقدر عليه إلا الله»^(٣).

يوضحه أنه ﷺ في حياته، وكذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يتركون أحداً يُشرك بهم في حضورهم بل ينهونهم عن ذلك ويعاقبونهم عليه فدل ذلك على أنهم

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٩٣٥).

(٢) «سيف الله على من كذب على أولياء الله» (٤٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ١١٣).

إذا أقرؤا أحداً استغاث بهم في حياتهم فيما يقدرُونَ عليه أنه جائز كما أغاث النبي ﷺ خزاعة.

وكما أجاب النبي ﷺ من طلب منه أن يستغيث للمسلمين لإزالة الكرب والشدة فاستسقى لهم النبي ﷺ فأغاثهم الله وأنزل المطر^(١).

وأما في يوم القيامة فكذاك: عندما يضيق بالناس الموقف ويرغب الناس في إراحتهم منه يذهبون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السلام ثم محمد ﷺ، فيذهب النبي ﷺ إلى ربه فإذا رآه خراً ساجداً ويحمده بمحامد يفتحها الله عليه لا يحسنها الآن فيقال له: «ارفع محمد وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع»^(٢). وعلى هذا أجمع المسلمون^(٣).

قال الشوكاني: «ولا خلاف أنه يجوز أن يستغاث بال مخلوق فيما يَقْدِرُ على الغوث فيه من الأمور ولا يحتاج مثل ذلك إلى استدلال فهو في غاية الوضوح»^(٤).

٣- الاستغاثة الشريكية الكفرية:

هي الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كهداية القلوب، وإنزال المطر، وإحياء الموتى، ومغفرة الذنوب ونحو ذلك من الأمور المعنوية أو يعتقدون التأثير منهم في قضاء حاجاتهم استقلالاً^(٥).

(١) انظر: البخاري مع الفتح (٢/ ٥٠١)، كتاب «الاستسقاء» / باب الاستسقاء في المسجد الجامع. رقم (١٠١٣).

(٢) البخاري مع الفتح (١٣/ ٣٩٢)، كتاب «التوحيد» / باب قول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدِي﴾. رقم (٧٤١٠).

(٣) «قاعدة جلية في التوسل والوسيلة» (٢٤٤).

(٤) «الدر النضيد» (٤).

(٥) «الرد على المستغيثين بغير الله» لابن عيسى (٦٤)، وانظر: «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٥١٤).

أو فيما لا يقدر عليه المستغاث به لكونه ميتاً أو غائباً، ونحو ذلك، فلا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد المشايخ الغائبين ولا الميتين مثل أن يقول يا سيدي فلان أغثني وانصري وادفع عني، أو أنا في حسبك، ونحو ذلك، بل كل هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله... وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم لما كانوا من جنس عباد الأوثان صار الشيطان يضلهم ويغويهم كما يضل عباد الأصنام ويغويهم فتتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به وتخطبهم كما تخطب الشياطين الكهان، وقد تقضي الشياطين بعض حاجاتهم وتدفع عنهم بعض ما يكرهونه فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذي جاء حتى فعل ذلك ويقول أحدهم: هذا سرُّ الشيخ وحاله وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به. وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم، ولما حدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيوخ فتقوى عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين، وهذا من أعظم الأسباب التي عبدت بها الأوثان^(١).

بل إن «من أعظم الشرك أن يستغيث الرجل بميت أو غائب»^(٢).

بل إن الاستغاثة بالموتى أصل شرك العالم وذلك لأن الميت لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، فضلاً عمّن استغاث به^(٣).

ولهذا لم يكن أحد من سلف الأمة في عصر الصحابة ولا التابعين ولا تابعي التابعين

(١) انظر: «قاعدة جلية في التوسل والوسيلة» (٣٠٠-٣٠١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨١ / ٢٧).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١ / ٣٦٤).

يتحرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء ويسألونهم ولا يستغيثون بهم لا في مغيبهم ولا عند قبورهم^(١).

وقال شيخ الإسلام عند ذكره أنواع الاستغاثة: (الرابع) استغاثة في تفريج الكرب، لكن لا يجوز ذلك من ميت ولا غائب ولا من حي حاضر إلا فيما يقدر عليه خاصة^(٢). وقال رحمه الله: «نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأئمة أن تدعو أحداً من الأموات لا الأنبياء ولا الصالحين، ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأئمة السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله»^(٣).

وقال رحمه الله: «ومن تأمل كتب الآثار وعرف حال السلف تيقن قطعاً أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور ولا يتحرون الدعاء عندها أصلاً، بل كانوا ينهون عن ذلك مَنْ كان يفعلها من جهالهم»^(٤).

«بل أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن طلب الحاجات من الأموات والغائبين والاستغاثة بهم أنه الشرك الأكبر»^(٥).

ولذلك أبطلها الله بأنهم لا يملكون كشف الضر إذا وقع ولا تحويله، فقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

وليست عندهم القدرة على رد ضرر أراده الله، ولا كشفه، ولا إمساك رحمته عن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٧/ ٨٠-٨١)

(٢) «تلخيص الاستغاثة» (١٢٣).

(٣) «الاستغاثة في الرد على البكري» (٢/ ٦٢٩).

(٤) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٢٠٠-٢٠١).

(٥) «الرد على المستغيثين بغير الله» لابن عيسى (٥٧).

عباده، فقال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وإن تعجب فعجب فعل المشركين، فإنهم مع علمهم التام أنه لا يكشف الكروب إلا الله، فيستغيثون به عندما تَدْلَهُمُ الخطوب سريعاً ما ينكثون عهودهم، ويعودون إلى شركهم وكفرهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣-٥٤].

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ «أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به»^(١).

ومن نماذج الاستغاثة الشريكة استغاثة إبراهيم عبد الدامغ بالشيخ خوجلي وهو ميت في قبره، حيث يقول:

اليوم يا خوجلي يا غوث مَنْ دَعِرَا	أبناؤك الغر من بين الوري أُسْرَا
وقد عهدناك طوداً يستغاث به	لدى الشدائد والأمر الذي عَسِرَا
كم مرة صاح محزونٌ فكنت له	في الحال خير مغيث عندما قُهِرَا
وكم أتاكَ كئيب القلب في نُوبٍ	أَعْيَتْ فجاء له النصر الذي انتصِرَا
ثم زاد فاستغاث بآخرين، ومما قال:	

ألا إغاثة قطب الوقت تنجدهم	ألا الإمامان أعني صحبه الوزرا
ألا الذين هم في العد أربعة	أهل الولاية والسر الذي بهرا
ألا من البلا ألا تأتي إغاثتهم	إلا من العشر سيف النصر قد شهرا

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧٦٠).

ألا الجنيد ألا الجيلاني ينصرهم ألا الدسوقي ألا المتبولي منه قرا
ألا الرفاعي ألا المشهور سيدنا أبو اللئام الذي كم فك من أسرا^(١)

الفرق بين الاستعانة والاستغاثة:

- (١) أن الاستعانة على أمر يريد أن يفعله، أما الاستغاثة على أمر يريد التخلص منه.
(٢) أن الاستعانة تكون في الشدة وغيرها، أما الاستغاثة فإنها لا تكون إلا في حال الشدة فقط.

(١) «تاريخ السلطنة السنارية» (١٠٧-١٠٩)، نقلاً عن «الانحرافات العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (٣١٩/١).

والذبح.

الذبح في اللغة: الشق.

وفي الاصطلاح: قطع الحلقوم من باطن عند النصيل وهو موضع الذبح من الحلق^(١).

أنواع الذبح:

ينقسم الذبح إلى ثلاثة أقسام:

١ - الذبح التوحيدي العبادي الإيماني:

وهو ما ذبح باسم الله تقريباً إلى الله ﷻ وابتغاء مرضاته، قال النبي ﷺ عندما أراد ذبح نسكه وأضحيته: «اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته. بسم الله والله أكبر»^(٢)، ولا شك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها^(٣). قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

وقد نقل الشنقيطي الإجماع على أن الذبح على وجه القربة عبادة^(٤)، «لأن الذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له»^(٥). وضابط الذبح العبادي هو «ما كان الذبح فيه أصلاً

(١) «تهذيب اللغة» (٤/ ٤٧٠-٤٧١). والنصيل هو مفصل ما بين العنق والرأس.

(٢) أبو داود (٣/ ٢٣١)، كتاب «الضحايا»/ باب ما يستحب من الضحايا. رقم (٢٧٩٥)، وابن ماجه

(٢/ ١٠٤٣)، كتاب «الأضاحي»/ باب أضاحي رسول الله ﷺ. رقم (٣١٢١)، والدارمي (١/ ٥٣٧)،

كتاب «الأضاحي»/ باب السنة في الأضحية. رقم (١٩٤٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٢٨٥).

(٣) «شرح الصدور» للشوكاني (١١) ضمن الرسائل السلفية.

(٤) «دفع إبهام الاضطراب الملحق بأضواء البيان» (١٠/ ١٠٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٨٤).

لا تبعاً». أي المقصود به ذات الذبح، وليس أكل اللحم، فلو لا أنها عقيقة ما ذبحها.
وأنواع الذبائح التي هي قربة لله وعبادة ثلاثه «الهدي والأضحية والعقيقة»^(١) ويزاد رابع وهو «الفدية».

ويوضح ابن القيم أن التقرب إليه بالهدايا وإشعارها إظهار للتوحيد وتقرب إلى رب العبيد فيقول: «ولو لم يكن في حكمة الإشعار إلا تعظيم شعائر الله وإظهارها وعلم الناس بأن هذه قرابين الله ﷻ تساق إلى بيته تذبح له ويتقرب بها إليه عند بيته كما يتقرب إليه بالصلاة إلى بيته عكس ما عليه أعداؤه المشركون الذين يذبحون لأربابهم ويصلون لها فشرع لأولياءه وأهل توحيده أن يكون نسكهم وصلاتهم لله وحده وأن يظهروا شعائر توحيده غاية الإظهار ليعلو دينه على كل دين»^(٢).

٢- الذبح الشركي الكفري:

وهو الذبح باسم الله تقريباً لغير الله تعالى، أو الذبح بغير اسم الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن عباس رحمهما: «مَا أَهْلٌ لِلطَّوَاغِيتِ كُلِّهَا»^(٣)، وقال مجاهد: «ما ذبح لغير الله»^(٤) وبمثله قال عطاء^(٥)، وقال الربيع: «ما ذكر عليه غير اسم الله»^(٦)، وقال الزهري: «الإهلال أن يقول باسم المسيح»^(٧).

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣١٢).

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/ ٣٣٥).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٨٣).

(٤) المرجع السابق.

(٥) «جامع البيان» (٢/ ٨٦).

(٦) المرجع السابق (٢/ ٨٥).

(٧) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٦٥).

قال ابن عطية: «يعني ما ذبح لغير الله تعالى وقصد به صنم أم بشر من الناس كما كانت العرب تفعل وكذلك النصارى وعادة الذابح أن يسمي مقصوده ويصيح به فذلك إهلاله»^(١).

قال أحمد: «أكره كُلَّ ما ذبح لغير الله والكنائس إذا ذبح لها.. وإذا ذبح يريد به غير الله فلا نأكله، وما ذبحوا في أعيادهم أكرهه»^(٢).

وقال الأوزاعي: «سألت ميموناً -ميمون بن مهران- عما ذبحت النصارى لأعيادهم وكنائسهم فكره أكله»، وقال أحمد بن حنبل «وَمَا ذُبِحَ عَلَى التُّصْبِ»: على الأصنام وقال: «كل شيء ذبح على الأصنام لا يؤكل»، قال حنبل: سمعت أبا عبد الله قال: «لا يؤكل لأنه أهل لغير الله به»^(٣).

وقال ابن أبي موسى: «ويجتنب أكل كل ما ذبحه اليهود والنصارى لكنائسهم وأعيادهم ولا يؤكل ما ذبح للزّهرة»^(٤).

وقال الشافعي: «وأما الذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما وسلم أو للكعبة ونحو ذلك فكل هذا حرام ولا تحل الذبيحة سواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً، نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا»^(٥).

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ١٥٠).

(٢) «أحكام أهل الملل» (٣٧٢).

(٣) المرجع السابق (٣٧١-٣٧٢).

(٤) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦١) ففيه زيادة بيان.

(٥) «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ١٤١).

والكراهة عند المتقدمين تطلق ويراد بها التحريم^(١).

«فالمسلم لو ذبح لغير الله أو ذبح باسم غير الله لم ييح وإن كان يكفر بذلك»^(٢) فتكون ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يشمل ما قصد به التقرب إلى غير الله^(٣). يعني ذبح لغير الله وما ذبح باسم غير الله.

و﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] والنصب أصنام كانوا يذبحون ويهلون عليها كذا قاله ابن عباس. وقال قتادة: النصب حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فنهى الله عن ذلك^(٤).

قال الحسن: «هو بمنزلة ما ذبح لغير الله»^(٥).

وقال أحمد بن حنبل: «كل شيء ذبح على الأصنام لا يؤكل»^(٦).

قال ابن كثير: «فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرّم عليهم أكل الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب فهو من الشرك الذي حرمه الله ورسوله»^(٧).

ومنه الذبح عند القبور:

وهذه من مسائل الجاهلية فقد كانوا يذبحون عندها فأبطلها المصطفى ﷺ حيث

(١) انظر: «التفسير الكبير» لابن تيمية (٤ / ٢٥٢). وقد أطال ابن القيم في «إعلام الموقعين» في بيان هذه الكراهة وأن المقصود بها عندهم هو التحريم وذكر الأمثلة على ذلك (١ / ٣٩-٤١).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢ / ٦٠).

(٣) المرجع السابق (٢ / ٦٨).

(٤) «جامع البيان» (٦ / ٤٨-٤٩).

(٥) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢ / ٦٨) وقال: رواه ابن أبي شيبة.

(٦) «أحكام أهل الملل» (٣٧٢).

(٧) «تفسير القرآن العظيم» (٢ / ١٢).

قال: «لا عقر في الإسلام»، قال عبدالرزاق: «كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة»^(١).

والنحر عند القبور عبادة لها قال الشوكاني: «ولا شك أن النحر نوع من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها كالهدايا والفدايا والضحايا فالتقرب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلا تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشرّ به وهذه عبادة لا شك فيها وكفاك من شرّ سماعه»^(٢).

ويبطل ذلك الزعم الكاذب القائل بأنهم لا يقصدون العبادة فيقول: «ومن قال إنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم والنذر عليهم عبادتهم فقل له: فلائي مقتض صنعت هذا الصنع؟ فإن دعاءك للميت عند نزول أمرٍ بك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبر عنه لسانك، فإن كنت تهذي بذكر الأموات عند عروض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم فأنت مصاب بعقلك، وهكذا إن كنت تنحر لله وتنذر لله فلائي معنى جعلت ذلك وحملته إلى قبره فإن الفقراء على ظهر البسيطة في كل بقعة من بقاع الأرض، وفعلك وأنت عاقل لا يكون إلا لمقصد قصدته أو أمر أردته وإلا فأنت مجنون»^(٣).

ويزيد هذا البيان بياناً وإيضاحاً الصنعائي فيقول: «فإن قال إنما نحرت لله وذكر اسم الله عليه فقل: إن كان النحر لله فلائي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم، فقل له هذا النحر لغير الله تعالى، بل أشركت مع الله تعالى غيره، وإن لم ترد تعظيمه، فهل أردت توسيح باب المشهد وتنجيس

(١) أحمد (٣/١٩٧)، وأبو داود (٣/٥٥٠)، كتاب «الجنائز» / باب كراهية الذبح عند القبر. رقم (٣٢٢٢) واللفظ له، قال ابن مفلح: «رواه أحمد بإسناد صحيح». «المبدع» (٢/٢٨٣)، وصححه الشوكاني في «شرح الصدور» (١١) ضمن الرسائل السلفية، والألباني في «صحيح الجامع» (٦/١٩٩) رقم (٧٤١١)، وابن باز في «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٩/٣٩٤).

(٢) «شرح الصدور» (١١) ضمن الرسائل السلفية.

(٣) «الدر النضيد» (٢١) ضمن الرسائل السلفية.

الداخلين؟ أنت تعلم يقيناً أنك ما أردت ذلك أصلاً ولا أردت إلا الأول ولا خرجت من بيتك إلا قصداً له»^(١).

ومن ذلك ما رواه الجبرتي حيث قال: «حضر حسين باشا القبطان من الجيزة، ودخل المدينة وتوجه إلى المشهد الحسيني، فزاره وذبح به خمس جواميس وسبعة كباش، واقتسمها خادمة الضريح»^(٢).

ومثله الذبح للجن، والذبح لاستقبال السلطان:

وذلك أن يمسك بالذبيحة فإذا وصل السلطان ذبحها في مقدمه وأهرق دمها لمقدمه، فهذا مما أهّل به لغير الله^(٣) لما في ذلك من تعظيمه بالذبح.

وكذلك معاقرة الأعراب: وهي أن يتبارى الرجلان ويتفاخرا في عقر الإبل ويتكاثرا في ذلك فأيهما يعقر أكثر من صاحبه تكون له الغلبة^(٤) فهذه الصورة كرهها ابن عباس ولما سئل عنها قال: «إني أخاف أن تكون مما أهّل لغير الله به»^(٥).

أما علي بن أبي طالب فقد جزم بتحريمها وأنها مما أهّل به لغير الله، وذلك أن سحيم بن وثيل الشاعر نافر غالب بن صعصعة أبا الفرزدق الشاعر بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت الماء، فلما وردت الإبل الماء قاما إليها بأسيا فهما فجعلتا ينسفان عراقيهما. فخرج الناس على الحُمَرات والبغال يريدون الحمل - أي حمل اللحم - وعلي عليه السلام بالكوفة فخرج على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي:

(١) «تطهير الاعتقاد» (ص ٣٣).

(٢) «عجائب الآثار» (٢/ ٤٧٩).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (١٣/ ١٤١)، وانظر: «فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٠٨)، و«الدين الخالص» (٢/ ٢٥٤).

(٤) انظر: «معالم السنن» حاشية أبي داود (٣/ ٢٤٦).

(٥) «تفسير ابن أبي شيبه» نقلاً عن «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٦).

(٦) «أخبار الحسن» نقلًا عن «المحرر الوجيز» (٢ / ٧٠).

بل ذهب الإمام مالك أبعد من ذلك فمنع من ذكر الصلاة على النبي ﷺ عند الذبح معللاً: «أن تلك الذبيحة التي يصلى على النبي ﷺ عندها مما أهل به لغير الله»^(١).

ويعلل ابن القاسم المنع من الصلاة على النبي ﷺ في هذا الموضع فيقول: «وذلك موضع لا يذكر هنا إلا اسم الله وحده»^(٢). وعلى هذا درج العلماء رحمهم الله كما قال القرطبي: «وكره العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاة على النبي ﷺ عند التسمية في الذبح وقالوا: لا يذكر هنا إلا الله وحده»^(٣).

ويجب الحذر من الذبح بمكان أعياد الكفار وأوثانهم فهو معصية لله تعالى لا يجوز فعله، حتى ولو كان قد ترك العيد، أو أزيل الوثن، بدليل حديث ثابت بن الضحاك قال: «نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ: أن ينحر إبلاً ببوانة فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟»، قالوا: لا، قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟»، قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك فإنه لا وفاء في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»^(٤).

٣- الذبح المباح:

وهو الذي لم يقصد بذبحه التقرب وإنما قصد به التوصل إلى أكل اللحم، وضابطه:

(١) «الحاوي» للماوردي (٩٦/١٥).

(٢) «المدونة» (٦٦/٢).

(٣) «المفهم» (٣٦٣/٥).

(٤) أبو داود (٦٠٧/٣)، كتاب «الآيمان» / باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر. رقم (٣٣١٣)، وقال شيخ الإسلام: «وهذا الإسناد على شرط الصحيحين وإسناده كلهم ثقات مشاهير، وهو متصل بلا عنعنة». «اقتضاء الصراط المستقيم» (٤٩٠/١)، وصحح إسناده ابن حجر في «تلخيص الحبير» (١٨٠/٤) رقم (٢٠٧٠). والرجل هو كردم بن سفيان الثقفي كما ورد مصرحاً به في الرواية التي بعدها كما في «السنن».

رقم (٣٣١٤).

«ما كان الذبح فيه تبعًا لا أصلًا».

كالذبح لأكل اللحم، أو لإكرام الضيف أو لهدية اللحم كما كان النبي ﷺ يذبح الشاة ويهديها إلى صواحب خديجة^(١). أو لوليمة العرس قال أنس: «ما أَوْلَمَ النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أَوْلَمَ على زينب، أَوْلَمَ بشاة»^(٢)، وقال لعبد الرحمن بن عوف: «أَوْلَمَ ولو بشاة»^(٣).

-
- (١) البخاري (٣٨/٥)، كتاب «النكاح» / باب تزويج النبي خديجة وفضلها. رقم (٣٨١٨)، ومسلم (١٨٨٨/٤)، كتاب «فضائل الصحابة» / باب فضائل خديجة. رقم (٢٤٣٥).
- (٢) البخاري (٢٤/٧)، كتاب «النكاح» / باب الوليمة ولو بشاة. رقم (٥١٦٨).
- (٣) البخاري (٢٤/٧)، كتاب «النكاح» / باب الوليمة ولو بشاة. رقم (٥١٦٧)، ومسلم (١٠٤٢/٢)، كتاب «النكاح» / باب الصداق. رقم (١٤٢٧).

والنذر.

النذر لغة: ما كان وعدًا على شرط^(١).

وهو: إلزام المكلف نفسه بشيء ما «وهو الإيجاب».

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠] «أي أوجبتم على أنفسكم شيئاً من التطوع»^(٢).

قال شمر وأبو سعيد الضرير: «إنما قيل له نذر لأنه نُذِرَ فيه، أي أوجب من قولك: نذرت على نفسي أي أوجبت»^(٣).

وفي الاصطلاح: هو إيجاب المكلف على نفسه عبادة ليست واجبة بأصل الشرع. أقسام النذر:

ينقسم النذر إلى ثلاثة أقسام هي:

١ - النذر التوحيدي العبادي:

وهو النذر لله تعالى نذر الطاعة، فمن نذر نذر طاعة وجب عليه الوفاء به لقوله ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»^(٤).

«وذلك لأن الناذر لله وحده قد علّق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فتوحيد القصد هو توحيد العبادة

(١) «تهذيب اللغة» (٤٢٣ / ١٤) و«القاموس المحيط» (٦١٩).

(٢) «تهذيب اللغة» (٤٢٢ / ١٤).

(٣) «تهذيب اللغة» (٤٢٠ / ١٤).

(٤) البخاري مع الفتح (٥٨١ / ١١)، كتاب «الآيمان والنذور» / باب النذر في الطاعة. رقم (٦٦٩٦).

ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله^(١).

وقد مدح الله الموفين به فقال: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنذَرِ﴾ [الإنسان: ٧] وكل أمر مدح الشارع من فعله فهو عبادة فمن جعله الله تعالى فقد فعل قربة يرفعه الله بها درجات. وهو قسمان:

(أ) نذر مطلق لم يعلق بشرط وذلك يفعل من يريد إلزام نفسه بأمر يعمل به كمن يقول: لله عليّ نذر أن أصوم أيام البيض، وكنذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين نذر أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام.

(ب) نذر معلق بشرط:

كمن يقول: إن شفى الله مريضاً لأصوم من ثلاثة أيام. والوفاء به واجب بالكتاب والسنة والإجماع^(٢).

٢- نذر المعصية:

ونذر المعصية لا يجوز الوفاء به لقوله ﷺ: «ومن نذر أن يعصيه؛ فلا يعصه» كمن نذر أن يصوم يوم العيد^(٣).

٣- النذر الشرعي:

وهو النذر لغير الله تعالى كالنذر للموتى من الأنبياء والمشائخ وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم، فهو نذر شرعي ومعصية لله تعالى سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو

(١) «قرة عيون الموحدين» (٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٣/٣٦).

(٣) انظر: «البخاري مع الفتاح» (١١/٥٩٠-٥٩١)، كتاب «الأيمان والنذور»/ باب من نذر أن يصوم أياماً فوافق النحر أو الفطر. رقم (٦٧٠٥، ٦٧٠٦).

غير ذلك وهو شبهه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام^(١) وقد اتفق العلماء على أن هذا النذر شرك لا يوفى به^(٢).

قال الشيخ ابن باز: «النذر لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة ومن اعتقد جواز النذر للمقبورين فاعتقاده هذا شرك أكبر مخرج من الملة يستتاب صاحبه ثلاثة أيام ويضيق عليه فإن تاب وإلا قتل»^(٣).

وهؤلاء الذين ينذرون النذور الشركية إنما ينذرونها «لأنهم يعتقدون أنها باب الحوائج إلى الله وأنها تكشف الضر وتفتح الرزق وتحفظ مصر ومن اعتقد هذا فهو كافر مشرك يجب قتله»^(٤)، وقال الصنعاني مبيناً هذه الحقيقة: «قد علم كل عاقل أن الأموال عزيزة عند أهلها يسعون في جمعها ولو بارتكاب كل معصية ويقطعون الفياقي من أدنى الأرض والأقاصي فلا يبذل أحد من ماله شيئاً إلا معتقداً لجلب نفع أكثر منه أو دفع ضرر، فالناذر للقبر ما أخرج ماله إلا لذلك وهذا اعتقاد باطل ولو عرف الناذر بطلان ما أراده ما أخرج درهماً»^(٥).

ومن نماذج النذر الشركي: ما ينذره بعض الناس للبدوي، قال محمود أبو ريّة: «لما فتح صندوق النذور القائم بجوار أحمد البدوي وجد فيه خمسون ومائة ألف جنيه، وما يقدر بثلاثمائة جنيه من الحلي الذهبية، ووجد فيه التماسات يرغب فيها أصحابها من البدوي أن ينظرهم إلى ميسرة فيما له عليهم من دين»^(٦).

(١) «مجموع الفتاوى» (١١ / ٥٠٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١ / ٢٨٦).

(٣) «فتاوى اللجنة الدائمة» (١ / ١١٠).

(٤) «مجموعة الرسائل والمسائل» (١ / ٦٨).

(٥) «تطهير الاعتقاد» (٣٣).

(٦) «البدوي» لمحمود أبو ريّة (٢٢٤).

وفي ذلك يقول حافظ إبراهيم:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات
للسيد البدوي مُلْكٌ دخله خمسون ألفاً والحظوظ هبات
من لي بِحَظِّ النائمين بحفرةٍ قامت على أرجائها الصلوات
يسعى الإمام لها ويجري حولها بحرُ النذور وتقرأ الآيات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات^(١)

لماذا نهى النبي ﷺ عن النذر؟

نهى عن النذر، وإن كان طاعة؛ لأمر:

١ - أن النذر لا فائدة فيه إلا التزام ما التزمه وقد لا يرضى به فيبقى أثماً، وإذا فعل تلك العبادات بلا نذر كان خيراً له.

٢ - أن النذر ليس سبباً في حصول المطلوب ودفع المرهوب حتى وإن كان نذر طاعة، وإنما الخير الذي يحصل للناذر يوافقه موافقة فقط. بدليل قوله ﷺ: «إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَرِّبُ مِنْ ابْنِ آدَمَ شَيْئاً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ قَدْرُهُ لَهُ، وَلَكِنَّ النَّذْرَ يُوَافِقُ الْقَدْرَ فَيُخْرِجُ بِذَلِكَ مِنَ الْبَخِيلِ مَا لَمْ يَكُنِ الْبَخِيلُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ»^(٢).

٣ - أن في النذر زيادة تكليف على الناذر مع أنه كان في حِلٍّ منه.

٤ - ندم كثير منهم حيث لا يستطيع الوفاء بنذره فيذهب يبحث عن مخرج.

٥ - أن في هذا دليل على ثقل الطاعة عليه فليحذر أن يكون فيه شبهة من المنافقين.

٦ - أن النذر المقيد فيه نوعٌ مشاركة مع الله، وهذا فيه سوء أدب مع الله تعالى.

(١) المرجع السابق (١٩)، ولك أن تلاحظ الفرق بين مبلغ النذور؛ لأن السنوات مختلفة.

(٢) البخاري مع الفتح (١١/٥٧٦)، كتاب «الآيمان والنذور»/ باب الوفاء بالنذر. رقم (٦٦٩٤)، ومسلم

(٣/١٢٦٢)، كتاب «النذر»/ باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً. رقم (١٦٤٠) واللفظ له.

٧- أن الناذر يقصد بالنذر تحصيل مطلبه، والله لا يعطي العبد ويقضي حاجته بمجرد ذلك النذر وإنما يعطيه ليبتليه أيشكر أم يكفر.

قال شيخ الإسلام: «فمن ظن أن حاجته إنما قضيت بالنذر فقد كذب على الله ورسوله»^(١).

فإذا كان نذر الطاعة لم يجعله الله سبباً لإدراك الحاجة فكيف يكون نذر المعصية سبباً لإدراك الحاجة وهو محرم أوله لا يجوز الوفاء به^(٢).

(١) «مجموع الفتاوى» (٣١٤ / ٢٥).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢ / ٢٣٢ و ٢٦٨) و «مجموع الفتاوى» (٣١٤ / ١٠ و ٤٢٠).

وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها الله تعالى. والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [البقره: ١٨]. فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر.

وفي قوله: وغير ذلك من أنواع العبادة: بيان أنه لم يقصد حصر أنواع العبادة وإنما جاء بهذه الأنواع لأمرين:

١ - التمثيل لا الحصر.

٢ - أن هذه الأنواع هي التي يكثر الخلل فيها، فإذا صلحت كان غيرها إلى الصلاح أقرب.

التي أمر الله بها: الأمر هو الطلب على سبيل الإلزام والإيجاب أو الاستحباب، وقيدتها بالأمر لأن العبادات توقيفية. فما لم يرد فيه أمر فليس لأحد أن يتعبد لله به. قوله: كلها الله تعالى:

أي: جميعها يجب صرفها لله تعالى وحده لا شريك له، فلا يصلح أن تصرف لأحدٍ غيره مهما علت رتبته وارتفع شأنه ولذلك أكد هذا المعنى بقوله: «كلها».

واستدلال المؤلف بهذه الآية لبيان أمرين مهمين هما:

١ - تخصيص الله وحده بالعبادة، حيث قال: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾.

٢ - النهي عن ضده وهو دعاء غيره معه حيث قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

لا: ناهية والنهي يقتضي التحريم والمنع.

وأحدًا: نكرة في سياق النهي فتشمل كل شيء غير الله تعالى.

والقاعدة تقول: «إذا وردت لفظة أحدٍ أو شيء في سياق النهي أو النفي أفادت

العموم».

من: شرطية.

صرف: فعل الشرط.

صرف: الصرف ردُّ الشيء من حالة إلى حالة أو إبداله بغيره^(١).

وقيل: التقلُّبُ والحيلة قال الليث تصريف الرياح: أي صرفها من جهة إلى جهة^(٢).

منها: الضمير يعود إلى العبادات المذكورة قبل ذلك، كصرف الدعاء أو التوكل أو غيرها من العبادات لغير الله.

قوله: فهو مشرك كافر

الشرك في اللغة: هو المخالطة بين شيئين. يقال: شَرِكَه في الأمر يَشْرُكُهُ إذا دخل معه فيه^(٣). فالشرك ضد التوحيد.

وفي الاصطلاح: صرف شيء مما يختص الله به لغيره سواء في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وأما الكفر: فهو السُّتْرُ والتغطية^(٤).

«قال الليث: سمي الكافر كافرًا لأن الكفر غطى قلبه كُلَّهُ، وقال: الكفر نقيض الإيمان آمنًا بالله وكفرنا بالطاغوت»^(٥).

(١) «المفردات» (٢٨٣).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٦١ / ١٢).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٧ / ١٠).

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (١٩ / ٥).

(٥) «تهذيب اللغة» (١٩٣ / ١٠ و ١٩٦).

وفي الاصطلاح: عدم قبول الحق والإيمان به^(١).

وينقسم الكفر إلى قسمين:

(١) أكبر وهو الكفر المخرج من الملة.

(٢) أصغر وهو ما لم يخرج من الملة.

والكفر الأكبر أنواع، هي:

١ - كفر الإنكار: أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد ولا

يعترف به^(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

والإنكار ضد العرفان، يقال أنكرت كذا ونكرت وأصله أن يرد على القلب ما لا

يتصوره وذلك ضرب من الجهل قال تعالى: ﴿فَلَمَّارَةٌ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠]

وقد يستعمل ذلك فيما ينكر باللسان وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار بالقلب^(٣).

فمن أنكر أصلاً من أصول الدين أو حكماً من أحكامه أو خبراً من أخباره المعلومة

من الدين بالضرورة كفر.

كمن أنكر ألوهية الله تعالى أو اسماً من أسمائه أو أنكر جبريل أو رسالة محمد ﷺ أو

أنكر صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ونحو ذلك.

٢ - كفر الإباء والعناد: وهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل^(٤).

(١) قال شيخ الإسلام: «والكفر عدم الإيمان، باتفاق المسلمين سواء اعتقد نقيضه وتكلم به أو لم يعتقد شيئاً

ولم يتكلم». «مجموع الفتاوى» (٢٠ / ٨٦).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠ / ١٩٤)، و«معالم التنزيل» (١ / ٤٨)، وتفسير السمعاني (١ / ٤٦).

(٣) «المفردات» (٥٠٧).

(٤) «تهذيب اللغة» (١٠ / ١٩٤) ولفظ الأزهري (كفر المعاندة)، و«معالم التنزيل» (١ / ٤٨)، وتفسير =

فالكافر كفر عناد ممتنع عن الانقياد للحق الذي جاءت به الرسل مع معرفته صدق الرسول ﷺ وأن الحق هو الذي جاء به من عند الله تعالى.

وقد «أجمع العلماء على أن من دفع شيئاً أنزله الله وهو مع ذلك مقرباً أنزل الله أنه كافر»^(١).

وهذا الكفر يدُلُّ على وجود «خلل في الإيمان بالربوبية وخلل في الإيمان بالرسالة وخلل في اعتقاد حكمة الأمر وقدرته فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته»^(٢).

ومن أسبابه الحسد أو الكبر أو الخوف أو محبة دين الآباء والأجداد أو احتقار أهل الإيمان وغير ذلك من الأهواء الصارفة عن اتباع الرسل^(٣).

فكفر إبليس سببه الكبر: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وكفر اليهود سببه الحسد: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وينبغي أن يُعلم أن اليهود والنصارى كلهم كفار ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٠٥] «ف(من) هنا لبيان الجنس فيصير المعنى أن أهل الكتاب كلهم كفار»^(٤).

السمعاني (٤٦/١).

وقال ابن الأثير عند تعداده أنواع الكفر: «كفر عناد وهو أن يعترف بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأضرابه» «النهاية» (٤/١٨٦).

(١) «التمهيد» (٤/٢٢٦).

(٢) «الصارم المسلول» (٥٢١-٥٢٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/١٩١-١٩٤).

(٤) تفسير «القرآن الكريم» للعثيمين (١/٣٤٠).

وآخرون منعهم من الإيمان احتقار أهله كما أوضح الله حالهم بقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

أما أبو طالب فمنعه محبة دين الآباء وخشية المسبة. فمما قال عند موته:
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذلك مبيناً^(١)
«وهذا النوع هو الغالب على كفر أعداء الرسل»^(٢).

٣- كفر الجحود: أن يعرف بقلبه ولا يقرّ بلسانه^(٣).
والمقصود بالمعرفة هنا استيقان القلب لصحة الرسالة فمن كتم الحق مع العلم
بصدقه فكفره كفر جحود. قال تعالى عن الجاحدين: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا
وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾: في ظاهر أمرهم، ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾: أي علموا في أنفسهم أنها حق
من عند الله، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظُلْمًا﴾: أي ظلماً من أنفسهم سجية
ملعونة، و﴿وَعُلُوًّا﴾: أي استكباراً عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم وإغراقهم عن
آخرهم في صبيحة واحدة^(٤).

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ
يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فإنهم لا يكذبونك: أي لا يعتقدون كذبك.

(١) «تهذيب اللغة» (١٠ / ١٩٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١ / ٣٦٦).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠ / ١٩٤)، «معالم التنزيل» (١ / ٤٨).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٠٠٦).

ومما ورد في سبب نزولها أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: «إنا لا نُكذِّبك ولكن نكذبُ بما جئت به»^(١).

فتبين بذلك أنهم يعلمون صدقه ولكنهم جحدوا ذلك حباً للزعامة والرياسة، وقد أجمع العلماء على كفر الجاحد^(٢) سواء جحد جميع الرسالة أو بعضها مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

٤ - كفر النفاق: أن يكفر بقلبه ويقرّ بلسانه^(٣).

قال الإمام أحمد: «النفاق هو الكفر أن يكفر بالله ويعبد غيره ويظهر الإسلام في العلانية»^(٤)، وقال علي بن المديني: «النفاق هو الكفر: أن يكفر بالله ﷻ ويعبد غيره في السر، ويظهر الإيمان في العلانية»^(٥)، وبمثله قال البرهاري^(٦) وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتُوا الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

«أجمع جميع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق وأن هذه الصفة صفتهم»^(٧).

وقال الحسن البصري: «كانوا يقولون: من النفاق اختلاف اللسان والقلب واختلاف السر والعلانية»^(٨).

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٤/ ١٢٨٢).

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٣٠).

(٣) «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٩٤) و«معالم التنزيل» (١/ ٤٨)، و«تفسير السمعاني» (١/ ٤٦).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٢)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٢٤٥) و(١/ ٣١١).

(٥) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١/ ١٦٩).

(٦) «شرح السنة» (٣٠).

(٧) «جامع البيان» (١/ ١١٦).

(٨) «الإبانة الكبرى» لابن بطة (٢/ ٦٩٠).

وبين الله واقعهم لرسوله ﷺ فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] «أي والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم أنها تشهد أنك لرسول الله وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك»^(١).

فكفر النفاق أغلظ أنواع الكُفر وذلك لأنهم وصل إليهم من معرفة الدين وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة وسبب وصوله إليهم أنهم خالطوا المسلمين وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيثار ما لم يباشره البعداء «فالمنافق أبصر ثم عمي وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشد كفراً وأخبث قلباً وأعتى على الله ورسوله فاستحق الدرك الأسفل من النار»^(٢).

٥ - كفر التكذيب: هو اعتقاد كذب الرسول ﷺ فيما أخبر به^(٣).

والتكذيب يقابله التصديق، فإذا انتفى تصديق القلب كان الكفر كفر تكذيب قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

«والتكذيب أخص من الكفر، فكل مكذب لما جاءت به الرسل فهو كافر وليس كل كافر مكذباً»^(٤).

قال ابن بطة: «فكل من ترك شيئاً من الفرائض التي فرضها الله ﷻ في كتابه أو أكدها رسول الله ﷺ في سنته على سبيل الجحود لها والتكذيب بها فهو كافر بين الكفر، لا يشك

(١) «جامع البيان» (١٤/١٠٦).

(٢) «طريق الهجرتين» (٤٠٣-٤٠٤).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٣٦٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢/٧٩).

في ذلك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر»^(١).

وهذا أمر مجمع عليه عند أهل العلم^(٢). وصار التكذيب كفرًا لأنه إبطال لدين الله تعالى.

٦- كفر الشك: الشك هو التردد وعدم الجزم بصدقه ولا بكذبه. كالذي لا يجزم بصدق الرسول ﷺ ولا بكذبه ولا يجزم بوقوع البعث ولا عدم وقوعه^(٣).

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثواب أهل طاعته وعقابه أهل معاصيه ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ في شكهم متحيرون وفي ظلمة الحيرة مترددون لا يعرفون حقًا من باطل^(٤).

وصاحب الجنة كفر بمجرد شكه في البعث كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦] قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ۖ﴾ [الكهف: ٣٥-٣٧].

وكُفِّرُ الشاكُّ في أمرٍ من أمور الدين المعلومة بالضرورة أمر مجمع عليه عند أهل العلم، بل أجمعوا على كفر من شك في كفر الكافرين من يهود ونصارى ومشركين^(٥).

(١) «الإبانة الكبرى» (٢/ ٧٦٤).

(٢) «الشفاء» للقاظمي عياض (٢/ ١٠٧٣ و ١٠٧٦).

(٣) «الضيء الشارق» لسليمان بن سحمان (٣٧٤).

(٤) «جامع البيان» (١٠/ ١٤٣).

(٥) «الشفاء» (٢/ ١٠٦٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٣٦٨).

٧- كفر الإعراض: الإعراض هو الصدود والتولي التام عن النظر في دين الرسول ﷺ. قال تعالى واصفاً الكفار ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣] أعرضوا عن النذر، فلا يريدون العلم ولا الإيمان. والمعرضون لا أظلم منهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧].

أي: «فأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها أي تناساها ولم يصنع لها ولا ألقى لها بالاً»^(١).

وصفة الإعراض «أن يُعْرِضَ بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغي إلى ما جاء به البتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ «والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك»^(٢)»^(٣).

وضابط الإعراض المكفر «هو الإعراض عن تعلم الأصل الذي يدخل به الإنسان في الإسلام لا ترك الواجبات والمستحبات»^(٤).

٨- كفر السب والاستهزاء:

السب: هو الشتم الوجيع^(٥). وهو الوصف بما يقتضي النقص. وضابطه «ما عده أهل العرف سباً وانتقاصاً أو عيباً أو طعناً ونحو ذلك فهو من السب»^(٦). قال تعالى في حق من استهزأ بالنبي ﷺ ومن معه من أصحابه في غزوة تبوك كفر هو ومن معه، وخرجوا من

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٨٢٣).

(٢) «سير ابن هشام» (٢/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٦-٣٦٧).

(٤) «الدرر السنية» (١٠/ ٤٧٣).

(٥) «المفردات» (٢٢٤).

(٦) «الصارم المسلول» (٥٣١) وانظر: (٥٤٠ و ٥٤٦).

الملة بذلك قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] ^(١).

والسب أعظم وأشنع من مجرد الكفر لأن «السب والشتم إفراط في العداوة وإبلاغ في المحادة مصدره شدة سفه الكافر وحرصه على فساد الدين وإضرار أهله» ^(٢)، ومما يبين أن السب قدّر زائد على الكفر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

«ومن المعلوم أنهم كانوا مشركين مكذبين معادين لرسوله ﷺ ثم نهى المسلمون أن يفعلوا ما يكون ذريعة إلى سبهم الله، فعلم أن سب الله أعظم عنده من أن يشرك به ويكذب رسوله ويعادي» ^(٣).

وقد أجمع العلماء على كفر من سب الله أو سب رسوله ﷺ ^(٤).
قوله: مشرك كافر: أي اتصف بالشرك والكفر معاً فاجتمعاً فيه، فهو مشرك لأنه صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله وكافر لأنه عاند الله في أمره ونهيه.
والقاعدة تقول: «كل مشرك كافر وليس كل كافر مشركاً».

قال شيخ الإسلام: «كل مشرك مكذب برسول الله متنقص له، وليس كل من كذب الرسول أو تنقصه يكون مشركاً» ^(٥).

(١) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٨٢٩/٦) رقم (١٠٠٤٧)، و«جامع البيان» (٣٣٣/١٤-٣٣٤) رقم (١٦٩١٢).

(٢) «الصارم المسلول» (٣٦٩).

(٣) «الصارم المسلول» (٥٥٢).

(٤) «التمهيد» (٢٢٦/٤).

(٥) «الرد على البكري» (١٤٧).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

مَنْ: شرطية.

يدع: فعل الشرط وجوابه «فإنما حسابه عند ربه». وكلمة يدع تشمل نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة.

مع الله: مع تفيد المشاركة؛ فمن دعا غير الله فقد جعله شريكاً لله في العبادة، ولهذا قال: «إلهاً آخر» فكلمة الإله تطلق على كل معبود حقاً كان أو باطلاً. ولفظة «إلهاً آخر» تشمل كل معبود غير الله من مَلِكٍ أو نبي أو ولي أو غير ذلك.

لا: نافية للجنس.

برهان له به: البرهان: هو الحجة والبينة والدليل الذي لا يترك في الحق لبساً.

وقوله لا برهان له به: صفة كاشفة مطابقة للواقع لازمة له.

وهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَيْرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] ومعلوم أن كل طير إنما يطير بجناحيه.

وجيء بها للتوكيد. وهي تفيد التهكم بمدعي إله مع الله تعالى^(١).

والمعنى كل من دعا مع الله غيره فلا حجة له ولا بينة له على فعله.

«ولا خلاف بين أهل العلم أن قوله هنا ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ لا مفهوم مخالفة له فلا يصح أن يقال: أما من عبد معه إلهاً آخر له برهان به فلا مانع من ذلك لاستحالة وجود برهان على عبادة إله آخر معه بل البراهين القطعية المتواترة دالة على أنه هو المعبود وحده جلّ

(١) «تفسير القاسمي» (١٢/٤٤٢٢).

وعلا ولا يمكن أن يوجد دليل على عبادة غيره البتة»^(١).

فكلُّ دعوى بالوهمية أحد مع الله هي دعوى ليس لها برهان لا من الدلائل الشرعية ولا الكونية ولا من الفطرة ولا من العقل.

فإنما حسابه: الفاء رابطة لجواب الشرط.

والحساب هو الجزاء على الفعل، ولم يبين ما هو جزاؤه ليكون أبلغ في الزجر.

وخص الحساب بأنه عند ربه ليفيد أمرين:

١ - أنه القادر على المجازاة والعقاب على هذا الفعل السيء فقط، ولن ينجو أحد من أهل الشرك من عقابه.

٢ - إذا استشعر العبد أن العقاب عنده وحده أو جب له ذلك إفراةً بالعبادة، والخوف منه وحده فقط والبعد عن الشرك وعبادة الأصنام؛ لأنها لا تستطيع أن تعاقب ولا تثيب.

إنه: إن للتوكيد، الهاء: ضمير الأمر والشأن.

لا يفلح: لا نافية تنفي الفلاح عن الكافرين. والفلاح: هو الظفر وإدراك البغية. ونفي الفلاح عنه يدل على هلاكه فلا يدرك ما يريد ولا يظفر به. وهو خالد مُحَلَّدٌ في النار، ولهذا فإنه في الغالب يؤخر عذابه حتى يلقي ربه ليكون عذابه أشد.

الكافرون: الكفر هو الستر والتغطية وسمي الكافر كافرًا لأنه يغطي الحق.

قال شيخ الإسلام: «حقيقة الكفر ومسماه هو عدم الإيمان باتفاق المسلمين»^(٢).

فالكافرون هم الذين ليس عندهم شيء من الإيمان، وأتى بالكافرين بالآلف واللام ليبين أن كفرهم أكبرُ ناقل عن الملة.

(١) «أضواء البيان» (٥/ ٨٣٣) وإن شئت الاستزادة فراجعه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٨٦).

وقبل أن نبدأ بالأدلة يحسن كتابة قاعدتين توضحان الاستدلال بها وهما:

القاعدة الأولى: كل أمر أمر الله به أو مدحه أو أثنى على من فعله فهو عبادة.

مثال ما أمر به، قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ١١٠].

وأما ما مدحه كقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]، يقول الله عز وجل

في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي، والصوم جنة»^(١).

وقال ﷺ: «والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء»^(٢).

أما الشاء على من فعله كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا

رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقوله: ﴿يُفُونَ بِالْأُذُنِ وَالْأَنْفِ وَالْأَعْيُنِ يَوْمَ كَانَ شَرُّهُ

مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

القاعدة الثانية: ما كان صرْفُه لله عبادة فَصَرَفُه لغير الله شرك.

يوضحها المثال: قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

فالدعاء مما أمر الله به فهو عبادة يجب صرفه لله، فيدعى وحده، ومثله الصلاة والزكاة

والرغبة والرغبة والنذر وغيرها، فيصلي لله، ويزكي لله، ويرغب إلى الله، ويرهب الله،

وينذر له وحده، فمن دعا غير الله فقد أشرك، ومن دفع زكاة ماله قاصداً غير الله فقد

(١) البخاري مع الفتح (١٣/ ٤٦٤)، كتاب «التوحيد»/ باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾.

رقم (٧٤٩٢).

(٢) مسلم (١/ ٢٠٣)، كتاب «الطهارة»/ باب فضل الوضوء. رقم (٢٢٣).

أشرك، ومن رغب إلى غير الله فقد أشرك، ومثله لو رهب غير الله، ونذر لغير الله، ونحو ذلك.

وفي كتاب التوحيد بوب المؤلف باباً سماه: «باب ما جاء في الذبح لغير الله» ثم ذكر تحته قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فكيف يكون الاستدلال بهذه الآية؟

وجه الاستدلال أن الله أمره أن يكون ذبحه لله فيكون الذبح عبادة فلو صرفه لغير الله صار شركاً.

وفي الحديث: «الدعاء مخ العبادة»^(١).

الدعاء مخ العبادة: أي خالص العبادة ولُبُّها، فَمُخُّ الشيء هو خالصه ولبه، وصار الدعاء مخ العبادة لأنه تَبَرُّؤٌ من الحول والقوة واعتراف بأن الأشياء كلها منه وله ﷻ.

قال السعدي عند قوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤].

«وضع كلمة الدين موضع كلمة الدعاء -وهو في القرآن كثير جدًا- يدل على أن الدعاء هو لُبُّ الدين وروح العبادة»^(٢).

فمعناه أن الدعاء هو أعظم العبادة وذلك كقوله ﷺ: «الحجُّ عرفة»^(٣) أي ركنه

(١) الترمذي (٤٥٦/٥)، كتاب «الدعوات» / باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧١)، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة». والطبراني في «الدعاء» (٧٨٩/٢) رقم (٨)، قال الألباني بعد أن ضعفه: «لكن معناه صحيح بدليل حديث النعمان». «أحكام الجنائز» (٢٤٧). ويظهر أن المؤلف أتى به هنا لأن اللفظ أصرح في بيان أهمية الدعاء فهو تفسير لقوله ﷺ: «الدعاء هو العبادة» فلا يضر ضعفه. وفعل ابن باز يشعر بذلك حيث قال عند هذا الحديث وفي الحديث «الدعاء مخ العبادة» وفي لفظ آخر: «الدعاء هو العبادة» «شرح الأصول الثلاثة» لابن باز (٤٦).

(٢) «القواعد الحسان» (١٥٥).

(٣) أحمد (٣٠٩/٤)، والترمذي (٢٣٧/٣)، كتاب «الحج» / باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع، فقد أدرك الحج. رقم (٨٨٩)، وأبو داود (٤٨٥-٤٨٦)، كتاب «المناسك» / باب من لم يدرك عرفة. رقم (١٩٤٩)، وابن ماجه (١٠٠٣/٢)، كتاب «المناسك» / باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع. رقم (٣٠١٥)، والنسائي (٢٥٦/٥)، كتاب «مناسك الحج» / باب فرض الوقوف بعرفة. وصححه النووي في «المجموع» (٩٥/٨)، وابن الملقن في «البدر المنير» (٢٣٠/٦)، «قال سفيان بن عيينة: هذا أجود حديث رواه سفيان الثوري. قال أبو عيسى: والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، وهو قول الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق».

الأعظم^(١) ويقويه الحديث الذي رواه النعمان بن بشير رحمته الله، قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾» [غافر: ٦٠]^(٢).

(١) «شأن الدعاء» للخطابي (٥).

(٢) أحمد (٢٦٧/٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٧) رقم (٧١٤)، والنسائي في «الكبرى» (٦/٤٥٠)، والترمذي (٤٥٦/٥)، كتاب «الدعاء» / باب ما جاء في فضل الدعاء. رقم (٣٣٧٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وأبو داود (١٦١/٢)، كتاب «الصلاة» / باب الدعاء. رقم (١٤٧٩)، وابن ماجه (١٢٥٨/٢)، كتاب «الدعاء» / باب فضل الدعاء. رقم (٣٨٢٨)، وصححه النووي في «الأذكار» (٣٨٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال ابن حجر: «أخرجه أصحاب السنن بسند جيد». «فتح الباري» (١/٤٩).

والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

.....

وقال ربكم: أتى بكاف الخطاب ليدل على اختصاصهم بالرب جل وعلا، وذلك لأنهم عبدوه وحده دون المشركين.

ادعوني أستجب لكم: هذا من كرم الله ولطفه بعباده أن دعاهم لما يصلح حالهم وهو دعاؤهم إياه ووعدهم بالاستجابة.

قال ابن عباس: وحّدوني أغفر لكم، وقال السدي: سلوني أعطكم فيكون معنى أستجب لكم: أتعبل عبادتكم وأغفر لكم وأعطيكم.

فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة^(١).

قال الشوكاني: جعل جزاء الدعاء الإجابة ولهذا جزمه لكونه جواباً للأمر^(٢).

وقال القرطبي: «أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاستجابة وليس بينهما شرط»^(٣)، وهذا من كمال فضله وجوده وإحسانه.

الباعث للدعاء ونتيجته:

يبحث على الدعاء أحد أمرين:

١ - طلب الحاجة وتفريج الكربة: فيتضرع إلى الله بالدعاء ثم يفتح له التضرع من أبواب الإيمان بالله ومعرفته ومحبه ما يكون أحب إليه من تلك الحاجة التي أهمته.

(١) «معالم التنزيل» (٤/ ١٠٣).

(٢) «رسالة في وجوب توحيد الله ﷻ» (٥٧).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٧).

٢- العبادة والإنابة وامتنال الأمر: وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية^(١).

إن الذين يستكبرون: الاستكبار هو التعالي والتعاضم الذي يقود الإنسان إلى الامتناع عن قبول الحق والإذعان لله بالعبادة.

«فمن استكبر عن عبادة الله فلم يستسلم له فهو مُعْطَلٌ لعبادته وهو شر من المشركين، كفرعون وغيره»^(٢).

عن عبادتي: أي عن طاعتي والخضوع لي.

سيدخلون جهنم: أي فعقوبتهم دخولهم النار دخولاً أبدياً جزاءً لهم على عدم عبادتهم لله.

داخرين: الداخر: هو الذليل الصاغر، أي: أنهم حال دخولهم النار ذليلين مهانين صاغرين.

وذلك أن العبادة لله هي غاية التذلل والافتقار والمسكنة له سبحانه فلما استكبر ولم يرض بالتذلل لله في الدنيا أذله الله يوم القيامة. وجعل جزاء ذلك النار والهوان والصغار. فاجتمع عليهم عذابان:

١- حسي.

٢- معنوي.

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) «الصفدية» (٢/ ٤١٣).

وهذه الآية تضمنت نوعي الدعاء وهي في دعاء العبادة أظهر ولهذا أعقبها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ^(١).

وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بكلا النوعين ﴿أَدْعُونِي﴾ أي اعبدوني وأطيعوا أمري أستجب دعاءكم، وقيل: سلوني أعطكم. وكلا المعنيين حق ^(٢).
تطبيق القاعدة الأولى: وهي كل أمر أمر الله به أو مدحه أو أثنى على من فعله فهو عبادة.

نظرنا إلى الآية فإذا فيها الأمر بدعاء الله.

إذا: الدعاء عبادة.

تطبيق القاعدة الثانية:

ما كان صرفه لله عبادة فصرفه لغير الله شرك فنقول لما كان الدعاء لله عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.
فمن دعا غير الله فقد أشرك.

(١) «التفسير الكبير» لابن تيمية (٤/ ٢٩٧).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٣).

ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

أول هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين [آل عمران: ١٧٥].

إنما: تفيد الحصر.

ذلكم: إشارة إلى جميع ما جرى من أخبار الركب الذين طلب منهم أبو سفيان أن يبلغوا رسولنا محمداً ﷺ الرسالة.

والشيطان: هو المبتط لكم بمكره ومن مكره أنه ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي يخوف المؤمنين من أوليائه ولهذا قال الله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: يخوفكم بأوليائه يعني: يعظمهم في صدوركم لئلا تجاهدوهم وتأمرؤهم بالمعروف وتنهؤهم عن المنكر. كأن يقول: عندهم من القوة والعتاد ما ليس باستطاعتكم مقابلاته، والمقصود: «بأولياء الشيطان» هم جنده وأنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر والكفر. فلا: لا ناهية تفيد التحريم والمنع.

تخافوهم: أي لا تخافوا أنصار الشيطان وامضوا فيما أمرتكم به وأوجبته عليكم من الجهاد ونصرة الدين.

وخافون: أي أن الذي يجب أن يُخَافَ هو الذي يملك الأمور وهو الله وحده. إن: شرطية.

كان: فعل الشرط، وكنتم مؤمنين: جملة الشرط.

فإذا وجد الشرط وجد الشروط وإذا انتفى الشرط انتفى الشروط، فإذا وجد الإيمان وجد الخوف من الله وحده.

وإذا انتفى الإيمان وجدَّ الخوفُ من غير الله.

«فكلما قويَّ إيمانُ العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»^(١). قال الإمام أحمد: «لو صححت ما خفت أحدا»^(٢). وجواب الشرط محذوف تقديره: فخافوني. أي فلا تخافوهم وخافوني.

ويؤخذ من قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فائدتان:

١ - أن الإنسان إذا كان الله معه فإنه لا يغلب ولكن يحتاج إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام.

٢ - أن وساوس الشيطان التي يلقيها على ابن آدم لا يمكن صرفها إلا بالإيمان^(٣).

أقسام الخوف في هذه الآية:

١ - تخويف الشيطان للمؤمنين بأوليائه أو من أوليائه وهذا شرك (الخوف الشركي).
٢ - أمرُ الله المؤمنين أن يخافوه وحده وهذا إيمان وتوحيد (الخوف العبادي التوحيدي).

تطبيق القاعدة:

أمرُ الله بالخوف منه يدل على أن الخوف عبادة، فصرفه لغير الله شرك، فالخوف من غيره شرك أكبر.

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١١٠).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (١٩٥).

(٣) انظر: «القول المفيد» (٣/ ١٦٨).

ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ

أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الله قبل هذا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ فالنبي ﷺ بشر أكرمه الله بالوحي. وأعظم ما أكرمه به هو أن إلهه إله واحد وهو الله فمن آمن به وجب أن يوحدده ويفرده بالعبادة.

فقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: إنما تفيد الحصر فيكون معناها: ما أنا إلا بشر مثلكم فلا حق لي من العبادة، ثم بين من يستحقها، فقال: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾: إنما تفيد الحصر والقصر فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد وهو الله، فإذا ثبت ذلك فإنه لا يليق بكم أن تشركوا معه غيره في العبادة^(١) ولهذا قال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا﴾.

من: شرطية.

كان: فعل الشرط.

ويرجو لقاء ربه: جملة فعلية خبر كان أي يؤمل لقاء ربه لقاء رضا وقبول، وهو اللقاء الخاص بالمؤمنين.

فليعمل: الفاء رابطة لجواب الشرط. واللام لام الأمر، والمقصود بالعمل هو فعل الطاعات.

والأمر هنا للإشارة أي من كان يريد أن يلقي الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه فليعمل عملاً صالحاً^(٢).

صالحاً: صفة للعمل والعمل الصالح ما كان موافقاً للشرع في هيئته ونيته. أما في

(١) «القول المفيد» (٢/ ٢٢٩).

(٢) «القول المفيد» (٢/ ٢٢٩).

هيئته، فلقوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو رد»^(١).

ونيته: أي مُبتَغًى به وجهُ الله تعالى لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»^(٢)^(٣).

ولا يشرك: لا ناهية.

أي لا يعبد ربه رياءً وسمعة ولا يصرف شيئاً من حقوقه لأحد من خلقه.

عبادة ربه: خص العبادة لأنها خالص حق الله تعالى ولهذا أتى بعدها بكلمة ربّ إشارة إلى العلة فكما أن ربك خلقك ولم يشاركه أحد في خلقك فيجب أن تكون العبادة له وحده^(٤).

أحدًا: نكرة في سياق النهي فتفيد تأكيد العموم.

مفهوم المخالفة للآية: أن الذي يشرك أحدًا في عبادة ربه ولا يعمل صالحًا، أنه لا يرجو لقاء ربه، والذي لا يرجو لقاء ربه لا خير له عند الله يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴿[الكهف: ١٠٥-١٠٦] لأن من كفر بلقاء الله فإنه لا يرجو لقاءه، وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُوءُ مِنْ رَحْمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣] وغير ذلك كثير^(٥).

فدلت الآية بمنطوقها ومفهوم المخالفة أيضًا أن الراجي حقيقة لا يقع منه الشرك، ومن وقع منه الشرك فرجاؤه غير حقيقي ولا مقبول.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالعمل الذي هو علامة الرجاء الحقيقي بل لا رجاء إلا به فدلّ على أن الرجاء عبادة. ولما كان الرجاء عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) هذان الحديثان ميزانا الأعمال فالأول: ميزان الأعمال الظاهرة، والثاني: ميزان الأعمال الباطنة.

(٤) «القول المفيد» (٢/ ٢٣٠).

(٥) «أضواء البيان» (٤/ ١٩٩).

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

بعد أن ذكر قصة موسى عليه السلام مع قومه وكيف أنهم جنبوا عن الدخول إلى الأرض المقدسة بين أن أهم ما يعينهم على الدخول هو صدق الاعتماد والتوكل على الله تعالى فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الواو: استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتوصيتهم بالتوكل على الله.

على الله فتوكلوا: أي اعتمدوا على الله وفوضوا أموركم إليه وحده.

إن: شرطية. كنتم: فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فتوكلوا وهذا دليل على أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر أي لا تتوكلوا إلا على الله، لا على غيره فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]^(١).

قال ابن القيم عند هذه الآية: «فجعل التوكل شرطاً في الإيمان فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل»^(٢).

من: شرطية.

يتوكل على الله: أي يعتمد عليه ويفوض أمره إليه، ويتوكل فعل الشرط.

(١) «فتح المجيد» (٢/ ٥٨٨).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٥).

فهو حسبه: أي كافيه من كل سوء مكروه.

فجعل التوكل سبباً لكفاية الله عبده ولهذا قال الله لما أمر رسوله بالتوكل عليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

قال ابن مسعود: «إن أكبر آية في القرآن تفويضاً ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]»^(١).

قال الربيع بن خثيم: «من كل ما ضاق على الناس»^(٢).

«وفي هذه الآية دليل على أن التوكل على الله أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار؛ لأن الله علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأنه تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له»^(٣).

«حسبه: أي كافيه ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لا بُدَّ منه كالحر والبرد والجوع والعطش وأما ما يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً... قال بعض السلف: «جعل الله لكل عمل جزءاً من نفسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه، وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً من ذلك، وكفاه ونصره»^(٤).

(١) «جامع البيان» (٢٨ / ١٤٠)، والتوكل على الله لابن أبي الدنيا (٨٧) رقم (٥٠).

(٢) البخاري مع الفتح (١١ / ٣٠٥) كتاب «الرقاق»/ باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (٥٠٢).

(٤) «بدائع الفوائد» (٢ / ٢٤٠).

ومن الأمثلة على أن من توكل على الله كفاه شر عدوه: ما حدث للصحابه بعد معركة أحد حيث إن عدوهم لما قفلوا راجعين إلى مكة تشاوروا أن يرجعوا إلى المدينة ليستأصلوا شأفة المؤمنين على حد زعمهم ولكن المؤمنين توكلوا على ربهم فكفاهم كيد عدوهم وورده خاسئاً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَّلِ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ ﴿آل عمران: ١٧٣-١٧٤﴾ «عقب الله هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل، بحرف الفاء وهي تفيد السبب فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل.

وفي الأثر: «من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»^(١)^(٢).

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالتوكل عليه وحده فدل على أن التوكل عبادة يجب صرفها لله سبحانه وحده.

ولما كان التوكل عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

(١) «جامع الرسائل والمسائل» لشيخ الإسلام (١/ ٩٠).

(٢) وقد رفعه ابن أبي الدنيا بسند ضعيف في كتابه «التوكل على الله» (٦٠) رقم (٦٠).

**ودليل الرغبة والرغبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي
الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].**

إنَّ: للتوكيد.

هم: يعود على جميع الأنبياء المذكورين في السورة على القول الراجح.

يسارعون في الخيرات: الخيرات كل طاعة، مدحهم الله في مسارعتهم في فعل الطاعات لدلالته على حرصهم العظيم على ما يقربهم من ربهم، قال القاسمي: «إيثار» في «على» إلى «للإشارة إلى ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير»^(١).

ويدعوننا رغبا ورهبا: رغبا في رحمة الله ورهبا من عذابه فجمعوا بين الخوف والرجاء وهذه هي حال عباد الله الصالحين، قال عبدالله بن حكيم: خطبنا أبو بكر رحمته الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تشنوا عليه بما هو له أهل وأن تخلطوا الرغبة بالرغبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾»^(٢).

وقال ابن زيد: «خوفاً وطمعاً ليس ينبغي لأحدهما أن يفارق الآخر»^(٣).

وكانوا لنا خاشعين: محبتين متواضعين أذلاء وذلك لكمال معرفتهم بربهم.

(١) «تفسير القاسمي» (١١/ ٤٣٠٥).

(٢) «المصنّف» لابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٨).

(٣) «جامع البيان» (١٠/ ٨٤).

فضموا إلى المسارعة بفعل الطاعات أمرين:

- ١ - الفزع إلى الله وذلك بالرغبة في الثواب والرغبة من العقاب.
 - ٢ - المخافة الثابتة في القلب. فالخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الإثم.
- تطبيق القاعدة:

أثنى الله على الراغبين الراهبين الخاشعين ومدحهم فدل ذلك على أن الرغبة والرغبة والخشوع عبادة يجب إخلاصها كلها لله.

ولما كانت الرغبة والرغبة والخشوع عبادات صار صرف كل واحدة منها لغير الله شركاً.

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

أما الخشية فإن الله لما ذكر الله المحرمات التي كان يفعلها الكفار نهى عنها فقال: ﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ أي خروج عن أمر الله وطاعته إلى ما نهى عنه وزجر من معاصيه وفي الغالب يكون خروج الإنسان من الطاعة إلى المعصية ومن التوحيد إلى الشرك بسبب خوفه من الناس وخشيته منهم. لأجل ذلك بيّن الله ضعف الكافرين فقال: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ولما أخرج هيبته من قلوب المؤمنين نهى عن خشيتهم، وأوجب خشيته وحده، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فاء التفریع والسبب، أي: بسبب ضعفهم لا تخشوهم.

لا: ناهية تفيد التحريم والمنع من خشية غير الله، لأنه لا يملك النفع والضر إلا الله كما في حديث ابن عباس: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(١).

﴿وَاخْشَوْنِ﴾: أي أفردوا الله بالخشية كي تسعدوا في الدنيا والآخرة فإنه هو المستحق لها وحده كما قال: ﴿قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] والأمر للوجوب بل هو أعظم الواجبات لأنه أمر بتوحيده وإفراده سبحانه بالخشية، ونهى عن خشية الناس.

وأمر سبحانه بإفراده وحده بالخشية لأمرين:

١ - أن غيره لا يملكون القوة فليس لخشيتهم مسوِّغ ولا فائدة بل هي مضرّة.

٢ - لأن خشية الناس شرك، وخشية الله عبادة فلا يجتمعان في قلب عبد أبداً.

(١) سبق تخریجه.

وخشية الله رأس كل خير فهي أساس العلم ورأسه قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:
«كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار به جهلاً»^(١) وقال أيضاً: «رأس الحكمة مخافة
الله»^(٢).

تطبيق القاعدة:

أمر الله بخشيته وحده فدلّ على أن الخشية عبادة يجب صرفها لله وحده.
ولما كانت الخشية عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٢٩١ / ١٣)، و«الزهد» لابن المبارك (١٥)، و«الزهد» لأبي داود (١٨٧).

(٢) «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (٧٧ / ١).

ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

وبعد أن ذكر الله المشركين والعصاة من بني آدم - بين أن لهم موعداً سيندمون فيه ويتحسرون على ذنوبهم وتفريطهم حتى تصل بهم الرغبة بالخلاص من هوله وشدته أن لو افتدوا بها في الأرض جميعاً ومثله معه ولكن هيهات، لا يمكنهم ذلك، ثم فتح لهم باباً يسلمون إن هم ولجوه في هذه الدنيا وهو باب الرجاء المستلزم للتوبة والعمل الصالح، فقال: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] ثم بيّن لهم أعظم أسباب المغفرة وهي الإنابة إليه والإسلام له، فليسارعوا إليها قبل حلول العذاب.

فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: الإنابة: هي الرجوع إلى الله بمعرفته والإقبال عليه والإعراض عما سواه أي: ارجعوا إلى ربكم وأعرضوا عن غيره.

﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾: الإسلام: هو الخضوع والطاعة. وقيل: أخلصوا له العمل، قال البغوي: أخلصوا له التوحيد.

فيكون المراد بالإسلام هنا الإسلام الشرعيّ لأمر الله، فهو استسلام لله بالتوحيد وانقياد له بالطاعة وبراءة من الشرك وأهله.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالإنابة إليه وحده فدلّ على أن الإنابة عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الإنابة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وفي الحديث: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١).

.....

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي إياك نوحّد ونخاف ونرجو، فحصر العبادة لله تعالى، سواء كانت العبادة قلبية أو بدنية وذلك أنه قدم ما حقه التأخير وهو المعبود ليفيد الاختصاص والحصّر فهو بمثابة قول القائل: لا نعبد إلا إياك.

وإياك نستعين: أي لا نستعين في أمورنا وعبادتنا إلا بك فقدم ما حقه التأخير وهو المستعان به ليفيد الاختصاص والحصّر، فهو بمثابة قول القائل: لا نطلب العون إلا منك وحدك، «وإتيانه بقوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة لأن غيره ليس بيده الأمر»^(٢).

قال بعض السلف: «الفاتحة سرّ القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة»^(٣).

وينبغي أن يعلم أن القلب فيه فقر ذاتي إلى ربه ومعبوده فلا تحصل له الراحة واللذة والطمأنينة إلا بعبادة ربه ولا يستطيع أن يعبد ربه إلا بإعانتة له فهو مفتقر دائماً إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولهذا كان النبي ﷺ يربي صحابته على الاستعانة بالله وحده كما في حديث ابن عباس: «وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «أضواء البيان» (١/ ٤٢).

(٣) «تفسير القاسمي» (٢/ ١٢).

(٤) سبق تخريجه.

وقدم العبادة على الاستعانة في الآية لأمر:

- ١ - أن العبادة غاية والاستعانة وسيلة فالغاية مقدمة على الوسيلة^(١).
 - ٢ - إياك نعبد متعلق بألوهيته واسمه الله، وإياك نستعين متعلق بربوبيته واسمه الرب، فقدم إياك نعبد كما قدم اسم الله على الرب في أول السورة.
 - ٣ - العبادة المطلقة تتضمن «الاستعانة» من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس.
 - ٤ - العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من مخلص وغير مخلص.
 - ٥ - العبادة: حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة.
 - ٦ - العبادة شكر نعمته عليك والله يجب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، وكلما كان العبد أتم عبودية لله كانت الإعانة من الله له أعظم.
 - ٧ - «(إياك نعبد) له (وإياك نستعين) به، وما «له» مقدم على ما «به»؛ لأن ما «له» متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته»^(٢).
- فائدة تكرار إياك: الدلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه^(٣).
- أما قوله: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»: أي إذا أردت الاستعانة في الطاعة وغيرها من أمور الدنيا والآخرة^(٤)، فاستعن بالله وحده.

(١) «النبوات» (١/٣٧٧)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٨٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٧٦-٧٧).

(٣) المرجع السابق (١/٧٨).

(٤) «تحفة الأخوذى» (٧/٢٢٠).

فعليك أن تحصر الاستعانة بالله فتفرده بها فلا تستعين بغيره.

تطبيق القاعدة:

أمر النبي ﷺ بالاستعانة بالله وحده فدلّ على أنّ الاستعانة عبادةً يجب صرفها لله وحده. ولما كانت الاستعانة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

قل: يا محمد.

أعوذ برب: أي ألوذ به وألتجئ وأعتصم بالرب، وهو الله جل وعلا وأستجير به.
الفلق: كل ما فلقه الرب فهو فلق، قال الزجاج: الفلق: بَيَانُ الصُّبْحِ، ثم ذكر قولاً آخر فقال: والفلق الخلق. وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق؛ كانفلاق الأرض بالنبات والسحاب بالمطر، فالفلق جميع المخلوقات وفلق الصبح من ذلك^(١). ومنه قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْخَيْبِ وَالتَّوَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فالمعنى أن القادر على إخراج النبات من الأرض وإنزال المطر من السحاب والقادر على إزالة الظلمة وإحلال النور محلها قادر على أن يدفع عن المستعيز كل ما يخافه من شرور الإنس والجن. فاستعذ به وحده.

قل أعوذ: أي قل يا محمد أعوذ.

رب الناس: الذي يربهم بقدرته ومشيتته وتدبيره.

وخص الناس بالذكر لأنهم هم المستعيزون بربهم الذي يصونهم من شر كل ذي شر. ففي الآيتين:

١ - مستعاذ به: وهو رب الفلق والناس.

٢ - مستعيز: وهو النبي ﷺ وأتباعه من المؤمنين.

٣- مستعاذ منه: وهو شر كل ذي شر ومنه الوسواس والغاسق إذا وقب والنفاثات والحاسد.

تطبيق القاعدة:

أمر الله بالاستعاذة به وحده فدلّ على أن الاستعاذة عبادةٌ يجب صرفها لله وحده. ولما كانت الاستعاذة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

خرج النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يريدون عير قريش فأراد الله غير ذلك، فنَجَّا العير منهم، ولكن قريشاً خرجت بخيلائها وفخرها وجيوشها تحارب المسلمين، وليس مع المسلمين من العدة والعتاد ما يكفي للقاء العدو فوقعوا في شدة عظيمة حتى إن النبي ﷺ خشي أن تموت هذه العصابة فلا يعبد الله أبداً.

فاستغاث بربه فاستجاب الله دعاءه ونصره ومن معه من المسلمين.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً. فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ثم مَدَّ يديه فجعل يهتف بربه «اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آت ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر. فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فأمسده الله بالملائكة^(١).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: أي تطلبون الغوث^(٢) من ربكم، وتستجيرون به من عدوكم.

(١) مسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٤)، كتاب «الجهاد»/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم. رقم (١٧٦٣).

(٢) وهو التخلص من الشدة.

«إذ: متعلق بفعل محذوف تقديره واذكروا إذ تستغيثون»^(١).

والمغيث بمعنى المجيب لكن الإغاثة أخص بالأفعال والإجابة أخص بالأقوال وقد يقع كل منهما موقع الآخر^(٢).

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾: أي فأجاب دعاءكم وأمدكم بالملائكة ونصركم على عدوكم فهو المغيث في الكرب والشدائد فاستغيثوا به وحده.

تطبيق القاعدة:

أثنى الله على المستغيثين به وحده مؤكداً هذا الشناء باستجابته لاستغاثتهم به وهذا دليل رضاه عنهم إذ حصروا الاستغاثة به وحده فدل على أن الاستغاثة عبادة يجب صرفها لله وحده.

ولما كانت الاستغاثة عبادة صار صرفها لغير الله شركاً.

(١) «المحرر الوجيز» (٢/ ٥٠٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٥)، و«الرد على البكري» (٢١٤).

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].
ومن السنة: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ»^(١).

.....

﴿قُلْ﴾: أي يا محمد قل للمشركين رافعاً صوتك مبيناً لهم قيامك بالتوحيد الخالص وأنت مخالف لما هم عليه من الشرك.

﴿صَلَاتِي﴾: جميع الصلوات التي أؤديها.

﴿وَنُسُكِي﴾: أي ذبحي^(٢) لله تعالى، فالنُسك هو الذبيحة ابتغاء وجهه، لذلك جعله الله تقوى فقال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وذلك أن «الذبح للمعبود غاية الذل والخضوع له»^(٣).

وسميت الذبيحة نسكاً لدخولها تحت التعبد ولهذا لا يسمون ما يذبح للأكل نسكاً. والذبح لله وحده هو الموافق للفطرة ولذلك لما استقامت فطرة زيد بن عمرو بن نفيل استنكر على قريش الذبح لغير الله فعن عبدالله بن عمر، قال: «إن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول: الشاة خلقها

(١) مسلم (٣/ ١٥٦٧)، كتاب «الأضاحي»/ باب تحريم الذبح لغير الله تعالى، ولعن فاعله. رقم (١٩٧٨).

(٢) وهذا هو الذي رجحه جمع من السلف، انظر «جامع البيان» (٥/ ١١٢). وتفسير ابن كثير (٥١٧).

ورأى بعض أهل العلم أن معنى النسك أي العبادة بعمومها.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٨٤).

الله وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله إنكاراً لذلك وإعظاماً له»^(١).

الحكمة من ذكر هاتين العبادتين والجمع بينهما:

أن الصلاة والنسك هما أجل ما يتقرب به العبد إلى الله، فأجل العبادات البدنية الصلاة وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها من سائر العبادات كما عرفه أصحاب القلوب الحية وأصحاب الهمم العالية فهي دالة على القرب والتواضع والافتقار وطمأنينة القلب إلى الله.

وأجل العبادات المالية النحر وما يجتمع للعبد في نحره من إيثار الله وحسن الظن به وقوة اليقين والثوق بما في يد الله أمر عجيب. إذا قارن ذلك الإيمان والإخلاص^(٢).

﴿وَحَيَايَ﴾: أي وما آتاه في حياتي من عمل صالح^(٣).

﴿وَمَمَاتِي﴾: أي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح وما يكون بعد الموت كالوصية والتدبير^(٤).

فعلى هذا التفسير يكون متعلقهما توحيد الألوهية كالصلاة والنسك.

وقيل: هو يحيني ويميتني^(٥)، فعلى هذا التفسير يكون متعلقهما توحيد الربوبية.

(١) البخاري مع الفتح (٧/ ١٤٢)، كتاب «مناقب الأنصار» / باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل. رقم (٣٨٢٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٣١-٥٣٢).

(٣) «معالم التنزيل» (٢/ ١٤٦)، و«محاسن التأويل» (٦/ ٢٥٩٢).

(٤) المرجع السابق. وانظر: «حاشية ابن قاسم» على كتاب «التوحيد» (٩٦).

(٥) المرجع السابق. وقد ذكر هذين القولين عامة المفسرين.

والقول الأول أرجح لما يلي:

١ - الآية التي قبلها. فإن الله أمره أن يصدع بالأصل الذي هو عليه، وهو التوحيد، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

٢ - أن هذه الآية تابعة لما قبلها فَمَثَلٌ فيها بأعلى العبادات البدنية والمالية ثم عطف عليها جميع ما يفعله في حياته من طاعة لله وما يموت عليه من ذكره للشهادة عند الموت.

٣ - قوله في الآية التي بعدها: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي أني أمرت بإخلاص العبادة لله - سواء كانت صلاة أو نسكاً أو غيرها - ولو كنتم تخالفوني وتشركون مع الله غيره في العبادة.

أما توحيد الربوبية فلم ينازعوا رسول الله ﷺ فيه. فلم يَحْتَجْ أن يقول لهم أمرت أن أقر بأن الله هو المتصرف في حياتي ومماتي. والله أعلم.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي خالصة لله الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له فهو رب العالمين ومدبر أمورهم فلا يستحق العبادة غيره.

قال الطبري: «أي أن ذلك كله له خالصاً دون ما أشركتم به أيها المشركون من الأوثان»^(١).

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾: أي لا أصرف لأحد منها شيئاً مهما عظمت مرتبته وعلا شأنه.

ودلت هذه الآية على وجوب التوحيد وإفراده الله بالعبادة من وجوه:

(١) تأكيدها «بإِنَّ» ومجيء التأكيد في الجمل الخبرية يفيد أن المخاطب مُنْكَرٌ لذلك أو مُنْزَلٌ منزلة من أنكره فيكون الاستدلال بها على التوحيد لكونه خوطب بها من ينكر أن

(١) «جامع البيان» (٥/ ١٢٥).

تكون الصلاة والذبح لله استحقاقاً وهم المشركون فدل على أنها في التوحيد وأن الذبح يجب أن يكون لله.

(٢) أن هذه الألفاظ الأربع «صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي» تدل على التوحيد وذلك لأن اللام في قوله «الله رب العالمين» متعلقة بمحذوف خبر إن فتفيد الاستحقاق.

(٣) قوله: «لا شريك له» فالعبادة كلها له والملك كله له سبحانه.

﴿وَبِذَلِكَ﴾: الجار والمجرور متعلق بأمرت فيكون دالاً على الحصر والتخصيص وإنما خص بذلك لأنه أعظم المأمورات «أي الإخلاص لله ونفي الشرك»^(١).

﴿أَمَرْتُ﴾: الأمر هو الله تعالى وأبهم الأمر للتعظيم والتفخيم^(٢). وفيه فائدة: وهي أن أمر النبي ﷺ بالتوحيد أمر لأمة.

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾: أي أسبقهم انقياداً لأمر الله تعالى وذلك لكمال علمه بالله والمسلمون هنا هم مسلمو أمة محمد ﷺ فأولهم هو رسول الله ﷺ.

الأولية تطلق ويراد بها:

(١) الأولوية الزمنية: فهو أول هذه الأمة إسلاماً لأنه نبيها.

(٢) أولوية معنوية: وذلك أنه أكمل الخلق أجمعين إسلاماً وطاعة وتعبداً فتكون أولوية مطلقة.

(٣) أنه أول الخلائق يوم القيامة لقوله ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة»^(٣)، وقوله ﷺ عن خازن الجنة أنه يقول له يوم القيامة: «أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»، ولا

(١) «القول المفيد» (١/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) مسلم (٢/ ٥٨٥)، كتاب «الجمعة» / باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة. رقم (٨٥٥).

منافاة بينها فهي له كلها ﷺ.

لعن الله: أي لعنه وطرده وأبعده عن رحمته. ولعن: هنا خبر من النبي ﷺ «أن كل من ذبح لغير الله فهو ملعون ومطروود من رحمة الله. وذلك لأن الخبر أبلغ لأنه يفيد وقوع اللعن بخلاف الدعاء فقد يستجاب وقد لا يستجاب»^(١).

من ذبح لغير الله: من: تفيد العموم أي كل ذابح لغير الله أي ذبيحة كانت فهو ملعون مطروود من رحمة الله.

لغير الله: أي كل ما سوى الله حتى لو كان المذبح له ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا. وذلك أن الذبح عبادة والعبادة خالص حق الله تعالى فلا يجوز صرفها لغيره، فهذا التصرف هو أظلم الظلم وأشنع.

تطبيق القاعدة:

أمر الله نبيه ﷺ أن يكون ذبحه لله وحده فدلّ على أن الذبح عبادة يجب صرفها لله وحده، ولما كان الذبح عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

(١) «القول المفيد» (١/ ٢٢٣).

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾: خبر وثناء^(١). ويدل لذلك ما قبلها من الآيات ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۖ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٥-٧].

قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾: استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم. كأنه قيل: ماذا يفعلون حتى ينالوا تلك الرتبة العالية؟ فقيل يوفون بما أوجبه على أنفسهم. فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟^(٢).

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ أي يخافون من يوم القيامة وما فيه من الأهوال، ولذلك علل سبب خوفهم فقال: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾: أي فاشياً منتشراً في السموات والأرض من انشقاق السموات وتناثر الكواكب، وفزع الملائكة، وتكوير الشمس والقمر، ونسف الجبال، وتسجير البحار، وغيرها، فخافوا أن ينالهم شره فتركوا كل سبب موجب لذلك. وكانوا مخلصين لله في وفائهم بالنذر وإطعامهم الطعام فلذلك قبل الله منهم ووقاهم شر ذلك اليوم ولقاهم نضرةً وسروراً.

تطبيق القاعدة:

أثنى الله على الموفين بالنذر فدلّ على أن النذر عبادة يجب صرفها لله وحده. ولما كان النذر عبادة صار صرفه لغير الله شركاً.

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥ / ٣٤٤).

(٢) «تفسير القاسمي» (١٧ / ٦٠١١).